www.kassioun.org

بليخانوف

في تطور النظرة الواحدية الى التاريخ

www.kassioun.org

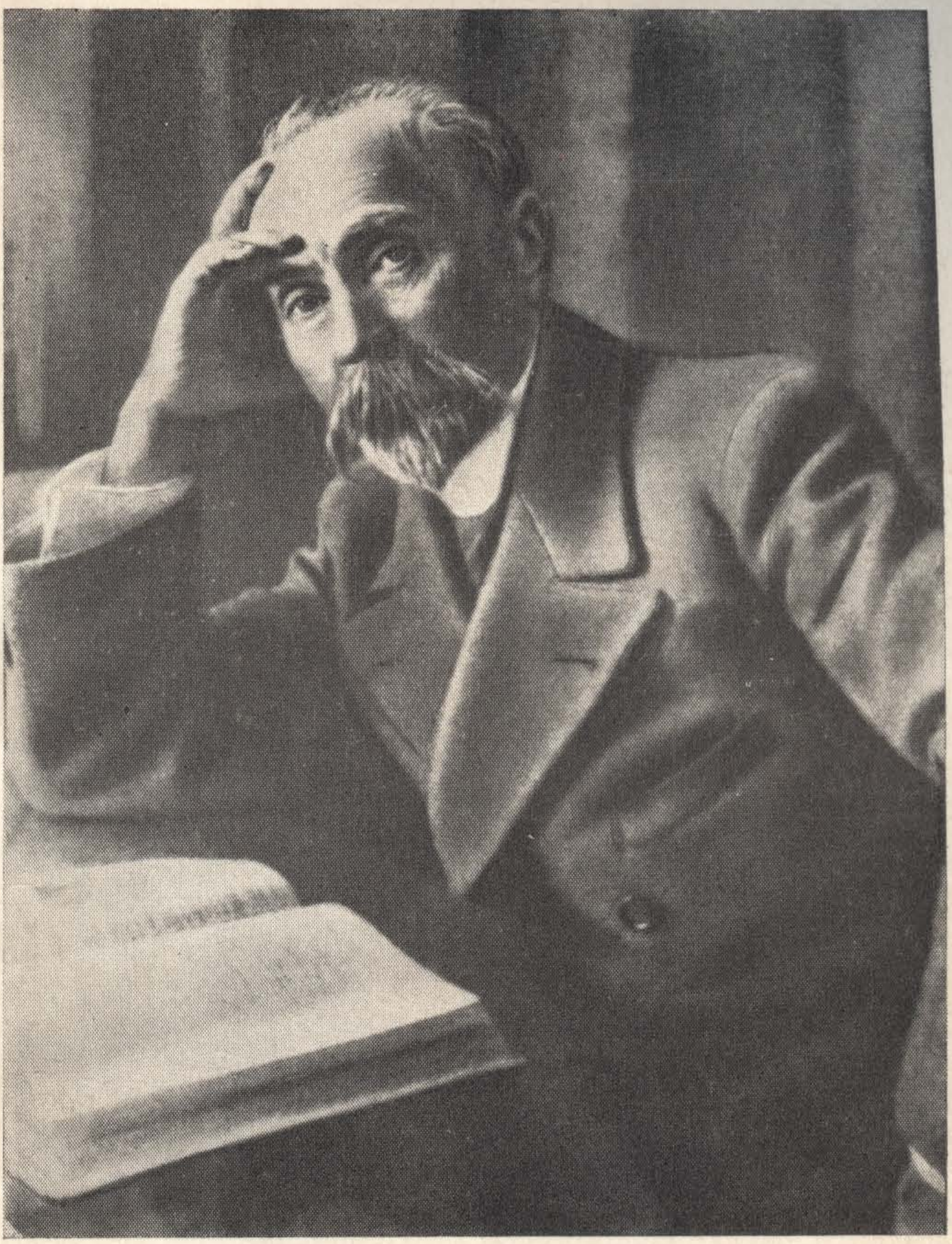

F. Tuesaron.

www.kassioun.org

يا عمال العالم ، اتحدوا !

بليخانوف

(بيلتوف)

فى تطور النظرة الواحدية الى التاريخ

دار التقدم
موسكو

www.kassioun.org

Г. Плеханов

К ВОПРОСУ О РАЗВИТИИ МОНИСТИЧЕСКОГО ВЗГЛЯДА НА ИСТОРИЮ

На арабском языке

© الترجمة الى اللغة العربية ، دار التقدم ، ١٩٨١
طبع فى الاتحاد السوفييتى

П $\frac{10104-388}{014\,(01)-82}$ без объявл. 0101040000

www.kassioun.org

كلمة الدار

ينتمى جيورجى فالينتينوفيتش بليخانوف (١٨٥٦-١٩١٨) الى الرعيل الاول من الماركسيين الروس ، اولئك الذين ارسوا اساسا لنشر تعاليم كارل ماركس الثورية فى روسيا . ان النشاط الادبى الذى مارسه بليخانوف باعتباره احد المفكرين المنورين الثوريين متعدد الجوانب للغاية . فهو يضم مؤلفات فى نظرية الماركسية وتاريخها وفى الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسى وتاريخ الفكر الاجتماعى-الروسى والعالمى والنقد الادبى وعلم الجمال وهلمجرا . وان اهمية نشاط بليخانوف الثورى تتجاوز الى حد بعيد اطار الحركة الاجتماعية الروسية . ففى ثمانينات وتسعينات القرن الماضى احرز بليخانوف شهرة واسعة ومكانة بارزة بين اشتراكيى اوربا الغربية واميركا باعتباره نظريا بارزا للماركسية وشخصية كبيرة فى الحركة العمالية .

وفى عام ١٨٨٣ اسس بليخانوف فى جنيف مع غيره من المهاجرين من روسيا اول منظمة للماركسيين الروس هى جماعة «تحرير العمل» . ونجحت هذه الجماعة فى اداء المهمة التى وضعتها نصب عينيها ، مهمة دحض الآراء المثالية الخاطئة المنتشرة آنذاك بين المثقفين الروس الذين ساهموا فيما سمى بالحركة الشعبية او كانوا متأثرين بها .

وفى سنوات الكفاح ضد «الشعبية» (١٨٨٣-١٩٠٣) وضع بليخانوف افضل مؤلفاته الفلسفية والسوسيولوجية ، حيث عمل باروع شكل على ترويج الماركسية . ولم يكتف بليخانوف بتسليط

www.kassioun.org

النقد على الآراء الفلسفية والسوسيولوجية للشعبيين الروس ، فقد لعبت مؤلفاته ، فضلا عن ذلك ، دورا كبيرا فى مكافحة النزعتين الفوضوية والسنديكالية الفوضوية فى اوربا الغربية . وكان بليخانوف فى اواخر التسعينات اول من رفع صوته ضد تحريف الماركسية على يد ادوارد بيرنشتين وكونراد شميدت وضد محاولاتهما لاستبدال نظرية ماركس وانجلس الثورية بالنزعة الاصلاحية .

الا ان بليخانوف تحول بعد عام ١٩٠٣ الى مواقع المنشفية التى هى تيار انتهازى فى الاشتراكية-الديمقراطية الروسية ، وارتكب اخطاء غير قليلة فى تقييم الاحداث التى عاصرها ، ولذا تعرض لانتقاد شديد من جانب فلاديمير لينين . اما تراث بليخانوف الفلسفى فاليكم ما كتبه عنه لينين فى عام ١٩٢١ :

«. . . يبدو لى ان من المناسب تنبيه اعضاء الحزب الشباب الى انه لا يمكن للمرء ان يصبح شيوعيا حقيقيا واعيا بدون ان يدرس – وان يدرس بالذات – كل ما كتبه بليخانوف فى الفلسفة ، فذلك هو افضل ما تحويه كل الادبيات العالمية للماركسية» .

ان الكتاب الذى نضعه بين يدى القراء «فى تطور النظرة الواحدية الى التاريخ» قد صدر لاول مرة علنا فى بطرسبورج عام ١٨٩٥ باسم مستعار هو ن . بيلتوف . وكان الدافع المباشر لتأليف الكتاب هو المقالات التى نشرتها مجلة «روسكويه بوجاتستفو» ضد الماركسيين الروس بقلم احد محررى المجلة ، وهو نظرى الحركة الشعبية اللبرالية ميخايلوفسكى . واخذ بليخانوف الرقابة بعين الاعتبار فوضع لكتابه عنوانا «اخرق عمدا» على حد تعبيره . فان مصطلح «الواحدية» الذى استخدمه وكأنه لمعارضة النظرة «الثنائية» للتاريخ لا يشير مباشرة الى الحل المادى للقضايا الفلسفية . فالدعاية للمادية الفلسفية كانت محظورة فى روسيا القيصرية .

ان كتاب «فى تطور النظرة الواحدية الى التاريخ» من افضل مؤلفات بليخانوف ، وهو موضوع بصيغة الجدل والنقاش وبلهجة سلسلة ممتعة . ورغم ان الكتاب ليس كبيرا جدا ، الا انه يقدم عرضا وافيا لفلسفة الماركسية بخطوطها الاساسية .

www.kassioun.org

مقدمة الطبعتين الثانية والثالثة

لم اصحح هنا الا **الهنات والاخطاء** المطبعية التى وقعت فى الطبعة الاولى ، اذ لست ارى من حقى ان احدث اية تغييرات فى **حججى** ، لسبب بسيط وهو ان كتابى هذا قد وضع فى **مجادلة** . واجـــراء التغييرات فى جوهر مؤلف من هذا النوع يشبه الظهور امام الخصم بسلاح جديد واجباره فى نفس الوقت على المحاربة بسلاح قديم . وهذا امر غير جائز عموما ، وهو غير جائز بشكل خاص فى حالتنا هذه لان خصمى الرئيسى ن . ك . ميخايلوفسكى لم يعد على قيـد الحياة (١) .

وقد اكد ناقدو افكارنا انها اولا خاطئة فى حد ذاتها ، وانها ثانيا خاطئة بشكل خاص حين تطبق على روسيا التى قيض لها ، حسب زعمهم ، ان تتبع طريقها الاصيل فى الميدان الاقتصادى وانها ثالثا سيئة لانها تميل بمعتنقيها الى السلبية و«التصوف» (٢) . ومن غير المحتمل ان يكرر احد هذا اللوم الاخير فى ايامنا هذه . كما ان كل تطور الحياة الاقتصادية الروسية فى العقد الاخير قد دحض اللوم الثانى . اما اللوم الاول فيكفى ان يتعرف المرء على المؤلفـــات **الاثنولوجية** الحديثة فقط لكى يقتنع بصحة **تفسيرنا للتاريخ** . فكل مؤلّف جدى عن «الحضارة البدائية» مضطر الى اللجوء اليه حيثما كانت المسألة المثارة هى العلاقة السببية بين مظاهر الحياة الاجتماعية والروحية للشعوب «المتوحشة» . فلنراجع مثلا المؤلف الكلاسيكى

www.kassioun.org

«Unter den Naturvölkern Zentral-Braziliens» * بقلم فون دين شتاينين . لكننى لا استطيع بالطبع ان اتعرض لهذا الموضـوع هنا .

وقد اجبت على بعض نقادى فى مقال ملحق بهذه الطبعة ، «بضع كلمات لخصومنا» ، نشرته باسم مستعار ولذلك فانا اشير فيه الى كتابى كأنه من عمل شخص آخر اشاطره الرأى (٣) . لكن هـذه المقالة لا تذكر شيئا فى معارضة السيد كودرين الذى هـب فى مواجهتى فى مجلة «روسكويه بوجاتستفو» (٤) بعد نشرها . واقول هنا باختصار فيما يتعلق بالسيد كودرين .

قد تبدو اكثر حججه جدية ضد المادية التاريخية انه يلاحظ ان دينا واحدا – كالبوذية مثلا – قد تعتنقه فى بعض الاحيـان شعوب على مستويات مختلفة جدا من التطور الاقتصادى . لكن هذه الحجة لا تبدو قوية الا عند الوهلة الاولى . فقد اوضحت الملاحظة ان «دينا بعينه» **يغير محتواه بشكل جوهرى** طبقا لمستوى التطور الاقتصادى للشعوب التى تعتنقه .

واحب ان اجيب على السيد كودرين فى نقطة اخرى . لقد وجد فى كتابى خطأ فى ترجمة نص يونانى عن بلوتارك (انظر ملاحظات ، ص ١٣٨–١٤٠) ، ويبدى عدة ملاحظات بالغة السخرية حول ذلك . والواقع انى «لست مذنبا» . فقد كنت فى رحلة عندما نشر الكتاب ، وارسلت المخطوط الى سان بطرسبورج دون ان اود الاقتباس عن بلوتارك ، وانما اشرت فقط الى **الفقرات** التى يجب ان يؤخذ منها . وقام احد المرتبطين بنشر الكتاب – **وهو ، ما لم اكن مخطئا ، متخرج مـن نفس المدرسة الكلاسيكية** التى تخرج منها السيد العالم كودرين – بترجمة الفقرات التى اشرت اليها ، و . . . ارتكب الخطأ الذى اشار اليه السيد كودرين . وهذا بالطبع شىء يؤسف له . لكن يجب ان اقول انه كان الخطأ الوحيد الذى استطاع خصومنا ان يدينونا به . ولا بد ان يجدوا هم ايضا بعض الرضا المعنوى . وهكـذا «فمن الناحية الانسانية» انا سعيد بهذا الخطأ .

ن . بيلتوف

---

* [« بين الشعوب البدائية لاواسط البرازيل »] .

www.kassioun.org

الفصل الاول

المادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر

يقول السيد ميخايلوفسكى : «لو قابلت فى ايامنا هذه شابا . . . يخبرك – ولو فى عجلة غير لازمة – انه «مادى» ، فان هذا لا يعنى انه كان ماديا بالمعنى الفلسفى العام الذى منحنا فى الماضى معجبين ببوخنر ومولیشوت . فكثيرا ما لا يكون من يخاطبك مهتما على الاطلاق بالجانب الميتافيزيقى او الجانب العلمى للمادية ، بل وقد لا تكون لديه سوى فكرة غامضة عنهما . فما يريد ان يقوله هو انه من اتباع نظرية المادية الاقتصادية ، ولكن بمعنى خاص ومشروط . . .» * .

ونحن لا نعرف اى نوع من الشبان قابله السيد ميخايلوفسكى ، لكن كلماته قد تدفع الى الاعتقاد بان تعاليم ممثلى «المادية الاقتصادية» ليست لها علاقة بالمادية «بالمعنى الفلسفى العام» . فهل هذا صحيح ؟ هل «المادية الاقتصادية» حقا ضيقة وفقيرة فى محتواها كما تبدو للسيد ميخايلوفسكى ؟

ان نبذة موجزة عن تاريخ هذا المذهب تصلح كاجابة على ذلك .

ما هى «المادية بالمعنى الفلسفى العام» ؟

المادية هى النقيض المباشر **للمثالية** ، وتسعى المثالية الى تفسير كل ظواهر الطبيعة ، كل خواص المادة بهذه الخاصية او تلك

---

* «روسكويه بوجاتستفو» ، كانون الثانى (يناير) ١٨٩٤ ، القسم الثانى ، ص ٩٨ .

www.kassioun.org

من خواص **الروح** . وتفعل المادية بالطريقة المضادة تماما . انهـــا تحاول ان تفسر الظواهر النفسية بهذه الخاصية او تلك من خواص **المادة** ، بهذا التنظيم او ذاك **للجسم** الانسانى ، او للجسم الحيوانى عامة . وكل الفلاسفة الذين يرون ان **المادة** هى العامل الاول ينتمون الى معسكر **الماديين** ، اما من يعتبرون العامل الاول هو **الروح** فهم **مثاليون** . هذا كل ما يمكن ان يقال عن المادية عموما ، عن «المادية بالمعنى الفلسفى العام» ، لان الزمن يقيم على مبدئها الاساسى ابنية فوقية شديدة التباين ، تعطى لمادية عصر ما مظهرا يختلف تماما عن مادية عصر آخر .

وتستقطب المادية والمثالية اهم اتجاهات الفكر الفلسفـــى . صحيح انه قد وجدت الى جانبهما دائما تقريبا مذاهب **ثنائية** من نوع او آخر ، مذاهب تعترف **بالروح وبالمادة كجوهرين** منفصلين ومستقلين . الا ان **الثنائية** لم تكن قادرة ابدا على ان تجيب اجابة كافية عن السؤال الذى لا مفر منه : كيف يستطيع هذان الجوهران المنفصلان اللذان لا يشتركان فى شىء ان يؤثرا على بعضهما البعض ؟ ولهذا مال اكثر المفكرين اتساقا وعمقا دائما الى **الواحدية** (monism) اى الى تفسير الظواهر بالاستناد الى **مبدأ اساسى واحد ما** (فكلمـة monos تعنى باليونانية «واحدى») . فكل **مثالى** متسق واحدى شأنه شأن كل **مادى** متسق . **فمن هذه** الوجهة ليس ثمة فارق بين بركلى وهولباخ ، على سبيل المثال . لقد كان احدهما **مثاليا** متسقا ، والثانى **ماديا** لا يقل عنه اتساقا ، لكنهما كانا **واحديين** على السواء ، فكل منهما ادرك بنفس الدرجة تفاهة **النظرة الثنائية الى العالم** التى ربما ما زالت حتى يومنا هذا اوسع انتشارا .

وفى النصف الاول من قرننا سيطرت الواحديـــة **المثالية** على الفلسفة وفى النصف الثانى انتصرت فى **العلم** – وكانـــت **الفلسفة** فى ذلك الحين تمتزج به تماما – الواحدية **المادية** ، وان لم تكن دائما واحدية متسقة وصريحة .

ولا نحتاج الى ان نعرض هنا كل تاريخ المادية ، فيكفى لغرضنا ان ندرس تطورها مبتدئين بالنصف الثانى من القرن الماضى ، وحتى هنا سيكون من المهم لنا ان ننظر اساسا الى واحد من اتجاهاتها – هو فى الحقيقة اهمها – وهو مادية هولباخ وهلفيسيوس وانصارهما .

www.kassioun.org

شن ماديو هذا الاتجاه جدالا حادا ضد المفكرين الرسميين فى عصرهم الذين زعموا ، مستندين الى ديكارت الذى لم يفهموه جيدا ، على ما يبدو ، ان لدى الانسان **افكارا فطرية معينة** ، اى افكارا تظهر مستقلة عن الخبرة . وحين جادل الماديون الفرنسيون وجهة النظر هذه فقد كانوا فى الواقع انما يعرضون فقط تعاليم لوك الذى كان قد اثبت منذ نهاية القرن السابع عشر انه **ليس ثمة مبادىء فطرية** (no innate principles) . لكنهم اذ عرضوا تعاليمه اعطوها شكلا اكثر اتساقا ، واضعين النقط على الحروف التى لم يرد لوك ان يتعرض لها باعتباره ليبراليا انجليزيا مهذبا . ان الماديين الفرنسيين كانوا حسيين فى غير ما وجل او خوف ، ومتسقين حتى النهاية ، اى انهم قد اعتبروا كل الوظائف النفسية للانسان **احساسات محولة** . ومن العبث ان ندرس هنا الى اى حد كانت حججهم فى هذه القضية الخاصة او تلك كافية من وجهة نظر العلم فى يومنا . فمن الجلى ان الماديين الفرنسيين لم يكونوا يعرفون الكثير مما يعرفه اليوم كل تلميذ : ويكفى ان نذكر آراء هولباخ عن الكيمياء والفيزياء ، رغم انه كان على معرفة وثيقة بالعلم الطبيعى فى عصره . ولكن الخدمة التى لا نزاع فيها ولا بديل لها ، والتى اداها الماديون الفرنسيون تكمن فى انهم قد فكروا بشكل متسق من وجهة نظر **العلم فى عصرهم** – وهذا هو كل ما يمكن للمرء وما يجب عليه ان يطالب به المفكرين . وليس من الغريب ان يكون العلم فى عصرنا قد تجاوز الماديين الفرنسيين فى القرن الماضى ، فالمهم ان **خصوم هؤلاء الفلاسفة كانوا اناسا متخلفين حتى بالنسبة للعلم فى تلك الايام** . صحيح ان مؤرخى الفلسفة عادة ما يعارضون افكار الماديين الفرنسيين بافكار كانط الذى يكون من الغريب بالطبع ان نأخذ عليه **الافتقار الى المعرفة** . ولكن هذه المعارضة ليس لها ما يبررها ، وليس من الصعب ان نبين ان كلا من كانط والماديين الفرنسيين قد انطلقوا اساسا من وجهة النظر نفسها ولكنهم استخدموها بطرق مختلفة ، ولهذا وصلوا الى نتائج مختلفة ، وفقا للخصائص المختلفة للعلاقات الاجتماعية التى عاشوا وفكروا تحت تأثيرها . ونحن نعلم ان الذين اعتادوا ان يصدقوا كل كلمة قالها مؤرخو الفلسفة سيجدون هذا الرأى منطويا على مفارقة . ولا يتسع المجال هنا

www.kassioun.org

لاثباته بالبراهين التفصيلية ، ولكننا لا نرفض ان نقوم بذلك اذا طلبه خصومنا .

وعلى اى حال فكلنا نعرف ان الماديين الفرنسيين قد اعتبروا كل النشاط النفسى للانسان **احساسات محولة** (sensations transformées) ويعنى النظر الى النشاط النفسى من تلك الزاويـــة النظر الى كـل التصورات والمفاهيم والمشاعر الانسانية باعتبارها نتيجـة **لتاثير البيئة المحيطة بالانسان** . وقد تبنى الماديون الفرنسيون بالفعل هذا الرأى واعلنوا دائما ، وفى حماس شديد ، وبحسم كامـــل ، ان الانسان – بآرائه ومشاعره – هو ما تصنعه به بيئته ، اى **الطبيعة** فى المقام الاول **والمجتمع** فى المقام الثانى . فيؤكد هلفيسيوس ان «L'homme est tout éducation» (الانسان هو خلاصة تربيته) ، وهو يعنى بكلمة التربية المجموع الكلى للتأثير الاجتماعى . وقد كانت هذه النظرة الى الانسان كثمرة لبيئته هى المبدأ النظرى الاساسى **للمطالب التجديدية** للماديين الفرنسيين . فالحق انـــه اذا كان الانسان يعتمد على بيئته ، اذا كان يدين لها **بكل** خواص شخصيته ، فانه يدين لها ايضا بنواقصه ؛ ومن هنا فاذا اردت ان تحارب هذه النقائص ، فيجب ان تغير بيئته بطريقة ملائمة ، وبيئته **الاجتماعية** بشكل خاص ، لان الطبيعة لا تجعل الانسان خيّرا او شريرا . فضع الناس فى علاقات اجتماعية معقولة اى فى تلك الظروف التى لا تدفع فيها غريزة البقاء بكل فرد منهم الى صراع مع الآخرين ، ونســـق بين مصالح الانسان الفرد ومصالح المجتمع ككل ، عندئـذ ستأتى الفضيلة (vertu) من تلقاء نفسها ، تماما كما يسقط الحجر مـن تلقاء نفسه على الارض حين يفقد كل سند . فليست الفضيلة فى حاجة لان **يبشر بها** ؛ بل هى بحاجة لان **يمهد لها** بالترتيب المعقول للعلاقات الاجتماعية . وبفضل محافظى ورجعيى القرن الماضى تعتبر اخلاقية الماديين الفرنسيين حتى يومنا هذا اخلاقية **انانية** . اما هم انفسهم فقدموا تحديدا اكثر صدقا ، قائلين انها تتحول عندهم الى سياسة .

كثيرا ما قادت التعاليم القائلة بان عالم الانسان الروحى هو ثمرة لبيئته الماديين الفرنسيين الى نتائج لم يتوقعوها هم انفسهم . فقد كانوا مثلا يقولون فى بعض الاحيان ان افكار الانسان ليس لها

www.kassioun.org

تأثير على الاطلاق على سلوكه ، ومن هنا فان نشر هذه الفكرة او تلك فى المجتمع لا يمكن ان يغير قيد شعرة من مصيره المقبل . وسنوضح فيما بعد اين يكمن الخطأ فى هذا الرأى ، اما الآن فلنوجه اهتمامنا الى جانب آخر من آراء الماديين الفرنسيين .

اذا كانت افكار كل **انسان** تتحدد ببيئته ، فان افكار **الانسانية** تتحدد ، فى تطورها التاريخى ، بتطور البيئة الاجتماعية ، **بتاريخ العلاقات الاجتماعية** . وبالتالى فاذا فكرنا فى رسم صورة «لتقدم العقل الانسانى» واذا لم نقتصر ونحن نفعل ذلك على السؤال «**كيف ؟**» **(بأى طريقة بالضبط جرت الحركة التاريخية للعقل ؟)** ووضعنا امام انفسنا السؤال الطبيعى تماما «**لماذا ؟**» **(لماذا حدثت تلك الحركة بهذه الطريقة بالذات وليس بطريقة اخرى ؟)** ، فكان علينا ان نبدأ بتاريخ البيئة ، بتاريخ تطور العلاقات الاجتماعية . وهكذا من شأن مركز الثقل فى البحث ان يتحول – فى المرحلة الاولى على اى حال – نحو دراسة قوانين التطور الاجتماعى . لقد تناول الماديون الفرنسيون هذه المهمة عن كثب ، ولكنهم عجزوا لا عن حلها فقط ، بل وعن طرحها بشكل سليم .

فحالما بدأوا الحديث عن التطور التاريخى للبشرية نسوا نظرتهم الحسية عن «الانسان» عموما واكدوا – مثلهم مثل كل فلاسفة «التنوير» فى ذلك العصر – **ان العالم** (اى العلاقات الاجتماعية للبشرية) **تحكمه الآراء** «c'est l'opinion qui gouverne le monde» * . وهنا يكمن التناقض الجذرى الذى عانت منه مادية القرن الثامن عشر ، والذى انقسم فى تدليلات مؤيديها الى سلسلة كاملة من التناقضات الثانوية والمشتقة ، تماما كما تستبدل الورقة النقدية بقطع نقود صغيرة .

---

* «وانا اعنى بالرأى نتاج مجموع الحقائق والاخطاء المنتشرة فى امة ما ، وهو نتاج يحدد احكامها ، وما تحترمه وما تحتقره ، وما تحبه وما تكرهه ، ويشكل ميولها وعاداتها ونقائصها وفضائلها – وباختصار اخلاقها . هذا هو الرأى الذى يحكم العالم» *Suard*, Mélanges de Littéra-ture, Paris, An XII, t. III, p. 400. [**سوارد** ، الخليط الادبى ، باريس ، السنة الثانية عشرة ، المجلد الثالث ، ص ٤٠٠ .]

www.kassioun.org

الموضوع . الانسان بكل **ارائه** هو نتاج لبيئته ، ولبيئتـــه الاجتماعية اساسا . كانت هذه هى النتيجة الحتمية لحكم لوك الاساسى — *no innate principles* — **ليس ثمة مبادىء فطرية** .

نقيض الموضوع . **البيئة** بكل صفاتها هى نتاج **للآراء** . هـذه هى النتيجة الحتمية للحكم الاساسى للفلسفة التاريخيـة للماديين الفرنسيين : ** c'est l'opinion qui gouverne le monde* .

ومن هذا التناقض الجذرى نتجت مثلا التناقضات المشتقـــة التالية .

الموضوع . يعتبر الانسان العلاقات الاجتماعية المفيدة لـــه طيبة ، ويعتبر العلاقات الضارة به سيئة . **ان آراء الناس تحددهـا مصالحهم :** L'opinion chez un peuple est toujours déterminée par un intérêt dominant» **— هكذا يقول سوارد (ان الرأى لدى شعب تحدده دائمـا المصالح السائدة) **** . **وما لدينا هنا ليس حتى استخلاصـــا من تعاليم لوك ، انـه مجرد تكرار لكلماتـــه :** «No innate practical principles... Virtue generally approved ; not because innate, but because profitable... Good and Evil... are nothing but Pleasure or Pain, or that which occasions or procures Pleasure or Pain to us». («ليس ثمـــة مبـــادئ عمليـــة فطرية . . .فالفضيلة مقبولة عموما ، لا لانها فطرية بل لانهـــا مفيدة . . . والخير والشر . . . ليسا سوى اللذة والالم ، او ذلك الذى يحدث اللذة والالم لدينا) *** .

نقيض الموضوع . تبدو العلاقات القائمة للناس مفيدة او ضارة وفقا للنظام العام لآراء هؤلاء الناس . وبعبارات سوارد ذاته فان كل شعب «ne veut, n'aime, n'approuve que ce qu'il croit être utile» (كل شعب لا يرغب ولا يحب ولا يوافـــق الا على ما يعتبـــره

---

* [ان الرأى يحكم العالم .]

** *Suard*; t. III, p. 401. [سوارد . المجلد الثالث ، ص ٤٠١ .]

*** «Essay concerning human understanding», B. I, ch. 3; B. II, ch. 20, 21, 28. [« بحث عن الفهم الانسانى » ، الكتاب الاول ، الفصـــل الثالث ؛ الكتاب الثانى ، الفصول ٢٠ ، ٢١ ، ٢٨ .]

www.kassioun.org

مفيدا») . وبالتالى ففى آخر المطاف ينتهى كل شىء من جديـــد الى الآراء التى تحكم العالم .

الموضوع . مخطئون جدا اولئك الذين يعتقدون ان الاخـــلاق الدينية – مثل وصية ان يحب المرء جاره – قد ساعدت ولو جزئيـا على تحسن اخلاق البشرية . فهذه الوصايا – كالافكار عموما – خالية تماما من التأثير على الانسان . ان كل شىء يتوقـف على البيئـــة الاجتماعية وعلى العلاقات الاجتماعية * .

نقيض الموضوع . توضح لنا الخبرة التاريخيـــة «que les opinions sacrées furent la source véritable des maux du genre humain» * * ، وهذا امر مفهوم تماما ، لانه اذا كانت الآراء تحكم العالم فان الآراء الخاطئة تحكمه كالطغاة المتعطشين للدم .

ومن السهل ان نطيل قائمة التناقضات المماثلة لدى الماديين الفرنسيين والتى ورثها عنهم «الماديون بالمعنى الفلسفى العـــام» فى عصرنا . لكن هذا ليس ضروريا . فدعونا اذن نلقى نظـــــرة متمعنة على الطابع العام لهذه التناقضات .

هناك تناقضات وتناقضات . فحين يناقض السيد ف . ف . نفسه فى كل سطر من كتابه «مصائر الرأسمالية» او فى المجلـــد الاول من كتابه «نتائج البحث الاقتصادى لروسيا» فليس لخطاياه فى حق المنطق اية اهمية الا «كوثيقة انسانية» : فسيكـــون على

---

* يكرر **هولباخ** هذا الموضوع اكثر من مرة فى كتابه «Système de la Nature» [«نظام الطبيعة»] . كما عبر عنه هلفيسيوس حين قال : «فلنفترض اننى نشرت اكثر الآراء غباء ، ستترتب عليها اشد النتائج اثارة للسخط ، فاذا لم اكن قد غيرت شيئا فى القوانين فلن اغير شيئا فى العادات ايضا» («De l'Homme», Section VII, ch. IV) . [«عن الانسان» ، القسم السابع ، الفصل الرابع .] وكثيرا ما عبر عن نفس الرأى جريم الذى تواجد طويلا بين الماديين الفرنسيين فى «Correspondance Littéraire» [«المراسلات الادبية»] (٥) ، وفولتير الذى حارب الماديين ، ففى كتابه «Philosophe ignorant» [«الفيلسوف الجاهل»] وفى كثير غيره حاول «شيخ فرنى» (٦) ان يبين انه ما من فيلسوف قد اثر على سلوك جيرانه ، اذ تقودهم فى اعمالهم العادات لا الميتافيزيقا .

* * [«ان الآراء الدينيـــة هى المصـــدر الحقيقى لكل آلام الجنس البشرى» .]

www.kassioun.org

مؤرخى الفكر الروسى فى المستقبل بعد ان يبرزوا هذه التناقضات ، ان ينشغلوا بمسألة هامة جدا – من وجهة نظر علم النفس الاجتماعى – هى لماذا ظلت هذه التناقضات ، رغم طابعها الواضح الذى لا خفاء فيه ، غير ملحوظة لدى الكثير والكثير من قراء السيد ف . ف . . وبمعنى مباشر ، ان تناقضات الكاتب المذكور عقيمة كالمرأة العاقر . وهناك تناقضات من طابع آخر . وهى كتناقضات السيد ف . ف . غير خافية ، الا انها تتميز عن هذه الاخيرة بانها لا تقود الفكر الانسانى الى النوم ، انها لا تعوق تطوره ، بل تدفعه الى الامام ، وتدفعه فى بعض الاحيان بقوة بحيث تثبت انها – فى نتائجها – اكثر اثمارا من اشد النظريات تناسقا . ويستطيع المرء ان يقول عن هذه التناقضات كما قال **هيجل** : «Der Widerspruch ist das Fortleitende» (التناقض يعبد الطريق الى الامام) . وبين هذه التناقضات بالذات توجد تناقضات المادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر .

فلندرس تناقضهم الرئيسى : **آراء الناس تتحدد ببيئتهم . البيئة تتحدد بالآراء** . وعلى المرء ان يقول عن هذا التناقض ما قاله كانط عن «نقائضه» : ان **الموضوع** صحيح تماما **كنقيض الموضوع** . فليس من شك فى ان آراء الناس تتحدد بالبيئة الاجتماعية التى تحيط بهم . ومما لا يحتمل الشك كذلك ان شعبا ما لن يقبل نظاما اجتماعيا يتناقض مع كل آرائه : انه سيثور على مثل هذا النظام ، ويعيد بناءه وفقا لمشيئته ، وبالتالى فان من الصحيح ايضا ان الآراء تحكم العالم . ولكن كيف اذن تتناقض هاتان القضيتان وكل منهما صحيحة فى ذاتها ؟ تفسير ذلك بسيط جدا . انهما لا تتناقضان الا لاننا ننظر اليهما من زاوية خاطئة : فيبدو من هذه الزاوية –ولا بد حتما ان يبدو ذلك – انه اذا كان الموضوع صحيحا فان نقيض الموضوع خاطئ والعكس بالعكس . ولكن حالما تكتشف الزاوية الصحيحة فان التناقض سيختفى ، وستتخذ كل من القضيتين اللتين تحيرانك مظهرا جديدا : وستكمل – او بدقة اكبر – **ستصبح شرطا** للقضية الاخرى ، دون ان تستبعدها كلية . واذا كانت **هذه** القضية غير صحيحة ، فبالمثل لن تكون القضية **الاخرى** – التى كانت فيما

www.kassioun.org

مضى تبدو لك نقيضها – صحيحة . ولكن كيف يمكن اكتشاف مثل هذه الزاوية الصحيحة ؟

فلنأخذ مثلا . كان يقال مرارا – وخاصة فى القرن الثامن عشر – ان نظام حكم شعب ما يحدده سلوك هذا الشعب ، وهذا صحيح تماما . فحين اختفى السلوك الجمهورى القديم لدى الرومان افسحت جمهوريتهم مكانها للملكية . ولكن من الناحية الاخرى كان يؤكد عادة بنفس الدرجة ان سلوك شعب معين يحدده نظام الحكم . ولا يمكن ان يثار ادنى شك فى ذلك ايضا . فالحق كيف كان يمكن ان يظهر السلوك الجمهورى لدى الرومان فى عصر هليوجابالوس مثلا ؟ أليس من الواضح تماما ان سلوك الرومان اثناء الامبراطورية كان مقضيا عليه ان يمثل شيئا آخر مناقضا تماما للسلوك الجمهورى القديم ؟ فان كان هذا واضحا فالنتيجة العامة المترتبة على ذلك هى ان نظام الحكم يحدده السلوك ، والسلوك يحدده نظام الحكم . ولكن هذه النتيجة متناقضة . ربما نكون قد وصلنا اليها بسبب الطبيعة الخاطئة لهذه القضية او تلك من القضيتين : ايهما على وجه التحديد ؟ اقدح فكرك كما تشاء فلن تكتشف شيئا خاطئا لا فى هذه ولا فى تلك ، ولا يمكن القاء اللوم على اى منهما ، ذلك ان سلوك كل شعب معين يؤثر فى الواقع على نظامه السياسى ، وهو بهذا المعنى **سبب** له ، بينما انه من الناحية الاخرى يتحدد بنظام الحكم وهو بهذا المعنى **نتيجة** له . فاين المخرج اذن ؟ عادة ما يقتصر الناس فى اسئلة من هذا النوع على اكتشاف **التفاعل** : السلوك يؤثر على الدستور ، والدستور يؤثر على السلوك ، ويصبح كل شىء واضحا كضوء النهار . اما اولئك الذين لا يكتفون بوضوح من هذا النوع ، فانهم يكشفون عن ميلهم الى **نظرة احادية الجانب** جديرة بكل ادانة . هكذا يناقش كل مثقفينا تقريبا فى الوقت الحالى . انهم ينظرون الى الحياة الاجتماعية **من وجهة نظر التفاعل** : فكل جانب من جوانب الحياة يؤثر على كل الجوانب الاخرى ، ويعانى بدوره من تأثير كل الجوانب الاخرى . ومثل هذه الفكرة وحدها هى الجديرة «بعلماء الاجتماع» المفكرين ، اما اولئك الذين يظلون – كالماركسيين – يبحثون عن سبب او آخر اكثر عمقا للتطور

www.kassioun.org

الاجتماعى فانهم ببساطة لا يرون كيف ان الحياة الاجتماعيـــــة معقدة . وقد كان كتّاب التنوير فى فرنسا يميلون ايضـــا الى وجهة النظر هذه حين احسوا ضرورة تنظيم افكارهم عـــن الحياة الاجتماعية تنظيما منطقيا ، وضرورة حل التناقضات التى كانـــت لها اليد العليا عليهم . ولم يسر الى ابعد من ذلك حتى اكثـــر الاذهان منهجية بينهم (ونحن لا نشير هنـــا الى **روسو** الذى لا يشترك الا فى القليل مع مفكرى التنوير) . وهكذا فوجهة نظـــر التفاعل هذه هى التى يلتزم بها مثلا مونتسكيو فى مؤلفيـــــه الشهيرين «Grandeur et Décadence des Romains» و «De l'Esprit des lois» * .ووجهة النظر هذه صحيحة بالطبع . **فلا شك ان ثمة تفاعلا بين كل جوانب الحياة الاجتماعية** . لكن من سوء الحظ انها – برغم صحتها – لا تفسر الا القليل جداً ، لسبب بسيط هو انها لا تدلنا على **اصل قوى التفاعل** . فاذا كان نظام الحكم ذاته يفترض مقدما السلوك الذى يؤثر عليه ، فان من الواضح ان هذا السلوك لا يدين له بمبدأ ظهوره . ويجب ان يقال نفس الشىء ايضا عن السلوك : فاذا كان يفترض مقدما نظام الحكم الذى يؤثر عليه فمن الواضح انه ليس خالقه . ولكى نتخلص من هذا الارتبـــاك يجب ان نكشف العامل التاريخى الذى انتج كلا من سلوك شعب معين ونظام حكمه وبذلك **خلق امكانية تفاعلهما ذاتهـــا** . فاذا اكتشفنا مثل هذا العامل فسنكتشف الزاوية الصحيحة التى نبحث عنها ، وسنحل دون صعوبة التناقض الذى يحيرنا .

وفيما يتعلق بالتناقض الاساسى لدى الماديين الفرنسيـــين فان هذا يعنى ما يلى : لقد كان الماديون الفرنسيون مخطئين جدا

* [«عظمة وانحلال الرومان» و«حول روح القوانين»] . اخـــذ هولباخ فى كتابه «Politique naturelle» [«السياسة الطبيعية»] موقف التفاعل بين السلوك ونظام الحكم . ولكن لما كان عليه ان يعالج مسائل عملية فقد قادته وجهة النظر هذه الى حلقة مفرغة : لكى يحسن المرء السلوك عليه ان يكمل نظام الحكم ؛ ولكى يصلح هذا الاخير عليه ان يحسن السلوك . وقد انقذ هولباخ من هذه الدائرة bon prince [امير طيب] خيالى – كذلك الذى كان يرغب فيه جميع كتّاب التنوير – يظهر كـ deus ex machina [الساحر] لينهى المسرحية ، ويحل التناقض مصلحا كلا مـــن السلوك ونظام الحكم . .

www.kassioun.org

حين قالوا – على نقيض فكرتهم المعتادة عن التاريخ – ان الافكار لا تعنى **شيئا** ، لان البيئة هى **كل شيء** . وليس اقل خطأ من ذلك فكرتهم المعتادة عن التاريخ . (c'est l'opinion qui gouverne le monde) * التى اعلنت ان الآراء هى السبب الاساسى الرئيسى لوجود اى بيئة اجتماعية معينة . ثمة تفاعل لا شك فيه بين الآراء والبيئة ، ولكن البحث العلمى لا يمكن ان يتوقف عند حد الاعتراف بهذا التفاعل ، لان التفاعل ابعد من ان يفسر لنا الظواهر الاجتماعية . فلكى نفهم تاريخ البشرية ، اى فى حالتنا هذه تاريخ آرائها من ناحية ، وتاريخ العلاقات الاجتماعية التى مرت بها فى تطورها من ناحية اخرى – يجب ان نرتفع عن زاوية التفاعل ، وان نكشف – اذا كان هذا ممكنا – ذلك العامل الذى يحدد كلا من تطور **البيئة الاجتماعية وتطور الآراء** . وكانت مشكلة العلم الاجتماعى فى القرن التاسع عشر تنحصر فى اكتشاف هذا العامل بالذات .

العالم تحكمه الآراء . لكن الآراء لا تظل ثابتة ، فما الذى يحدد تغيراتها ؟ اجاب على ذلك منذ القرن السابع عشر **لاموث لافاير** قائلا : «انتشار التنوير» . وهذا هو اكثر تعبيرات فكرة ان الآراء تسود العالم تجريدا وسطحية . وقد تمسك به بحزم كتّاب عصر التنوير فى القرن الثامن عشر ، مضيفين اليه احيانا بعض الافكار السوداوية عن ان مصير التنوير – لسوء الحظ – لا يعتمد عليه عموما . ولكننا نلاحظ ان اكثرهم موهبة قد ادركوا بالفعل عدم كفاية مثل هذه النظرة . فقد لاحظ هلفيسيوس ان تطور المعرفة يخضع لقوانين معينة ، وانه بالتالى توجد اسباب خفية غير معروفة يستند اليها . وقام بمحاولة شيقة جدا – لم تقدر بعد حق قدرها – هى تفسير التطور الاجتماعى والفكرى للبشرية على اساس **احتياجاتها المادية** . وقد انتهت هذه المحاولة بالفشل ، وما كان من الممكن الا ان تنتهى بالفشل لاسباب عديدة . لكنها ظلت وكأنها وصية لمفكرى القرن التالى الراغبين فى مواصلة عمل الماديين الفرنسيين .

---

* [أن الرأى يحكم العالم .]

www.kassioun.org

الفصل الثانى

المؤرخون الفرنسيون فى فترة عودة الملكية (٧)

«ومن اهم النتائج التى يمكن استخلاصها من دراسة التاريخ ان الحكومة هى اكثر الاسباب فعلية فى شخصية الشعوب ، وان فضائل او نقائص الامم ، قوتها او ضعفها ، مواهبها ، استنارتها او جهلها ، لا تكاد تكون نتيجة للمناخ او لخصائص جنس معين ، وان الطبيعة قد اعطت **كل شىء لكل الناس** ، بينما الحكومات تحافظ للناس الخاضعين لها على هذه الخصائص التى كانت فى الاصل تمثل التراث المشترك للجنس الانسانى او تدمرها» .

فلم تحدث فى ايطاليا تغيرات فى المناخ او الجنس (فقد كان غزو البرابرة ضئيل المغزى بحيث ما كان ليغير صفات الجنس) :

«لقد كانت الطبيعة هى نفسها بالنسبة للايطاليين فى كل العصور ، ولم تتغير سوى الحكومات – وقد سبقت هذه التغيرات دائما تغيرات فى الشخصية القومية او صاحبتها» .

بهذه الطريقة عارض **سيسموندى** المذهب القائل ان المصير التاريخى للشعوب لا يعتمد الا على البيئة الجغرافية * . وليست اعتراضاته هذه بلا اساس . فالواقع ان **الجغرافيا** ابعد من ان تفسر كل شىء فى التاريخ لسبب بسيط هو انه **تاريخ** ، اى لان

---

* «Histoire des Républiques italiennes du moyen âge», nouvelle édition, t. I, Paris, Introduction, p.p. V—VI. [«تاريخ الجمهوريات الايطالية فى العصور الوسطى» . طبعة جديدة ، المجلد الاول ، باريس ، المقدمة ، ص ٥–٦ .]

www.kassioun.org

الحكومات تتغير – على حد تعبير سيسموندى – رغم ان البيئة الجغرافية تظل ثابتة . لكننا لا نتحدث عن هذا الا عرضا : فان ما يهمنا هنا مسألة مختلفة تماما .

لعل القارئ قد لاحظ ان سيسموندى وهو يقارن الطبيعة غير المتغيرة للبيئة الجغرافية بتغير المصائر التاريخية للشعوب قد ربط هذه المصائر بعامل اساسى واحد – «**الحكومة**» اى **بالتنظيمات السياسية للبلد المعين** . فطبيعة الشعب تتحدد كلية بطبيعة الحكومة . صحيح ان سيسموندى بعد ان تقدم بهذه الموضوعة بحسم قد عاد فورا وخفف موقفه بشكل اساسى جدا : فهو يقول ان التغيرات السياسية تسبق التغيرات فى الشخصية القومية **او تصاحبها** . فيبدو هنا ان طبيعة الحكومة احيانا تتحدد بطبيعة الشعب . لكن فى هذه الحالة تواجه فلسفة سيسموندى التاريخية التناقض الذى اصبحنا نألفه الآن ، والذى كان يحير مفكرى التنوير الفرنسيين : سلوك شعب ما يتوقف على نظامه السياسى ، ونظامه السياسى يتوقف على السلوك . وكان سيسموندى عاجزا ككتّاب التنوير عن حل هذا التناقض : لقد كان مجبرا على ان يبنى حججه مرة على هذا الفرع من فرعى النقيضة ومرة على ذاك . ولكنه على اى حال بعد ان استقر عند احدهما – وهو ذلك الذى يعلن ان طبيعة الشعب تتوقف على حكومته – فقد اضفى على مفهوم «الحكومة» معنى واسعا بدرجة مبالغ فيها : فهى تشمل فى نظره **كل خصائص البيئة الاجتماعية المعينة على الاطلاق** ، كل خصائص العلاقات الاجتماعية المعينة . وبعبارة اكثر دقة يمكننا ان نقول ان كل خصائص البيئة الاجتماعية هى – من وجهة نظره – من عمل «الحكومة» ، نتيجة النظام السياسى . وهذه هى وجهة نظر القرن الثامن عشر . فحين كان الماديون الفرنسيون يريدون ان يعبروا بايجاز وقوة عن ايمانهم بالتأثير الشامل للبيئة على الانسان اعتادوا ان يقولوا «c'est la législation qui fait tout» (كل شىء يتوقف على التشريع) . لكنهم اذ يتحدثون عن التشريع لم يكن فى ذهنهم ، بصورة مطلقة تقريبا ، الا **التشريع السياسى ، نظام الحكم** . فبين كتابات ج . ب . **فيكو** الشهير مقال صغير بعنوان «بحث عن نظام قانونى

www.kassioun.org

يفسر القانون المدنى للرومان على اساس ثوراتهم السياسية» * .
ورغم ان هذا «البحث» قد كتب فى بداية القرن الثامن عشر ، الا ان الفكرة التى يعبر عنها عن العلاقة بين القانون المدنى وبين نظام الحكومة قد سادت حتى عودة الملكية فى فرنسا ، لقد رد مفكرو التنوير كل شىء الى «السياسة» .

لكن النشاط السياسى «للمشرع» هو على اى حال نشاط واع ، وان لم يكن بالطبع مفيدا دائما . ونشاط الانسان الواعى يتوقف على «آرائه» . ومن هنا فان كتّاب التنوير الفرنسيين قد عادوا دون ان يلاحظوا ذلك الى فكرة **القدرة الشاملة للآراء** حتى فى تلك الحالات التى رغبوا فيها فى تأكيد فكرة **القدرة الشاملة للبيئة** بوضوح .

وكان سيسموندى ما زال متبنيا لوجهة نظر القرن الثامن عشر ** ، اما المؤرخون الفرنسيون الذين كانوا اكثر شبابا منه فقد بدأوا بالفعل فى تبنى افكار مختلفة .

ان مجرى ونتاج الثورة الفرنسية (٨) ، بمفاجآتها التى تجاوزت اقصى ما بلغ اليه مفكرو «التنوير» ، كانت دحضا – واضحا الى اقصى حد – لفكرة ان الآراء شاملة القدرة . وعندئذ انزاح عن اعين الكثيرين وهم قدرة «العقل» ، بينما بدأ الآخرون

---

* ترجمنا عنوان المقال من الفرنسية ، ونستدرك فنقول اننا لا نعرف المقال الا من بعض الاقتباسات الفرنسية . فقد عجزنا عن اكتشاف النص الايطالى الاصلى ، لانه لم يطبع – فى حدود معرفتنا – الا فى طبعة واحدة من مؤلفات فيكو (١٨١٨) ، وهو غير موجود فى طبعة ميلان ذات الستة مجلدات فى ١٨٢٥ . بيد ان المهم والحال هذه ليس هو **كيف ادى** فيكو مهمته بل **ما هى المهمة التى وضعها نصب عينيه بالضبط** .

وانا لنتنبا بهذه المناسبة باحد الانتقادات التى قد يسرع بتوجيهها الينا النقاد الاذكياء : «انكم تستخدمون دون تمييز تعبير «مفكرى التنوير» وتعبير «الماديين» ، ولكن كُتّاب «التنوير» ابعد عن ان يكونوا جميعا ماديين ، فكثير منهم مثل فولتير – قد حاربوا الماديين بقوة» . وهذا صحيح ، لكن هيجل قد اوضح – من الناحية الاخرى – منذ فترة طويلة ان كتّاب التنوير الذين هبوا فى وجه المادية لم يكونوا هم انفسهم سوى **ماديين غير متسقين** .

** بدأ يعمل فى تاليف تاريخ الجمهوريات الايطالية فى ١٧٩٦ .

www.kassioun.org

الذين لم يتبدد لديهم هذا الوهم يميلون الى تقبل فكـــرة القدرة الشاملة **للبيئة** والى دراسة مجرى تطورها . لكن البيئة ايضا قد بدئ في النظر اليها فى عهد عودة الملكية من وجهة نظر جديدة . لقد سخرت الاحداث التاريخية العظيمة من «**المشرعين**» ومـــن الدساتير السياسية ، بحيث اضبح من الغريب الآن ان تعتبـــر العامل الاساسى الذى تعتمد عليه كل خصائص البيئة الاجتماعية المعينة ؛ لقد اصبح ينظر الى الدساتير السياسية الآن كشىء مشتق ، **كنتيجة لا كسبب** .

يقول **جيزو** فى «Essais sur l'histoire de France» * : «حاول اغلب الكتّاب والاساتذة والمؤرخين والكتّاب الاجتماعيين ان يفسروا ظروف المجتمع المعينة ودرجة او طبيعة مدنيته ، بواسطـــة مؤسساته السياسية . الا انه من الاحكم ان نبدأ بدراسة المجتمع ذاته لكى نعلم ونفهم مؤسساته السنياسية . فقبل ان تصبـــح المؤسسات السياسية سببا كانت نتيجة ؛ لقد خلقها المجتمـــع قبل ان يبدأ فى التغير تحت تأثيرها ؛ وبدلا من ان نحكـــم على ظروف شعب ما من نظام حكومته او اشكالها يجب اولا ان نبحث ظروف الشعب لكى نحكم على ما يجب ان تكون عليه حكومتـــه وما يمكن ان تكون عليه هذه الحكومة . . . فالمجتمع ، وتكوينه ، وطريقة حياة الافراد وفقا لمركزهم الاجتماعى ، والعلاقات بيـــن مختلف فئات الاشخاص وباختصـــار ، **الظروف المدنية للناس** (l'état des personnes) هذه بلا شك هى المسالة الاولى التـــى تسترعى انتباه المؤرخ الذى يريد ان يعرف كيف عاشـــت الشعوب ، والكاتب الاجتماعى الذى يريـــد ان يعـــرف كيف حكمت» * * .

وتتعارض هذه الفكرة تماما مع فكرة فيكو . لقد فسر الاخير تاريخ القانون المدنى بالثورات السياسية ، اما جيـــزو فيفسر النظام السياسى بالظروف المدنية اى بالقانون المدنى . لكـــن

---

* [« بحوث عن تاريخ فرنسا » .] صدرت الطبعة الاولى عام ١٨٢١ .

* * «Essais», dixième édition, Paris, 1860, p.p. 73—74. [« بحوث » ، الطبعة العاشرة ، باريس ، ١٨٦٠ ، ص ٧٣–٧٤ .]

www.kassioun.org

المؤرخ الفرنسى يذهب الى ابعد من هذا فى تحليله «للتكوين الاجتماعى» . فهو يقرر انه بين كل الشعوب التى ظهرت على المسرح التاريخى منذ سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية كانت «**الظروف المدنية**» للناس ترتبط ارتباطا وثيقا «**بعلاقات ملكية الارض**» (état des terres) ، ومن ثم فان دراسة علاقاتهم الزراعية يجب ان تسبق دراسة ظروفهم المدنية : «**لكى نفهم المؤسسات السياسية يجب ان ندرس مختلف الفئات القائمة فى المجتمع وعلاقاتها المتبادلة . ولكى نفهم هذه الفئات الاجتماعية المختلفة يجب ان نعرف طبيعة وعلاقات ملكية الارض**» * . ومن وجهة النظر هذه يدرس جيزو تاريخ فرنسا فى ظل الاسرتين المالكتين الاوليين . وهو يعرضه كتاريخ لصراع مختلف الفئات الاجتماعية فى ذلك الوقت . وفى تاريخه للثورة الانجليزية خطا خطوة جديدة الى الامام عارضا هذا الحدث كصراع للبورجوازية ضد الاريستقراطية ، معترفا بذلك – ضمنا – بان من الضرورى لتفسير الحياة السياسية لبلد معين الا ندرس فقط العلاقات الزراعية بل كذلك كل علاقات الملكية فيها ** .

---

* نفس المصدر ، ص ٧٥–٧٦ .

** ان صراع الاحزاب الدينية والسياسية فى انجلترا فى القرن السابع عشر «كان ستارا لمسالة اجتماعية هى الصراع بين مختلف الطبقات من اجل السلطة والنفوذ . صحيح ان هذه الطبقات لم تكن مقسمة بحدة ولا متعادية فى انجلترا كما فى غيرها من البلاد . فالشعب لم يكن قد نسى ان البارونات الاقوياء لم يحاربوا فقط من اجل حريتهم بل من اجل حرية الشعب كذلك . وقد جلس سادة الريف وبورجوازية المدن معا فى البرلمان طيلة ثلاثة قرون باسم العموم الانجليزى . ولكن حدثت تغيرات كبيرة خلال القرن الاخير فى القوى النسبية لمختلف طبقات المجتمع لم تصاحبها تغيرات مماثلة فى النظام السياسى ... فلم يكن لدى البورجوازية وسادة الريف والمزارعين وصغار الملاك وهم كثيرون جدا فى ذلك الوقت نفوذ فى الشئون العامة يتناسب مع اهمية دورهم الاجتماعى . لقد نموا لكنهم لم يرتفعوا الى اعلى . ومن هنا ظهرت فى هذه الفئة كما فى غيرها من الفئات الادنى منها روح طموحة فخورة وقوية مستعدة لان تتلقف اول حجة تقابلها لكى تنفجر» . «Discours sur l'histoire de la révolution

www.kassioun.org

ولم تكن هذه الفكرة عن التاريخ السياسى لاوروبا باى حال ملكا خاصا لجيزو فى ذلك الوقت . فقد كان يقاسمه فيها كثير من المؤرخين نشير من بينهم الى **اوجستين تييرى ومينيه** .

• لقد عرض تييرى فى «Vues des révolutions d'Angleterre» تاريخ الثورات الانجليزية كصراع بين البورجوازية والاريستقراطية ، فكتب عن الثورة الاولى يقول : «ان كل من عد اسلافه بين غزاة انجلترا قد ترك قلعته ورحل الى المعسكر الملكى ، حيث اخذ مركزا يتوافق مع رتبته . وتدفق سكان المدن الى المعسكر المضاد . وحينئذ كان يمكن ان يقال ان الجيشين يتجمعان ، احدهما باسم **الكسل والتسلط** والأخر باسم **العمل والحرية** . فكل الكسالى – ايا كان منشؤهم – كل اولئك الذين لا يسعون فى الحياة الا وراء المتعة المضمونة دون عمل قد تجمعوا حول الراية الملكية مدافعين عن مصالح تماثل مصالحهم ؛ وعلى العكس من ذلك فان اسلاف الغزاة السابقين اولئك الذين اشتغلوا حينئذ بالصناعة قد انضموا الى حزب العموم» * * .

وكانت الحركة الدينية فى ذلك العصر – فى رأى تييرى – مجرد انعكاس لمصالح دنيوية وضعية . «ففى كلا الجانبين كانت الحرب تشن من اجل مصالح وضعية ، وكان كل ما عدا ذلك اما تبريرا ظاهريا او ذريعة . فالذين دافعوا عن قضية **الرعايا** كانوا فى الاغلب من الرسوليين او المشايخ اى انهم لم يكونوا يريدون التبعية حتى فى الدين . وهؤلاء الذين ينتمون الى الحزب المضاد كانوا ينتمون الى العقيدة الانجليكية او العقيدة

[«احاديث عن تاريخ ثورة انجلترا» . برلين ، ١٨٥٠ ، ص ٩–١٠ .] d'Angleterre», Berlin, 1850, p.p. 9—10.

قارن المجلدات الستة لنفس المؤلف عن تاريخ الثورة الانجليزية الاولى والصور التى رسمها لحياة مختلف رجال السياسة فى ذلك العهد ، وستجد ان جيزو هنا لم يتخل الا نادرا عن وجهة نظر صراع الطبقات .

* [«نظرات على ثورات انجلترا» .]

** «Dix ans d'études historiques» [«عشر سنوات من الدراسة التاريخية»] ، المجلد السادس من اعمال تييرى الكاملة ، الطبعة العاشرة ، ص ٦٦ .

www.kassioun.org

الكاثوليكية لانهم سعوا حتى فى المجال الدينى الى السلطة وفرض الضرائب على الناس» . واقتبس تييرى فى هذا الخصوص كلمات فوكس التاليـــة فى كتابـــه «History of the reign of James the Second» • «كان الويج (٩) ينظرون الى كل الآراء الدينية بفكرة سياسية . فحتى فى كراهيتهم للبابوية لم يكونوا ينظـرون الى الخرافة او الوثنية المنسوبة لهذه الطائفة غير المحبوبة قدر ما كانوا ينظرون الى ميلها لاقامة سلطة تعسفية فى الدولة» .

اما مينيه فيرى ان «حركة المجتمع تحددها المصالح السائدة . وتسعى هذه الحركة – وسط مختلف العقبات – نحو هدفهـــا ، وتتوقف عندما تصل الى هذا الغرض ، تاركة المكان لحركة اخرى لم تكن محسوسة فى البداية ، ولا تصبح ظاهرة الا عندما تغدو سائدة . وكان هذا هو مجرى تطور الاقطاع . ففى العصر الاول كان الاقطاع كامنا فى احتياجات الانسان بينما لم يكن قد وجد فى الواقع بعد ، اما فى العصر الثانى فقد وجد فى الواقع واخـــذ يكف بالتدريج عن التجاوب مع احتياجات الناس ، ومن هنا ففى الاخير انتهى وجوده فى الواقع . ولم تحدث اى ثورة بطريقـــة اخرى» •• .

وقد نظر مينيه فى تاريخه للثورة الفرنسية الى الاحـــداث بالتحديد من زاوية «احتياجات» مختلف الطبقات الاجتماعيـــة . فصراع هذه الطبقات هو من وجهة نظره باعث الاحداث السياسية الرئيسى . وبالطبع لم تكن مثل هذه النظرة على هوى الانتقائيين حتى فى تلك الايام السعيدة الماضية حين كانت اذهانهم تعمـــل اكثر منها فى ايامنا هذه . لقد اخذ الانتقائيون على انصار النظريات التاريخية الجديدة **الجبرية** والتحيـــز **لمذهب معين** (esprit de système) . وكما يحدث دائما فى مثل هذه الاحوال لم يلاحـــظ

• [«تاريخ حكم جيمس الثانى» .]

•• «De la féodalité, des institutions de St.-Louis et de l'influence de la législation de ce prince», Paris, 1822, p.p. 76-77. [«عـــن الاقطاع فى مؤسسات سان لويس واثر تشريع هذا الامير»] ، باريس ، ١٨٢٢ ، ص ٧٦–٧٧ .]

www.kassioun.org

الانتقائيون الجوانب الضعيفة حقا فى النظريات الجديدة ، بـــل هاجموا بنشاط متزايد جوانبها القوية بلا شك . بيد ان هـذا قديم قدم العالم ، ومن ثم فانه لا يهمنا كثيرا . فاكثر من ذلك اهمية ان هذه الآراء الجديدة كان يـدافع عنها **بازار احد اشياع سان سيمون** واحد الممثلين اللامعين للاشتراكية فى ذلك الحين .

ولم يعتبر بازار كتاب مينيه عن الثورة الفرنسية بلا نقائص . ومن بين نقائصه – فى نظره – انه صور الحدث الذى وصفـــه كحقيقة منفصلة لا تربطها اى علاقات «بالسلسلة الطويلة مـن الجهود التى من شأنها ان تسهل اقامة النظام الجديد باطاحتهـــا بالنظام الاجتماعى القديم» . لكن للكتاب ايضا مزاياه التى لا جدال فيها . «لقد وضع المؤلف نصب عينيه مهمة تشخيص تلك الاحزاب التى تقود الثورة تباعا ، وكشف علاقة هـــذه الاحزاب بمختلف الطبقات الاجتماعية ، ومهمة توضيح سلسلة الاحداث الخاصـــة التى تضعها واحدا بعد الآخر على راس الحركة ، وكيف تختفى فى النهاية» . واما «روح النظام والجبرية» التى اخذها الانتقائيـون على مؤرخى الاتجاه الجديد فقد كانت من وجهة نظر بازار مزيـة تنفرد بها كتابات جيزو ومينيه عن كتابات «المؤرخين الادبييـن (اى المؤرخين الذين لا يهتمون الا بجمال «الاسلوب») والذين لم يستطيعوا رغم كل عددهم ان يدفعوا علم التاريخ خطوة واحدة الى الامام عما كان عليه فى القرن الثامن عشر» * .

ولو ان اوجستين تييرى او جيزو او مينيه قد سئل هل ان سلوك شعب ما يخلق نظام حكمه ام ان نظام حكمه بالعكس هو الذى يشكل سلوكه ، لاجاب كل منهم انه مهما كان التفاعل بين سلوك شعب ما وبين نظام حكمه كبيرا لا جدال فيه ، فان كليهما يدين بوجوده فى التحليل الاخير لعامل ثالث اعمق هو «**الظروف المدنية للناس ، علاقات ملكيتهم**» . وبهذه الطريقة كان يمكن ان يحل التناقض الذى حير فلاسفة القرن الثامن عشر ، وكـــل

---

* «Considérations sur l'histoire» فى الجزء الرابـــع مـــن «Producteur» (١٠) . [«تاملات فى التاريخ» ، فى الجزء الرابع مـــن «المنتج» .]

www.kassioun.org

انسان غير متحيز يدرك ان بازار على حق فى قوله ان العلم قد خطا خطوة الى الامام فى شخص ممثلى النظرة الجديدة الى التاريخ .

لكننا نعلم الآن ان التناقض المذكور ليس سوى حالة خاصة من حالات التناقض الاساسى لوجهة نظر القرن الثامن عشر عن المجتمع : ١ – الانسان بكل افكاره ومشاعره نتاج لبيئته ؛ ٢ – البيئة من خلق الانسان ، نتاج «آرائه» . فهل يمكن القول بان الافكار الجديدة عن التاريخ قد حلت تناقض المادية الفرنسية الاساسى هذا ؟ لندرس كيف فسر المؤرخون الفرنسيون فى فترة عودة الملكية لانفسهم منشأ هذه الظروف المدنية ، علاقات الملكية التى لا يمكن – فى رأيهم – الوصول الى مفتاح لفهم الاحداث التاريخية الا بالدراسة المحكمة لها .

تنتمى علاقات الملكية بين الناس الى مجال علاقاتهم **القانونية** ، فالملكية هى اولا مؤسسة قانونية . والقول بانه يجب البحث عن مفتاح فهم الظواهر التاريخية فى غلاقات الملكية بين الناس يعنى القول بان هذا المفتاح يكمن فى مؤسسات القانون . لكن من اين تنبع هذه المؤسسات ؟ يقول جيزو بحق ان الدساتير السياسية كانت **نتيجة** قبل ان تصبح سببا ، ان المجتمع قد خلقها اولا ثم بدأ يتغير تحت تاثيرها . ولكن الا يمكن ان يقال نفس الشىء عن علاقات الملكية ؟ اليست هى بدورها نتيجة قبل ان تصبح سببا ؟ الم يكن على المجتمع ان يخلقها اولا قبل ان تبدأ فى ممارسة تاثيرها الحاسم على المجتمع ؟ لم يقدم جيزو على هذه الاسئلة المعقولة تماما الا اجابات غير مقنعة على الاطلاق .

فالظروف المدنية للشعوب التى ظهرت على المسرح التاريخى بعد سقوط الامبراطورية الروماتية الغربية على علاقة سببية وثيقة تماما بملكية الارض * : ان علاقة الانسان بالارض قد

---

* وبالتالى لدى الشعوب الحديثة **وحدها** ؟ ان هذا القيد غريب تماما لان الكتّاب اليونان والرومان قد راوا العلاقات الوثيقة بين الحياة المدنية والحياة السياسية فى بلادهم وبين علاقات الارض . بيد ان هذا القيد الغريب لم يمنع جيزو من القول بان سقوط الامبراطورية الرومانية يرجع الى اقتصاديات الدولة فيها . انظر «بحثه» الاول : «Du régime

www.kassioun.org

حددت مركزه الاجتماعى . وطيلة عصر الاقطاع كله تحددت كل المؤسسات الاجتماعية فى التحليل الاخير بعلاقات ملكية الارض . اما هذه العلاقات فانها بعبارات جيزو نفسه «فى البداية اى خلال الفترة الاولى بعد الغزو البربرى» قد تحددت عن طريق المركز الاجتماعى لملاك الارض : «فالارض قد اكتسبت هذه الطبيعة او تلك وفقا لدرجة قوة مالك الارض» * . لكن ماذا حدد فى هذه الحالة المركز الاجتماعى لملاك الارض ؟ كيف تحددت «فى البداية ولاول مرة بعد الغزو البربرى» الدرجة العالية او المنخفضة من الحرية ، الدرجة العالية او المنخفضة من قوة الملاك؟ هل كان ذلك راجعا الى العلاقات السياسية السابقة بين الغزاة البرابرة ؟ لكن جيزو قد اخبرنا من قبل ان العلاقات السياسية نتيجة وليست سببا . فلكى نفهم الحياة السياسية للبرابرة فى العصر الذى سبق سقوط الامبراطورية الرومانية فان علينا – وفق نصيحة كاتبنا – ان ندرس ظروفهم المدنية ، نظامهم الاجتماعى ، علاقات مختلف الطبقات بينهم وما الى ذلك ؛ ومثل هذه الدراسة ستقودنا مرة اخرى الى مسألة ماذا يحدد علاقات الملكية بين الناس ، ماذا يخلق اشكال الملكية القائمة فى مجتمع معين . وواضح اننا لن نكسب شيئا فى تفسير مركز مختلف الطبقات فى المجتمع اذا بدأنا نشير الى الدرجات النسبية لحريتهم وسلطتهم . فلن تكون هذه اجابة وانما تكرار للسؤال فى شكل جديد ، وبشىء من التفصيل .

ان مسألة منشأ علاقات الملكية ما كانت حتى لتتبادر الى ذهن جيزو كمشكلة علمية بصياغة محكمة ودقيقة . وقد رأينا

---

municipal dans l'empire romain en V-me siécle de l'ère chrétienne». [«عن نظام البلديات فى الامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى» .]

* اى انه كان لملكية الارض هذا الطابع **القانونى** او ذاك ، وبعبارة اخرى فان حيازتها كانت تتضمن درجة او اخرى من التبعية وفقا لقوة وحرية مالك الارض . L. c., p. 75 [المصدر ذاته ، ص ٧٥ .]

www.kassioun.org

انه كان من المستحيل عليه الا يضع المسالة فى اعتباره ، لكن بلبلة الاجابات التى قدمها تشهد بعدم الوضوح الذى تصور به المسالة . فلقد فسر جيزو تطور اشكال الملكية فى آخر التحليل باشارات غامضة تماما الى **الطبيعة الانسانية** . وليس بالغريب ان هذا المؤرخ الذى اتهمه الانتقائيون بالافكار المذهبية للغاية قد ظهر هو الآخر كانتقائى لدرجة كبيرة فى مؤلفاته عن تاريخ المدنية مثلا .

اما اوجستين تييرى الذى درس نضال الطوائف الدينيـــة والاحزاب السياسية من وجهة نظر «**المصالح الوضعية**» لمختلف الطبقات الاجتماعية ، وتعاطف بشدة مع نضال الفئة الثالثة ضد الاريستقراطية ، فقد فسر منشأ هذه الطبقات والمراتب **بالغزو** .

«Tout cela date d'une conquête, il y a une conquête là dessous»

•(ان كل هذا يرجع الى الغزو ، فهناك غزو فى اساسه) ، هكذا قال عن العلاقات الطبقية والفئوية بين الشعوب الحديثة التى هـى وحدها مادة كتاباته . وقد طور بلا توقف هذه الفكرة بمختلف الطرق ، سواء فى مقالاته المنشورة او فى مؤلفاته العلمية التـى صدرت فيما بعد . ولكن الى جانب ان «الغزو» – وهو عمل سياسى دولى – قد اعاد تييرى الى وجهة نظر القرن الثامن عشر التـــى فسرت الحياة الاجتماعية باسرها بنشاط المشرع اى السلطـــة السياسية ، فان كل غزو يقع يثير حتما السؤال التالى : لماذا كانت نتائجه الاجتماعية هى هذه النتائج وليست تلك ؟ فقبـل غزو البرابرة الجرمان كانت بلاد الغال قد عاشت تحت نير غزو رومانى . وكانت النتائج الاجتماعية **لهذا** الغزو مختلفة عن تلك التى ولدها الغزو **الجرمانى** . ولا تشبه النتائج الاجتماعية لغزو المغول للصين الا قليلا غزو النورمان لانجلترا . فما هو مصدر هذه الاختلافات ؟ ان القول بانها تتحدد بالاختلافات فى التركيب الاجتماعى لمختلف الشعوب التى تصادمت فيما بينها فى مختلف الاوقات يعنى انك لا تقول شيئا ، اذ سيظل ما يحدد التركيب الاجتماعى مجهولا . فاذا اشرنا فى هذه المسالة الى غزوات سابقة فاننا ندور فى حلقة مفرغة . فمهما كثرت الغزوات التى ستعددها فستصل رغم هذا فى المدى البعيد الى نتيجة حتمية ، هى انه يوجد

www.kassioun.org

فى الحياة الاجتماعية للشعوب عامل مجهول مـا ، **(س)** ، لا يتحدد بالغزو بل انه بالعكس **يحدد بذاته نتائج** الغزو بل كثيرا – وربما دائما – **ما يحدد الغزو ذاته** ، وهو السبب الجذرى للاصطدامات بين الشعوب . وقد اشار تييرى نفسه فى كتابه «تاريخ غـزو النورمان لانجلترا» – على اساس الآثار القديمة – الى الدوافع التى حدت بالانجلوساكسون فى صراعهم اليائس من اجل استقلالهم . قال احد النبلاء : «يجب ان نحارب مهما كان الخطر علينا ، فمـا علينا ان نضعه فى الاعتبار ليس ما اذا كنا سنعترف باى سيـد جديد . . . الامر على العكس تماما . لقد وهب دوق نورمـاندى ارضنا لفرسانه ولكل رجاله ، ومعظم هؤلاء قد اعتبروا انفسهم اتباعا له لقاء ذلك . وهم سيرغبون ان يستعملوا هذه الهبات اذا اصبح الدوق النورماندى مليكنا ، وسيكون هو نفسه ملزما بان يضع تحت تصرفهم ارضنا وزوجاتنا وبناتنا : فلقد وعدهم بهذا كله من قبل. انهم لن يريدوا ان يحطمونا فحسب بل وليحطموا خلفنا ايضا ، وينتزعوا منا ارض اسلافنا» الخ . . ومن الجانب الآخر قال وليم الفاتح لرفاقه : «حاربوا ببسالة واقتلوا الجميع ، فلو انتصرنا سنكون اغنياء جميعا . وما ساكسبه ستكسبونه ، وما ساستولى عليه ستستولون عليه ؛ واذا حصلت على الارض فستحصلون عليها ايضا» * . وواضح تماما هنا ان الغزو لـم يكن هدفا فى ذاته ، «فتحته» تكمن **مصالح** «وضعية» معينة اى مصالح **اقتصادية** . والمسألة هى ما الذى اعطى لهذه المصالح الشكل الذى اخذته عند ذاك ؟ لماذا كان السكان الاصليـــون والغزاة يتجهون بالتحديد الى النظام الاقطاعى لملكيـــة الارض وليس الى اى نظام آخر ؟ ان «الغزو» لا يفسر شيئا فى هـــذه الحالة .

ويقدم لنا تييرى نفسه فى كتابه «Histoire du tiers état» **، كما فى كل مقالاته عن تاريخ العلاقات الداخلية لفرنسا وانجلترا ،

---

* Paris, t. I, p.p. 296 et 300. والخ «Histoire de la conquête»
[«تاريخ غزو» والخ ، باريس ، المجلد الاول ، ص ٢٩٦ و٣٠٠ .]

** [«تاريخ الفئة الثالثة» .]

www.kassioun.org

صورة كاملة نسبيا عن الحركة والتقدم التاريخى للبورجوازية . ويكفى ان ندرس حتى هذه الصورة لكى نرى عدم كفاية النظرة التى تجعل منشأ وتطور النظام الاجتماعـــى المعين يتوقف على الغزو ، اذ ان التطور قد تقدم على خلاف مصالح ورغبات الاريستقراطية الاقطاعية ، اى الغزاة وخلفهم .

ونستطيع ان نقول دون اى مبالغة ان تييرى نفسه قد بذل جهدا كبيرا لكى يدحض بأبحاثه التاريخية افكاره هو عن الدور التاريخى للغزوات * .

ونجد نفس الحيرة عند مينيه . فهو يتحدث عن تأثير ملكية الارض على الاشكال السياسية . اما ما الذى تعتمد عليه اشكال ملكية الارض ، ولماذا تتطور فى هذا الاتجاه او ذاك فهو امر لا يعرفه مينيه . وهو ايضا فى التحليل الاخير يجعل اشكال ملكية الارض متوقفة على **الغزو** ** .

وهو يحس ان ما نتعرض له فى تاريخ الاصطدامات بيـــن الشعوب ليس مفهومات مجردة مثل «الغزاة» و«المهزومين» ، بل اناس من لحم ودم ، لهم حقوق وعلاقات اجتماعية محددة ، ولكن تحليله هنا ايضا لا يمضى بعيدا ، فهو يقول : «حين يندمج شعبان يعيشان على نفس التربة فانهما يفقدان نقاط ضعفهما ، ويتبادلان نقاط القوة لديهما» *** .

وتلك فكرة لا هى بالعميقة ولا هى بالواضحة بصورة كافية .

---

* من المسائل الشيقة ان اتباع سان سيمون قد راوا بالفعل هذا الجانب الضعيف فى آراء تييرى التاريخية . فان بازار يلاحظ ــ فى المقال الذى اقتبسنا منه فيما سبق ــ ان الغزو فى الواقع قد مارس على تطور المجتمع الاوروبى تاثيرا يقل كثيرا عما ظن تييرى . «فكل من يدرك قوانين تطور الانسانية يرى ان دور الغزو كان ثانويا تماما» . لكن تييرى فى هذه الحالة كان اكثر اقترابا من آراء استاذه السابق سان سيمون عما كان عليه بازار : فسان سيمون يدرس تاريخ اوروبا الغربية منذ القرن الحامس عشر من وجهة نظر تطور العلاقات الاقتصادية ، ويفسر النظام الاجتماعى للعصور الوسطى كمجرد نتيجة للغزو .

** راجع «De la féodalité», p. 50. [«عن الاقطاع» ، ص ٥٠ .]

*** راجع «De la féodalité», p. 212. [«عن الاقطاع» ، ص ٢١٢ .]

www.kassioun.org

ان كل واحد ممن ذكرناهم من المؤرخين الفرنسيين فى عهد عودة الملكية لو ووجه بمسألة منشأ علاقات الملكية لحاول – كما فعل جيزو – ان يتهرب من المشكلة بالرجوع على نحو ذكى بدرجة او باخرى الى «**الطبيعة الانسانية**» .

ان النظرة الى «الطبيعة الانسانية» باعتبارها المرجع الاعلى الذى يحسم كل «المعضلات» فى مجال القانون والاخلاق والسياسة والاقتصاديات قد ورثها بكليتها كتّاب القرن التاسع عشر عن كتّاب التنوير فى القرن السابق .

فلو ان الانسان – عندما ظهر الى العالم – لم يجلب معه رصيدا جاهزا من «الافكار العملية» الفطرية ، ولو ان الفضيلة لا تحترم لانها فطرية فى الناس بل لانها مفيدة كما اكد لوك ، ولو ان مبدأ المنفعة الاجتماعية هو القانون الاعلى كما قال هلفيسيوس ، ولو ان الانسان هو مقياس الاشياء حيثما كانت هناك مسألة علاقات انسانية متبادلة – فان من الطبيعى تماما ان نستخلص من ذلك نتيجة تقضى بان طبيعة الانسان هى الزاوية التى يجب منها ان نؤكد ما اذا كانت علاقات معينة مفيدة او ضارة ، معقولة او غير معقولة . ومن وجهة النظر هذه ناقش كتّاب التنوير فى القرن الثامن عشر كلا من النظام الاجتماعى القائم حينذاك والاصلاحات التى ظنوها مرغوبا فيها . لقد كانت الطبيعة الانسانية بالنسبة لهم اهم حجة فى مناقشاتهم مع خصومهم . ويتضح مدى اهمية هذه الحجة فى نظرهم بشكل رائع مثلا من ملاحظة **كوندورسيه** التالية : «تتشكل افكار العدالة والقانون دائما بصورة متطابقة لدى كل الكائنات المتمتعة بالقدرة على الاحساس واكتساب الافكار . ومن ثم فهى متطابقة» . صحيح انه يحدث ان يشوهها الناس (les altèrent) . «لكن كل انسان يفكر بشكل سليم سيصل الى افكار معينة فى الاخلاق بنفس الحتم الذى يصل به الى افكار معينة فى الرياضيات . وهذه الافكار هى النتاج الضرورى للحقيقة القاطعة وهى ان الناس كائنات مدركة وعاقلة» . والواقع ان افكار كتّاب التنوير الفرنسيين عن المجتمع لم تستخلص – بالطبع – من هذه الحقيقة الضئيلة جدا ، وانما طرحتها عليهم بيئتهم . «فالانسان» الذى كان فى ذهنهم لا يتميز فقط بقدرته على الادراك والتفكير :

www.kassioun.org

فان «طبيعته» كانت تتطلب نظاما بورجوازيا محددا (فكتابات هولباخ قد احتوت بالدقة تلك المطالب التى نفذتها فيما بعد الجمعية التأسيسية) ؛ ان «طبيعته» قد اوصت بحرية التجارة وعدم تدخل الدولة فى علاقات الملكية بين المواطنين (laissez faire, laissez passer!) * الخ . . ان كتّاب التنوير قد نظروا الى الطبيعة الانسانية خلال غشاوة احتياجات وعلاقات اجتماعية معينة . لكنهم لم يظنوا ابدا فى ان التاريخ قد وضع غشاوة ما على اعينهم ، لقد تخيلوا ان «الطبيعة الانسانية» ذاتها كانت تتكلم خلال شفاههم بعد ان ادركها وابرز قيمتها الحقيقية فى النهاية ممثلو الانسانية المستنيرون .

ولم يكن لدى كل كتّاب القرن الثامن عشر مفهوم موحد عن الطبيعة الانسانية ، بل لقد كانوا فى بعض الاحيان يختلفون فيما بينهم اختلافا بينا حول هذه المسألة . لكنهم جميعا كانوا مقتنعين على حد سواء بان النظرة السليمة لهذه الطبيعة هى وحدها التى يمكن ان تزودنا بمفتاح لتفسير الظواهر الاجتماعية .

قلنا من قبل ان كثيرا من كتّاب التنوير الفرنسيين قد لاحظ بالفعل فى تطور العقل الانسانى توافقا مع القانون . وقد قادهم الى فكرة هذا التوافق مع القانون اولا وقبل كل شىء «**تاريخ الادب**» . انهم يتساءلون : «اى شعب لم يكن فى البداية شاعرا ثم غدا بعد ذلك مفكرا ؟» ** . لكن كيف يمكن تفسير هذا التتابع ؟ تفسره احتياجات المجتمع التى تحدد حتى تطور اللغة ، هكذا كان جواب كتّاب التنوير . فيؤكد الاب ارنو فى خطابه

---

* [دعه يعمل ، دعه يمر !] . صحيح ان ذلك لم يحدث دائما . ففى بعض الاحيان ، وباسم نفس الطبيعة ، نصح الفلاسفة والمشرع بان يخفف عدم المساواة فى الملكية» . وقد كان هذا احد التناقضات العديدة للمنورين الفرنسيين . لكن هذا لا يعنينا هنا . فما يهمنا هو ان «**طبيعة الانسان**» المجردة كانت فى كل حالة معينة حجة لصالح المطامح المحددة تماما لفئات معينة من المجتمع ، والمجتمع **البورجوازى** بالذات .

** جريم Correspondance littérajre [«المراسلات الادبية»] عن اغسطس ١٧٧٤ . ولم يكن جريم يفعل اكثر من ترديد فكرة الاب ارنو التى عرضها هذا الاخير فى خطاب القاه فى الاكاديمية الفرنسية .

www.kassioun.org

الذى ذكرناه فى الهامش ان «فن الكلام كغيره من الفنون هو ثمرة للاحتياجات والمصالح الاجتماعية» . والاحتياجات الاجتماعيـــة تتغير ، ومن ثم يتغير ايضا مجرى تطور «الفنون» . لكن ما الذى يحدد الاحتياجات الاجتماعية ؟ الطبيعة الانسانية هى التى تحـــدد الاحتياجات الاجتماعية ، احتياجات الناس الذين يكونون المجتمع . وبالتالى يجب أن نبحث فى هذه الطبيعة عن تفسير هذا المجرى لا غيره للتطور الفكرى .

ولكى تلعب الطبيعة الانسانية دور المقياس الاعلى فلا بد من اعتبارها شيئا **ثابتا** على الدوام . وقد اعتبرها كتّاب التنويـــر بالفعل كذلك كما يستطيع القارئ ان يرى من كلمات كوندورسيه التى اوردناها فيما سبق . لكن اذا كانت الطبيعة الانسانية غير قابلة للتغيير فكيف تصلح لتفسير مجرى التطور الفكـــرى او الاجتماعى للانسانية ؟ وما هى عملية التطور ايا كان ؟ انهـــا سلسلة من التغيرات . فهل يمكن تفسير هذه التغيرات عـــن طريق شىء غير قابل للتغير ، شىء ثابت الى الابد ؟ هل يكـون تغير الكم المتغير راجعا الى ثبات الكم الثابت ؟ لقد ادرك كتّاب التنوير ان الامر **لا يمكن ان يكون كذلك** ، ولكى يتخلصوا مـن مشكلتهم ابرزوا ان الكم **الثابت** ذاته قد اتضح انه قابل للتغير فى حدود معينة . فالانسان يمر بفترات مختلفة من العمر : الطفولة والشباب والكهولة وما الى ذلك . وخلال هذه الفترات المختلفة ليست احتياجاته واحدة : «ففى طفولته ليس لدى الانسان سوى مشاعره وخياله وذاكرته ، وهو لا يسعى الا الى التسليـة ولا ينشد الا الاغانى والقصص . ثم يتلو ذلك دور العواطف ؛ وتحتاج الروح الى ما يحركها ويثيرها . ثم ينمو الذكاء وتزداد قوة العقل الذى بدوره فى حاجة الى مران ، وتمتد فاعليته الى كل ما مـــن شأنه ان يثير حب المعرفة» .

هكذا يتطور الانسان الفرد ؛ وطبيعته هى التى تحدد هـذه التغيرات ، وهى التى نلحظها فى التطور الروحى **للانسانية جمعاء** بحكم انها كامنة فى طبيعة الانسان ، والتى تفسر كيف ان الشعوب تبدأ بالملاحم الشعرية وتنتهى بالفلسفة * .

* *Suard*, loc. cit., p. 383. [**سوارد** . المرجع ذاته ، ص ٣٨٣ .]

www.kassioun.org

ومن السهل ان نرى ان «تفسيرات» من هذا النـــوع التى لا تفسر شيئا على الاطلاق انما تصبغ وصف مجرى التطور الفكرى للانسانية بالوان زاهية نسبيا (فالتشبيه دائما يصور طبيعة الشىء الموصوف بطريقة اكثر حيوية) . ومن السهل ان نرى بالمثل ان مفكرى القرن الثامن عشر عند تقديمهم تفسيرات من هذا النـوع كانوا يدورون فى الحلقة المفرغة سالفة الذكر : البيئة تخلـــق الانسان ، والانسان يخلق البيئة . ففى الواقع يبدو من ناحية ان التطور الفكرى للانسانية ، اى بعبارة اخرى تطور الطبيعـــة الانسانية ، يعود الى الاحتياجات الاجتماعية ، ومن ناحية اخـرى ظهر ان تطور الاحتياجات الاجتماعية انما يعود الى تطور الطبيعة الانسانية .

وهكذا نرى ان المؤرخين الفرنسيين فى عهد عودة الملكية قد عجزوا بدورهم عن ازالة هذا التناقض ، وانما هو قد اتخذ عندهم شكلا جديدا .

www.kassioun.org

الفصل الثالث

الاشتراكيون الطوبويون

ما دامت الطبيعة الانسانية غير قابلة للتغيير ؛ وما دمنـــا نستطيع – اذا عرفنا صفاتها الرئيسية – ان نستخلص منهـــا ، بشكل رياضى ، مبادئ محكمة فى مجال الاخلاق والعلم الاجتماعى ، فلن يكون من الصعب ان نبتدع نظاما اجتماعيا يتجاوب كلية مع متطلبات الطبيعة الانسانية ، ويكون لهـــذا السبب ذاته – **نظاما اجتماعيا مثاليا** . وقد استرسل ماديو القرن الثامن عشر عن طيب خاطر فى بحث موضـــوع **التشريع الكامـــل** (législation parfaite) وتمثل هذه الابحاث **العنصر الطوبوى** فى كتابات التنوير * .

وقد كرس الاشتراكيون الطوبويون فى النصف الاول من القرن التاسع عشر انفسهم بكل ما لديهم من قوة لابحاث من هذا القبيل.

وكان الاشتراكيون الطوبويون فى ذلك العصر يشاطـــرون الماديين الفرنسيين آراءهم كلية فى علم الانسان . فهم مثلهـــم

---

* قدم هلفيسيوس فى كتابه «De l'Homme» [«عـــن الانسان»] تخطيطا تفصيليا لمثل هذا «التشريع الكامل» . ومن الشيق والمفيد الى اقصى درجة ان نقارن هذه الطوبوية بطوبويات النصف الاول من القرن التاسع عشر . ولكن من سوء الحظ لم تخطر لمؤرخى الاشتراكية ولا لمؤرخى الفلسفة ادنى فكرة عن هذه المقارنة . اما عن مؤرخى الفلسفة على الخصوص فيجب ان نقول – بهذه المناسبـــة – انهـــم قد عاملوا هلفيسيوس بطريقة لا تغتفر . فحتى لانجه الهادئ المعتدل لم يجد وصفا له الا قوله : «هلفيسيوس السطحى» . وقد كان هيجل – المثالى المطلق – اكثر الناس عدلا فى موقفه من هلفيسيوس المادى المطلق

www.kassioun.org

مثل الماديين – قد اعتبروا الانسان نتاجا للبيئة الاجتماعية التى تحيط به * ، ووقعوا – مثلهم مثل الماديين – فى حلقة مفرغة ، اذ فسروا الخصائص المتغيرة لبيئة الانسان بالخصائص غير المتغيرة **للطبيعة الإنسانية** .

ولا تمثل كل الطوبويات العديدة فى النصف الاول من القرن الحالى الا محاولات لابتداع تشريع كامل ، محاولات تتخذ من **الطبيعة الانسانية** مقياسا اعلى . وهكذا ينطلق **فورييه** من تحليله **للشهوات** البشرية ، وهكذا يبدأ **روبرت أوين** فى كتابه «Outline of the rational system of society» * * من «المبادئ الاولى للطبيعة الانسانية («first Principles of Human Nature») ويقرر ان «الحكومة الرشيدة» ، يجب اولا ان «تؤكد ماهية الطبيعة الانسانية» (ascertain what Human Nature is) ؛ وهكذا يعلن اتباع **سان سيمون** ان فلسفتهم تقوم على اساس مفهوم جديد للطبيعة الانسانية (sur une nouvelle conception de la nature humaine) * * * ؛ وهكذا يقول اتباع فورييه ان التنظيم الاجتماعى الذى ابتدعه معلمهم يمثل عددا من الاستنباطات الحاسمة من قوانين الطبيعة الانسانية التى لا تتغير * * * * .

---

* «نعم ، ليس الانسان سوى ما يصنعه به المجتمع الشامل القدرة او التعليم الشامل القدرة اذا اخذت هذه الكلمة باوسع معانيها ، اى اذا اخذت على انها لا تعنى فقط التعليم فى المدارس ومن الكتب بل التعليم الذى يزودنا به الناس والاشياء ، الاحداث والظروف ، التعليم الذى يبدأ فى التاثير علينا منذ المهد ولا يتركنا بعد ذلك لحظة واحدة» .(**كابيه** ، Voyage en Icarie [رحلة فى ايكارى] ، طبعة ١٨٤٨ ، ص ٤٠٢) .

* * [«تخطيط للنظام العقلى للمجتمع»]

* * * راجع «Le Producteur», t. I, Paris, 1825, Introduction [«المنتج» ، المجلد الاول ، باريس ١٨٢٥ ، المقدمة .]

* * * * Mon but est de donner une *Exposition Elémentaire,* claire et facilement intelligible, de l'organisation sociale, débuite par Fourier des lois de la nature humaine». (*V. Considérant*, Destinée Sociale, t. I, 3-me édition. Declaration) — Il serait temps enfin de s'accorder sur ce point : est il á propos, avant de faire des lois, de s'enquérir de la véritable nature de l'homme, afin d'harmoniser la loi, qui est par elle-même modifiable, avec la nature, qui est immuable et souveraine ?» «Notions élementaires de la science sociale de Fourier, par l'auteur de la Défense

www.kassioun.org

بالطبع فان النظرة الى الطبيعة الانسانية كاعلى مقياس ، لم تمنع المدارس الاشتراكية المتعددة من ان تختلف اختلافا كبيرا جدا فى تحديد خصائص هذه الطبيعة . فمن وجهة نظر اتباع سان سيمون مثلا ، «تتناقض مشروعات أوين الى حد كبير مع ميول الطبيعة الانسانية ، بحيث ان الشعبية التى يبدو انها تتمتع بها اليوم» (وقد كتب هذا فى ١٨٢٥) «تبدو للوهلة الاولى امرا لا يمكن تفسيره» * . نجد فى كتيب فورييه الجدالى بعنوان : «Pièges et charlatanisme des deux sectes Saint-Simon et Owen, qui promettent l'association et le progrès» * * عددا كبيرا من العبارات الحادة التى تقول ان تعاليم سان سيمون ايضا تتناقض مع كل ميول الطبيعة الانسانية . ويبدو ان الاتفاق – الآن كما فى زمن كوندورسيه – حول تعريف الطبيعة الانسانية اصعب كثيرا من تعريف شكل هندسى .

ولما كان الاشتراكيون الطوبويون فى القرن التاسع عشر يتمسكون بوجهة نظر **الطبيعة الانسانية** ، فلم يفعلوا غير ان كرروا اخطاء مفكرى القرن الثامن عشر – وتلك خطيئة كان يشاركهم فيها على اى حال كل العلم الاجتماعى المعاصر لهم * * * . لكننا

---

du Fouriérisme» (*Henri Gorsse*, Paris. 1844, p. 35). [«ان هدفى هو ان اقدم عرضا اوليا واضحا وسهل الفهم للتنظيم الاجتماعى الذى استخلصه فورييه من قوانين الطبيعة الانسانية» .(**ف . كونسيديرانت** ، المصير الاجتماعى ، المجلد الاول ، الطبعة الثالثة . البيان) . – «لقد حان الوقت لان نتفق حول النقطة التالية : هل من الضرورى ان نبحث ، قبل وضع القوانين ، الطبيعة الحقة للانسان ، لكى نجعل القانون الذى هو بذاته قابل للتغير ينسجم مع الطبيعة السائدة وغير المتغيرة ؟» «افكار اولية عن العلم الاجتماعى عند فورييه ، بقلم مؤلف دفاع عن مذهب فورييه» (**هنرى جورس** ، باريس ١٨٤٤ ، ص ٣٥ .)]

* «Producteur», t. I, p. 139 [«المنتج» ، المجلد الاول ، ص ١٣٩ .]

* * [«احابيل ودجل جماعتى سان سيمون واوين اللذين وعدا بالتعاون والتقدم» .]

* * * لقد اوضحنا ذلك بالنسبة لمؤرخى فترة عودة الملكية . ومن السهل جدا ان نوضحه كذلك بالنسبة للاقتصاديين . فعندما دافع هؤلاء

www.kassioun.org

نستطيع ان نرى لديهم جهدا ضخما للانفلات من الحدود الضيقة للتصور المجرد ، والاعتماد على ارض صلبة . وتتميز بذلك كتابات **سان سيمون** بالذات .

فبينما كان كتّاب التنوير الفرنسيون كثيرا ما ينظرون الى تاريخ الانسانية باعتباره سلسلة من المصادفات التى هى اكثر او اقل حظا * بحث سان سيمون فى التاريخ اولا عن **التوافق مع القانون** . فالعلم عن المجتمع الانسانى يستطيع ان يصبح فى نفس دقة العلم الطبيعى بل ينبغى ان يكون كذلك . ويجب ان

عن النظام الاجتماعى البورجوازى ضد الرجعيين والاشتراكيين ، دافعوا عنه باعتباره النظام الاكثر ملاءمة للطبيعة الانسانية . كما ترتبط الجهود لاكتشاف «قانون» مجرد «للسكان» – سواء جاءت من ناحية الاشتراكيين ام من المعسكر البورجوازى – ارتباطا وثيقا بالنظر الى «الطبيعة الانسانية» كمفهوم اساسى للعلم الاجتماعى . ويكفى كيما نقتنع بذلك ان نقارن بين تعاليم مالتس بهذا الخصوص من جهة وتعاليم جودوين او مؤلف «تعليقات على ج . س . ميل» (١١) ، من الجهة الاخرى . فكل من مالتس وخصومه قد سعى الى البحث عن قانون واحد – او بعبارة اخرى قانون مطلق – للسكان . اما اقتصادنا السياسى المعاصر فهو ينظر للامر بطريقة اخرى : انه يعلم ان كل مرحلة من التطور الاجتماعى لها **قانونها الخاص** للسكان . لكننا سنتكلم عن ذلك فيما بعد .

* وفى هذا الخصوص فان للوم الذى وجهه هلفيسيوس الى مونتسكيو دلالة خاصة ، حيث قال : «فى كتابه عن اسباب عظمة وانحلال روما لم يعط مونتسكيو اهتماما كافيا لاهمية الصدف السعيدة فى تاريخ الدولة . لقد وقع فى الخطأ الذى يميز جدا المفكرين عندما يريدون ان يفسروا كل شىء ، وفى خطأ الاساتذة المنعزلين الذين ينسون طبيعة الناس ويضفون على ممثلى الشعب آراء سياسية لا تتغير ومبادئ موحدة . بيد انه كثيرا ما قاد رجل واحد وفق هواه تلك المجالس الهامة التى تسمى **مجالس الشيوخ**» . («Pensées et réflexions» CXL فى المجلد III من «Œuvres complètes de Helvétius», Paris, MDCCCXVIII. [افكار وتأملات CXL فى المجلد الثالث من «اعمال هلفيسيوس الكاملة» ، باريس MDCCCXVIII] ، ألا يذكرك هذا ، ايها القارئ ، بنظرية «الابطال والرعاع» (١٢) المنتشرة الآن فى روسيا ؟ انتظر قليلا فان ما سنعرضه فيما بعد سيوضح بدرجة اكبر قلة الاصالة فى «علم الاجتماع» الروسى .

www.kassioun.org

ندرس وقائع الحياة الماضية للانسانية لكى نكتشف فيها قوانين **تقدمها** . ولا يستطيع ان يتنبأ **بالمستقبل** الا ذلك الذى فهم **الماضى** . واذ عبر سان سيمون عن مهمة العلم الاجتماعى بهذه الطريقة فقد انطلق – على الخصوص – لدراسة تاريخ اوروبا الغربية منذ سقوط الامبراطورية الرومانية . وتتضح جدة آرائه واتساعها من ان تلميذه تييرى كاد يستطيع ان يحدث انقلابا فى وضع التاريخ الفرنسى . كما كان سان سيمون يعتقد ان جيزو ايضا قد استعار افكاره منه . فاذا تركنا جانبا مسألة الملكية النظرية هذه دون ان نحسمها فسنلاحظ انه كان فى وسع سان سيمون ان يتتبع بواعث التطور الداخلى للمجتمعات الاوروبية اكثر من **المؤرخين المتخصصين** فى عصره . فاذا كان تييرى ومينيه وجيزو قد اشاروا الى علاقات الملكية كاساس لكل النظام الاجتماعى ، فان سان سيمون الذى القى الضوء ساطعا وللمرة الاولى على تاريخ هذه العلاقات فى اوروبا الحديثة قد سار الى ابعد من هذا وسأل نفسه : لماذا تلعب هذه العلاقات بالتحديد – وليس غيرها من العلاقات – مثل هذا الدور الهام ؟ وهو يرى انه يجب البحث عن اجابة لذلك فى **متطلبات التطور الصناعى** : «فحتى القرن الخامس عشر كانت السلطة المدنية فى ايدى النبلاء ، وكان ذلك مفيدا ، لان النبلاء كانوا حينئذ اقدر الصناعيين . لقد كانوا يوجهون الاعمال الزراعية ، وكانت الاعمال الزراعية فى ذلك الحين النوع الوحيد من المهن الصناعية الهامة» * . وعن السؤال التالى : لماذا تكون لاحتياجات الصناعة مثل هذه الاهمية الحاسمة فى تاريخ الانسانية ؟ اجاب سان سيمون : لان الانتاج هو الغاية من التنظيم الاجتماعى (le but de l'organisation sociale c'est la production) . وقد اضفى مثل هذه الدلالة على الانتاج لانه طابق بين **المفيد** وبين المنتج (l'utile — c'est la

---

* «Opinions littéraires, philosophiques et industrielles», Paris. 1825, p.p. 144—145. [«افكار ادبية وفلسفية وصناعية» ، باريس ١٨٢٥ ، ص ١٤٤ ؛ ١٤٥ .] ؛ وانظر ايضا «Catéchisme politique des industriels» [«العقائد السياسية للصناعيين» .]

www.kassioun.org

la politique. . . c'est la science de. واعلن بحسم ان (production * la production * * .

وكان من المفروض ان يدفع التطور المنطقى لهذه الآراء سان سيمون الى خلاصة مؤداها ان قوانين الانتاج هى بالذات القوانين التى يتحدد بها التطور الاجتماعى فى التحليل النهائى والتى يجب ان تكون دراستها مهمة المفكر الذى يتطلع الى التنبؤ بالمستقبل . ولعل سان سيمون يقترب احيانا من هذه الفكرة ولكنه يقترب منها مجرد اقتراب واحيانا فقط .

فادوات العمل ضرورية للانتاج . والطبيعة لا تقدم هذه الادوات جاهزة ، بل يبتدعها الانسان . ويفترض ابتداع اداة معينة – او حتى مجرد استخدامها – درجة معينة من التطور العقلى لـــدى المنتج . وهكذا فتطور «الصناعة» يبدو نتيجة لا شبك فيها لتطور العقل الانسانى . فيبدو وكأن الرأى ، «التنوير» (lumières) يحكم العالم بلا منازع هنا ايضا . وكلما زادت اهمية دور الصناعـــة وضوحا كلما تأكدت فيما يبدو فكرة فلاسفة القرن الثـامن عشر هذه . بل ان سان سيمون يتبناها بطريقة اكثر اتساقا من كتّاب التنوير الفرنسيين ، فبينما كان يعتبر مسألة ان الاحساسات هى مصدر الافكار مسألة منتهية ، لم يكن لديه اساس كاف للشك فى تأثير البيئة على الانسان . ان تطور المعرفة هو بالنسبة لـه العامل الاساسى للتقدم التاريخى * * * . وهو يحاول ان يكتشـف قوانين هذا التطور ؛ وهكذا وضع قانـــون المراحل الثلاث – **اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية** ، الذى قدمه اوجست كونت

---

* [النافع هو الانتاج .]

* * [السياسة . . . هى علم الانتاج]

* * * لقد وصل سان سيمون بالنظرة المثالية للتاريخ الى نتائجهـــا الاخيرة القصوى . **فالافكار** («المبادئ») بالنسبة لـه ليست هى فحسب الاساس النهائى **للعلاقات الاجتماعيـــة** بل ومن بين هذه الافكار تلعب «الافكار العلمية» – «النظام العلمى للعالم» – الدور الرئيسى ؛ ومن هذه الافكار تنبع الافكار الدينية التى تحدد بدورها **مفاهيم الناس الاخلاقية** . ان هذه هى **النظرة العقلية** التى سادت فى نفس الوقت بين الفلاسفة الالمـــان لكنها اتخذت لديهم شكلا مختلفا تماما .

www.kassioun.org

فيما بعد بنجاح كبير على انه من «اكتشافه» * . لكن سان سيمون يفسر هذه القوانين ايضا – فى المدى البعيد **بخصائص الطبيعة الانسانية** . فهو يقول : «**يتكون المجتمع من افراد ، وبالتالى فان تطور العقل الاجتماعى لا يمكن ان يكون سوى صورة مكررة لتطور العقل الفردى على نطاق اوسع**» . واذ ينطلق من هذا المبدأ الاساسى فانه يعتبر ان «قوانينه» عن التطور الاجتماعى انما تتضح وتثبت نهائيا او بشكل قاطع حينما ينجح فى اكتشاف ما يؤكدها من شبه فى تطور الفرد . فهو يزعم مثلا بان دور **السلطة** فى الحياة الاجتماعية سينتهى مع الوقت الى **الصفر** ** . فالتناقص التدريجى والذى لا يكف لهذا الدور هو احد قوانين تطور

---

* عارض ليترى بشدة عبارة هوبار حين اشار هذا الاخير الى ذلك . . . الاقتباس . ونسب الى سان سيمون «قانون المرحلتين» فحسب : اللاهوتية والعلمية . ويلاحظ فلنت وهو يردد هذا الرأى عن ليترى : «انه على حق حين يقول ان قانون المراحل الثلاث لا يذكر فى اى من كتابات سان سيمون» ,(«Philosophy of History in France and Germany» Edinburgh and London MDCCCLXXIV, p. 158). [«فلسفة التاريخ فى فرنسا والمانيا» ، أودنبرج ولندن MDCCCLXXIV ، ص ١٥٨.] وسنقارن بين هذه الملاحظة وبين الاقتباسات التالية من كتابات سان سيمون : «اين هو الفلكى والفيزيائى او الكيميائى او عالم الفسيولوجى الذى لا يعلم ان العقل الانسانى فى كل فروع المعرفة قبل ان يتقدم من الافكار اللاهوتية المحضة الى الافكار الوضعية قد استخدم الميتافيزيقا لفترة طويلة ؟ ألا يثير هذا لدى كل من درس تاريخ العلوم الاقتناع الثابت بان هذه المرحلة الوسطى قد كانت مفيدة ، بل ولا يمكن الاستغناء عنها لاحداث هذا الانتقال ؟ («Du système industriel», Paris MDCCCXXI, préface, p.p. VI—VII). [«عن النظام الصناعى» ، باريس MDCCCXXI ، المقدمة ، ص VI—VII .] وقد كان قانون المراحل الثلاث من الاهمية لدى سان سيمون بحيث انه كان مستعدا لان يفسر به احداثا سياسية محضة مثل سيادة «القانونيين الميتافيزيقيين» اثناء الثورة الفرنسية . ولقد كان من السهل على فلنت ان «يكتشف» هذا لو انه قرأ بعناية مؤلفات سان سيمون . لكن من سوء الحظ انه **اسهل جدا ان تكتب تاريخا علميا عن الفكر الانسانى من ان تدرس المجرى الفعلى لتطوره** .

** وقد استعار برودون منه هذه الفكرة فيما بعد وشوهها وبنى عليها نظريته **الفوضوية** .

www.kassioun.org

الانسانية . فكيف اذن يبرهن هذا القانون ؟ ان **الحجة الاساسية** لصالحه هى الاشارة الى التطور الفردى للانسان : فالطفل يجبر فى المدرسة الاولية على ان يطيع من هم اكبر منه دون مناقشة ، وفى المرحلة الثانوية والعليا من الدراسة ينحسر عنصر **الطاعة** بالتدريج حتى يترك المكان فى النهاية للعمل **المستقل** عند النضج . وايا كانت الطريقة التى ينظر بها اى انسان الى مسألة تاريخ «السلطة» فان كل امرئ سيوافق اليوم على ان المقارنة – هنا كما فى اى موضوع آخر – ليست برهانا . فالتطور الجنينى لكل **ما هو لا يتجزأ (تاريخ ادوار نمو الفرد)** تقدم عديدا من المماثلات مع تاريخ **النوع** الذى ينتمى اليه هذا الكل الذى لا يتجزأ : فيقدم **تاريخ ادوار نمو الفرد** عديدا من الاشارات الهامة حول **تاريخ تطور الجنس** . لكن ماذا نقول اليوم عن اى عالم حياة (بيولوجيا) يحاول ان يؤكد ان التفسير النهائى لتاريخ تطور الجنس لا بد ان يبحث عنه فى تاريخ ادوار نمو الفرد ؟ ان علم البيولوجيا الحديث ينهج مسارا مضادا تماما : انه يفسر التاريخ الجنينى **للكل الذى لا يتجزأ** بتاريخ **النوع** .

ان الاستناد الى الطبيعة الانسانية قد اعطى مظهرا خاصا لكل «قوانين» التطور الاجتماعى التى صاغها كل من سان سيمون نفسه واتباعه .

وكان من شأن هذا الاستناد ان يوقعهم فى حلقة مفرغة . – **ان طبيعة الانسانية تفسر تاريخها** . لكن ما هو المفتاح لفهم طبيعة الانسان ؟ **التاريخ** . – وواضح اننا لو تحركنا فى هذه الدائرة فلن نستطيع ان نفهم لا طبيعة الانسان ولا تاريخه ، ولن نستطيع الا ان نقدم بعض الملاحظات الفردية التى تتفاوت فى عمقها حول هذا المجال او ذاك من مجالات الظواهر الاجتماعية . وقد طرح سان سيمون عددا من الملاحظات الذكية التى تصطبغ فى بعض الاحيان بالعبقرية حقا ، لكنه لم يستطع ان يحرز هدفه الرئيسى – هدف اكتشاف اساس علمى رصين «للسياسة» .

يقول سان سيمون : «يخضع القانون الاسمى لتقدم العقل الانسانى كل شىء له ، ويتحكم فى كل شىء ، والناس بالنسبة له مجرد ادوات . . . ورغم ان هذه القوة (اى هذا القانون) تنبعث

www.kassioun.org

منا (dérive de nous) فاننا لا نستطيع ان نتحرر من تاثيرها او نخضعها لنا الا بقدر ما نستطيع ان نغير وفق نزواتنا فعل القوة التى تجبر الارض على ان تدور حول الشمس . وكل ما نستطيع ان نفعله هو ان نخضع بوعى لهذا القانون (للعناية الالهيـــة الحقيقية التى نقدسها) مدركين الاتجاه الذى يصفه لنا بدلا مـن ان نخضع له خضوعا اعمى . ولنلاحظ – بشكل عابر – ان هذا هو الذى سيشكل تلك الخطوة الى الامام ، التى على الفكر الفلسفى فى عصرنا ان يؤديها» * .

وهكذا فالانسانية خاضعة تماما لقانون تطورها العقلى ؛ انها لا تستطيع ان تفلت من تأثير هذا القانون حتى لو رغبت فى ذلك . فلندرس هذه الفرضية بدقة اكثر ، ولنأخذ على سبيل الايضاح قانون المراحل الثلاث . لقد انتقلت البشرية من الفكر اللاهوتى الى الفكر الميتافيزيقى ، ثم من الفكر الميتافيزيقى الى الفكر الوضعى . وقد عمل هذا القانون بقوة قوانين الميكانيكا .

وقد يكون الامر كذلك حقا ، لكن ثمة سؤال يطرح ، كيـــف نفهم فكرة ان البشرية لا تستطيع ان تغير فعل هذا القانون **حتى لو رغبت فى ذلك** ؟ هل يعنى هذا انها لم تكن لتتجنب الميتافيزيقا حتى لو ادركت مزايا التفكير الوضعى بينما هى لا تزال عند نهاية الفترة اللاهوتية ؟ بالطبع لا ، واذا كانت الاجابة بالنفى فان من الجلى ان ثمة افتقارا الى الوضوح فى فكرة سان سيمون نفسها عن توافق التطور الفكرى مع القانون . فاين يكمن عدم الوضوح هذا ؟ ومن اين ينبع ؟

انه يكمن فى **ذات المناقضة بين القانون وبين الرغبة فى تغيير فعله** . فحالما تظهر هذه الرغبة بين الناس فانها نفسها تصبح حقيقة من حقائق التطور العقلى للبشرية ، ويجب ان يشمل القانون هذه الحقيقة لا ان يتنازع معها . وما دمنا نعترف بامكانية مثل هذا النزاع فاننا لا نكون بعد قد اوضحنا لانفسنا مفهوم القانـــون

---

* «*L'organisateur*» [«المنظم»] ، ص ١١٩ ، المجلد الرابع من مؤلفات سان سيمون ، الذى يشكل المجلد العشرين من الاعمال الكاملة لسان سيمون انفانتين .

www.kassioun.org

ذاته ، وسنسقط حتما فى احد قطبى التطرف : اما ان نتخلى عن وجهة نظر التوافق مع القانون ونتبنى وجهة نظر **المرغوب فيه** ، واما اننا نهمل المرغوب فيه – او بدقة اكبر **ما كان مرغوبا فيه** عند اناس عصر معين ، وبذلك نضفى على **القانون** صبغة غيبية ، ونحوله الى نوع من القدر . ويعتبر «القانون» قدرا كهذا بالتحديد فى كتابات سان سيمون والطوبويين عموما ، الى الحد الذى كانوا يتحدثون فيه عن التوافق مع القانون . ويمكننا ان نلاحظ بشكل عابر انه حين يهب «علماء الاجتماع الذاتيون» الروس للدفاع عن «الشخصية» و«المثل العليا» وغيرها من الاشياء الرائعة فانهم يحاربون بالتحديد مذهب «المجرى الطبيعى للاشياء» ، ذلك المذهب **الطوبوى** غير الواضح وغير الكامل والعديم القيمة بالتالى . ويبدو وكأن علماء الاجتماع لدينا لم يسمعوا ابدا عما يشكل **المفهوم العلمى الحديث للتوافق مع قوانين العملية الاجتماعية التاريخية** .

فمن اين نشأ الغموض فى مفهوم الطوبويين عن التوافق مع القانون ؟ لقد نشأ عن النقيصة الجذرية التى اشرنا اليها من قبل فى الفكرة التى تبناها الطوبويون – وليسوا وحدهم فى هذا كما عرفنا الآن – حول تطور الانسانية . لقد فسروا تاريخ الانسانية بطبيعة الانسان . وحالما تتحدد هذه الطبيعة ، تتحدد بالتالى قوانين التطور التاريخى ، فكل التاريخ يتفتح (an sich) * **كما** كان يمكن ان يقول هيجل . ولا يستطيع الانسان ان يتدخل فى مجرى تطوره الا بنفس القدر الذى يستطيع به ان يكف عن ان يكون انسانا . ان **قانون** التطور يظهر فى شكل العناية الالهية .

وتلك جبرية تاريخية تنشأ عن مذهب يعتبر ان انجازات المعرفة ، وبالتالى النشاط الواعى للانسان ، هى القوة الاساسية المحركة للتاريخ .

ولكن لنمض الى ابعد من ذلك .

اذا كانت دراسة طبيعة الانسان هى التى تقدم المفتاح لفهم

---

* فى ذاته (من الالمانية) . **المترجم** .

www.kassioun.org

التاريخ ، فان ما يهمنى ليس هو دراسة وقائع التاريخ بقدر ما هو الوصول الى فهم سليم للطبيعة الانسانية بالذات . وحالما اكتسب فكرة صحيحة عن هذه الاخيرة فاننى افقد كل اهتمام تقريبا بالحياة الاجتماعية **كما هى عليه** ، واركز كل انتباهى على الحياة الاجتماعية **كما يجب ان تكون عليه وفقا للطبيعة الانسانية** . ولا تصطدم الجبرية فى التاريخ باى حال بالموقف الطوبوى تجاه الواقع فى الممارسة . وبالعكس فانها تدعم مثل هذا الموقف وذلك بقطعها لخيط البحث العلمى . **وبشكل عام كثيرا ما تسير الجبرية جنبا الى جنب مع الذاتية المتطرفة** . وكثيرا ما تعلن الجبرية عن ذهنيتها هى باعتبارها قانونا حتميا للتاريخ . فعن الجبريين بالذات يستطيع المرء ان يقول ما قاله الشاعر :

Was sie den Geist der Geschichte nennen
Ist nur der Herren eigner. Geist * . (١٣)

زعم انصار سان سيمون ان نصيب مستغلى عمل الآخرين من المنتوج الاجتماعى يتناقص بالتدريج . وكان هذا التناقص فى نظرهم اهم القوانين التى تحكم التطور الاقتصادى للانسانية . وكبرهان على ذلك اشاروا الى الهبوط التدريجى فى مستوى **الفائدة والريع العقارى** . ولو انهم قد تمسكوا فى هذه الحالة باساليب البحث العلمى الدقيقة لاكتشفوا الاسباب الاقتصادية للظاهرة التى اشاروا اليها ، ولاهتموا من اجل ذلك بدراسة الانتاج وتجديد الانتاج وتوزيع المنتجات . ولو فعلوا ذلك فلربما رأوا ان هبوط مستوى الفائدة او حتى الريع العقارى – اذا كان يحدث حقا – لا يعنى بذاته باى حال ان هناك هبوطا فى نصيب الملاك . ولوجد «قانونهم» الاقتصادى بالطبع صياغة مختلفة تماما . لكنهم لم يهتموا بذلك . فالثقة فى شمول قدرة القوانين الغامضة الناشئة عن الطبيعة الانسانية قد قادت نشاطهم الفكرى

---

* [ان ما يسمونه روح التاريخ ليس سوى روح هؤلاء السادة انفسهم .]

www.kassioun.org

الى مجال مختلف تماما . لقد قالوا ان اتجاها ساد فى التاريخ حتى الآن لا يمكن له الا ان يزداد قوة فى المستقبل : الهبوط الدائم فى نصيب المستغلين سيؤدى بالضرورة الى الاختفاء الكامل لهذا النصيب ، اى اختفاء طبقة المستغلين ذاتها . واذ نتنبأ بذلك فان علينا ان نبتدع منذ اليوم اشكالا جديدة للتنظيم الاجتماعى لم يعد فيها مكان للمستغلين . وواضح من الخصائص الاخرى للطبيعة الانسانية ان هذه الاشكال لا بد ان تكون كذا وكذا . . . واعدت خطة اعادة التنظيم الاجتماعى بسرعة كبيرة : ان الفكرة العلمية الكبيرة الاهمية عن توافق الظواهر الاجتماعية مع القانون قد ولدت عدة وصفات طوبوية . . .

وقد اعتبر طوبويو ذلك العصر مثل هذه الوصفات اخطر المهام التى تواجه المفكر . ولم يكن هذا المبدأ او ذاك من الاقتصاد السياسى مهما فى ذاته . انه لا يكتسب اهمية الا من حيث الاستنتاجات التطبيقية التى تنتج عنه . لقد اختلف ج . ب . ساى مع ريكاردو حول ما يحدد **القيمة التبادلية** للسلع . ويمكن تماما ان تكون هذه المسألة هامة من وجهة نظر المتخصصين . لكن الاهم من ذلك ان نعرف ما الذى **يجب** ان يحدد القيمة ؛ ومن سوء الحظ ان المتخصصين لا يحاولون التفكير فى ذلك . فلنفكر نحن بدلا عنهم . ان الطبيعة الانسانية تدلنا بوضوح على كذا وكذا . وحالما نبدأ فى الاستماع الى صوتها فسنرى بدهشة ان هذه المناقشة الهامة جدا فى نظر المتخصصين ليست فى الواقع كبيرة الاهمية . فنستطيع ان نتفق مع ساى اذ تنتج عن موضوعاته نتائج تنسجم كلية مع متطلبات الطبيعة الانسانية . ونستطيع ان نتفق مع ريكاردو ايضا لان افكاره بالمثل – اذا فسرت تفسيرا صحيحا واكملت – لا يمكن الا ان تدعم هذه المتطلبات . بهذه الطريقة تدخل الفكر الطوبوى دون تكلف فى تلك المناقشات العلمية التى ظل معناها غامضا عليه . وبهذه الطريقة حل اناس مثقفون موهوبون مثل **انفانتين** المسائل موضع النزاع فى الاقتصاد السياسى فى عصرهم .

لقد كتب انفانتين عددا غير قليل من الدراسات الاقتصادية السياسية التى لا يمكن ان تعتبر مساهمة جدية فى العلم ، الا انها

www.kassioun.org

مع ذلك لا يمكن تجاهلها كما يفعل حتى اليوم مؤرخو الاقتصاد السياسى والاشتراكية . ان لمؤلفات انفانتين الاقتصادية دلالتها كمرحلة هامة من مراحل تاريخ تطور الفكر الاشتراكى . لكن موقفه من مناقشات الاقتصاديين يمكن ان يتضح جيدا من المثال التالى .

من المعروف ان **مالتس** قد ناقش بعناد – ونقول بالمناسبة فى غير نجاح – نظرية **ريكاردو** عن الريع . وقد آمن انفانتين ان الحق فى الواقع فى جانب الاول لا الثانى . لكنه لم يقم حتى بمناقشة نظرية ريكاردو اذ انه لم يعتبر ذلك ضروريا . فمن رأيه ان كل «المناقشات حول طبيعة الريع ، وحول الارتفاع او الهبوط النسبى الفعلى فى الجزء الذى يأخذه الملاك من العامل يجب ان تنتهى الى سؤال واحد : ما هى طبيعة تلك العلاقات التى يجب ان تقوم لصالح المجتمع بين المنتج الذى انسحب من العمل (وهذا هو الاسم الذى اطلقه انفانتين على ملاك الارض) وبين المنتج النشيط (اى المزارع) ؟ وعندما نعرف هذه العلاقات فسيكفينا ان نبرز الوسائل التى يمكن ان تؤدى الى اقامة مثل هذه العلاقات ؛ وحين نفعل ذلك سيكون من الضرورى ان نضع فى اعتبارنا ايضا ظروف المجتمع الحالية ، بيد ان اى مسألة اخرى (غير تلك التى طرحت من قبل) ستكون مسألة ثانوية ، ولن تثمر سوى اعاقة تلك التركيبات التى يجب ان تحفز استخدام الوسائل السالفة الذكر» * .

ان المهمة الاساسية للاقتصاد السياسى ، الذى كان انفانتين يفضل ان يسميه «**التاريخ الفلسفى للصناعة**» ، هى ابراز كل من العلاقات المتبادلة بين مختلف فئات المنتجين ، وعلاقات طبقة المنتجين باسرها مع غيرها من طبقات المجتمع . ويجب ان تقوم هذه الدلائل على اساس دراسة التطور التاريخى للطبقة الصناعية ،

---

* فى مقالة «Considérations sur la baisse progressive du loyer des objets mobiliers et immobiliers», «Producteur», t. I, p. 564. [«تأملات حول الانخفاض التدريجى لايجار الاموال المنقولة وغير المنقولة» ، «المنتج» ، المجلد الاول ، ص ٥٦٤ .]

www.kassioun.org

ومثل هذه الدراسة يجب ان تؤسس على «المفهوم الجديد عن الجنس الانسانى» ، اى بعبارة اخرى عن الطبيعة الانسانية * .

ان تحدى مالتس لنظرية ريكاردو عن الريع يرتبط ارتباطا وثيقا بتحديه للنظرية الشهيرة — كما يقال الآن عندنا — عن العمل كاساس للقيمة . اما انفانتين فانه لم ينتبه الا قليلا الى جوهر الجدال ، واسرع ليحله باضافة طوبوية (او **تعديل** كما يقول الناس فى روسيا اليوم) لنظرية ريكاردو عن الريع ، فيقول : «ان فهم هذه النظرية فهما صحيحا يتطلب فيما يبدو لى ان نضيف اليها ان . . . العمال يدفعون (اى يدفعون فى شكل ريع) لبعض الناس من اجل وقت الفراغ الذى يتمتع به الآخرون ، ومن اجل حق استخدام وسائل الانتاج» .

ويعنى انفانتين بالعمال هنا ايضا — بل اساسا — المزارعين الرأسماليين . وما يقوله عن علاقتهم بملاك الارض صحيح تماما . لكن «تعديله» ليس اكثر من تعبير اشد حدة عن ظاهرة كان ريكاردو نفسه يعرفها جيدا . وبالاضافة الى هذا فان هذا التعبير الحاد (وقد كان آدم سميث فى بعض الاحيان يتكلم بحدة اشد) لا يحل مسألة القيمة او الريع ، بل يزيحها تماما عن مجال نظر انفانتين . لكن هذه المسائل لم توجد فى الواقع بالنسبة له : فهو لم يكن يهتم الا بمستقبل تنظيم المجتمع ؛ وكان من المهم له ان يقنع القارئ بان الملكية الخاصة لوسائل الانتاج **يجب** ألا توجد . وقد قال انفانتين هذا بوضوح ، ولو لم تثر مثل هذه المسائل العملية لغدت كل المناقشات العلمية حول القيمة مجرد مناقشات لفظية . وهذا — اذا امكن القول — هو **المنهج الذاتى فى** الاقتصاد السياسى .

ولم يحبذ الطوبويون هذا «المنهج» ابدا بشكل صريح . لكن ميلهم له يظهر فيما يظهر فى ان انفانتين قد اخذ على مالتس **الموضوعية** الزائدة . كما لو كانت الموضوعية هى الخطأ الاساسى

---

* راجع على الخصوص مقال «Considérations sur les progrès de l'économie politique», «Producteur», t. IV. «تأملات حول التقدم والاقتصاد السياسى» ، «المنتج» ، المجلد الرابع .]

www.kassioun.org

لهذا الكاتب . وكل من يعرف مؤلفات مالتس يدرك ان الموضوعية بالتحديد (وهى التى كانت تميز ريكاردو مثلا) غريبة دائما على مؤلف «بحث عن قانون السكان» . ونحـــن لا نعلم ما اذا كان انفانتين قد قرأ مالتس نفسه (فكل شىء يحملنا على الاعتقاد مثلا بانه لم يعرف آراء ريكاردو الا من خلال اقتباسات الاقتصاديين الفرنسيين عنه) ، لكنه حتى لو قرأه ما كان ليستطيع ان يعطيه قيمته الحقة ، ولما استطاع ان يوضح ان الحياة الواقعية تتناقض مع مالتس . لقد كان انفانتين مشغولا بالتأملات فيما يجب ان يكون ، بحيث لم يكن لديه الوقت او الرغبة فى دراسة ما هو قائم بالفعل بعناية . لقد كان على استعداد لان يقول لاول مداهن يقابله : «انت على حق ، فاليوم تسير امور الحياة الاجتماعية تماما كما وصفتها ، لكنك تتطرف فى **موضوعيتك** ؛ انظر الى المسألة من الزاوية الانسانية وسترى ان حياتنا الاجتماعية يجب ان يعاد بناؤها على اسس جديدة» .

ان الهواة الطوبويين كانوا مجبرين على ان يقدموا تنازلات نظرية لاى مدافع مثقف بدرجة او اخرى عن النظام البورجوازى . فلكى يسكت الطوبوى احساسه الداخلى بالعجز كان يعزى نفسه بلوم خصومه على موضوعيتهم : لنعترف بانكم اكثر ثقافة منى ، لكنى بدورى اكثر رحمة . ان الطوبوى لم يدحض المدافعين المثقفين عن البورجوازية ، وانما هو يضع بعض «الهوامش» و«التصويبات» لنظرياتهم .

وتقع عين القارئ المنتبه على موقف طوبوى مماثل تماما فى العلم الاجتماعى فى كل صفحة من كتابات علماء الاجتماع «الذاتيين» . بيد انه ستكون لدينا فرصة الحديث عن مثل هذا الاتجاه فيما بعد . اما الآن فلنأخذ مثلين ساطعين .

فى ١٨٧١ ظهر بحث ن . زيبر الراحل «نظرية ريكاردو عن القيمة ورأس المال على ضوء الاضافات والتوضيحات التالية لها» . وقد تحدث الكاتب فى مقدمته بعين العطف ، ولكن بالمناسبة فقط ، عن مقال السيد ى . جوكوفسكى «تيار آدم سميث والوضعية فى علم الاقتصاد» (وقد ظهر هذا المقال فى «سوفريمينيك» (١٤) فى عام ١٨٦٤) . ويقول السيد

www.kassioun.org

ميخايلوفسكى عن هذه الاشارة العارضة : «يسرنى ان اذكر انى فى مقالى «عن النشاط الادبى لى . ج . جوكوفسكى» قد قدمت تقديرا كبيرا للخدمات التى اداها عالمنا فى الاقتصاد . واشرت بوجه خاص الى ان السيد جوكوفسكى قد عبر منذ وقت طويل عن فكرة ضرورة العودة الى مصادر الاقتصاد السياسى التى تزودنا بكل المعلومات اللازمة للحل الصحيح لمشاكل العلم الرئيسية ، وهى معلومات شوهتها الكتب المدرسية الحديثة عن الاقتصاد السياسى . لكننى اشرت حينئذ كذلك الى ان شرف «الاولوية» فى هذه الفكرة – التى كانت مثمرة الى اقصى حد على يد كارل ماركس القوية فيما بعد – لا يعود فى المطبوعات الروسية الى السيد جوكوفسكى بل الى كاتب آخر ، الى مؤلف مقالات «النشاط الاقتصادى والتشريع» («سوفريمينيك» ، ١٨٥٩) ، و«رأس المال والعمل» (١٨٦٠) والتعليقات على ميل (١٥) والخ . . والى جوار الاسبقية الزمنية يمكننا ان نعبر عن الفارق بين هذا الكاتب وبين السيد جوكوفسكى بشكل حى بالطريقة التالية . اذا كان السيد جوكوفسكى مثلا قد اثبت بشكل مفصل وبطريقة علمية خالصة ، بل بحذلقة فى بعض الاحيان ، ان العمل هو مقياس القيمة ، وان كل قيمة ينتجها العمل ، فان مؤلف المقالات السالفة الذكر – دون ان يتغاضى عن الجانب النظرى للمسألة – قد ابرز بشكل رئيسى النتيجة المنطقية والعملية الناشئة عنها : اذا كانت كل قيمة ينتجها العمل ويقيسها ، فانها يجب ان تؤول الى العمل» * . وليس المرء فى حاجة الى ان يكون واسع الاطلاع فى الاقتصاد السياسى لكى يدرك ان «مؤلف التعليقات على ميل» قد عجز تماما عن فهم نظرية القيمة التى تطورت فيما بعد بشكل رائع «على يد ماركس القوية» . وكل من يعرف تاريخ الاشتراكية يدرك **لماذا** تغاضى هذا الكاتب – رغم تأكيد السيد ميخايلوفسكى – لماذا «تغاضى عن الجانب النظرى للمسألة» بالذات ، وتاه فى تأملات

---

* مؤلفات ن . ك . ميخايلوفسكى . المجلد الثانى ، الطبعة الثانية . سان بطرسبورج ١٨٨٨ ، ص ٢٣٩–٢٤٠ .

www.kassioun.org

حول المقياس الذى **يجب** ان يتم به تبادل المنتجات فى مجتمع حسن التنظيم . ان مؤلف التعليقات حول ميل قد نظر الى المسائل الاقتصادية من زاوية **طوبوية** . وكان هذا طبيعيا تماما فى عصره . لكن من الغريب تماما ان السيد ميخايلوفسكى لم يستطع ان يتخلص من هذه النظرة فى العقد الثامن (ولا فيما بعد والا لكان قد صحح هذا الخطأ فى الطبعة الجديدة من مؤلفاته) حين اصبح من السهل التوصل الى نظرة اكثر سلامة للامور حتى من المؤلفات المبسطة . ان السيد ميخايلوفسكى لم يفهم ماذا كتب «مؤلف التعليقات حول ميل» عن القيمة . وقد حدث هذا لانه ايضا قد **«تغاضى عن الجانب النظرى للمسألة» وتاه فى «النتائج المنطقية العملية لها»** ، اى فى اعتبار ان «كل قيمة يجب ان تؤول الى العمل» . ونحن اصبحنا نعرف ان عاطفة الطوبويين تجاه النتائج العملية كان لها دائما تأثير ضار على تدليلاتهم النظرية . ريبدو قِدَم «النتيجة» التى قادت السيد ميخايلوفسكى بعيدا عن الطريق السليم من انها نتيجة استخلصها بالفعل من نظرية ريكاردو عن القيمة **الطوبويون الانجليز حتى فى العشرينات** . لكن السيد ميخايلوفسكى كطوبوى ليس مهتما حتى بتاريخ الطوبوية .

واليكم المثال الآخر . شرح السيد ف . ف . فى عام ١٨٨٢ ظهور كتابه «مصائر الرأسمالية فى روسيا» بالطريقة التالية :

«ان المجموعة التى اقدمها الآن الى القارئ تتكون من مقالات سبق نشرها فى مجلات مختلفة . ونحن اذ نقدمها فى كتاب مستقل انما نعرضها بنوع من الوحدة الخارجية ووزعنا المواد بصورة اخرى قليلا مزيلين المسائل المكررة (وهو لم يزلها جميعا باى حال : فكثير منها قد ظل فى كتاب السيد ف . ف . — ج . ب .*) . اما محتواها فقد ظل كما هو ، ولم نضف اليها الا قليلا من الوقائع والحجج ، واذا كنا رغم هذا نخاطر بان نضع كتابنا للمرة الثانية بين يدى القارئ فنحن انما نفعل ذلك بهدف واحد — اننا نحاول ان نجبر الانتليجنتسيا (رجال الفكر) على ان تنتبه الى المسألة المثارة بمهاجمة نظرتها الى العالم مستخدمين كل الاسلحة التى تحت تصرفنا (وانها لصورة مؤثرة : ان السيد

* جيورجى بليخانوف . **المترجم** .

www.kassioun.org

ف . ف . مستخدما **كل الاسلحة** يهاجم نظرة القارئ الى العالم فتسارع الانتليجنتسيا فزعة الى الاستسلام وتنتبه ، والخ . — ج . ب .) ، وان نتحدى الكتّاب الاجتماعيين المثقفين والمحترفين للرأسمالية والشعبية (١٦) لكى يدرسوا قانون تطور روسيا الاقتصادى — وهو اساس كل مظاهر الحياة الاخرى فى البلاد . فبدون معرفة هذا القانون يستحيل القيام بنشاط اجتماعى منظم ناجح ، فالتصورات السائدة بيننا حول مستقبل روسيا العاجل لا يمكن ان تسمى قانونا **(التصورات . . . يمكن ان تسمى قانونا ؟! — ج . ب .)** ، ولا تكاد تستطيع ان تزودنا باساس ثابت لنظرة عملية الى العالم» . (المقدمة ، ص ١ .)

وفى عام ١٨٩٣ تحول السيد ف . ف . نفسه والذى اتيحت له الفرصة حينئذ لان يصبح كاتبا اجتماعيا «محترفا» للشعبية — وان لم يكن للاسف «مثقفا» — بعيدا عن فكرة ان قانون التطور الاقتصادى يشكل «اساس كل مظاهر الحياة الاخرى فى البلاد» . انه الآن يهاجم «مستخدما كل الاسلحة» «النظرة الى العالم» التى يحملها اناس يتبنون مثل هذا «الرأى» ، انه الآن يعتبر ان «العملية التاريخية» بدلا من ان تكون من خلق الانسان تتحول فى هذا الرأى الى قوة خلاقة ، ويتحول الانسان الى اداتها الطيعة» * ؛ وهو اليوم يعتبر العلاقات الاجتماعية «من خلق العالم الروحى للانسان * * ، وهو ينظر بارتياب شديد الى نظرية توافق الظواهر الاجتماعية مع القانون ، ويضع فى مقابلها «فلسفة التاريخ العلمية لاستاذ التاريخ ن . أ . كاريف» (اسمعى ايتها الآذان واصمتى ايتها الالسن ، فالاستاذ نفسه معنا) * * * .

الحمد لله على هذا التحول فى المواقف ! فما الذى احدثه يا ترى ؟ اليكم ما احدثه . فى ١٨٨٢ كان السيد ف. ف . يبحث عن «**قانون** تطور روسيا الاقتصادى» متصورا ان هذا القانون لن يكون سوى التعبير العلمى عن «**مثله**» هو ، «مثل» السيد ف . ف . بل لقد كان مقتنعا بانه قد اكتشف مثل هذا «القانون»

---

* «اتجاهاتنا» ، سان بطرسبورج ، ١٨٩٣ ، ص ١٣٨ .
* * المرجع ذاته ، ص ٩ ، ١٣ ، ١٤٠ وكثير من غيرها .
* * * المرجع ذاته ، ص ١٤٣ وما يليها من الصفحات .

www.kassioun.org

– وهو بالتحديد «قانون» ان الرأسمالية الروسية ولدت ميتة . لكنه بعد هذا لم يعش احد عشر عاما عبثا . واجبر على ان يعترف – وان لم يكن بصوت مرتفع – بان الرأسمالية المجهضة تتطور اكثر فاكثر . واتضح ان تطور الرأسمالية قد كاد يصبح بلا نزاع «قانون تطور روسيا الاقتصادى» . وهكذا اسرع السيد ف . ف . يقلب «فلسفة التاريخ» عنده رأسا على عقب : فهو الذى كان يبحث عن «قانون» بدأ يقول ان مثل هذا البحث ليس الا مضيعة للوقت . ان الطوبوى الروسى لا يرفض الاعتماد على «قانون» ، لكنه سرعان ما ينكره كما انكر بطرس المسيحَ اذا اختلف هذا «القانون» مع ذلك «المثال» الذى لا يدعمه خوفا فحسب بل من اجل راحة ضميره . غير ان السيد ف . ف . – حتى يومنا هذا – لم يبتعد تماما عن «القانون» الى الابد ، «فتطلع فئة الانتليجنتسيا الروسية الطبيعى لتنظيم افكارها ينبغى انه يدفعها الى وضع خطة مستقلة لتطور العلاقات الاقتصادية تتوافق مع متطلبات وظروف تطور بلادنا ؛ وستتم تأدية هذه المهمة بلا شك فى المستقبل القريب» («اتجاهاتنا» ، ص ١١٤) . وواضح ان الانتليجنتسيا الروسية عند «وضع خطتها المستقلة» ستكرس نفسها لذات المهمة التى كرس السيد ف . ف . نفسه لها حين كان يبحث فى كتابه «مصائر الرأسمالية» عن «قانون» . وحين يتم اكتشاف الخطة – وف . ف . يقسم انها ستكشف فى القريب العاجل – فان كاتبنا ، وبنفس الوقار ، سيوائم نفسه مع مبدأ التوافق مع القانون تماما كما يتوافق الاب الانجيلى مع ابنه الضال . يالهم من اناس مسلين ! واضح انه حتى فى ذلك الحين الذى كان السيد ف . ف . يبحث فيه عن «قانون» فانه لم يكن يدرك بوضوح ماذا يمكن ان تعنيه هذه الكلمة عند تطبيقها على الظواهر الاجتماعية . لقد نظر الى «القانون» كما كان ينظر اليه طوبويو العشرينات . وهذا وحده هو الذى يمكن ان يفسر انه كان يأمل فى اكتشاف قانون لتطور **بلد واحد** – روسيا . ولكن لماذا ينسب اساليبه فى التفكير للماركسيين الروس ؟ انه ليخطئ اذا ظن انهم – فى فهمهم لتوافق الظواهر الاجتماعية مع القانون – لم يذهبوا الى

www.kassioun.org

ابعد مما ذهب اليه الطوبويون . ويبدو واضحا انه يعتقد ذلك ؟ فهذا ما تبينه كل حججه ضدهم . وهو ليس وحده فى هذا الاعتقاد ، «فاستاذ التاريخ» السيد كارييف ذاته يعتقد ذلك ، وكذلك يفعل كل خصوم «الماركسية» . فهم اولا ينسبون الى الماركسيين فكرة طوبوية عن توافق الظواهر الاجتماعية مع القانون ، ثم يحطمون هذه الفكرة بضربات قد تنجح الى هذا الحد او ذاك . وانه لمثل حقيقى عن محاربة طواحين الهواء .

ولنذكر بشكل عابر كلمة عن «استاذ التاريخ» المثقف . هذه هى العبارات التى يوصى فيها باستخدام النظرة الذاتية للتطور التاريخى للانسانية : «اذا اهتممنا فى فلسفة التاريخ بمسألة التقدم ، فان هذه الحقيقة ذاتها تفرض انتقاء المحتوى الاساسى للمعرفة ، وحقائقها وتجميع هذه الحقائق . لكن الحقائق لا يمكن ان تخترع او ان توضع فى علاقات مخترعة (وبالتالى لا يجب ان يكون هناك شىء تعسفى سواء فى الانتقاء او التجميع ، أليس كذلك ؟ وبالتالى لا بد ان يتجاوب التجميع كلية مع الواقع الموضوعى ، أليس كذلك ؟ نعم ! اذن فاصغ ! ج . ب .) وسيظل عرض مجرى التاريخ من وجهة نظر معينة موضوعيا من حيث صدق العرض . وهنا تظهر على المسرح ذاتية من نوع آخر : فالتركيب الخلاق قد يبعث الى الوجود عالما مثاليا كاملا من المعايير ، عالما مما ينبغى ان يكون ، عالما مما هو حق وعدل تجرى مقارنة التاريخ الفعلى به ، اى العرض الموضوعى لمجراه مجمعا بطريقة معينة من وجهة نظر التغيرات الجوهرية فى حياة الانسانية . وعلى اساس هذه المقارنة ينبثق تقويم للعملية التاريخية ينبغى له – على اية حال – ألا يكون تعسفيا . فيجب ان نثبت ان الحقائق المجمعة – كما هى لدينا – لها بالفعل تلك الدلالة التى نضفيها عليها حين نلتزم بوجهة نظر محددة ، ونتبنى مقياسا محددا لتقويمها» .

يقول «استاذ تاريخ موقر من موسكو» الذى وصفه شيدرين فى احد مؤلفاته والذى كان يتباهى بموضوعيته : «سيان عندى ان يهزم ياروسلاف ايزياسلاف ، او ان يهزم ايزياسلاف ياروسلاف» (١٧) . اما السيد كارييف ، فهو بعد ان يخلق

www.kassioun.org

لنفسه «عالما مثاليا كاملا من المعايير ، عالما مما ينبغـــى ان يكون ، عالما مما هو حق وعدل» لا يرتبط بشيء بموضوعية مـن هذا النوع . فلنفترض انه يتعاطف مع ياروسلاف ، ورغم انه لن يسمح لنفسه بان يعرض هزيمته وكأنها انتصار له («الحقائق لا يمكن ان تخترع») الا انه بالرغم من هذا يحتفظ لنفسه بالحق العزيز فى ان يذرف دمعة او دمعتين على مصير ياروسلاف المؤلم ، ولا يستطيع ان يحبس لعنة يوجهها الى قاهره ايزياسلاف . ومن الصعب ان تثيـــر اى اعتراض فى وجـــه **مثل هذا النوع** من «الذاتية» ، ولكن عبثا يحاول السيد كارييف ان يعرضه بمثـــل هذه الصورة العديمة اللون وبالتالى العديمة الخطر . فعرضه بهذه الطريقة يعنى عدم فهم طبيعته الحقة ، واغراقه فى فيض من الثرثرة الانفعالية . فالواقع ان السمة المميزة للمفكرين «الذاتيين» هـى ان «عالم ما ينبغى ان يكون ، عالم ما هو حق وعـــدل» يقف بالنسبة لهم بعيدا عن اى علاقة بالمجرى الموضوعى للتطـــور التاريخى : فمن جهة يوجد «**ما ينبغى ان يكون**» ومن جهة اخرى يوجد «**الواقع**» ، وتفصل هوة سحيقة بين هذين المجاليـــن – كتلك الهوة التى تفصل عند الثنائيين بين العالم المادى والعالم الروحى (١٨) . وكان مَن بين مهام العلم الاجتماعى فى القـــرن التاسع عشر ان يقيم جسرا فوق هذه الهوة التى تبدو بلا قرار . وطالما لم نبن هذا الجسر فسنظل بالضرورة نغلق اعيننـــا عن **الواقع** ، ونركز انتباهنا على «**ما ينبغى ان يكون**» (كما فعل اتباع سان سيمون على سبيل المثال) ، الامر الذى لن يكون له من الاثر الا تأخير تجسيد «**ما ينبغي ان يكون**» ، لانه يزيد من صعوبـــة تكوين رأى صحيح عنه .

ونحن نعرف بالفعل ان مؤرخى فترة عودة الملكيـــة – على عكس كتّاب التنوير فى القرن الثامـــن عشر – قد اعتبروا المؤسسات السياسية فى اى بلد نتيجة لظروفه المدنية . وقد اتسع انتشار هذه الفكرة الجديدة وتدعمت حينذاك حتى وصلت فى تطبيقاتها على المسائل العملية الى حدود غريبة تكاد تكون غير مفهومة لنا فى هذه الايام . فقد اكد ج . ب . سای ان المسائل السياسية لا ينبغى ان تشغل عالم الاقتصاد ، لان الاقتصـــاد الوطني يمكن ان يتطور بنفس الدرجة في ظل نظامين سياسييـن

www.kassioun.org

متعارضين تماما . ويلاحظ سان سيمون فكرة سای هذه ويغتبط بها وان كان فى الواقع قد اعطاها محتوى اكثر عمقا الى حد ما . ويشترك جميع طوبويى القرن التاسع عشر فى هذه الفكرة عن «السياسة» باستثناء قلة منهم .

وهذه الفكرة خاطئة نظريا من جانبين . ففى المحل الاول ينسى القائلون بها انه فى حياة المجتمع – كما فى كل حالة نواجه فيها عملية وليس بعض الظواهر المعزولة – تصبح النتيجة بدورها سببا ، والسبب يصبح نتيجة ؛ وباختصار لقد تخلوا هنا – وفى اللحظة غير المناسبة اطلاقا – عن وجهة نظر التفاعل التى قصروا تحليلهم عليها فى حالات اخرى غير مناسبة ايضا ؛ وثانيا اذا كانت العلاقات السياسية نتيجة للعلاقات الاجتماعية ، فمن غير المفهوم كيف يمكن ان تنشأ نتائج تختلف الى اقصى حد (مؤسسات سياسية متعارضة تماما) عن نفس السبب – نفس حالة «الثروة» . واضح ان مفهوم العلاقة السببية ذاته بين المؤسسات السياسية فى بلد ما وبين ظروفه الاقتصادية كانت لا تزال غامضة تماما . والحق انه ليس من الصعب ان نوضح كيف كانت غامضة عند كل الطوبويين .

وادى هذا الغَموض فى التطبيق الى نتيجة مزدوجة . فمن ناحية كان الطوبويون الذين تحدثوا كثيرا جدا عن تنظيم العمل ، على استعداد احيانا لترديد شعار القرن الثامن عشر القديم «laissez faire, laissez passer» . فقد كتب سان سيمون – الذى كان يرى فى تنظيم الصناعة اعظم مهام القرن التاسع عشر يقول «l'industrie a besoin d'être gouverée le moins possible» («الصناعة فى حاجة الى ان تدار باقل درجة ممكنة») * . ومن ناحية اخرى فان الطوبويين – باستثناء قلة منهم ايضا فى فترة تالية – قد كشفوا عن لامبالاة كاملة بالسياسة الجارية ، بمسائل اليوم السياسية .

---

* كان المنورون فى القرن الثامن عشر يناقضون انفسهم على هذه الشاكلة بالذات ، مع ان تناقضهم تجلى من جانب آخر . كانوا يؤيدون عدم تدخل الدولة ، ومع ذلك طالبوا المشرع فى بعض الاحيان بتحديدات هى من صغائر الامور . ولم تكن واضحة لديهم ايضا الصلة بين «السياسة» (فهى سبب عندهم) وبين الاقتصاد (الذى هو نتيجة عندهم)

www.kassioun.org

ان النظام السياسى نتيجة لا سبب . والنتيجة تظل دائما نتيجة ولا تصبح بدورها سببا ابدا ، ومن هنا جاء ذلك الاستخلاص الذى يكاد يكون استخلاصا مباشرا ان «السياسة» لا تصلح كوسيلة لتحقيق «المثل» الاجتماعية والاقتصادية . ومن ثم نستطيع ان نفهم نفسية الطوبوى الذى اعتزل السياسة . ولكن ماذا كان رأيهم فى كيفية تحقيق مشروعاتهم الخاصة بالتحول الاجتماعى ؟ علامَ علقوا آمالهم العملية ؟ **على كل شىء ، وعلى لا شىء . على كل شىء** — بمعنى انهم توقعوا المساعدة من اكثر الجهات تعارضا دون تفرقة . **وعلى لا شىء** — بمعنى ان كل آمالهم كانت بغير اساس تماما .

لقد تخيل الطوبويون انهم اناس عمليون الى اقصى حد . وكانوا يكرهون «المذهبيين» (١٩) ويضحون بلا تردد باكثر مبادئهم رنينا على مذبح idées fixes لهم * . انهم لم يكونوا ليبراليين او محافظين ، ملكيين او جمهوريين ؛ بل كانوا على استعداد دون حرج للسير **مع** الليبراليين **ومع** المحافظين **ومع** الملكيين **ومع** الجمهوريين ، لو انهم استطاعوا فحسب ان ينفذوا تطبيقاتهم وخططهم **العملية والمفيدة** للغاية من وجهة نظرهم . وفى هذا المقام كان فورييه من ابرز الطوبويين القدامى . فقد كان — على شاكلة كوستانجوجلو (٢٠) فى رواية جوجول — على استعداد لان يستخدم كل هراء من اجل القضية . فهو يغرى المرابين بامكانيات الفائدة الكبيرة التى ستجلبها رساميلهم فى المجتمع المقبل ، ثم هو يخاطب محبى الخرشوف والشمام راسما لهم صورة مغرية عن الخرشوف والشمام فى المستقبل ، وهو يؤكد للويس فيليب ان اميرات اسرة اورليانز ممن كان امراء الاسرة المالكة عندئذ ينظرون اليهن بتعال ، سيحصلن على عدد غفير من الخاطبين فى ظل النظام الاجتماعى الجديد . لقد تعلق بكل قشة . ولكنه يا للاسف ! لم يجد آذانا صاغية ، لا من المرابين ، ولا من محبى الخرشوف والشمام ، ولا من «المواطن الملك» — كما كانوا يقولون : انهم لم يعطوا ادنى اهتمام لحجج فورييه التى كانت تبدو شديدة الاقناع . واتضح ان عمليته محكوم عليها مقدما بالفشل ، وبان تظل مطاردة كئيبة من اجل **الصدفة السعيدة** .

* [الافكار التى تلاحقهم .]

www.kassioun.org

كانت المطاردة من اجل الصدفة السعيدة هى الشغل الشاغل لكتّاب التنوير فى القرن الثامن عشر بدورهم . وكان املهم فى مثل هذه الصدفة بالتحديد هو الذى دفعهم للبحث بكل الوسائل – المشروعة وغير المشروعة – لاقامة علاقات ودية مع «المشرعين» والاريستقراطيين المستنيرين بدرجة من الدرجات فى زمنهم . يظن البعض عادة انه حالما يقول المرء لنفسه ان الرأى يحكم العالم فانه ليس ثمة اى مبرر لليأس من المستقبل : la raison finira pas ávoir raison* . لكن الامر ليس كذلك . فمتى وباى طريقة سينتصر العقل ؟ كان كتّاب التنوير يقولون بان كل شىء فى حياة المجتمع يتوقف – فى النهاية – على «المشرع» . ومن هنا فقد مضوا يتصيدون المشرعين . لكن نفس الكتّاب كانوا يعرفون جيدا ان شخصية الانسان وافكاره تتوقف على تربيته ، وان تربية المشرعين بشكل عام لا تهيؤهم لتمثل المذاهب المستنيرة . وعلى هذا لم يكن يمكنهم الا ان يدركوا ان الامل ضعيف فى المشرعين . ولم يبق امامهم الا ان يعلقوا ثقتهم على صدفة سعيدة ما . تخيل ان لديك صندوقا هائلا به كثير من الكرات السوداء وكرتان او ثلاث بيضاء، وانك تخرج الكرات من الصندوق واحدة اثر اخرى . ان فرصة اخراج كرة بيضاء اقل من فرص اخراج كرة سوداء فى كل مرة ، لكنك اذا كررت العملية مرات كافية فستخرج فى النهاية كرة بيضاء . ونفس الامر ينطبق على «المشرعين» . فان الاحتمال الاكبر فى كل حالة على حدة هو ان يكون المشرع ضد «الفلاسفة» ؛ ولكن فى النهاية لا بد ان يظهر – على اى حال – مشرع يتفق مع الفلاسفة . وهذا المشرع سيفعل كل ما يمليه العقل . على هذا النحو – **على هذا النحو بالذات** – كان هلفيسيوس يناقش * * . **ان الفكرة المثالية الذاتية عن التاريخ** («الآراء تحكم العالم») **تلك الفكرة التى تبدو وكأنها توفر اوسع ميدان لحرية الانسان فى الفعل ، تحوله فى الواقع الى العوبة فى**

* [العقل ينتصر فى آخر المطاف .]

«Dans un temps plus on moins long il faut, disent les sages, que * * toutes les posibilités se réalisent : pourquoi désesperer du bonheur futur de l'humanité ?» [«فبعد زمن طال ام قصر لا بد ـ كما يقول الحكماء ـ من ان تتحقق كل الامكانيات : فلماذا نياس من مستقبل الانسانية السعيد ؟»]

www.kassioun.org

يد الصدفة . وهذا هو السبب فى ان هذه الفكرة **فى جوهرها فكرة كئيبة المغاية** .

فنحن مثلا لا نعرف افكارا اكثر كآبة من افكار الطوبويين فى نهاية القرن التاسع عشر ، اى الشعبيين الروس وعلماء الاجتماع الذاتيين . ان كلا منهم لديه خطته الجاهزة لانقاذ المشاعة ومعها الفلاحين عموما : كلا منهم لديه «صيغته عن التقدم» . ولكن الحياة – ويا للاسف – تمضى قدما دون ان تولى كثير انتباه لصيغهم التى لا يعود امامها الا ان تجد لها طريقا – وذلك ايضا بصورة بعيدة عن الحياة الواقعية – فى مجال التجريدات والخيالات والاخطاء المنطقية . ولنستمع مثلا الى بطل المدرسة الذاتية السيد ميخايلوفسكى .

«ان مسألة العمل فى اوروبا مسألة ثورية لانها تتطلب هناك **نقل** ظروف العمل (؟) الى يدى العامل ونزع ملكية الملاك الحاليين . اما مسألة العمل فى روسيا فهى مسألة محافظة ، لان كل ما نحتاجه هنا هو **الحفاظ** على ظروف العمل فى يدى العامل ، وان نضمن للملاك الحاليين ملكيتهم . فعلى مقربة من سان بطرسبورج ذاتها . . . وفى منطقة امتلأت بالمصانع والورش والمتنزهات والبيوت الريفية توجد قرى يعيش سكانها فى ارضهم ، ويوقدون اخشابهم ، ويأكلون خبزهم ، ويرتدون معاطف مصنوعة بعملهم ، من صوف اغنامهم . اعطهم ضمانا ثابتا بان ملكيتهم ستظل لهم وعندئذ ستحل مسألة العمل الروسية . ومن اجل هذا الغرض يمكن التنازل عن كل شىء اذا فهمنا جيدا معنى الضمان الثابت . قد يقال : ولكننا لا نستطيع ان نبقى الى الابد بالمحاريث الخشبية واقتصاديات الدورة الثلاثية والطرق العتيقة لصناعة المعاطف من جلود الاغنام . ونحن لا نستطيع ذلك . لكن هناك طريقين للخروج من هذا المأزق . احدهما – وهو الذى تقره وجهة النظر العملية – بسيط ومريح للغاية : ارفع التعريفات وحل المشاعة وربما كان هذا كافيا – وستزدهر صناعة كصناعة بريطانيا العظمى . لكنها ستلتهم العامل وتنزع ملكيته . وثمة طريق آخر – هو بالطبع اشد وعورة : فالحل السهل لمسألة ما ليس بالضرورة هو الحل السليم . والطريق الثانى هو تطوير تلك العلاقات القائمة بالفعل – وان يكن بصورة

www.kassioun.org

فجة وبدائية – بين العمل والملكيـــة . وواضح انه لا يمكن الوصول الى هذا الغرض دون تدخل واسع من جانب الدولة ، على ان يكون اول تصرف لها هو التدعيم التشريعى لمشاعة القرية» * .

عبر العالم الواسع
وامام الفؤاد الطليق
طريقان .
فقس قوتك الفخورة
وقس ارادتك الصلبة
واختر الطريق . (٢١)

واننا لنشتم ، على ما يبدو ، فى كل حجج كاتبنا رائحة الخرشوف والشمام . وحاسة الشم لا تخدعنا حسب كل احتمال . فما هو خطأ فورييه فى معاملته للخرشوف والشمام ؟ كان خطؤه هو انه واقع فى «علم الاجتماع الذاتى» . فعالم الاجتماع الموضوعى سيسـأل نفسه : أهناك اى احتمال فى ان تجذب الصورة التى رسمتها محبى الخرشوف والشمام ؟ ثم بعد ذلك يسأل نفسه : هل محبـــو الخرشوف والشمام فى وضع يسمح لهم بتغيير العلاقات الاجتماعية القائمة ومجرى تطورها الحالى ؟ والاغلب انه كان سيجيب بالنفى على كلا السؤالين ، وعندئذ ما كان ليضيع وقته فى مناقشات مع «محبى الخرشوف والشمام» . لكن هذه هى الطريقة التى سيتصرف بهـا عالم اجتماع **موضوعى** ، اى رجل يقيم حساباته على مجرى التطور الاجتماعى المعطى فى توافق مع القانون . اما عالم الاجتماع الذاتـى فانه يطرح **التوافق مع القانون** لصالح «**المرغوب فيه**» ، ومن هنا لا يغدو هناك من طريق امامه الا ان يثق بالصدفة . وحين تضيق بك السبل تستطيع ان تطلق النار حتى من العصا : وهذه هـــى الفكرة الوحيدة المهدئة التى يستطيع ان يرتكز عليها عالم الاجتماع الذاتى اللطيف .

حين تضيق بك السبل تستطيع ان تطلق النار حتى من العصا . غير ان للعصا طرفين قد يمثلان الخير والشر ، ونحن لا نعرف من

---

* مؤلفات ن . ك . ميخايلوفسكى ، المجلد الثانى ، الطبعة الثانية ، ص ١٠٢–١٠٣ .

www.kassioun.org

اى طرف تنطلق الرصاصة . لقد جرب شعبيونا وذاتيونا – اذا امكننا استخدام التعبير – عددا هائلا من العصى (فحتى حجة سهولة تحصيل متأخرات الضرائب فى نظام المشاعة القروية لملكية الارض قد ظهرت فى بعض الاحيان كعصا سحرية) . وفى اغلب الاحوال اثبتت العصى انها عاجزة تماما عن ان تلعب دور البنادق ، وحين كانت النيران تنطلق منها بالصدفة فان طلقاتها كانت تصيب السادة الشعبيين والذاتيين انفسهم . ولنسترجع مسألة بنك الفلاحين (٢٢) . اى آمال علقت عليه باعتباره تدعيما «لاسس» نظامنا الاجتماعى ! وكم ابتهج السادة الشعبيون عندما افتتح ! ثم ماذا حدث ؟ لقد اطلقت العصا النار بالتحديد على اولئك المبتهجين ؛ واليوم يعترفون هم انفسهم بان بنك الفلاحين – وهو مؤسسة ذات فائدة كبيرة على اى حال – انما يقوض «الاسس» ، وهذا الاعتراف يعنى اعترافا بان اولئك الذين ابتهجوا كانوا ينهمكون – على الاقل لفترة ما – فى ثرثرة لا طائل وراءها (٢٣) .

– لكن البنك انما يقوض الاسس لان لوائحه ونشاطه لا تتفق تماما مع فكرتنا . فلو طبقت فكرتنا كلية لكانت النتائج مختلفة تماما . . .

– اولا – ما كانت النتائج لتختلف على الاطلاق : فالبنك فى اى حال سيسهل تطور الاقتصاد النقدى ، والاقتصاد النقدى سيقوض «الاسس» بلا رحمة . وثانيا – عندما نسمع سلسلة «لو» التى لا تنتهى فانه يبدو لنا لسبب ما ان هناك شخصا يجر عربة ، وينادى تحت نافذتنا : «ها هنا الشمام والخرشوف الجيد !» .

فمنذ عشرينات القرن الحالى كان الطوبويون الفرنسيون يبرزون دون كلل الطابع «المحافظ» للاصلاحات التى ابتدعوها . وقد حاول سان سيمون بصراحة ان يخيف كلا من الحكومة وما يسمى عندنا بالمجتمع من العصيان الشعبى ، وكان يريد بذلك ان يثير فى خيال «المحافظين» صورة حركة **غير ذوى السراويل** (٢٤) تلك الحركة المرعبة التى ما زال الجميع يذكرونها جيدا . لكن شيئا بالطبع لم ينتج عن هذا التخويف ، واذا كان التاريخ يزودنا حقا باى **دروس** ، فان واحدا من اكثر دروسه فائدة هو ذلك الذى يؤكد عدم عملية مشروعات كل العمليين المزعومين من الطوبويين .

www.kassioun.org

فحين حاول الطوبويـــون – مشيرين الى الطابـــع المحـافظ لمشروعاتهم – ان يدفعوا الحكومة الى وضعها موضع التطبيق ، كانوا عادة يدعمون فكرتهم بتقديم دراسة عن التطور التاريخى لبلادهم عبر فترة طويلة او قصيرة – دراسة يترتب عليها انه فى هذه المناسبات او تلك وقعت بعض «الاخطاء» التى جعلت كل العلاقات الاجتماعية تأخذ مظهرا جديدا تماما وغير مرغوب فيه بالمرة . وما على الحكومة الا ان تدرك هذه «الاخطاء» وتصححها فورا لكى تقيـــم على الارض شيئا يشبه الفردوس .

فقد اكد سان سيمون للبوربون ان السمة المميزة الرئيسيـة لتطور فرنسا الداخلى قبل الثورة هى التحالـــف بين الملكيـــة والصناعيين . وان هذا التحالف كان فى صالح الطرفين على السواء . وخلال الثورة وقفت الحكومة – **نتيجة سوء فهم** – ضد المطالـــب المشروعة للصناعيين ، وثار الصناعيون – **نتيجة سوء فهم كئيـــب مماثل** – ضد الملكية . ومن هنا جاءت كل شرور العصر الذى تـــلا ذلك . اما الآن وبعد ان كشف جذر الشر فان الامور يمكن ان تعالج ببساطة ، اذ ما على الصناعيين الا ان يحققوا الاتفاق مع الحكومة وفق شروط معينة . وهذا هو الطريق الاكثر معقولية **ومحافظة** للخلاص من الصعوبات العديدة التى يعانى منها كلا الطرفين . وليس مـن الضرورى ان نضيف هنا انه لا البوربون ولا الصناعيون قد اصغوا الى نصيحة سان سيمون الحكيمة .

«وبدلا من ان نتمسك بحزم بتقاليدنا القديمة ، بدلا مـن ان نطور المبدأ الذى ورثناه عن العلاقة الوثيقة بين وسائل الانتاج وبين المنتج المباشر ، بدلا من ان نستفيد من مكتسبات العلم فى اوروبا الغربية ونطبقها لتطوير اشكال الصناعة القائمة على اساس ملكية الفلاحين لمعدات الانتاج ، بدلا من زيادة انتاجية عملهم عن طريق تركيز وسائل الانتاج فى ايديهم ، بدلا من ان نستفيد – لا من شكل الانتاج بل من ذات تنظيمه كما يبدو فى اوروبا الغربية . . . بدلا من كل ذلك اخذنا الطريق المضاد تماما . فنحن لم نكتف بعدم منع تطور اشكال الانتاج الرأسمالية على الرغم من انها تقوم على اساس نزع ملكية الفلاحين ، بل بذلنا بالعكس اقصى جهدنا لنعجل بالانهيار

www.kassioun.org

الكامل لكـــل حياتنـــا الاقتصاديـــة ، وهو الانهيـــار الذى ادى الى مجاعة ١٨٩١» * . هكذا ينوح السيـــد **ن . – ون** موصيا «المجتمع» بان يصحح هذا الخطأ ، وذلك بان يحل مشكلـة «صعبة للغاية» ولكنها ليست «مستحيلة» الحل وهى : «تطوير القوى المنتجة للسكان فى شكل يمكن الشعب باسره – وليس اقليـــة ضئيلة – من الاستفادة منها» ** . ولا يحتاج الامر الا الى تصحيح «الخطأ» .

ومن الامور الشيقة ان السيد ن . – ون يتصور انه بعيد كل البعد عن اى طوبوية . فهو يشير كل دقيقة الى اولئك الذين ندين لهم بالنقد العلمى للاشتراكية الطوبوية (٢٥) . وهو يكرر بمناسبة وبغير مناسبة – متعقبا آثارهم – ان كل شىء يتوقف على اقتصـاد البلاد ، وكل الشرور تنبعث منه : «ومن هنا فان وسيلة القضـــاء على الشر حالما يتم اكتشافها لا بد ان تنطوى بالمثل عـــلى تغيير ظروف الانتاج ذاتها» . ولكى يشرح هذا يقتبس من جديد عن واحد من نقاد الاشتراكية الطوبوية : «وهذه الوسائل يجب ألا يخترعها العقل ، بل يجب اكتشافها بواسطة العقل فى وقائع الانتاج المادية القائمة» (٢٦) .

ولكن علامَ اذن تنطوى هذه «**الوقائع المادية للانتـــاج التى ستدفع المجتمع الى حل المشكلة التى يضعها السيد ن . – ون نصب عينيه او على الاقل الى فهمها** ؟ ان هذا يظل سرا غامضا ، لا عـــلى القارىء وحده ، بل بالطبع على المؤلف ايضاً . لقد اوضح «بمشكلته» هذه بصورة مقنعة انه لا يزال فى افكاره **التاريخية** طوبويا اصيـلا بالرغم من اقتباساته عن مؤلفـــات كتّاب غير طوبويين عـــلى الاطلاق *** .

---

* **نيقولاى – ون** ، «مبادئ اقتصادنا الاجتماعى منذ الاصلاح» ، سان بطرسبورج ، ١٨٩٣ ، ص ٣٢٢–٣٢٣ .

** نفس المصدر ، ص ٣٤٣ .

*** وبالمثل فان خطط السيد ن . – ون العملية تمثل تكرارا يكاد يكون حرفيا لتلك «المطالب» التى قدمها منذ امد بعيد – وبالطبع دون جدوى تماما – **طوبويونا الشعبيون** من امثال بروجافين . «اما الاهداف والمهام النهائية لنشاط المجتمع والدولة (وها انت ترى انه لا ينسى لا المجتمع ولا الدولة) فى مجال اقتصاد المصنع فيجب ان تكون : من

www.kassioun.org

هل يمكن ان يقال ان مشاريع فورييه كانت تتناقض مع «الوقائع المادية» للانتاج فى عصره ؟ كلا ، وهى ليست غير متناقضة معها فحسب بل انها قد اقيمت كلية على اساس هذه الوقائع ، حتى فى نقائصها . لكن هذا لم يمنع فورييه من ان يكون طوبويا ، لانه بعد ان اقام مشروعه «بواسطة الفكر» على اساس الظروف المادية للانتاج فى عصره ، **عجز عن ان يكيف تحقيقه مع نفس هذه الظروف ، فقد ازعج «بمهمته العظمى» دونما جدوى تلك الفئات والطبقات الاجتماعية التى لم يكن لديها ، بسبب هذه الظروف المادية ذاتها ، الميل للبحث عن حل لها ولا القدرة على حلها** . ويقترف السيد ن . — ون نفس خطيئة فورييه او رودبيرتس الذى لا يتمتع بحبه ، وانه يشبه قبل كل شىء رودبيرتس اكثر من اى شخص آخر لان اشارة السيد ن . — ون الى التقاليد العتيقة تحمل نفس روح ذلك الكاتب المحافظ .

ومن اجل ايعاظ «المجتمع» يشير السيد ن . — ون الى مثال اوروبا الغربية المرعب . وقد حاول طوبويونا طويلا بمثل هذه الملاحظات ان يضفوا على انفسهم مظهر اناس واقعيين لا تخلب لبهم الخيالات وانما يعرفون كيف يستفيدون من «دروس التاريخ» . غير ان هذا المنهج بدوره **ليس جديدا على الاطلاق** . فقد كان الطوبويون الفرنسيون يحاولون افزاع معاصريهم واجبارهم على الاصغاء لصوت العقل **عن طريق مثال انجلترا** ، حيث «يفصل بون شاسع بين صاحب العمل وبين العامل» ، وحيث يرزح هذا الأخير تحت نير نوع خاص من الطغيان . فيقول «Producteur» : «ان على البلاد الاخرى التى تتبع انجلترا على طريق التطور الصناعى ، ان تدرك انه ينبغى لها ان

ناحية شراء كل معدات العمل لصالح الدولة ومنحها للناس للاستعمال المؤقت ، اى تاجيرها ؛ ومن ناحية اخرى اقامة تنظيم لظروف الانتاج (يريد السيد بروجافين ان يقول ببساطة «للانتاج» ولكنه يستخدم تعبير «ظروف الانتاج» كعادة كل الكتّاب الروس وعلى رأسهم السيد ميخايلوفسكى دون ان يفهم ما يعنيه) يقوم على اساس احتياجات الشعب والدولة وليس على مصالح السوق والبيع والمنافسة ، كما هى الحالة فى التنظيم السلعى الرأسمالى للقوى الاقتصادية فى البلاد» (**ف . س . بروجافين** . الحرفى فى المعرض ، موسكو ١٨٨٢ ، ص ١٥) . وليقارن القارئ هذه الفقرة بالفقرة التى اقتبسناها فيما سبق عن كتاب السيد ن . — ون .

www.kassioun.org

تبحث عن وسائل لمنع ظهور مثل هذا النظام على ارضها الخاصة» * . وليس من عائق حقيقى يمكن له ان يمنع ظهور المناهج الانجليزية فى البلاد الاخرى الا ما يقترحه انصار سان سيمون من «تنظيم للعمل والعمال» ** . ومع تطور الحركة العمالية فى فرنسا غدت **المانيا** المسرح الرئيسى لاحلام اليقظة عن تجنب الرأسمالية ، ووقفت المانيا فى شخص طوبوييها طويلا وبعناد فى وجه «اوروبا الغربية» (den westlichen Ländern) . وقال الطوبويون الالمان ان حاملة فكرة التنظيم الجديد للمجتمع فى البلاد الغربية هى الطبقة العاملة ، اما عندنا فانها الطبقات المثقفة (ما نسميه فى روسيا **الانتليجنتسيا**) . وكانوا يعتقدون ان «رجال الفكر» الالمان بالتحديد هم المدعوون لتخليص المانيا من كأس الرأسمالية *** . وكانت الرأسمالية تبدو

---

* T. I, p. 140. [«المنتج» ، المجلد الاول ، ص ١٤٠ .]

** انظر عن هذا التنظيم «Globe» (٢٧) سنة ١٨٣١–١٨٣٢ حيث يعرض هناك بالتفصيل حتى مع الاصلاحات الانتقالية التحضيرية .

*** «Unsere Nationalökonomen streben mit allen Kräften Deutschland auf die Stufe der Industrie zu heben, von welcher herab England jetzt die andern Länder noch beherrscht. England ist ihr Ideal. Gewiss : England sieht sich gern schön an ; England hat seine Besitzungen in allen Welttheilen, es weiss seinen Einfluss aller Orten geltend zu machen, es hat die reichste Handels- und Kriegsflotte, es weiss bei allen Handelstraktaten die Gegenkontrahenten immer hinters Licht zu führen, es hat die spekulativsten Kaufleute, die bedeutendsten Kapitalisten die erfindungsreichsten Köpfe, die prächtigsten Eisenbahnen, die grossartigsten Maschinenanlagen; gewiss, England ist, von dieser Seite betrachtet, ein glückliches Land, aber — es lässt sich auch ein anderer Gesichtspunkt bei der Schätzung Englands gewinnen und unter diesem möchte doch wohl das Glück desselben von seinem *Unglück* bedeutend überwogen werden. England ist auch das Land, in welchem das Elend auf die höchste Spitze getrieben ist, in welchem jährlich Hunderte notorisch Hungers sterben, in welchem die Arbeiter zu Fünfzigtausenden zu arbeiten verweigern, da sie trotz all'ihrer Mühe und Leiden nicht so viel verdienen, dass sie nothdürftig leben können. England ist das Land, in welchem die Wohlthätigkeit durch die Armensteuer zum *äusserlichen* Gesetz gemacht werden musste. Seht doch ihr, Nationalökonomen, in den Fabriken die wankenden, gebückten und verwachsenen Gestalten, seht die bleichen, abgehärmten schwindsüchtigen Gesichter, seht all'das geistige

www.kassioun.org

للطوبويين الالمان مفزعة الى حد انهم كانوا على استعداد من اجل تجنبها لان يلجأوا حتى الى التسليم بالركود . فكانوا يقولـــون ان انتصار النظام الدستورى سيؤدى الى سيادة الاريستقراطية النقدية .

---

und das leibliche Elend, und ihr wollt Deutschland noch zu einem zweiten England machen? England konnte nur durch Unglück und Jammer zu dem Höhepunkt der Industrie gelangen, auf dem es jetzt steht, und Deutschland könnte nur durch *dieselben* Opfer *ähnliche* Resultate erreichen, d. h. erreichen, dass die Reichen noch reiher und die Armen noch ärmer werden». «Triersche Zeitung», 4 Mai, 1846 ، واعيد نشره فى المجلد الاول من المجلة التى اصدرها م . هيس ، تحت عنوان : «Der Gesellschaftsspiegel. Die gesellschaftliche Zustände der civilisierten Welt»], Band I, Iserlohn und Elberfeld 1846. [« يسعى اقتصاديونـــا بكل ما فى وسعهم لكى يرتفعوا بالمانيا الى مرحلة تطور الصناعة التـــى لا تزال انجلترا اليوم تسيطر منها على البلاد الاخرى . ان انجلترا هى مثلهم الاعلى . وبالطبع تحب انجلترا ان تختال بنفسها ؛ فلها ممتلكاتها فى كل انحاء العالم ، وهى تعرف كيف تجعل لنفوذها وزنا فى كل مكان ، ولديها اغنى اسطول تجارى وبحرية ، وهى تستطيع فى كل اتفاقية تجارية ان تخضع شريكها ، ان لديها اكثر التجار مضاربة ، واهم الرأسماليين ، واكثر العقول ابداعا ، وافضل السكك الحديدية ، واروع تجهيز آلى . وبالطبع فان انجلترا اذا نظرنا اليها من هذه الزاوية بلد سعيد ، لكن وجهة نظر اخرى قد تكون لها الغلبة عند تقويم انجلترا ، ومن وجهة النظر هذه فان كفة **تعاستها** قد ترجح كثيرا على كفة سعادتها . فانجلترا هى ايضا البلد الذى وصل فيه البؤس الى ذروته ، والتى تشتهر بأن المئات يموتون فيها جوعا كل عام،انها البلد الذى ترفض فيه عشرات الآلاف من العمال ان تعمل لانها بالرغم من كل كدها ومعاناتها لا تحصل على ما يكفى ليقيم اودها. ان انجلترا هى البلد الذى كان من الضرورى فيه ان تنظم الاعمال الخيرية بشكل ضرائب لمعونة الفقراء تجبى عن طريق قانون رسمى . فانظروا اذن ، ايها الاقتصاديون ، الى تلك الاجساد المنهكة المنحنية المشوهة فى المصانع ، انظروا الى تلك الوجوه الشاحبة الذابلة المسلولة ، انظروا الى كل هذا البؤس الروحى والمادى ــ افـــلا تزالون تريدون ان تجعلوا من المانيا انجلترا اخرى ؟ ان انجلترا لم تستطع ان تصل الى تلك القمة العالية التى تقف عليها الآن فى ميدان الصناعة الا عبر الكوارث والبؤس ، ولن تستطيع المانيا ان تحقق **نفس** النتائج الا اذا قدمت **نفس** التضحيات ، اى بان يزداد الاغنياء غنى ويزداد الفقراء فقرا» . («صحيفة تريز» ، ٤ مايو ١٨٤٦) . . .]

www.kassioun.org

ومن هنا فان من الافضل ألا يكون هناك نظـام دستورى * . ولم تستطع المانيا تجنب الرأسمالية . اما اليوم فان الطوبويين الروس هم الذين يتحدثون عن تجنبها . وهكذا ترحل الافكار الطوبوية من الغرب الى الشرق ، وهى تبدو فى كل مكان وكأنها البشير بانتصار نفس الرأسمالية التى تكافحها وتتمرد عليها . لكنها كلما ازدادت ابتعادا نحو الشرق تغيرت دلالتها التاريخية . فلقد كان الطوبويون الفرنسيون فى زمانهم **مبتدعين** عباقرة شجعانا ، وكان الطوبويـون الالمان ادنى منهم بكثير ؛ اما الروس اليوم فانهم غير قادرين الا على افزاع الغربيين بهيئتهم العتيقة .

ومن الامور الشيقة انه حتى كتّاب التنوير الفرنسيون قـد خامرتهم فكرة تجنب الرأسمالية . فقد انزعج هولباخ كثيرا مـن حقيقة ان انتصار النظام الدستورى فى انجلترا قد ادى الى السيادة الكاملة de *l'intérêt sordide des marchands* * * . واحزنه للغاية ان الانجليز يبحثون بلا كلل عن اسواق جديدة . فهـذا السعى وراء الاسواق الجديدة يبعدهم عن الفلسفة . كما ادان هولباخ ايضـا عدم المساواة فى الملكية القائم فى انجلترا . وكان يفضل – مثله فى ذلك مثل هلفيسيوس – ان يمهد الارض لانتصار العقل والمساواة لا لانتصار المصالح التجارية . لكن لا هولباخ ولا هلفيسيوس ولا احد من كتّاب التنوير ما كان يستطيع ان يقدم فى مواجهة مجرى التطور القائم حينئذ اكثر من مدائح عقلية وتعليمات اخلاقية صوب

---

* يقول بوخنر : «Sollte es den Constitutionellen gelingen die deutschen Regierungen zu stürzen und eine allgemeine Monarchie oder Republik einzuführen, so bekommen wir hier einen Geldaristokratismus, wie in Frankreich, und lieber soll es bleiben, wie es jetzt ist». راجـع Georg Büchners sämmtliche Werke ، الطبعة بمراجعـة فرانزوس ، S. 122. . [اذا نجح الدستوريون فى التطويح بالحكومات الالمانية وتطبيق الملكية الشاملة او الجمهورية ، ستكون لدينا هنا اريستقراطية نقدية كما فى فرنسا ، ومن الافضل ان يظل الوضع على ما هو عليه» . راجع **جورج بوخنر** ، المؤلفات الكاملة ، الطبعة بمراجعة فرانزوس ، ص ١٢٢ .]

* * [مصلحة التجارة الشريرة .]

www.kassioun.org

du «peuple d'Albion» * . لقد كانوا فى هذا المجال عاجزين تماما كطوبوييننا الروس المعاصرين .

ثمة ملاحظة اخرى ننهى بها حديثنا عن الطوبويين . ان وجهة نظر «**الطبيعة الانسانية**» قد ولدت فى النصف الاول من القرن التاسع عشر سوء استخدام للمماثلات **البيولوجية** ، الامر الذى لا نزال نشعر به – حتى يومنا هذا – قويا فى كتابات علم الاجتماع الغربى ، وعلى الخصوص فى كتابات علم الاجتماع الروسى غير الاصيل .

ذلك انه اذا كان يجب البحث عن سبب كل التقدم التاريخى الاجتماعى فى طبيعة الانسان ، واذا كان المجتمع كما قرر سان سيمون بحق يتكون من افراد ، فان طبيعة الفرد ينبغى ان تزودنا بمفتاح لتفسير التاريخ . وطبيعة الفرد هى موضوع **علم الفسيولوجيا** اذا اخذناه بالمعنى الواسع للكلمة ، اى باعتباره علما يشمل كذلك **الظواهر النفسية** . ولهذا السبب فقد كان علم الفسيولوجيا – فى نظر سان سيمون واتباعه – هو اساس **علم الاجتماع** الذى كانوا يطلقون عليه اسم **الفيزياء الاجتماعية** . ونحن نجد فى كتاب «Opinions philoso-phiques, littéraires et industrielles» * * الذى نشر عندما كان سان سيمون على قيد الحياة وبمساهمته الفعالة مقالا شيقا للغاية لكنه غير كامل لسوء الحظ بقلم **دكتور مجهـــول فى الطب** وعنوانه : «De la physiologie appliquée à l'amélioration des institutions sociales» (حول الفسيولوجيا فى تطبيقها على **تحسين المؤسسات** الاجتماعية) . ويعتبر الكاتب ان **علم المجتمع** جزء من اجزاء «**علم الفسيولوجيا العام**» الذى يكرس نفسه – بعد ان تثريه ملاحظات وتجارب «**علم الفسيولوجيا الخاص**» للفرد – «يكرس نفسه لاعتبارات من مرتبة اعلى» . فالافراد بالنسبة له ليسوا «سوى اعضاء للجسم الاجتماعى» ، يقوم هو بدراسة وظائفه «**تماما كما يقوم علم الفسيولوجيا الخاص بدراسة الوظائف فى الافراد**» . فعلم الفسيولوجيا العام يدرس (والكاتب يستخدم كلمة : «**يعبر عن**») قوانين الوجود الاجتماعى التى يجب ان تتسق معها القوانين المكتوبة . وفيما بعد

---

* [«شعب البيون» .] . **البيون** اسم كان يطلقه القدماء على بريطانيا . **المترجم** .

* * [«آراء فلسفية وادبية وصناعية» .]

www.kassioun.org

استفاد علماء الاجتماع البورجوازيون ، من امثال سبنسر ، من مذهب الكائن الاجتماعى ليستخلصوا منه اكثر النتائج محافظة . لكن الدكتور فى الطب الذى نقتبس عنه كان قبل كل شىء **مصلحا** . لقد درس «الجسم الاجتماعى» مستهدفا **اعادة البناء الاجتماعى** ، لان «**علم الفسيولوجيا الاجتماعى**» و«**علم الصحة**» المرتبط به بصورة وثيقة يوفران «الاسس الوضعية التى يمكن ان يبنى عليها ذلك التنظيم الاجتماعى الذى يمليه الوضع الحالى للعالم المتمدن» . لكن من الواضح ان علم الفسيولوجيا وعلم الصحة الاجتماعيين لم يزودا احلام الكاتب الاصلاحية بالكثير ، لانه وجد نفسه فى النهاية مجبرا على ان يتوجه **للاطباء** ، اى لاولئك الذين يعملون فى مجال الكائنات المفردة ، سائلا اياهم ان يعطوا المجتمع ، «**فى شكل وصفة صحية**» ، «نظاما للبناء الاجتماعى» .

وقد كرر اوجست كونت – او طور ان صح القول – فكرة «**الفيزياء الاجتماعية**» هذه فى مختلف مؤلفاته . فهذا ما يقوله عن العلم الاجتماعى وهو ما يزال بعد فى شبابه حين كان يكتب فى «Producteur» * صحيفة اشياع سان سيمون : «ان الظواهر الاجتماعية ، باعتبارها ظواهر انسانية ، يجب بلا شك ان تدرج ضمن الظواهر الفسيولوجية . ولكن بالرغم من ان الفيزياء الاجتماعية لا بد ان تجد نقطة انطلاقها فى فسيولوجيا الافراد وان تظل على ارتباط وثيق بها ، الا انها يجب ان تدرس وتطور كعلم مستقل تماما ، لان مختلف اجيال الناس تؤثر على بعضها البعض على الدوام . ولو اننا تمسكنا بوجهة النظر الفسيولوجية المحضة لما استطعنا ان ندرس هذا التأثير بصورة سليمة ، غير ان تقويمه يجب ان يحتل المكان **الرئيسى** فى الفيزياء الاجتماعية» * * .

وها انت ترى اى تناقضات يائسة يتخبط فيها اولئك الذين ينظرون الى المجتمع من وجهة النظر هذه .

اولا – لما كانت «الفيزياء الاجتماعية» تتخذ من فسيولوجيا الافراد

---

* [«المنتج» .]

* * «Considérations sur les sciences et les savants» فى المجلد الاول من «Producteur» . [«تأملات عن العلوم والعلماء» فى المجلد الاول من «المنتج»] ، ص ٣٥٥–٣٥٦ .

www.kassioun.org

«نقطة البداية لها» فانها تقوم على اساس **مادى** خالص : فليس فى الفسيولوجيا مجال لفكرة **مثالية** عن شىء ما . لكن الفيزياء الاجتماعية ذاتها عليها ان تشغل نفسها اساسا بتقويم تأثير تقدمى لجيل على آخر على الدوام . فكل جيل يؤثر على الجيل التالى له ، ناقلا له كلا من المعرفة التى ورثها عن الاجيال التى سبقته والمعرفة التى اكتسبها هو . ومن هنا فان «الفيزياء الاجتماعية» تدرس تطور النوع الانسانى من وجهة نظر تطور المعرفة و«التنوير» (lumières) عامة . وهـذه بالفعل هى وجهة النظر المثالية الخالصة للقرن الثامن عشر : **الآراء تحكم العالم** . وعندما نخلق «ارتباطا وثيقا» – كما ينصحنا كونت – بين هذه النظرة المثالية وبين وجهة النظر المادية الخالصة لفسيولوجيا الافراد ، فاننا نتحول الى **ثنائيين** من انقى طينة ، وليس اسهل من تتبع الاثر الضار لهذه الثنائية على الافكار الاجتماعية حتى عند كونت نفسه . لكن هذا ليس كل شىء . لقد لاحظ مفكرو القرن الثامن عشر ان ثمة توافقا مع القانون فى تطور المعرفة . وقد تمسك كونت بحزم بمثل هذا التوافق ودفع الى المقدمة بقانون المراحل الثلاث السيىء السمعة : اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية .

ولكن لماذا يمر تطور المعرفة بهذه المراحل الثلاث بالتحديد ؟ يجيب كونت ان هذه هى طبيعة العقل الانسانى : «فالعقل الانسانى بطبيعته (par sa nature) يمر اينما وجد عبر حالات نظرية ثلاث» * . وهذا امر رائع ؛ ولكننا لكى ندرس هذه «الطبيعة» يجب ان نستعين بفسيولوجيا الافراد ، وفسيولوجيا الافراد لا تعطينا تفسيرا كافيا ، وسيكون علينا ثانية ان نشير الى «الاجيال» السابقة ، و«الاجيال» بدورها تحيلنا ثانية الى «الطبيعة» . انهم يسمون هذا علما ، وما من اثر للعلم فيه : ان كل ما فيه مجرد حركة دائبة داخل حلقة مفرغة .

ويشترك علماء الاجتماع «الذاتيون» – باصالتهم المزعومة – كلية فى وجهة النظر هذه مع الطوبوى الفرنسى فى العقد الثالث .

يحدثنا السيد ميخايلوفسكى عن نفسه فيقول : «حين كنت لا

---

* المرجع ذاته ، المجلد الاول ، ص ٣٠٤ .

www.kassioun.org

ازال تحت تأثير نوجين وتحت ارشاده جزئيا ، انشغلت بمسألة الحدود بين علم الحياة وعلم الاجتماع ، وامكانية التقريب بينهما . . . وليس فى وسعى ان افى تلك المزايا التى حصلت عليها من احتكاكى بافكار نوجين حقها ، ولكن بالرغم من هذا كان فى هذه الافكار شىء عارض ، ويرجع ذلك جزئيا الى انها كانت لا تزال تتطور عند نوجين نفسه ، كما يرجع جزئية الى معرفته المحدودة فى مجال العلوم الطبيعية . والواقع ان نوجين لم يعطنى سوى الدفعة فى اتجاه معين ، لكنها كانت دفعة قوية وحاسمة ومفيدة . ودون ان افكر فى اى دراسة خاصة لعلم الحياة قمت مع هذا بقراءات كثيرة فيه بناء على ايحاء نوجين او على وصيته اذا امكن القول . والقى هذا الاتجاه الجديد فى قراءاتى ضوءا اصيلا جذابا للغاية على تلك المواد الهائلة من الوقائع والافكار التى كنت قد اختزنتها من قبل ، وان تكن غير منظمة والى حد ما عديمة الجدوى» * .

وقد وصف السيد ميخايلوفسكى فى بحوثه بعنوان «الخليط» نوجين تحت اسم بوخارتسيف . وكان بوخارتسيف «يحلم باصلاح العلوم الاجتماعية مستعينا بالمعارف الطبيعية ، ووضع بالفعل خطة ضافية لهذا الغرض» . ونستطيع ان نرى مناهج هذا النشاط الاصلاحى مما يلى : لقد اخذ بوخارتسيف على عاتقه ان يترجم من اللاتينية الى الروسية بحثا ضافيا عن علم الحيوان ، وارفق بالترجمة ملاحظاته فى الهوامش ، حيث اقترح «ان يضمنها نتائج كل عمله المستقل» ، ثم اضاف الى هذه الهوامش تذييلات اخرى ذات طابع «اجتماعى» . ويتفضل السيد ميخايلوفسكى بتعريف القارىء باحد هذه الهوامش التذييلية : «وبشكل عام لا استطيع فى اضافاتى الى فان دير هوفن ان امضى بعيدا فى المناقشات والاستخلاصات النظرية فيما يتعلق بتطبيق كل هذه المسائل التشريحية المحضة فى حل المسائل الاجتماعية والاقتصادية . ومن هنا فانى اكتفى بان الفت نظر القارىء ثانية الى حقيقة ان نظريتى التشريحية والجنينية كلها تستهدف اساسا اكتشاف قوانين فسيولوجيا المجتمع ، وعلى هذا

---

* مقالة «الادب والحياة» فى صحيفة «روسكايا ميسل» (٢٨) ، سنة ١٨٩١ ، المجلد الرابع ، ص ١٩٥ .

www.kassioun.org

فان كل مؤلفاتى المقبلة ستقوم بالطبع على الوقائع العلمية التـــى عرضتها فى هذا الكتاب» * .

النظرية التشريحية والجنينية «تستهدف اساسا اكتشاف قوانين فسيولوجيا المجتمع» ! ان العبارة مصاغة بطريقة غريبة جدا ، ولكنها رغم هذا تعكس تماما طابع عالم الاجتماع الطوبوى . انه يقيـــم نظرية تشريحية ، وينوى بواسطتها كتابة عدد من «الوصفات الصحية» للمجتمع الذى يحيط به . وهذه الوصفات هى كل ما تنتهى اليـه «الفسيولوجيا» الاجتماعية عنده . «فالفسيولوجيا» الاجتماعية عنـد بوخارتسيف ليست «فسيولوجيا» بالمعنى الدقيق للكلمة ولكنها «علم الصحة» المعروف لدينا ، انهاليست علما لما هو قائم ، بل هى علم لما ينبغى ان يقوم على اساس . . . «النظرية التشريحية والجنينية» لبوخارتسيف نفسه .

ورغم ان بوخارتسيف قد نقلت صورته عن نوجين الا انه يمثل الى حد ما نتاجا لعمل السيد ميخايلوفسكى الفنى الخلاق (هذا اذا امكننا ان نتحدث عن العمل **الفنى** بالنسبة للبحوث التى اقتبسنـــا عنها) . وبالتالى فربما لا يوجد فى الواقع هذا الهامش الغريب . وفى هذه الحالة فانه لامر يخص تماما السيد ميخايلوفسكى الذى يتحدث عنه باحترام شديد .

«وصادف رغم هذا ان وقعت على انعكاس مباشر فى الادب لافكار صديقى ومعلمى الذى لا ينسى» – هكذا يقول تيومكين المتحدث فى القصة . ان السيد ميخايلوفسكى قد عكس ، ولا يزال يعكس ، افكار بوخارتسيف-نوجين .

ولدى السيد ميخايلوفسكى «صيغته عن التقدم» . وهذه الصيغة تعلن : «التقدم هو الاقتراب التدريجى من تكامل الفرد ، ومـــن اكمل تقسيم للعمل واكثره تباينا بين الاعضاء ، واقل تقسيم ممكن للعمل بين الناس . وكل ما يعوق هذه الحركة امر لااخلاقى وغيـر عادل وضار وغير معقول . وليس من اخلاقى وعادل ومعقول ومفيد

---

* مؤلفات ن . ك . ميخايلوفسكى ، المجلد الرابع ، الطبعة الثانية ، ص ٢٦٥–٢٦٦ .

www.kassioun.org

الا ما يقلل عدم التجانس فى المجتمع ، وبذلك يزيد عدم تجانس اعضائه الافراد» * .

فما هى الدلالة العلمية لهذه الصيغة ؟ هل تفسر التقدم التاريخى للمجتمع ؟ هل تبين لنا كيف يحدث التقدم ، ولماذا يحدث بطريقة معينة وليس بطريقة اخرى ؟ كلا على الاطلاق ، وليس هذا «هدفها الرئيسى» ابدا . انها لا تتحدث عن الكيفية التى يتقدم بها التاريخ بل عن الكيفية التى كان ينبغى ان يتقدم بها ليحصل على موافقة السيد ميخايلوفسكى . وهذه «وصفة صحية» ابتدعها طوبوى على اساس «البحث الدقيق لقوانين التطور العضوى» . انها تماما ما كان يبحث عنه الطبيب السان سيمونى .

. . . «ولقد قلنا ان استخدام المنهج الموضوعى وحده فى علم الاجتماع يضاهى – اذا امكن – جمع الارشينات على البودات (٢٩) ، ولا يؤدى ذلك الى استبعاد المنهج الموضوعى كلية فى هذا المجال ، بل يؤدى الى ان تكون السيادة الكاملة للمنهج الذاتى» * * .

و«مجال البحث هذا» هو بالتحديد «فسيولوجيا» **المجتمع المرغوب فيه** ، مجال الطوبى . وبالطبع فان استخدام «المنهج الذاتى» هنا يسهل كثيرا من عمل «**الباحث**» . لكن هذا الاستخدام لا يقوم اطلاقا على اى «قوانين» ، بل على «سحر الخيال الخلاب» ؛ وكان من يسلم به مرة لن يرفض ابدا حتى ان يطبق فى نفس «المجال» – وان يكن بحقوق مختلفة – كلا المنهجين الذاتى والموضوعى حتى ولو كان مثل هذا الخلط بين المناهج يعنى فى الحقيقة «جمع الارشينات على البودات» * * * .

---

* مؤلفات ن . ك . ميخايلوفسكى ، المجلد الرابع ، الطبعة الثانية ، ص ١٨٦–١٨٧ .

* * مؤلفات ن . ك . ميخايلوفسكى ، المجلد الرابع ، الطبعة الثانية ، ص ١٨٥ .

* * * وبالمناسبة فان هذين التعبيرين ذاتهما – «المنهج الموضوعى» و«المنهج الذاتى» – يمثلان تشويشا كبيرا على الاقل من حيث الصياغة .

www.kassioun.org

الفصل الرابع

الفلسفة المثالية الالمانية

كان ماديو القرن الثامن عشر على اقتناع تام بأنهم قد نجحوا فى توجيه ضربة ساحقة للمثالية . وكانوا ينظرون اليها باعتبارها نظرية بائدة منبوذة تماما . غير ان نهاية ذلك القرن قد شهدت رد فعل ضد المادية ، بحيث اصبحت المادية ذاتها فى النصف الاول من القرن التاسع عشر مذهبا ينظر اليه الجميع باعتباره مذهبا بائدا دفن الى الابد . ولم تعد المثالية الى الحياة فحسب بل مرت بتطور باهر حقا لم يسبق له مثيل . وكان لهذا بالطبع اسبابه الاجتماعية ، لكننا لن نتعرض لهذا الامر هنا ، وانما سندرس فحسب ما اذا كان **لمثالية** القرن التاسع عشر أى مزايا على **مادية** العصر السابق ، فاذا كان لها مثل هذه المزايا فما هى .

كشفت المادية الفرنسية عن ضعف مذهل لا يكاد يصدق اليوم فى كل مرة تعرضت فيها لمسائل التطور سواء فى الطبيعة أو التاريخ . ولنأخذ مثلا **أصل الانسان** . فرغم ان فكرة **التطور التدريجى** لهذا النوع لم تكن تبدو «**متناقضة**» للماديين الا أنهم اعتقدوا بأن مثل هذا «الفرض» ضعيف الاحتمال للغاية . فمؤلفو «Système de la nature» (**انظر الجزء الاول ، الفصل السادس**) يقولون انه اذا ثار أحد ضد مثل هذا الفرض ، اذا اعترض أحد على أن «الطبيعة تعمل وفق مجموعة معينة من القوانين العامة التى لا تتغير» ، وأضاف الى ذلك أن «الانسان والحيوان ذا الاربع والسمكة والحشرة والنبات الخ . قد وجدت منذ بداية الزمان وتظل الى الابد دون تغير» فانهم «لن يعترضوا على هذا ايضا» .

www.kassioun.org

وانما هم سيلاحظون فقط أن مثل هذه الفكرة بدورها لا تتناقض مع الحقائق التى يعرضونها . «فالانسان لا يمكن أن يعرف كل شىء : وهو لا يستطيع ان يعرف أصله» – هذا كل ما يقوله فى النهاية مؤلفو «Système de la nature» حول هذه المسألة الهامة .

ويبدو أن هلفيسيوس كان اكثر ميلا الى فكرة التطور التدريجى للانسان . فهو يقول : «المادة أبدية ، لكن أشكالها متغيرة» ، ويذكر أن السلالات البشرية تتنوع حتى فى أيامنا هذه تحت تأثير المناخ * ، بل انه يعتبر أن كل الانواع الحيوانية متغيرة . لكنه صاغ هذه الفكرة السليمة بطريقة غريبة جدا . فأسباب «التباين» بين مختلف أنواع الحيوانات والنبات تكمن – من وجهة نظره – **اما** فى خصائص «اجنتها» ذاتها ، **او** فى الاختلافات بين بيئاتها ، الاختلافات فى «تربيتها» * * .

وهكذا فان **الوراثة** تستبعد **التغير** والعكس بالعكس . فلو تبنينا نظرية التغير فلا بد نتيجة لذلك أن نفترض مقدما أن أى نبات أو حيوان يمكن ان ينشأ من أى «جنين» معين فى ظروف مواتية : فينشأ عن جنين شجرة بلوط مثلا ثور أو زرافة . وبالطبع لا يمكن **لمثل هذا** «الفرض» أن يلقى أى ضوء على مسألة أصل الانواع ، وحتى هلفيسيوس نفسه لم يعد اليه ابدا بعد أن ذكره عرضا ذات مرة .

وبنفس الدرجة لم يستطع الماديون الفرنسيون ان يفسروا ظاهرة التطور **الاجتماعى** . فكانوا يصورون مختلف نظم «التشريع» باعتبارها فحسب نتاجا للنشاط الابداعى الواعى «للمشرعين» ومختلف المذاهب الدينية كنتاج لذكاء الكهنة الخ . .

وادى عجز المادية الفرنسية هذا فى مواجهة مسائل التطور فى الطبيعة وفى التاريخ الى أن يصبح مضمونها الفلسفى فقيرا

---

* «Le vrai sens du système de la nature», à Londres 1774, p. 15.
[«المغزى الحقيقى لنظام الطبيعة» ، لندن ١٧٧٤ ، ص ١٥ .]

* * «De l'Homme», Oeuvres complètes de Helvetius Paris 1818, t. II, p. 120.
[«عن الانسان» ، مؤلفات هلفيسيوس الكاملة ، باريس ١٨١٨ ، المجلد الثانى . ص ١٢٠]

www.kassioun.org

للغاية . فقد اقتصر هذا المضمون – فى التعاليم عن الطبيعة – على مهاجمة مفهوم المادة الاحادى الجانب عند **الثنائيين** ، كما اقتصر فى التعاليم عن الانسان على مجرد تكرار رتيب لمبدأ لوك القائل انه **ليس ثمة افكار فطرية** ، وان كانوا فى بعض الاحيان يدخلون شيئا من التحوير على صياغة هذا المبدأ . ومهما كانت قيمة مثل هذا التكرار فى مهاجمة النظريات الاخلاقية والسياسية التى مضى عصرها ، فما كان يمكن أن تكون له قيمة علمية جدية ما لم ينجح الماديون فى تطبيق مفهومهم على تفسير التطور الروحى للبشرية . وقد قلنا فيما سبق أن ثمة محاولات طيبة قد بذلها الماديون الفرنسيون (وبالتحديد هلفيسيوس) فى هذا الاتجاه ، لكنها انتهت بالفشل (ولو انها كانت قد نجحت لاصبحت المادية الفرنسية قوية للغاية فى مسائل التطور) ، واتخذ الماديون – فى فكرتهم عن التاريخ – وجهة نظر مثالية خالصة ، هى **أن الآراء تحكم العالم** . ولم تنفذ المادية الى افكارهم التاريخية الا فى بعض الاوقات وبصورة نادرة للغاية ، وذلك فى شكل ملاحظات عن ان ذرة ضالة ما تجد طريقها الى رأس «المشرع» ، وتسبب بعض الاضطراب فى وظائف ذهنه ، قد تغير مجرى التاريخ عصورا بأكملها . **ومثل هذه** المادية فى جوهرها **جبرية** ، ولا تترك مكانا للتنبؤ بالاحداث ، اى بتعبير آخر للنشاط التاريخى الواعى للأفراد المفكرين .

ومن هنا لم يكن غريبا ان يبدو هذا المذهب لأولئك القادرين الموهوبين الذين لم ينجذبوا الى صراع القوى الاجتماعية الذى كانت المادية فيه سلاحا نظريا هائلا لحزب اليسار المتطرف ، ان يبدو مذهبا **جافا كئيبا موحشا** . هكذا مثلا تحدث عنه جوته . ولكى لا تعود المادية تستحق هذا اللوم كان عليها ان تترك اسلوب تفكيرها الجاف المجرد ، وأن تحاول أن تفهم وتفسر «الحياة الواقعية» – سلسلة الظواهر المحددة المعقدة المتباينة – من وجهة نظرها . لكنها فى الشكل الذى كانت موجودة به عندئذ كانت عاجزة عن حل هذه المشكلة الكبيرة ، وكانت هذه المشكلة من نصيب **الفلسفة المثالية** .

كانت الحلقة الاساسية والنهائية فى تطور هذه الفلسفة هى

www.kassioun.org

مذهب هيجل ، ومن هنـــا فسننشير فى عرضنا أساسا الى هذا المذهب .

وصف هيجل **بالميتافيزيقية** وجهة نظر أولئك المفكرين الذين يعجزون ، بغض النظر عما اذا كانوا مثاليين أو ماديين ، عن فهم عملية تطور الظواهر فيعرضونها – شاءوا ام ابوا – أمام انفسهم وأمام الآخرين ، كأشياء متحجرة غير مترابطة لا تستطيع أن تتحول من الواحدة الى الاخرى . وعارض وجهة النظر هذه **بالجدل** الـــذى يدرس الظواهر بالتحديد فى تطورهـــا ، وبالتالى فى علاقاتهـــا المتبادلة .

ووفقا لهيجل فان الجدل هو مبدأ **كل حياة** . وكثيرا ما يلتقـــى المرء بأناس يعبرون عن بعض القضايا المجردة ، ثم يعترفون عن طيب خاطر بأنهم ربما كانوا مخطئين ، وربما كانت وجهة النظر المضادة صحيحة . أولئك أناس مهذبون مشبعون **بالتسامح** حتى أطراف أصابعهـــم ، انهـــم يقولون لعقلهم : عش ودع الآخرين يعيشون . والجدل لا يمت بصلـــة الى هذا التسامح المشوب بالريبة لدى العلمانيين ، الا انـــه يعرف أيضا كيف يوفق بين قضيتين مجردتين متعارضتين . فنحن نقول ان الانسان فان ، ونعتبر أن الموت شىء يضرب بجذوره فى الظروف الخارجية وغريب تماما عن طبيعـــة الانسان الحى . وينتج عن ذلك انْ للانسان صفتين : الاولى انه حى ، والثانية انـــه ايضا فان . ولكن عند التمحيص الدقيق نجد أن **الحياة** ذاتها تحمل فى طياتهـــا جرثومة **الموت** ، وان كل ظاهرة هى بشكل عام **متناقضة** ، بمعنى انها تطور من داخلها العناصر التى ستضع نهاية لوجودها ان عاجلا او آجلا وتحولها الى نقيضها . ان كل شىء يجرى ، كل شىء يتغير ، وليس من قوة قادرة على الحد من هذا التيار المتصل أو ايقاف هذه الحركة الابديـــة؛ ليس من قوة قادرة على مقاومة جدليـــة الظواهر . وقد جسد جوته الجدلية فى صورة الروح (٣٠) :

In Lebensfluthen, in Thatenstrum
Wall'ich auf und ab,
Webe hin und her!
Geburt und Grab —
Ein ewiges Meer,

www.kassioun.org

Ein wechselnd Weben,
Ein glühend Leben,
So schaff'ich am sausenden Webstuhl der Zeit
Und wirke der Gottheit lebendiges Kleid*.

فعند لحظة معينة يكون الجسم المتحرك فى نقطة معينة ، لكنه فى نفس الوقت يكون خارج هذه النقطة كذلك ، لانه لو كان فى هذه **النقطة فحسب** ، لاصبح **عديم الحركة** على الاقـــل فى تلك اللحظة . وكل حركة هى عملية جدلية ، وتناقض حى ، ولما لم تكن هناك ظاهرة واحدة فى الطبيعة لا نلجأ عند تفسيرهـــا – فى المدى البعيد – الى الحركة فان علينا ان نتفق مع هيجل الذى قال ان **الجدل هو روح أى معرفة علميـــة** . ولا ينطبق هذا فحسب على معرفـــة الطبيعة . فمـــا هو مثلا معنى الحكمة القديمة : *summun jus summa injuria ?* * * أيعنى مثلا اننا نكون على حق – بعد ان نؤدى ما علينا للقانون – اذا ادينا فى نفس الوقت مـا غلينا للاشرعية ؟ كلا ، ليس هذا سوى تفسير «التفكير السطحى ، عقل البلهاء» . وانمـــا يعنى ذلك القول المأثور ان كل عدالـة مجردة – حين تصل بها الى نتيجتها المنطقية – تتحول الى ظلم ، اى الى نقيضها . وتصلح مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» مثلا واضحا على ذلك . ولنلق نظرة الآن على الظواهر الاقتصادية . ما هى النتيجة المنطقية «**للمنافسة** الحرة» ؟ يسعى كل رجل اعمال لسحق خصومه ، ولان يظل هو السيد الوحيد للسوق . وهناك

---

* فى مد الحياة وجزرها ، فى عاصفة الفعل ،
انا موجة صاعدة هابطة ...
انا مكوك متحرك . .
ميلاد وقبر ..
بحر أبدى . .
حياة متوهجة . .
فى المكان الازلى
فعلى نول الزمان العابر انسج . .
ثوب الحياة الذى ترتديه الآلهة . .
(ترجمة ن . خولودكوفسكى)

* * [اقصى عدالة هى اقصى ظلم .]

www.kassioun.org

بالطبع حالات كثيرة ينجح فيها أمثال روتشيلد او فاندربيلت فى تحقيق هذا التطلع بسعادة . لكن هذا يوضح أن المنافسة الحرة تؤدى الى الاحتكار ، أى الى نفى المنافسة ، أى الى نقيضها . أو انظر الى النتيجة التى تترتب على ما يسمى **بمبدأ الملكية القائمة على العمل** الذى تمجده كتابات الشعبيين عندنا . لا امتلك الا ما خلقته بعملى . لا يمكن أن يكون هناك شىء اكثر عدالة من هذا . ولا يقل عن هذا عدالة ان استخدم الشىء الذى خلقته بارادتى الحرة : ان استعمله بنفسى ، أو أبادله بشىء آخر أكون لسبب ما أكثر احتياجا له . واذن يكون من العدل بالمثل أن استخدم الشىء الذى حصلت عليه من التبادل – وبارادتى الحرة كذلك – حسب ما يروق لى ، وما أراه أفضل وأكثر فائدة . فلنفترض الآن انى قد بعت ناتج عملى مقابل نقود ، وانى قد استخدمت النقود فى استئجار عامل ، أى انى قد اشتريت قوة عمل شخص آخر . وبالاستفادة بقوة عمل الآخر هذه امكننى أن أصبح مالك قيمة تزيد بشكل ملموس عن القيمة التى انفقتها فى شرائها . ان هذا – من ناحية – عادل تماما ، لاننا قد اعترفنا فيما سبق على أى حال بأننى استطيع ان استخدم ما حصلت عليه من التبادل حسب ما أراه أفضل لى وأكثر فائدة ، وهو من ناحية اخرى غير عادل للغاية لانى استغل عمل شخص **آخر** وبذلك انفى المبدأ الكامن فى أساس مفهومى عن العدالة . ان الملكية التى اكتسبتها بعملى الشخصى قد جلبت لى ملكية قائمة على عمل غيرى . Summum jus summa injuria . ومثل هذا الـ injuria ينبعث من طبيعة الأشياء ذاتها فى اقتصاديات كل حرفى موسر تقريبا أو كل فلاح غنى تقريبا * .

* يبدو للسيد ميخايلوفسكى ان هذه السيادة الابدية للجدل فى كل مكان وزمان امر غير مفهوم ؛ فهو يقول فى شك ساخر : كل شىء يتغير عدا قوانين الحركة الجدلية .ونحن نجيب : نعم ، ان الامر كذلك ، واذا كان هذا يدهشك ، اذا اردت أن تنازع هذه الفكرة فاذكر ان عليك أن تنازع وجهة النظر الاساسية لعلم الطبيعة الحديث . وحتى تقتنع بذلك يكفى ان تذكر كلمات بلايفاير هذه التى اخذها ليل شعارا لكتابه الشهير «Principles of Geology» (« مبادئ الجيولوجيا ») : «Amid the revolutions of the globe, the economy of Nature has been uniform and her

www.kassioun.org

وهكذا **فكل ظاهرة — بفعل نفس القوى التى تحدد وجودها — تتحول بعد وقت أو آخر ، ولكن حتما ، الى نقيضها .**

وقد قلنا ان الفلسفة المثالية الالمانية تنظر الى كل الظواهر من حيث تطورها ، وان هذا ما تعنيه بالنظر اليها **جدليا** . ويجب أن نلاحظ أن **الميتافيزيقيين** يعرفون كيف يشوهون مذهب التطور ذاته . فهم يؤكدون انه لا توجد وثبات فى الطبيعة او فى التاريخ . وحين يتحدثون عن **نشوء** ظاهرة أو مؤسسة اجتماعية ما يصورون الامور وكأن هذه الظاهرة أو المؤسسة كانت ذات يوم صغيرة جدا وغير ملحوظة تماما ثم نمت بالتدريج . وحين تكون المسألة هى مسألة **دمار** هذه الظاهرة أو المؤسسة أو تلك فانهم على العكس يفترضون مقدما تناقصها التدريجى الذى يستمر حتى تصبح هذه الظاهرة غير ملحوظة تماما بسبب **حجمها المجهرى** . والتطور الذى يصور بهذه الطريقة لا يفسر شيئا على الاطلاق ، فهو يفترض مقدما وجود الظواهر التى عليه ان يفسرها ، ولا يعترف الا **بالتغيرات الكمية** التى تحدث فيها . وكانت سيادة الفكر الميتافيزيقى من القوة فى ميدان العلم الطبيعى حتى ان كثيرا من علماء الطبيعة لم يستطع تصور التطور الا فى شكل مثل هذه الزيادة التدريجية أو التناقص التدريجى فى قدر الظواهر المدروسة . وبالرغم من انه كان معروفا منذ عصر هارفى ان «**كل شىء حى يتطور عن البيضة**» ، فان من الواضح ان مفهوما دقيقا لم يرتبط بمثل هذا التطور عن البيضة ، وسرعان ما أصبح اكتشاف السبيرماتوزا فرصة لظهور نظرية تقول بأنه يوجد بالفعل فى الخلية المنوية حيوان جاهز كامل التطور لكنه مجهرى الحجم بحيث ينحصر كل «**تطوره**» **فى النمو** . وما زال بعض

---

laws are the only things that have resisted the general movement. The rivers and the rocks, the seas and the continents have been changed in all their parts; but the laws which direct these changes, and the rules to which they are subject, have remained invariably the same». «وسط ثورات الكرة الارضية ، كان اقتصاد الطبيعة موحدا ، وكانت قوانينها هى الوحيدة التى قاومت الحركة العامة . ان الانهار والصخور والبحار والقارات قد تغيرت فى كل اجزائها ، الا ان القوانين التى توجه هذه التغيرات والقواعد التى تخضع لها قد بقيت هى نفسها دون تغيير» .

www.kassioun.org

الحكماء ، ومنهم كثير من علمـــاء الاجتماع التطوريين الاوربيين المشهورين – ينظر الى «تطور» المؤسسات السياسية مثلا بهذه الطريقة بالتحديد : التاريخ لا يقوم بالوثبات : va piano ... *

وقد تصدت الفلسفة المثالية الالمانية بحسم ضدّ مثل هذا المفهوم المشوه للتطور . وسخر هيجل منـــه سخرية مريرة ، وبرهن بما لا يقبل الشك أن **الوثبات** تشكل فى كل من الطبيعة والمجتمع الانسانى ناحية ملازمـة من التطور ، تماما كالتغيرات الكمية التدريجية . فهو يقول : «ان التغيرات فى الوجود لا تقتصر على أن كمية ما تتحول الى كمية اخرى ، وانما تنسحب كذلك على ان الكيف يتحول الى كم والعكس بالعكس ؛ وكل انتقال من هذا النـوع الاخيـــر يمثل **انقطاعـــا فى التدرج** (ein Abbrechen des Allmählichen) ويعطى للظاهرة مظهرا جديدا يتميز كيفيـا عن مظهرها السابق . وهكذا فالماء حين يبرد يتجمد لا بالتدريج ... وانما مرة واحدة ؛ فحين يبرد بالفعل الى درجة التجمد يمكنه ان يظل سائلا لو أنه حافظ فحسب على حالة هدوئه ، ثم تكفى أدنى هزة ليصبح جامدا فجأة ... وفى عالـــم الظواهر الاخلاقية ... تحدث نفس التحولات من الكم الى الكيف ، او بكلمات اخرى ، تقوم الفوارق فى الكيف هنا ايضا على فوارق كمية . وهكذا فان **شيئا اقل أو شيئا اكثر** يمثل الحد الذى يتوقف عنده الاستهتار ويظهر شىء مختلف تمامـــا هو الجريمة ... وهكذا ايضا فان الدول – اذا ما تساوت سائر الظروف الاخرى – تكتسب طابعـــا كيفيا مختلفا كمجرد نتيجة لاختلافها فى الحجم . فأى قانون وأى دستور يكتسب دلالة مختلفة تماما مع اتساع رقعة الدولة وعدد مواطنيها . . . * * .

ويعرف علماء الطبيعة المحدثون جيدا كـم تؤدى التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية . فلماذا يحدث جزء من الطيف الشمسى لدينا احساســـا باللون الاحمر ، وجزء آخر احساســـا باللون

---

* يمضى فى هدوء . **المترجم** .

** «Wissenschaft der Logik» [«علم المنطق»] ، الطبعـــة الاولى ، الجزء الاول ، الكتاب الاول ، ص ٣١٢–٣١٤ .

www.kassioun.org

الاخضر ؟ تجيب الفيزياء على ذلك بأن كل شيء هنا يرجع الى عدد ذبذبات جزيئـــات الاثير . ومن المعروف أن هذا العدد يتغير بالنسبة لكل لـــون من الوان الطيف ابتداء من الاحمـــر حتى البنفسجي . والامر لا يقف عند هذا الحد . فان حدة الحرارة في الطيف تزيد في تناسب مع الاقتراب من الحد الخارجي للشريط الاحمر ، وتصل الى أعلى نقطة لها على مسافة قريبة منه بعد مغادرة الطيف . وينتج عن هذا انه توجد في الطيف أشعة من نوع خاص لا تعطى ضوءا بل حرارة فحسب . وتقول الفيزياء – هنا أيضا – أن صفات الاشعة تتغير نتيجة لتغير عدد ذبذبات جزيئات الاثير.

بل ان الامر لا يقف عند هذا الحد ايضا . فان لاشعة الشمس تأثيرا كيميائيا معينا يوضحه مثلا بهت الاقمشة في الشمس . وما يميز الاشعة البنفسجية وتلك المسماة بفوق البنفسجية التي لا تثير لدينا اي احساس بالضوء هو اكبر قوة كيميائية . ومن جديد يفسر الفرق في التأثير الكيميائي لاشعة الشمس بالفوارق الكمية في ذبذبات جزيئات الاثير : **ان الكم يتحول الى كيف .**

وتؤكد الكيمياء هذه القضية . فغاز الاوزون لـــه خصائص تختلف عن غاز الاوكسجين العادي . فما مصدر هذا الاختلاف ؟ يوجد في جزيـــيء الاوزون عدد من الذرات يختلف عن تلك التي يحتويها جزيئ الاوكسجين العادي . ولنأخذ ثلاثة من المركبات الهيدروكاربونيـــة : CH_4 (غاز المستنقعـــات) و C_2H_6 (ديميثيـــل) و C_3H_8 (ميثيل-ايثيل) . وكل هذه الغازات تتكون وفق المعادلـة التاليـــة : **س** من ذرات الكربون و ٢ **س** + ٢ من ذرات الهيدروجين . فاذا كانت **س** تساوى ١ فستحصل على غاز المستنقعات ، واذا كانت **س** تساوى ٢ حصلت على الديمثيل ؛ واذا كانت **س** تساوى ٣ ظهر الميثيل-ايثيل . وبهذه الطريقـــة تتشكل سلاسل بأسرها يستطيـــع أي كيميائي أن يحدثك عن أهميتها ، وكل هذه السلاسل تتوافق بدون استثنـــاء مع مبدأ المثاليين-الجدليين القدامى : **ان الكم يتحول الى كيف .**

وقد عرفنا الآن السمات المميزة الرئيسية للتفكير الجدلي ، لكن غليل القارىء لم يرتو بعد . انه يسألنا : أين الثالوث او **الثلاثية** الشهيرة التي تعتبر – كما هو معروف جيدا – جوهر الجدل

www.kassioun.org

الهيجلى ؟ معذرة ايهـــا القارئ ، اننا لم نذكر الثلاثيـة لسبب بسيط ، هو انها **لا تلعب ابدا فى مؤلفات هيجل الدور الذى ينسبه لها** اناس ليست لديهم ادنى فكرة عن فلسفة هذا المفكر ، وانما درسوها مثلا فى كتـاب «**مبادئ القانون الجنائى**» بقلـــم السيد سباسوفيتش * . فهؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بالطيبة والسذاجة الملائكية يؤمنون بأن كل تدليل المثالى الالمانى ينتهى الى اشارات الى الثلاثية ، وأنه أيا كانت المصاعب النظرية التى تواجه ذلك الفيلسوف العجوز فقد كان يترك الآخرين يقدحون زناد عقولهم المسكينة «غير المستنيرة» حول هذه المشاكل ، فى حين يقوم هو – وعلى شفتيه ابتسامة هادئة – بعمليـة قياس منطقى : كل الظواهر تحدث وفقا لثلاثية ، انا اواجه ظاهرة ، واذن فعلى ان استعين بالثلاثية * * وهذا ببساطة **لغو وهذيان** كما تقول احدى

---

* يحدثنا السيد ميخايلوفسكى قائلا : «لما كنت اتطلع الى مهنة المحامى فقد قرأت بحماس – وان لم يكن بشكل منتظم – مختلف المؤلفات القانونية . وكان من بينها كتاب مبادئ القانون الجنائى بقلم السيـــد سباسوفيتش . ويحوى هذا المؤلف دراسة موجزة لمختلف المذاهب الفلسفية بالنسبة لعلم الاجرام . وقد خلبت لبى بشكل خاص قضية هيجل الثلاثية المشهورة ، وبفضلها تصبح العقوبة برشاقة تسوية للتناقض بين القانون والجريمة . واغراء معادلة هيجل الثلاثية فى مختلف تطبيقاتهـــا معروف جيدا . فلم يكن غريبا ان تسحرنى فى كتاب السيد سباسوفيتش . كما لم يكن غريبا ان بدأت انجذب منذ ذلك الحين الى هيجل وكثيرين غيره . . .» («روسكايا ميسل» ، ١٨٩١ ، المجلد الثالث ، الجـــزء الثانى ، ص ١٨٨) . ومن سوء الحظ ، من سوء الحظ تماما ، ان السيد ميخايلوفسكى لم يخبرنا الى اى حد أشبع تطلعه «الى هيجل» وتشير كل الدلائل الى انه لم يمض بعيدا فى هذا الاتجاه .

* * يؤكد لنا السيد ميخايلوفسكى أن المرحوم ن . زيبر حين كان يناقشه حول حتمية الرأسمالية فى روسيا ، «قد استخدم كل الحجج الممكنة لكنه عند ادنى خطر كان يختبئ خلف سطوة التطور الجدلى الثلاثى الدائم الذى لا شك فيه» («روسكايا ميسل» ، ١٨٩٢ ، المجلد السادس ، الجزء الثانى ، ص ١٩٦) . وهو يؤكد لنا كذلك ان كل ما يسميه نبؤات ماركسَ عن مآل التطور الرأسمالى لا يقوم الا على «القضية الثلاثية» . وسنناقش مسألة ماركس فيما بعد . أما عن ن . زيبر فيمكننا أن نقول اننا قد تناقشنا اكثر من مرة مع الراحل ، ولم نسمع منه مرة واحدة

www.kassioun.org

شخصيات كارونين ، أو **ثرثرة غير طبيعية** اذا فضلت تعبير شيدرين . ففى مجلدات هيجل الثمانية عشر لم تلعب «**الثلاثية**» مرة واحدة دور **الحجة** ، وكل من يعرف مذهبه الفلسفى ادنى معرفة يفهم انها **لا تستطيع ان تلعبه** . فللثلاثية عند هيجل نفس الدلالة التى كانت لها فيما سبق عند فيخته الذى تختلف فلسفته اختلافا أساسيا عن الفلسفة الهيجلية . ومن الواضح أن الجهل الصارخ هو وحده الذى يستطيع ان يعتبر شيئا ينطبق **على الاقل** على مذهبين مختلفين سمة مميزة أساسية لمذهب فلسفى ما .

وانا لنأسف أن «الثلاثية» قد حرفتنا بعيدا عن عرضنا ، ولكن ما دمنا قد ذكرناها فيجب أن نصل الى نتيجة . فلنبحث اذن ماذا وراء الاكمة .

ان كل ظاهرة – اذ تتطور حتى نهايتها – تتحول الى نقيضها، ولكن لما كانت الظاهرة الجديدة ، المضادة للظاهرة الاولى ، – تتحول بدورها الى نقيضها ، فان مرحلة التطور الثالثة تحمل **تشابها شكليا مع المرحلة الاولى** . ولنترك جانبا فى الوقت الحالى مدى تجاوب مثل هذا المجرى للتطور مع الواقع ؛ ولنعترف – على سبيل الجدال – أن أولئك الذين يعتبرونه متجاوبا كلية مع الواقع مخطئون ، بيد انه على اى حال فان من الواضح أن «الثلاثية» انما تنتج عن واحد فقط من مبادئ هيجل ؛ وانها لم تكن لديه على الاطلاق مبدأ أساسيا بذاته . وهذا فارق جوهرى ، لانه اذا كانت الثلاثية قد ظهرت كمبدأ أساسى فان اولئك الذين يضفون عليها مثل هذا الدور الهام يستطيعون حقا ان يلجأوا للاختباء خلف «سطوتها» ، وبما انها لم تكن تلعب مثل هذا الدور فلن يستطيع ان يختبئ خلفها الا أولئك الذين **سمعوا جرسا لكنهم لا يعرفون مصدر الصوت** ، كما يقول المثل .

وبالطبع لا يمكن ان يتغير الوضع قيد انملة اذا كان الجدليون – دون أن يختبئوا خلف «الثلاثية» – يلجأون «عند ادنى

اشارات الى «التطور الجدلى» . ولقد قال بنفسه اكثر من مرة انه كان يجهل تماما دلالة هيجل فى تطور الاقتصاديات الحديثة . وبالطبع يمكن أن يلقى اى لوم على الموتى ومن هنا فان شهادة السيد ميخايلوفسكى لا تدحض .

www.kassioun.org

خطر» للاحتمـــاء «وراء سطوة» مبدأ ان كل ظاهـــرة تتحول الى نقيضها . لكنهم كذلك لم يسلكوا هذا السلوك أيضا ، وهم لم يفعلوا ذلك لان المبدأ المذكور لا يستنفد افكارهـــم عن تطور الظواهر . فهم يقولون بالاضافة الى ذلك مثلا انه فى عملية التطور يتحول الكم الى كيف ، والكيف الى كم . وعلى هذا فان عليهم أن يضعوا فى اعتبارهـــم كلا من الجانب الكمى والجانب الكيفـــى للعملية ؛ وهذا يفترض مقدما موقفا من الانتباه لمجراها **الواقعى**، **الفعلى** ، وهذا بدوره يعنى انهـــم لا يقنعـــون **بالنتائج المجردة المستخلصة من مبادئ مجردة** ، أو انهـــم على أى حال يجب الا يقنعوا بمثل هذه النتائج ، اذا ارادوا ان يظلوا مخلصين لنظرتهم الى العالم .

«ففى كل صفحة من مؤلفاته أبرز هيجل على الدوام وبلا كلل ان الفلسفة تتطابق مع **مجموع التجارب** ، وأن الفلسفة لا تتطلب شيئا بالحاح قدر ما تتطلب النفاذ بعمق فى العلوم التجريبية . . . فالوقائع المادية بدون الفكر ليست لها سوى أهمية نسبية ، والفكر بدون الوقائع المادية هو مجرد خرافة . . . فالفلسفة هى ذلك **الوعى** الذى تصل اليه العلوم التجريبية بالنسبة لنفسها . وهى لا يمكن ان تكون على خلاف ذلك» .

تلك النظرة الى مهمة الباحث المفكر ، التى استخلصها **لاسال** من دراسة الفلسفة الهيجلية * : يجب أن يكون الفلاسفة متخصصين فى تلك العلوم التى يحاولون ان يساعدوها فى الوصول الى «الوعى بذاتها» . انه لبون شاسع فيما يبدو بين الدراسة الخاصـــة للموضوع وبين الثرثرة الفارغة فى تمجيد «الثلاثية» . ولن ينطلى علينا قولهم ان لاسال لم يكن هيجليا «حقيقيا» ، وأنه كان ينتمى الى «اليسار» وينتقد «اليمين» بحدة لانه يكتفى بالانشغال بأبنيـــة الفكر المجردة . فان لاسال نفسه يقول لنا بصراحة انه قد استعار فكرته من هيجل مباشرة .

---

* راجع كتابه «System der erworbenen Rechte», zweite Auflage, Leipzig 1880, Vorrede, SS. XII—XIII. «نظام الحقوق المكتسبة» ، الطبعة الثانية ، ليبزيج ١٨٨٠ ـ المقدمة ، ص ١٢ـ١٣]

www.kassioun.org

ولكن ربما كنت تريد أن تستبعد شهادة مؤلف «**نظام الحقوق المكتسبة**» كما يستبعدون فى المحاكم شهادة الاقارب . لن نناقش أو نعترض ، وانما سنستدعى للشهادة شخصا غريبا تماما ، وهو مؤلف «بحوث فى فترة جوجول» .

واننا لنطلب منك الانتباه : فالشاهد سيتحدث طويلا وبحكمة كما هى عادته .

«اننا لا نتبع هيجل الا بهذا القدر القليل الذى نتبع به ديكارت أو أرسطو . فهيجل الآن فى ذمة التاريخ ، وللحاضر فلسفته ، وهو يرى بوضوح نقائص المذهب الهيجلى ؛ غير أننا يجب أن نعترف بأن المبادئ التى قدمها هيجل كانت فى الواقع قريبة للغاية من الحقيقة وأن هذا المفكر قد كشف عن بعض جوانب الحقيقة بقوة مذهلة حقا . ويرجع الفضل فى اكتشاف بعض هذه الحقائق الى هيجل بشخصيا وبعضها الآخر لا ينتمى الى مذهبه وحده وانما للفلسفة الالمانية ككل منذ عصر كانط وفيخته ، لكن احدا قبل هيجل لم يصفها بمثل هذا الوضوح ، أو يعبر عنها بمثل هذه القوة كما ظهرت فى مذهبه .

وسنشير قبل كل شىء الى البداية المثمرة للغاية لكل تقدم والتى تتميز بها بصورة حادة باهرة الفلسفة الالمانية عامة ، والمذهب الهيجلى بشكل خاص ، عن الافكار المداهنة الجبانة التى سادت فى ذلك الحين (بداية القرن التاسع عشر) بين الفرنسيين والانجليز : «الحقيقة هى الهدف الاسمى للفكر ، أبحث عن الحقيقة ، ففيها يكمن الخير ، ومهما كانت الحقيقة فانها افضل من كل ما عداها ، والواجب الاول للمفكر هو الا يتراجع أمام أى نتائج ، فيجب أن يكون مستعدا للتضحية بأعز أفكاره امام الحقيقة . فالخطأ مصدر كل دمار ، والحقيقة هى الخير الاسمى ومصدر كل خير» . وحتى نستطيع أن نقدر الاهمية الفائقة لهذا المبدأ الذى تشترك فيه الفلسفة الالمانية بأسرها منذ عهد كانط ، والذى عبر عنه هيجل بقوة مذهلة ، لا بد أن نذكر أى قيود ضيقة غريبة فرضها مفكرو المدارس الاخرى فى ذلك الحين على الحقيقة . انهم لم يبدأوا التفلسف الا لكى «يبرروا معتقداتهم العزيزة» ، اى انهم لم يبحثوا عن الحقيقة بل عن تبرير لتحيزاتهم ، وكل منهم لم يكن يأخذ من الحقيقة ، الا ما يروقه ، وينبذ كل حقيقة لا تروقه ، معترفا بلا مداراة بأن خطأ

www.kassioun.org

يروقه أفضل لديه من الحقيقة غير المتحيزة . وقد سمى الفلاسفة الالمان (وبخاصة هيجل) مثل هذا الحرص لا على الحقيقة وانما على تأكيد التحيزات السارة «التفكير الذاتى» (يا الهى ! أمن أجل هذا يسمى مفكرونا الذاتيون هيجل مدرسيا ؟ — **المؤلف**) وتفلسفا من أجل المتعة الشخصية وليس من اجل احتياجات الحقيقة الحيوية . وقد ادان هيجل بعنف هذا التضييع الفارغ والضار للوقت (اصغ جيدا !) وكاحتياط ضرورى ضد مثل هذه الاتجاهات للانحراف عن الحقيقة من اجل الانغماس فى الرغبات والتحيزات الشخصيـــة قدم هيجل «منهج تفكيره الجدلى» الشهير . ويكمن جوهر هذا المنهج فى أن على المفكر الا يقنع بأى استنباط ايجابى ، بل عليه ان يكتشف ما اذا كان موضوع تفكيره ينطوى على خصائص وقوى مضادة لتلك التى كشف عنها الموضوع للوهلة الاولى ؛ وهكذا فان المفكر مضطر لدراسة الموضوع من كل جوانبه ، ولا تظهر الحقيقة له الا نتيجة لصراع بين كل الافكار المتضادة الممكنة . وبالتدريج — ونتيجة لهذا المنهج — يحل محل المفاهيم الاحادية الجانب السابقة عن الموضوع بحث كامل وشامل ، ونصل الى تصور حى لكل الخصائص الواقعية للموضوع . ويصبح تفسير الواقع هو الواجب الرئيسى للفكر الفلسفى . هذا هو مبعث الاهتمام الكبير بالواقع الذى كان متجاهلا فيما مضى ومشوها في غير ما اكتراث بقصد أن يستجيب للتحيزات الشخصية ذات الجانب الواحـــد (De te fabula narratur !) * وهكذا حـــل البحث الدؤوب الذى لا يكل عن الحقيقة محل التفسيرات التعسفية السابقة . غير ان كل شىء فى الواقع يعتمد على ظروف المكان والزمان ، ومن هنا وجد هيجل أن العبارات العامة السابقة التى كان يحكم بها على الخير والشر بدون دراسة الظروف والاسباب التى ولدت ظاهرة ما ، ان هذه المأثورات العامة المجردة ليست كافية : فأى موضوع ، وأية ظاهرة ، لهما دلالتهما الخاصة ، ويجب الحكم عليهما وفقا للظروف ، للبيئة ، التى يوجدان فيها ؛ وقد صاغ هذه القاعدة على الوجـــه الآتى : «ليس ثمة حقيقة مجردة فالحقيقة ملموســـة» ، اى اننا لا

---

* [اياك اعنى واسمعى يا جارة .]

www.kassioun.org

نستطيع أن نصدر حكما محددا الا حول واقعة محددة، وبعد دراسة كل الظروف التى تعتمد عليها» * .

وهكذا يقال لنا من ناحية ان السمة المميزة لفلسفة هيجل هى دراستها للواقع بعناية بالغة ، وموقفها النزيه من أى موضوع ، ودراسة هذا الموضوع فى بيئته الحية ، بكل ظروف الزمان والمكان التى تحدد وجوده أو تصاحبه . وشهادة تشيرنشيفسكى متطابقة هنا مع شهادة لاسال . ومن ناحية اخرى يريدوننا ان نصدق ان هذه الفلسفة هى مدرسية جوفاء ، ليس فيهـــا الا تلاعب سوفسطائى «بالثلاثية» . وفى هذه الحالة تتوافـــق شهادة السيد ميخايلوفسكى

---

* **تشيرنشيفسكى** . «بحوث فى فترة جوجول فى الادب الروسى» ، سان بطرسبورج ، ١٨٩٢ ــ ص ٢٥٨ــ٢٥٩ . وفى هامش خاص أوضح مؤلف «**البحوث**» بشكل رائع ما هو المعنى المحدد لهذه الدراسة لكل الظروف التى تعتمد عليها ظاهرة معينة . ونورد الهامش : «على سبيـــل المثال : «هل المطر خير ام شر ؟» هذا سؤال مجرد ، ولا يمكن ان تقدم له اجابة محددة ، ففى بعض الاحيان يكون المطر مفيدا ، وفى بعضها الآخر ــ وان يكن فى أوقات اقل ــ يكون ضارا ؛ وانما يجب ان يسأل المرء بصورة محددة : «بعد أن بذرت الحبوب أمطرت السماء مطرا غزيرا لمدة خمس ساعات ــ فهل كان المطر مفيدا للمحصول ؟» ــ وهنا فحسب تكون الاجابة : «كان هذا المطر مفيدا جدا» اجابة واضحة ومعقولة . ــ «ولكن فى نفس الصيف ، وعندما حان وقت الحصاد ، انهمر المطر سيولا اسبوعا باكمله ، فهل كان هذا مفيدا للمحصول ؟» وتكون الاجابة : «كلا» . كان هذا المطر ضارا» واضحة وسليمة هنا بالمثل . وهكذا توضع كل الاسئلة فى الفلسفة الهيجلية . «هل الحرب ضارة ام مفيدة ؟» . لا يمكن الاجابة على هذا السؤال عموما بشكل محدد ، فلا بد أن يعرف المرء اى نوع من الحروب يقصد هنا ، فكل شىء يعتمد على ظروف الزمان والمكان . فاضرار الحرب عند الشعوب المتوحشة اقل ظهورا ، ومزاياها اكثـــر وضوحا ، أما الشعوب المتمدنة فان الحرب تسبب لها اضرارا اكثر مما تسبب خيرا . لكن حرب ١٨١٢ مثلا كانت حرب خلاص للشعب الروسى ، وكانت موقعة ماراثون (٣١) من أفيد الاحداث فى تاريخ البشرية . هذا هو معنى مبدأ : «ليس ثمة حقيقة مجردة ، الحقيقة ملموسة» ؛ ومفهوم موضوع ما يكون محددا حين يعرض ذاته بكل الخصائص والسمات ووساط الظروف ، البيئة ، التى يوجد فيها ، وليس مجردا عن هذه الظروف وعن سماته الملموسة المميزة (كما يعرضه التفكير المجرد الذى لا تعنى احكامه بالتالى شيئا بالنسبة للحياة الواقعية)» .

www.kassioun.org

تماما مع شهادة السيد ف . ف . وعصبة بأكملها من الكتاب الروس المحدثين الآخرين . كيف يمكن ان نفسر هذا التباين فى الشهادة؟ فسره بأى طريقة تروق لك ، ولكن تذكر ان لاســـال ومؤلف «بحوث فى فترة جوجول» **كانا يعرفان** تلك الفلسفة التى كانا يتكلمان عنها اما السيدان ميخايلوفسكى وف . ف . واصحابهما فربمـــا لم يكلفوا انفسهم عبء دراسة ولو مؤلف واحد من مؤلفات هيجل .

ولاحظ ان مؤلف «البحوث» عند تشخيصه للفكر الجدلى لم يقل كلمة واحدة عن الثلاثية . فكيف لم ير المؤلف المذكور ذلك الفيل الذى يعرضه السيد ميخايلوفسكى وشركاه بكل هذا العناد وكل هذا الاحتفاء امام اى متفرج كسول؟ ومرة اخرى : تذكر ان مؤلف «بحوث فى فترة جوجول» كان يعرف فلسفة هيجل بينما ليس لدى السيد ميخايلوفسكى وشركاه ادنى فكرة عنها .

وربما راق للقارئ ان يسترجع احكاما معينة اخرى عن هيجل قالها مؤلف «بحوث فى فترة جوجول»؟ ربما هدانا الى المقالة الشهيرة: «**نقد التحيزات الفلسفية ضد الملكية المشاعية للارض**» ؟ ان هذه المقالة تتحدث فعلا عن الثلاثية ، ويبدو انها اعتبرت الثلاثية على انها الشئ الرئيسى لدى هذا المثالى الالمانى . **ولكن هذا ليس الا مـــا يبدو فى الظاهر فقط** . فالمؤلف يؤكد عند التأملات فى تاريخ الملكية انها فى المرحلة الثالثة الارقى من تطورها سترتد الى نقطة البدء ، اى أن الملكية الخاصة للارض ولوسائل الانتاج ستخلى مكانهـــا للملكية الاجتماعية . وان مثل هذا الارتداد – كما يقول – قانون عام يظهر فى كل عملية تطور . وحجة المؤلف فى هذا المثال ليست فى الواقع شيئا آخر غير الاشارة الى الثلاثية ، وهنا تكمن نقيصتها الرئيسية : **انها مجردة** ، فتطور الملكية يدرس هنا دونما علاقة بالظروف التاريخية المحددة . ومن هنا فان حجج المؤلف ذكيـة ولامعة لكنها ليست مقنعة ، انها تذهل وتدهش فحسب لكنها لا تقنع . ولكن هل هيجل مسئول عن هذه النقيصة فى حجة مؤلف «نقد التحيزات الفلسفية»؟ أيجوز أن نعتقد حقا أن حجته كان يمكن ان تكون مجردة لو انه درس الموضوع بالطريقة التى نصح هيجل ان تدرس بها كل المواضيع وفقا لعباراته ذاتها ، أى بالتمسك بالواقع ، ووزن كـــل الظروف المحددة ، كل ظروف الزمـــان

www.kassioun.org

والمكان ؟ كلا ، على ما نظن ؛ يبدو انه لو فعل هذا لما وجدت هذه النقيصة التى ذكرناها فى المقالة . لكن ما الذى ولد هذه النقيصة والحال هذه ؟ ولدتها حقيقة ان مؤلف مقالة «نقد التحيزات الفلسفية ضد الملكية المشاعية للارض» وهو يجادل حجج خصومه المجردة قد نسى نصيحة هيجل الطيبة ، **وتبين انه غير مخلص لمنهج** ذات المفكر الذى يشير اليه .وانا لناسف أنه ارتكب هذا الخطأ فى حمية النقاش . ولكن ، مرة اخرى ، هل نلوم هيجل لان مؤلف «نقد التحيزات الفلسفية» قد أثبت فى هذه الحالة انه عاجز عن استخدام منهجه ؟ ومنذ متى نحكم على المذاهب الفلسفية لا بمضمونها الداخلى وانما بالاخطاء التى قد يرتكبها اناس يستشهدون بها ؟

ومرة اخرى فمهما كان الحاح مؤلف المقالة التى ذكرتها فى الاشارة الى الثلاثية الا أنه ، حتى فى هذه المقالة ، لم يقدمها على انها الشىء الاساسى للمنهج الجدلى ؛ حتى هنا لم يجعل منها اساسا بل نتيجة لا تقبل الجدل . لكنه عرض أساس الجدل وسمته المميزة الاساسية بالعبارات التالية : «**التغير الابدى فى الاشكال ، والنبذ الابدى لشكل اوجده مضمون او سعى معين ، نتيجة لتضاعف هذا السعى وللتطور الارقى لذات المضمون** . . . ما اسهل على كل من فهم هذا القانون العظيم الابدى الكلى الوجود ، وكل من عرف كيف يطبقه على جميع الظواهر ، ان يسخر الصدفة التى تفزع الآخرين» ، الخ . .

«التغير الابدى فى الاشكال ، والنبذ الابدى لشكل اوجده مضمون معين . . .» ان المفكرين الجدليين ينظرون حقا الى مثل هذا التغير ومثل هذا «النبذ للاشكال» كقانون رئيسى أبدى شامل . ولا يختلف معهم فى هذا الاعتقاد الآن الا ممثلو بعض فروع العلم الاجتماعى ممن ليست لديهم شجاعة فى مواجهة الحقيقة ، ويحاولون ، ولو بالتضليل ، الدفاع عن الاوهام العزيزة عليهم . ومن هنا لا بد أن يزداد تقديرنا لخدمات هؤلاء المثاليين الالمان العظام الذين تحدثوا على الدوام ، منذ بداية القرن الحالى ، عن التغير الابدى فى الاشكال ، وعن نبذها الابدى نتيجة لتضاعف المضمون الذى أوجد هذه الاشكال .

www.kassioun.org

وفيما سبق تركنا «**مؤقتا**» دون دراسة مسألة ما اذا كان صحيحا ان كل ظاهرة ، كما يقول المفكرون المثاليون الجدليون الالمان ، تتحول الى نقيضها . ونأمل الآن أن يتفق معنا القارئ ان هذه المسألة ، اذا شئنا الدقة ، ليست فى حاجة لان تدرس **على الاطلاق** . فحين تطبق المنهج الجدلى على دراسة الظواهر يتوجب عليك ان تذكر أن **الاشكال تتغير على الدوام نتيجة «للتطور الارقى لمضمونها»** . وسيكون عليك ان تتتبع عملية نبذ الاشكال هذه بكل كمالها ، اذ أردت أن تستنفد دراسة الموضوع . اما مسألة ما اذا كان الشكل الجديد سيكون هو نقيض الشكل القديم فهى مسألة ستكتشفها من التجربة ، وليس من المهم بأى حال ان تعرف ذلك مقدما . صحيح انه على اساس الخبرة التاريخية للبشرية سيقول لك كل حقوقى يتفهم الموضوع ان كل مؤسسة قانونية تتحول عاجلا أو آجلا الى نقيضها ، فهى اليوم تحفز اشباع احتياجات اجتماعية معينة ، هى اليوم مؤسسة ذات قيمة وضرورية بالتحديد من زاوية هذه الاحتياجات . ثم تبدأ فى اشباع هذه الاحتياجات بطريقة أسوأ شيئا فشيئا ، وأخيرا تتحول الى **عقبة** أمام اشباعها ، وهكذا فمن **شىء ضرورى** تصبح **شيئا ضارا** – وعندئذ تتحطم . وخذ اى موضوع تريده – تاريخ الادب أو تاريخ الانواع – فحيثما كان هناك تطور فستجد نفس الجدلية . ورغم هذا فاذا اراد أحد ان ينفذ الى جوهر العملية الجدلية ، وبدأ فحسب من زاوية اختبار التعاليم عن **تضاد** الظواهر التى تشكل سلسلة فى كل عملية معينة من عمليات التطور فانه يعالج المشكلة من الزاوية الخاطئة .

فعند انتقاء زاوية مثل هذا الاختبار سيكون هناك دائما كثير مما هو **تعسفى** . اذ يجب النظر الى المسألة من جانبها الموضوعى ، أو بعبارة اخرى يجب ان يتضح امام المرء ما هو التغير الحتمى فى الاشكال الذى يتضمنه تطور المضمون المحدد ؟ وتلك هى نفس الفكرة وانما بعبارة اخرى . اما عند اختبارها فى الممارسة فليس هناك محل لانتقاء تعسفى لان الذى يحدد نظر الباحث هو **طبيعة الاشكال والمضامين ذاتها** .

وميزة هيجل ، على حد تعبير انجلس ، تنحصر فى انه كان

www.kassioun.org

اول من نظر الى جميع الظواهر من زاوية **تطورها** ، من زاوية نشأتها ثم انحلالها . ويقول السيد ميخايلوفسكى : «اما كونه أول من نحا هذا النحو فهو أمر يحتمل الجدال لكنه بأى حال لم يكن آخر من سار فى هذا المنحى ، ونظريات التطور المعاصرة — تطورية سبنسر والدارونية وافكـــار التطور فى السيكولوجيا والفيـــزياء والجيولوجيا ، الخ — لا علاقة لها بالهيجلية» * .

اذا كانت المعارف الطبيعية الحديثة تؤكد عند كل خطوة تلك الفكرة التى عبر عنها هيجل بمثل هذه العبقرية ، فكرة ان الكـم يتحول الى كيف ، أفيمكن القول ان هذه المعرفة لا علاقة لهـــا بالهيجلية ؟ صحيح أن هيجل لم يكن «**آخر**» من تحدث عن مثل هذا التحول ، ولكن لنفس هذا السبب لم يكن داروين «آخر» من تحدث عن قابليـــة الانواع للتغير ، ولم يكن نيوتن «آخـــر» النيوتونيين . اوتظن الامر على خلاف ذلك ؟ هذا هو مسار تطور عقل البشرية ! جرب ان تعبر عن **فكرة صحيحة** ولن تكون بالتأكيد «آخر» من يدافع عنها ؛ ثم جرب ان تتحدث **لغوا** ، ورغم انـــه يستهوى الناس ، الا انك تخاطـــر بأن تكون «آخر» أبطالـــه والمدافعين عنه . وهكذا ففى رأينا المتواضع يتعرض السيـــد ميخايلوفسكى لخطر داهم هو أن يتضح أنه «آخر» مؤيد «للمنهج الذاتى فى علم الاجتماع» . وفى غير ما مواربة ليس ثمة ما يدعو للاسف فى مثل هذا المسار لتطور العقل البشرى .

ونقترح على السيد ميخايلوفسكى — وهو الذى يرى ان كل فكرة فى العالم ، وحتى خارج العالم ان جاز التعبير ، «تحتمل الجدال» — نقترح عليه بتفنيد هذه القضية : انه اينما تظهر فكرة التطور ، «فى السيكولوجيا أو الفيزياء أو الجيولوجيا» الخ . فانها تكون دائما «على علاقة وثيقة بالهيجلية» ، اى ان كل دراسة معاصرة عـــن التطور تكرر حتما بعض قضايا هيجل العامة . ونحن نقول **بعض** قضاياه ولا نقول **كلها** لان كثيرا من علماء التطور المعاصرين ، لافتقاره الى التربية الفلسفية الملائمة ، يفهـــم التطور **بصورة**

---

* «روسكويه بوجاتستفو» ، عام ١٨٩٤ ، الكتاب الثانى ، القسم الثانى ، ص ١٥٠ .

www.kassioun.org

مجردة ومن زاوية واحدة . والمثل على ذلك هؤلاء السادة الذين اشرنا اليهم فيما سبق ، والذين يؤكدون انـــه ليس ثمة وثبات فى الطبيعة ولا فى التاريخ . ومثل هؤلاء الناس يستفيدون كثيرا لو انهم تعرفوا على **منطق** هيجل . فليتفضل السيد ميخايلوفسكى بتفنيد قضيتنا ؛ ولكن يجب الا يغرب عن باله انه لا يستطيع تفنيدها بالاقتصار على معرفة هيجل من كتاب «مبادئ القانون الجنائى» ، لمؤلفه السيد سباسوفيتش ، أو من كتاب «تاريخ الفلسفـــة» لمؤلفه لويس فحسب . بل عليه أن يبذل جهده لدراسة مؤلفات هيجل نفسها .

وحين نقول ان تعاليم التطور المعاصرة «على علاقة وثيقـــة ودائمة بالهيجلية» فنحن لا نزعم ان علماء التطور المعاصرين قد استعاروا افكارهم من هيجل . بل ان المسألة على الضد تماما . فكثيرا ما كـــــانت لديهم عنه افكار خاطئة كليا كالسيـــــد ميخايلوفسكى . واذا كانت نظرياتهم على الرغم من هذا تصبح توضيحا جديدا «للهيجلية» ، ولو جزئيا وبالتحديد فى تلك النقاط التى يرتقون فيها الى الصواب ، فان هذا انما يشهد بوضوح على عظمة فكر المثالى الالمانى المذهلة : ان اناسا لم يقرأوه أبدا ، وبقوة الوقائع وحدها والاحساس المباشر «بالواقع» ، مجبرون على ان يتحدثوا كما تحدث . ولا يمكن ان يتصور المرء انتصارا اكبر من ذلك لفيلسوف ما : ان **القراء** يجهلونه لكن **الحياة** تدعم افكاره .

وحتى اليوم ما زال من الصعب ان نقول الى أى مدى اثرت افكـــار المثاليين الالمان تأثيرا مباشرا على المعارف الطبيعيـــة الالمانية فى الاتجاه الذى اشرنا اليه ، على الرغم من انه لا شك فى انه حتى علماء الطبيعة فى المانيا كانوا فى النصف الاول من هذا القرن يدرسون الفلسفة اثناء دراستهم الجامعية ، وعلى الرغم من أن **أناسا ذوى معرفة** بالعلوم البيولوجية مثل هيكل يتحدثـــون اليوم باكبار عن نظريات التطور عند بعض الفلاسفة الطبيعيين . لكن فلسفة الطبيعة كانت هى نقطة الضعف فى المثالية الالمانية . وقوتهـــا تكمـــن فى **نظرياتها المرتبطة بمختلف جوانب التطور التاريخى** . أما عن هذه النظريات فليذكر السيد ميخايلوفسكى —

www.kassioun.org

اذا كان فى وقت ما قد عرف – انه من مدرسة هيجل بالتحديد انبثقت تلك الكوكبة اللامعة من المفكرين والباحثين التى القت ضوءا جديدا على دراسة الدين وعلم الجمال والقانون والاقتصاد السياسى والتاريخ والفلسفة وما اليها . وفى كل هذه «المذاهب» ، وطيلة فترة مثمرة للغاية ، لم يكن هناك كاتب واحد بارز لا يدين لهيجل بتطوره وبأفكاره الجديدة فى فرع المعرفة الذى تخصص فيه . أفيظن السيد ميخايلوفسكى ان هذا بدوره «امر يحتمل الجدال» ؟ اذا كان يظن فليحاول .

ويسعى السيد ميخايلوفسكى فى حديثه عن هيجل الى «ان يعرضه بحيث يكون مفهوما لدى اولئك الذين لم يطلعوا على خبايا «طاقية الفيلسوف ايجور فيودوروفيتش» كما قال بيلينسكى فى ازدراء عندما رفع راية العصيان على هيجل» (٣٢) . وهو «لهذا الغرض» يأخذ مثلين عن كتاب انجلس «Herrn Eugen Dühring's Umwälzung der Wissenschaft» * (ولكن لماذا لا يأخذ عن هيجل ذاته ؟ ان هذا يكون اليق بكاتب «مطلع على خبايا» الخ . .)

«تسقط حبة شوفان فى ظروف ملائمة : فتبرض ، ومن ثم فانها تنتفى **مما هى عليه** ، اى من حيث هى حبة ؛ وفى موضعها تنبثق الساق التى هى **نفى** الحبة ؛ وينمو النبات ويحمل ثمارا اى حبات جديدة من الشوفان ، وحين تنضج هذه الحبوب تهلك الساق : انها بوصفها **نفى** الحبة ، **تنفى** ذاتها . وهكذا تتكرر نفس عملية «النفى» و«نفى النفى» عددا لا ينتهى (هكذا !) من المرات . **والتناقض** هو اساس هذه العملية : فحبة الشوفان هى حبة وفى نفس الوقت هى **ليست** حبة لانها دائما فى حالة من التطور الفعلى أو الكامن» . وهذا بالطبع عند السيد ميخايلوفسكى امر «يحتمل الجدال» ، ولنر كيف تتحول على يديه هذه **الامكانية** الجذابة الى **واقع** .

«ان المرحلة الأولى – مرحلة الحبة – هى الموضوع او القضية ؛ والمرحلة الثانية – حتى تكون الحبوب الجديدة – هى نقيض الموضوع أو التناقض ؛ والمرحلة الثالثة هى مركب الموضوع

---

* [«السيد اوجين دوهرينج يقلب العلم»] .

www.kassioun.org

او التوفيق (لقد قرر السيد ميخايلوفسكى ان يكتب بأسلوب شعبى وهو لهذا لا يدع كلمة يونانية .واحدة بـدون شرح أو ترجمة) ؛ وهذه المراحل معا تشكل الثلاثية او القسمة الثلاثية . وهذا هو مصير كل حى : انه يولد وينمو ويخلق مصدر تكراره وبعد ذلك يموت . وفى الحال يعود الى ذاكرة القارئ عدد وفير من الحالات الفردية التى تعبر عن هذه العملية ، ويجد قانـون هيجل ما يبرره فى العالم العضوى بأسره (ولـن نمضى الآن الى أبعد من ذلك) . غير أننا لو تأملنا مثلنا بدقة اكبر فسنرى السطحية والتعسف البالغين لتعميمنا . لقد اخذنا حبة فساقا ثم حبة من جديد أو على وجه التحديد مجموعة من الحبوب . ولكـن قبل أن يحمل النبات ثمارا فانه يزهر . وحين نتحدث عن الشوفان أو غيره من الحبوب ذات القيمة الاقتصادية نستطيع أن نضع فى ذهننا حبة بذرت وساقا وحبة تحصد ، لكن من غير السليم ان نعتبر ان هذه المراحل الثلاث تستنفد حياة النبات . ففى حيـاة النبات يصحب لحظة الازهار تجميع بالغ وخاص للقوى ، ولما لم تكن الزهرة تنمو من الحبة مباشرة فاننا لن نصل ، حتى لـــو تمسكنا بتعبيرات هيجل ، الى ثلاثية بل الى قسمة رباعية ، الى مراحل اربع : الساق ينفى الحبة ، والزهرة تنفى الساق ، والثمرة تنفى الزهرة . واغفال لحظة الازهار له اهمية بالغة كذلك مـن الناحية التالية . فربما كان جائزا فى عصر هيجل أن تعتبر الحبة نقطة بدء لحياة النبات ، وربما كان هذا جائزا حتى الآن مـــن الناحية العملية : فسنة العمل تبدأ مع بذر الحبوب . لكن حياة النبات لا تبدأ بالحبة . فنحن نعرف الآن جيدا ان الحبة شىء ذو تركيب معقد للغاية ، وانها ذاتها تمثل نتاجا لتطور الخلية ، وان الخلايا اللازمة للتكاثر تتشكل بالتحديد فى لحظة الازهار . وهكذا ففى المثال المقتبس عن الحياة النباتية لم تؤخذ نقطـــة البدء بشكل تعسفى وغير صحيح فحسب ، بل ان العملية كلها حشرت بشكل مصطنع وتعسفى كذلك فى اطار القسمـــة الثلاثية» * .

---

* «روسكويه بوجاتستفو» ، الكتاب المذكور ، القسم الثانى ، ص ١٥٤–١٥٧ .

www.kassioun.org

والنتيجة هى : «**لقد حان الوقت لان نكف عن الاعتقاد بأن الشوفان ينمو وفقا لهيجل**» .

كل شىء يجرى ، كل شىء يتغير ! ففى ايامنا ، اى حين كان كاتب هذه السطور يدرس العلوم الطبيعية كطالب ، كان الشوفان ينمو «وفقا لهيجل» ، اما الآن «**فنحن نعرف جيدا**» ان كل هـــذا هراء : **الآن** «nous avons changé tout cela» * ولكـــن كفاكـــم هذرا . فهل «نعرف نحن» جيدا عم نتحدث «نحن» ؟

ان السيد ميخايلوفسكى يعرض مثال حبـــة الشوفان الذى استعاره عن انجلس بطريقة تختلف تماما عن عرض انجلس ذاته . فانجلس يقول : «فالحبة من حيث هى حبة تكف عن الوجود ، انها **تنفى** ، وفى موضعها يظهر النبات الذى نما عنها ، نفى الحبة . ولكن ما هى عملية الحياة الطبيعية الكاملة لهذا النبات ؟ انه ينمو ويزهر ويلقح واخيرا ينتج من جديد حبوبا من الشوفـــان * * ، وحالما تنضج هذه الحبوب تموت الساق وتنفى بدورها ، ونتيجة لنفى النفى هذا فان لدينا من جديد حبـــة الشوفان ، ولكن لا كوحدة واحدة بل مضاعفة عشر أو عشرين أو ثلاثين مرة» * * * . فنفى الحبة عند انجلس هو **النبات بأسره** الذى تشمل دورة حياته كلا من **الازهار والتلقيح** . والسيد ميخايلوفسكى «ينفى» كلمة النبات بان يضع مكانها كلمة **الساق** . والساق كما هو معروف لا تشكل **الا جزءا** من النبات ، وبالطبع **تنفيه** الاجزاء الاخرى : omnis determinatio est negatio * * * * . لكن هذا بالدقـــة هو السبب الذى «ينفى» السيد ميخايلوفسكى من اجله التعبير الذى استخدمه انجلس ويضع مكانه تعبيره هو : وهو يصيح ان الساق ينفـــى الحبة ، والزهرة تنفى الساق ، والثمرة تنفى الزهرة ، ان هنـــاك

---

* [لقد غيرنا هذا كله] .

** اذا اردنا الدقة فان انجلس يتحدث عن حبة شعير لا شوفان ، لكن ليس لهذا بالطبع اهمية .

*** «Herrn Eugen Dühring's Umwälzung der Wissenschaft» [«والسيد اوجين دوهرنج يقلب العلم»] ، الطبعة الاولى ، الجزء الاول ، ص ١١١–١١٢ .

**** [كل تعيين نفى] .

www.kassioun.org

قسمة رباعية على الاقل ! هذا صحيح ايها السيد ميخايلوفسكـــى لكنه انما يثبت انك فى مناقشتك مع الجلس لم تتوقف حتى . . . كيف اقولها بلهجة مؤدبة ؟ — حتى عند «**لحظة**» . . . **تغيير كلمات خصمك** . وهذا المنهج هو الى حد ما . . . «ذاتى» .

وحالما تفعل «لحظة» الابدال فعلها فان الثلاثية البغيضة تتهاوى كبيت من الورق . لقد اغفلت لحظة الازهار — هكذا يعاتب «عالم الاجتماع» الروسى ذلك الاشتراكى الالمانى — و«اغفال لحظة الازهار له اهميته البالغة» . وقد رأى القارئ ان انجلس لم يكن هو الذى اغفل «لحظة الازهار» وانما اغفلها السيد ميخايلوفسكى اثناء عرضه لافكار انجلس ؛ وهو يعرف كذلك ان لمثل هذا «الاغفال» فى المؤلفات اهمية بالغة وان تكن اهمية سلبية . وقد لجأ السيد ميخايلوفسكى هنا ايضا الى «لحظة» غير مؤاتية . ولكن ماذا فى وسعه أن يفعل ؟ ان «الثلاثية» بغيضة ، والنصر بهيج ، و«غيـر المطلعين اطلاقا على خبايا طاقية» الفيلسوف المعروف اغرار يسهل خداعهم !

اننا جميعا ابرياء عند الميلاد ،
نعلق قيمة كبيرة على الفضيلة ؛
لكننا عندما نقابل مثل هؤلاء الناس ،
لا نملك الا ان نقع فى الخطيئة . . . (٣٢)

فالزهرة عضو من اعضاء النبات وهى بالتالى لا تنفى النبات الا اذا كان رأس السيـــد ميخايلوفسكـــى ينفـــى السيـد ميخايلوفسكـــى . لكن «الثمـــرة» ، او بتعبيـــر ادق ، البويضـــة الملقحـــة ، هى حقـــا نفى الكائن المعنـــى باعتبارها نقطة البدء لتطور حياة جديدة . ويدرس انجلس دورة الحياة الكاملة للنبات من لحظة نشوئه عن البويضة الملقحة وحتى **اعادة انتاجه لها** . ويلاحظ السيد ميخايلوفسكى مصطنعا هيئـــة الخبير ان : «حياة النبات لا تبدأ بالحبة . فنحن نعرف الآن جيدا ، الخ . .» . وباختصار نحن نعرف الآن ان البويضة تلقح اثنـــاء الازهار . وبالطبع يعرف انجلس هذا تماما كالسيد ميخايلوفسكى . ولكن علام يدل هذا ؟ وسننزل عند ارادة السيد ميخايلوفسكى

www.kassioun.org

فنضع محل كلمة **الحبة** كلمـــة **البويضة الملقحة** ، لكن هذا لن يغير من معنى دورة حياة النبات ، ولن يدحض «الثلاثية» . وسيظل الشوفان ينمو «وفقا لمذهب هيجل» .

ويمكن ان نفترض مؤقتا ان «لحظة الازهار» تطوح بكل حجج الهيجليين . فكيف يريدنا السيد ميخايلوفسكى ان نعالج النباتات غير المزهرة ؟ اسيتركها حقا فى قبضة الثلاثية ؟ سيكون هذا خاطئا اذ سيخضع للثلاثية فى هذه الحالة عدد كبير من الموضوعات .

لكننا لا نثير هذا السؤال فى الواقع الا لكى نوضح فكـرة السيد ميخايلوفسكى بصورة ادق . فنحن لا نزال مقتنعين بأنك لا تستطيع ان تنجو من الثلاثية حتى عن طريق «الزهرة» . فهل نحن وحدنا الذين نعتقد ذلك ؟ هذا ما يقوله مثلا عالم النبـــات المتخصص **فان تيجهيم** : «ومهما يكن شكل النبات ، او المجموعة التى ينتمى اليها من حيث الشكل ، فان جسمه ينشأ دائما فـــى جسم آخر وجد قبله وينفصل هو عنه . وهذا النبات نفسه ، عند لحظة معينة ، يفصل عن نفسه اجزاء معينة تصبح هى نقطـــة البدء – جراثيم – كثير من الاجســـام الجديـــدة وهلم جرا . وباختصار انه يتكاثر بنفس الطريقـــة التى ولد بهـــا اى بالانقسام» * . الق نظرة على ما قلناه ! ان عالما شهيرا ، وعضوا فى المعهد ، وأستاذا فى متحف التاريخ الطبيعى يتحدث كهيجلى حقيقى : فهو يقول انه يبدأ بالانقسام وينتهى به من جديد . وما من كلمة عن «لحظة الازهار» ! ونحن انفسنا ندرك كم سيضايق هذا السيد ميخايلوفسكى ، لكن ما باليد حيلة ، فالحقيقة كما نعرف أعز علينا من أفلاطون .

ولنفترض مرة اخرى ان «لحظة الازهار» تطوح بالثلاثية . ففى هذه الحالة «فاننا لن نصل ، حتى لو تمسكنا بتعبيرات هيجل ، الى ثلاثية بل الى رباعية على الاقل ، الى مراحل اربع» . وتذكرنـــا «تعبيرات هيجل» «بانسكلوبيديا» هيجل . فاننا نفتح الجزء الاول ونجد فيه ان هناك حالات كثيرة تتحول فيها **الثلاثية** الى **رباعية** ،

---

* «Traité de Botanique» par *Ph. Van-Tieghem*, 2-me édition, première partie, Paris 1891, p. 24. [**ف . فان تيجهيم** «بحث عـــن النبات» ، الطبعة الثانية ، الجزء الاول ، باريس ١٨٩١ ، ص ٢٤ .]

www.kassioun.org

وان الثلاثية بشكل عام لا تسود الا في مجال الروح * . وهكذا يتضح ان الشوفان ينمو «**وفقا لمذهب هيجل**» كما يؤكد لنا فان تيجهيم ، وان هيجل يفكر فى الشوفان **وفقا للسيد ميخايلوفسكى** كما يؤكد «Enzyklopädie der philosophischen Wissenschaften im Grundrisse» * * . معجزة فى أثر معجزة ! «هى تميل اليه وهو اليّ ، وانا الى الساقى بيتر» (٣٤) . . .

وثمة مثل آخر يستعيره السيـــد ميخايلوفسكى عن انجلس لينور «غير المطلعين» ويتعلق بتعاليم روسو (٣٥) .

«وفقا لروسو كان الناس فى حالتهم الطبيعية الوحشيـــة متساوين مساواة الحيوانات . لكن الانسان يتميز بقابليتـــه للكمال ، وقد بدأت عملية الكمال هذه بظهور عدم المساواة ومنذ ذلك الحين فان كل خطوة جديدة للمدنية كانت متناقضة : انهـا «خطوات تبدو فى اتجاه اكتمال الانسان الفرد لكنها فى الواقع فى اتجاه انحلال الجنس البشرى . . وكان التعدين والزراعـــة الفنين اللذين ادى اكتشافهما الى احداث هذه الثورة العظمى . فالذهب والفضة عند الشاعر ، والحديد والقمح عند الفيلسوف ، هى التى ادت الى مدنية الانســـان وانحلال الجنس البشرى» . ويستمر عدم المساواة فى التطور ، وحين يصل الى ذروته ، فى ظل الحكم المطلق الشرقى ، يتحول من جديد الى المساواة الشاملة للنكرات ، اى انه يعود الى نقطة البدء ثم يؤدى استمرار العملية بنفس الطريقة الى الوصول الى مساواة العقد الاجتماعى» .

هكذا يعرض السيد ميخايلوفسكـــى المثل الذى قدمـــه انجلس . وكما هو واضح فانه يجد هذا ايضا «يحتمل الجدال» .

«يمكن للمرء ان يقدم بعض الملاحظات على عرض انجلس ، لكن ما يهمنا هنا هو أن ندرك بالتحديد ماذا كان انجلس يقدر فى كتاب روســـو («Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes») * * * . انه لم يتعرض لمسألة ما

---

* «Enzyklopädie», Ersten Teil, §230, Zusatz. [«الانسيكلوبيديا» ، الجزء الاول ، الفقرة ٢٣٠ ، اضافة .]

** [«بحث موجز فى الانسيكلوبيديا فى العلوم الفلسفية»] .

*** [«احاديث حول اصل واسس عدم المساواة بين الناس» .]

www.kassioun.org

اذا كان روسو قد فهم مجرى التاريخ فهما صحيحا او خاطئـــا ، فكل ما يهمه هو ان روسو «يفكر جدليا» : انه يرى **التناقض** فى مضمون التقدم ذاته ، وهو يعرض قضيته بطريقة تمكن مـــن تكييفها للصيغة الهيجلية عن **النفى ونفى النفى** . وهذا يمكن ان يتم بالطبع على الرغم من ان روسو لم يكن يعرف صيغة الجدل الهيجلية» .

وليس هذا سوى نقطة الهجوم الاولى التمهيدية على «الهيجلية» فى شخص انجلس ثم يتبع sur toute la ligne * .

«ان روسو بدون ان يعرف هيجل كان يفكر جدليا وفقـــا لهيجل . لماذا روسو وليس فولتير او اول رجل فى الشارع ؟ لان كل الناس بطبيعتهم ذاتها يفكرون جدليا . الا ان روســو بالتحديد هو الذى نختاره وهو رجل يبرز بين كل معاصريـــه لا بكفاءاته وحدها – فقد كان هناك كثيرون لا يقلون عنه فى هذا المجال – وانما بتكوينه الذهنى وبطبيعة نظرته الى العالم . وقد تظن ان مثل هذه الظاهرة الاستثنائية يجب الا تؤخذ محكا لقاعدة عامة ، لكننا نختار كما نريد . وروسو شيق وهام اولا وقبل كل شىء لانه اول من اوضح بحدة كافية **الطابع التناقضى** للمدنية ، والتناقض هو الشرط الجوهرى للعملية الجدلية . غير اننا يجب ان نلاحظ ان التناقض كما اوضحه روسو لا علاقة له بالتناقض بالمعنى الهيجلى للكلمة . فتناقض هيجل يكمن فى ان كل شىء – لانه فى عملية دائمة من الحركة والتغير (وبالتحديد عن الطريق الثلاثى المتسق) – هو عند كل وحدة زمنية معنيـــة «هو» وفى نفس الوقت «**ليس هو**» .. واذا نحينا جانبـــا مراحل التطور الثلاث الالزامية فان التناقض هنا مجرد تحديد التغيرات والحركة والتطور . ويتحدث روسو كذلك عن عملية التغير . لكنه لا يرى التناقض بأى حال فى واقعة التغير ذاتها . ويمكن تلخيص قدر كبير من حججه ســـواء فى «Discours sur l'inégalité» * * ، او فى

---

* [على طول الجبهة .]

* * [«احاديث عن عدم المساواة» .]

www.kassioun.org

مؤلفاته الاخرى كما يلى : لقد صحبت التقدم الفكرى ردة اخلاقية . ومن الواضح انه لا علاقة للفكر الجدلى بهذا على الاطلاق : فليس هنا «نفى للنفى» ، وانما اشارة الى وجود الخير والشر فى نفس الوقت فى مجموعة الظواهر المعينة ، وينتهى كل التشابه مع العملية الجدلية الى لفظ واحد هو لفظ «**التناقض**» . بيد ان هذا ليس سوى جانب واحد للقضية . فبالاضافة الى هذا يرى انجلس ثلاثية واضحة فى حجة روسو : بعد المساواة البدائية يأتى نفيها — عدم المساواة ، ثم يأتى نفى النفى — مساواة الجميع فى ظل الحكم الشرقى المطلق ، فى وجه سلطة الخان او السلطان او الشاه . «وهذه الدرجة الاخيرة من عدم المساواة هى النقطة النهائية التى تكمل الدائرة وتلتقى بالنقطة التى ابتدأنا منها» . لكن التاريخ لا يتوقف عند هذا الحد ، فهو يطور انواعا جديدة من عدم المساواة وهكذا ، والكلمات التى اقتبسناها هى كلمات روسو نفسها ، وهى التى تمثل بالذات شيئا عزيزا عند انجلس كشاهد واضح على ان روسو يفكر وفقا لهيجل» * .

ان روسو «يبرز بحدة بين معاصريه» . هذا صحيح . ما الذى جعله يبرز من بينهم ؟ حقيقة انه كان يفكر **جدليا** فى حين كان معاصروه بلا استثناء تقريبا **ميتافيزيقيين** . ففكرته عن اصل عدم المساواة هى **بالتحديد فكرة جدلية** بالرغم من انكار السيد ميخايلوفسكى .

فوفقا لكلمات السيد ميخايلوفسكى لم يفعل روسو اكثر من ايضاح ان التقدم الفكرى قد صاحبته فى تاريخ المدنية ردة اخلاقية . كلا ، ان روسو لم يشر الى ذلك فحسب . فوفقا له كان التقدم الفكرى **سببا** للردة الاخلاقية . ومن الممكن ان ندرك ذلك حتى بدون قراءة مؤلفات روسو — فيكفى ان نسترجع وفقا للاقتباس السابق الدور الذى لعبته فى مؤلفاته اعمال التعدين والزراعة التى احدثت الثورة العظمى التى حطمت المساواة البدائية . لكن كل من قرأ روسو ذاته لم ينس بالطبع الفقرة

* كل هذه النصوص ماخوذة عن الكتاب الذى سبقت الاشارة اليه من «روسكويه بوجاتستفو» .

www.kassioun.org

« Discours sur l'origine de l'inégalité » : * التاليـــــة مـــــن
« Il me reste à considérer et à rapprocher les differents hasards qui ont pu perfectionner la raison humaine en détériorant l'espèce, rendre un être méchant en le rendant sociable... » («ويبقى
ان ادرس وأجمع الاحداث المختلفة التى استطاعت ان تكمل العقل الانسانى بتشويه الجنس البشرى ، وأن تجعل هذا الكائن شريرا اذ تجعله اجتماعيا . . .») .

ولهذه الفقرة اهمية خاصة لانها توضح جيدا فكرة روسو عـــن مقدرة الجنس البشرى على التقدم . وقد تحدث «معاصروه» بدورهم كثيرا عن هذه الخاصية . ولكنها كانت فى رأيهم قوة خفية تجلب – بفعل جوهرها الداخلى – انتصارات العقل . أما عند روسو فان هذه القدرة «**لا يمكن ابدا ان تتطور من تلقاء ذاتها**» ، بل تحتاج لتطورها الى دفعات دائمة من الخارج . وهذه احدى السمات الخاصة الهامـــة للنظرة **الجدلية** الى **التقدم** الفكرى بالمقارنة بالنظرة **الميتافيزيقية**، وسنعود اليها فيمـــا بعد . اما الآن فالمهم هو ان الفقرة التى اقتبسناها لتونا تعبر بأقصى الوضوح عن رأى روسو عن العلاقـــة السببيـــة بين **الردة** الاخلاقيـــة **والتقدم** الفكرى * * . وهذا امر هام جدا لتأكيد نظـــرة هذا الكاتب لمجـــرى تطـــور المدنية . ويصور السيد ميخايلوفسكى الامر وكأن روسو لم يفعل اكثر من الاشارة الى «التناقض» ، وانه ربما قد ذرف عدة دموع كريمة عليه . لكن الواقع ان روسو اعتبر هذا التناقض الباعث الاساسى للتطور التاريخى للمدنية . فمؤسس المجتمع المدنى ، وبالتالى حافر قبر المساواة البدائية ، كان هو اول من وضع سورا حول جزء من الارض قائلا : «هذه لى» ، وبعبارة اخرى ان اساس

---

* [«احاديث عن عدم المساواة» .]

* * وهذا اقتباس اخر لمن يشك فى الامر : «J'ai assigne ce premier degré de la décadence des mœurs au premier moment de la culture des lettres dans tous les pays du monde», Lettre à M. l'abbé Raynal, Oeuvres de Rousseau, Paris 1820, t. IV, p. 43. [وأنا ارجع هذه الدرجة الاولى لتدهور الاخلاق الى اللحظة الاولى لظهور فن الكتابة فى بلاد العالم» . رسالة الى الاب راينال . مؤلفات روسو ، باريس ١٨٢٠ ، المجلد الرابع ، ص ٤٣ .]

www.kassioun.org

المجتمع المدنى هو الملكية التى اثارت كثيرا من النزاع بين الناس ، وحركت فيهم قدرا كبيرا من الطمع مما افسد اخلاقياتهم . لكن نشأة الملكية تفترض مقدما تطورا معينا «**للتكنيك والمعرفة**» (de l'industrie et des lumières) . وهكذا انتهت العلاقات البدائية بالتحديد بسبب هذا التطور ؛ ولكن فى الوقت الذى ادى فيه هذا التطور الى انتصار الملكية الخاصة ، كانت العلاقات البدائية بين الناس بدورها قد وصلت الى حالة تجعل استمرار وجودها **مستحيلا** * . ولو اننا حكمنا على روسو بالطريقة التى صور بها السيد ميخايلوفسكى «**التناقض**» الذى اشار اليه ، لتصورنا ان ابن جنيف الشهير هذا لم يكن اكثر من «عالم اجتماع ذاتى» كثير البكاء ، كان افضل ما يستطيعه هو ابتداع «صيغة تقدم» اخلاقية للغاية لعلاج الامراض الانسانية . والواقع ان أكثر ما كان يكرهه روسو هو هذا النوع من «الصيغ» التى كان يطأها بقدمه أينما سنحت له الفرصة .

لقد قام المجتمع المدنى على انقاض العلاقات البدائية التى أوضحت انها غير قادرة على الاستمرار فى الوجود . فهذه العلاقات كانت تحوى داخلها جنين نفيها . وكأنما كان روسو وهو يعرض هذه القضية يوضح مقدما فكرة هيجل ان كل ظاهرة تدمر ذاتها وتتحول الى نقيضها ، ويمكن ان نعتبر نظرة روسو الى الحكم المطلق ايضاحا آخر لهذه الفكرة .

فاحكم الآن بنفسك على مدى فهم السيد ميخايلوفسكى لهيجل وروسو حين يقول : «من الجلى للاعين انه ليس المتفكير الجدلى علاقة ايا كانت بذلك» — وحين يتصور بسذاجة ان انجلس قد سجل روسو بشكل تعسفى فى قائمة الجدل على غير اساس سوى ان روسو يستخدم عبارات مثل «التناقض» و«الدورة» و«العودة الى النقطة التى بدأنا منها» الخ .

ولكن لماذا يقتبس انجلس من روسو وليس من اى شخص آخر ؟ «لماذا روسو وليس فوليتر او اول رجل فى الشارع ؟ لان كل الناس بطبيعتهم ذاتها يفكرون جدليا . . .»

* انظر بداية الجزء الثانى من «Discours sur l'inégalité» . [«احاديث عن عدم المساواة»]

www.kassioun.org

انت مخطىء يا سيد ميخايلوفسكى فليس كل الناس جدليين : فأنت مثلا ما كان يمكن ان يعتبرك انجلس جدليا . ويكفيه ان يقرأ مقالك «كارل ماركس امام محكمة السيد يو . جوكوفسكى» ، لكى يضعك دون تردد بين الميتافيزيقيين الذين لا صلاح لهم .

فانجلس يقول عن التفكير الجدلى : «لقد فكر الناس بطريقة جدلية قبل ان يعرفوا ما هو الجدل بوقت طويل ، تماما كما كانوا يتحدثون نثرا قبل ان توجد كلمة النثر بوقت طويل . الا ان قانون نفى النفى الذى يعمل دون وعى فى الطبيعة والتاريخ وكذلك فى رؤوسنا – حتى ندركه – قد صيغ بوضوح للمرة الاولى على يد هيجل» * . وكما يرى القارىء فان هذا يشير الى التفكير الجدلى غير الواعى الذى لا يزال بعيدا للغاية عن شكله الواعى . فنحن حين نقول ان «**الاطراف تتقابل**» نعبر دون ان نلاحظ عن نظرة جدلية للاشياء ؛ وحين نتحرك فاننا – ومرة أخرى دون أن نشك فى ذلك – ننشغل بالجدل التطبيقى (فقد قلنا بالفعل فيما سبق ان الحركة هى تطبيق التناقض) . لكن لا الحركة ولا الاستعارات الجدلية كافية لانقاذنا **من الميتافيزيقا فى مجال التفكير المنظم** . بالعكس ان تاريخ الفكر يوضح لنا ان الميتافيزيقا قد زادت قوة لفترة طويلة – وكان لا بد بالضرورة ان تزداد قوة – على حساب الجدلية البدائية الساذجة : «فتحليل الطبيعة الى اجزائها المفردة ، وتصنيف العمليات والمواضيع الطبيعية المختلفة فى فئات محددة ، ودراسة الصفات الداخلية للاجسام العضوية فى الارتباط بأشكالها المتعددة – كانت هذه هى الشروط الاساسية للوثبات العملاقة فى معرفتنا بالطبيعة التى تحققت خلال الاربعمائة عام الماضية . لكن هذا المنهج ذاته فى العمل قد خلف لنا تركة هى النظر الى الموضوعات والعمليات الطبيعية فى انفصال ، بعيدا عن ارتباطها بالكل الضخم ، وملاحظتها فى هدوئها لا فى حركتها ، كأشياء ثابتة ابدا لا كأشياء متغيرة فى الاساس ، فى موتها لا فى حياتها . وحين قام بيكون ولوك بنقل هذه النظرة للاشياء من ميدان العلم الطبيعى الى الفلسفة فقد ولدا اسلوب **التفكير الميتافيزيقى** الضيق الذى يميز القرون الاخيرة» .

---

* «Herrn Eugen Dühring's Umwälzung etc.», 2. Aufl. S. 134.
[«السيد اوجين دوهرنج يقلب العلم» ، الطبعة الثانية ، ص ١٣٤ .]

www.kassioun.org

هكذا كتب انجلس الذى قال ايضا : «ومن الناحية الاخرى فان الفلسفة الاكثر جدة ، وبالرغم من انه كان للجدلية فيهـــا شراح موهوبون (مثل ديكارت وسبينوزا) وقد اصبحت ، وبخاصة نتيجة التأثير الانجليزى ، اكثر ميلا الى . . . اسلوب التفكير الميتافيزيقى، الذى سيطر كذلك كلية تقريبا على الفرنسيين فى القرن الثامن عشر فى مؤلفاتهم الفلسفية الخاصة على اى حال . غير ان الفرنسيين ، خارج ميدان الفلسفة بالمعنى الضيق للكلمة ، قد استطاعـــوا ان يتركوا لنا روائع جدلية : ويكفى ان نسترجع فى ذهننا كتاب ديدرو «**ابن اخى رامو**» ، وبحث روسو «**دروس حول اصل عدم المساواة بين الناس**» * .

وانه ليبدو واضحا لماذا يتحدث انجلس عن روسو وليس عن فولتير أو اول رجل فى الشارع . ولا نجرؤ على ان نقول ان السيد ميخايلوفسكى لم يقرأ نفس كتاب انجلس الذى يقتبس عنه والذى يأخذ منه «الامثلة» التى يدرسها . واذا ظل السيد ميخايلوفسكـــى يزعج انجلس «بأول رجل فى الشارع» فلا يبقى امامنا الا ان نفترض ان كاتبنا قد لجأ ، هنا ايضا ، الى «لحظة» الاستبدال التى اصبحنا نألفها ، «لحظة» . . التشويه المتعمد لكلمات الخصم . وقد يبدو له استغلال مثل هذه «اللحظة» مريحا ، لان كتاب انجلس لم يترجم الى الروسية ، فهو لا يوجد بالنسبة للقراء الذين لا يعرفون الالمانية (٣٦) . فهنا «ننتقى كما نريد» . وهنا ايضا ثمة اغراء جديد ، ومرة اخرى «**لا نملك الا ان نقع فى الخطيئة**» .

اوه ، اصحيح ان كل اله يشعر ببعض المتعة .
حين يهوى **شرفنا** رأسا على عقب ؟ * *

ولكن لنسترح قليلا من السيد ميخايلوفسكى ولنعد الى المثاليين الالمان *an und für sich* * * * .

قلنا ان **فلسفة الطبيعة** كانت نقطـــة الضعف لدى هؤلاء

---

* المرجع ذاته ، ص ٤–٦ .

* * نرجو من القارئ ان لا يلومنا على هذه الاقتباسات من «هيلين الحسناء» . فقد قرأنا ثانية منذ فترة قصيرة مقالة السيد ميخايلوفسكى «الداروينية واوبريت اوفنباخ» ولا نزال تحت تاثيرها القوى .

* * * [بذاتهم ولذاتهم .]

www.kassioun.org

المفكرين ، الذين يجب ان نبحث عن اكبر مآثرهم فى **مختلف فروع فلسفة التاريخ** . ونضيف الآن ان الامر ما كان بوسعه ان يكون على غير ذلك عندئذ . فلقد كان للفلسفة ، التى سمت نفسها علم العلوم ، دائما كثير من «**المحتوى الدنيوى**» ، اى انهـــا كانت تشغل نفسها دائما بكثير من المسائل العلميـــة الخالصـــة . لكن «محتواها الدنيوى» كان يختلف باختلاف الازمان . فاذا مـــا اقتصرنا هنا على امثلة من تاريخ الفلسفة الحديثة ، فسنجـد ان فلاسفة القرن السابع عشر قد انشغلوا اساسا بمسائل الرياضيات والعلوم الطبيعية . وأن فلسفة القرن الثامن عشر قد استخدمـــت لاغراضها الاكتشافات والنظريات العلمية الطبيعية فى العصر السابق ، اما هى ذاتها فاذا كانت قد درست العلوم الطبيعية فانها لم تفعل ذلك الا فى شخص كانط ، ففى فرنسا كانت **المسائل الاجتماعية** هى التى برزت الى المقدمة ، وظلت نفس المسائل اساسا تشغل فلاسفـــة القرن التاسع عشر وان يكن من زاوية مختلفة . فقد قال **شيلنج** مثلا بصراحة انه يعتقد ان **حل مشكلة تاريخية معينة هو أهم مهام الفلسفة المتعالية** . وسنعرض فورا لماهية هذه المسألة .

اذا كان كل موجود يتحرك ، وكل موجود يتغير ، واذا كانت كل ظاهرة تنفى ذاتها ، واذا لم تكن هناك مؤسسة مفيدة الا وتحولت فى النهاية الى مؤسسة ضارة وبهذه الطريقة تتغير الى نقيضها ، فانه ينشأ عن ذلك ان من الغباء ان نبحث عن «تشريع كامل» وأن مـــن المستحيل ان نبتدع نظاما للمجتمع يكون هو **الافضل** فى كل العصور ولكل الشعوب . فكل شىء حسن فى مكانه وزمانه . والتفكير الجدلى يستبعد **كل طوبوية** .

وكان مقيضا لهذا التفكير ان يستبعد كل طوبوية لان «**الطبيعة الانسانية**» ، ذلك المعيار الذى يبدو ثابتا والذى استخدمه عـلى الدوام ، كما رأينا ، مفكرو التنويـــر فى القرن الثامـــن عشر والاشتراكيون الطوبويون فى النصف الاول من القرن التاسع عشر على حد سواء ، قد تعرضت للمصير العام بين جميع الظواهر ، فصارت تعتبر هى نفسها **متغيرة** .

وفى الوقت ذاته تلاشت النظرة المثالية الساذجة للتاريخ التى تمسك بها المنورون والطوبويون على حد سواء ايضا والتى تتلخص

www.kassioun.org

فى كلمات : **العقل والآراء تحكم العالم** . بديهى ان العقل ، كما قال هيجل ، يحكم التاريخ ولكن لا بنفس المعنى الذى يحكم فيه حركة الاجرام السماوية ، اى من حيث **التوافق مع القانون** . ان حركة الاجرام متوافقة مع القانون ، ولكن تلك الاجرام لا تمتلك ، طبعا، اية فكرة عن هذا التوافق . والشىء ذاته يمكن ان يقال عن الحركة التاريخية للبشرية . فلها ، دون ادنى شك ، قوانينها . ولكن ذلك لا يعنى ان الناس يدركونها ، وان العقـــل البشرى ومعارفنـــا و«فلسفتنا» هى ، بالتالى ، العوامل الرئيسية لحركة التاريخ . ان بومة منيرفا تبدأ تحليقها فى الليل فقط . وعندما تبدأ الفلسفة برسم نقوشها الكالحة على خلفية كالحة ، وعندما يشرع النـــاس بالتأمل فى نظامهم الاجتماعى يمكنكم القول بكل ثقة ان هذا النظام قد اكل الدهر عليه وشرب ، وانه مستعد لفسح المجال لنظام جديد لن تتضح حقيقته للناس الا بعد ان يؤدى دوره التاريخى . وفى هذه المرة ايضا ستحلق بومة منيرفا فى الليل فقط . ولا شك ان الرحلات الجوية الدورية للطير الحكيم على غاية الفائدة : بل هى ضرورية تماما غير انها لا تفسر شيئا ، فانها ذاتها تحتاج الى تفسير وعلى الارجح انه من اللازم تفسيرها ، اذ انها تحتوى على **توافق مع القانون** .

وكان الاعتراف بالتوافق مع القانون فى رحلات بومة منيرفا اساس نظرة جديـــدة تماما لتاريخ التطور العقلى للبشريـــة . فالميتافيزيقيون فى كل العصور ، وعند كل الشعوب ، ومن كل الاتجاهات ، حالما كان لديهم مذهب فلسفى معين كانوا يعتبرون انه هو وحده حقيقى لا ريب فيـــه ، وان كل المذاهب الاخرى زائفة بلا ريب . انهم لم يعرفوا الا **التضاد المجرد** بين مفهومين مجردين — **الحقيقة والضلال** . ولهذا لم يكن تاريخ الفكر بالنسبة لهم الا تشابكا مشوشا بين اخطاء بعضهـــا محزن وبعضهـــا مضحك ، ظلت رقصتها الوحشية مستمرة حتى تلك اللحظـــة المباركة ، حين ابتدع اخيرا المذهب الفلسفى الحق . فهكذا نظر ج . ب . سای ، اكثر الميتافيزيقيين ميتافيزيقية ، الى **تاريخ** فرع المعرفة الذى يعمل فيه . ولم يوص بدراسة هذا التاريخ اذ ليس فيه سوى الضلالات . اما المثاليون **الجدليون** فقد نظروا

www.kassioun.org

الى الامور بطريقة اخرى ، حيث قالوا بان **الفلسفة هى التعبير العقلى عن عصرها** ؛ وكل فلسفة هى صادقة بالنسبة لعصرها ، وخاطئة بالنسبة لعصر آخر .

ولكن اذا كان العقل لا يحكم العالم الا بمعنى **توافق** الظواهر **مع القانون** ، اذا لم تكن الافكار ، ولا المعرفة ، ولا «التنوير» ، هى التى تقود الناس فى تدبيرهم الاجتماعى – اذا امكن القول – وفى تقدمهم التاريخى ، فاين اذن هى حرية الانسان ؟ اين هو المجال الذى «يحكم» فيه الانسان «ويختار» بدون ان يسلى نفسه – كما يفعل الطفل – بلعبة العيد ، وبدون ان يصبح العوبـــة فى يد قوة غريبة عنه ، حتى ولو لم تكن قوة عمياء ؟

لقد ثارت امام مثاليى القرن التاسع عشر تلك المسألـــة القديمة المتجددة ابدا – مسألة **الحرية والضرورة** ، كما ثارت امام الميتافيزيقيين فى القرن السابـــق ، وكما ثارت امام كل الفلاسفة الذين اهتموا بمسائل **العلاقة بين الوجود والفكر** . انها وقفت كأبى الهول امام كل من امثال هؤلاء المفكرين لتقول له : **اكشف عن سرى والا التهمت مذهبك** !

وكانت مسألة الحرية والضرورة هى تلك المشكلة التى اعتبر شيلنج ان حلها ، **فى تطبيقها على التاريخ** ، هو اعظم مهام الفلسفة المتعالية . فهل حلتها هذه الفلسفة وكيف حلتها ؟

لاحظوا : ان هذه المسألة ، عند شيلنج كما عند هيجل ، كانت تثير الصعوبات فى مجال تطبيقها على **التاريخ** بالتحديد . اما من وجهة النظر **الانثروبولوجية** البحتة فيمكن القول بأنها قد حلت .

يجب هنا تقديم الايضاح ، ونحن نقدمه مع الرجاء ان يوليه القارئ اهتماما خاصا بسبب الاهمية البالغة للموضوع .

ان الابرة المغنطيسية تتجه نحو الشمال ، وهذا ينشأ عن فعل مادة خاصة تخضع بذاتها لقوانين معينة ، هى قوانين **العالم المادى** ، لكن حركات هذه المادة غير ملحوظة بالنسبة للابرة ؛ فليس لديها اقل فكرة عنها . انها تتخيل انها تتجه نحو الشمال مستقلة تماما عن اى سبب خارجى ، لمجرد انه يروقها ان تتجه

www.kassioun.org

هذه الجهة . **انها تتصور ان الضرورة** المادية هى شكل نشاطها الذاتى ، **النشاط الروحى الحر** .

وبهذا المثال حاول **ليبنيتز** ان يفسر فكرته عن حرية الارادة . وبمثال مشابه يفسر **سبينوزا** فكرته المتطابقة تماما .

ان سببا خارجيا معينـــا قد نقل الى حجر قدرا معلوما من الحركة . وتستمر الحركة ، بالطبع ، زمنا معينـــا حتى بعد ان يكف السبب عن الفعل . واستمرارها هذا **ضرورى وفقا لقوانين العالم المادى** . ولكن تصوروا ان الحجر يفكر ، وانه يعى حركته التى تسبب له المتعة ، لكنه لا يعرف سببها ، بل لا يعرف انه كان هناك سبب خارجى ما لهذه الحركة . فكيف يتصور الحجر حركته فى هذه الحالة ؟ انه يتصورها حتما كنتيجة لرغبته هو ، لاختياره الحر ، ويقول لنفسه : انى اتحرك لانى اريد ان اتحرك . «وهكذا هى حرية الانسان التى يعتز بها كل الناس اعتزازا . ان جوهرها ينحصر فى ان الناس يعون ميولهم ، لكنهم لا يعرفون الاسباب الخارجية التى تولد هذه الميول . فالطفل يتصـــور ، مثلا ، انه حر فى ان يرغب ذلك اللبن الذى يؤلف غذاءه . . .» .

وكثيرون حتى من قراء اليوم سيجدون مثل هذا التفسيـــر «**ماديا فجا**» ، وسيثير دهشتهم ان يقدمه ليبنيتز وهو مثالى من انقى نوع . وسيقولون بالاضافة الى ذلك ان المقارنة على العموم ليست برهانا ناهيك عن ان المقارنة الخيالية بين الانسان وبين الابرة المغنطيسية او الحجر برهان اقل شأنا . ونرد على ذلك ان المقارنة تكف عن ان تكون خيالية حالما نسترجع الظواهر التى تحدث كل يوم **فى دماغ الانسان** . فقد اشار ماديو القرن الثامن عشر الى ان كل حركة ارادية فى المخ تتجاوب معها حركة معينة فى انسجة المخ . فما هو خيال بالنسبة لابرة المغنطيسية او الحجر يصبح حقيقة لا شك فيها بالنسبة للمخ : فحركة المادة التى تحدث وفقا لقوانين الضرورة الحتمية يصحبها فى المخ بالفعل ما يسمى بالنشاط الحر للفكر . واما عن الدهشة ، التى هى طبيعية جدا للوهلة الاولى ، من استخدام المثالى ليبنيتز لحجة مادية ، فلا بد ان نذكر ان كل المثاليين المتسقين ، كما اوضحنا من قبل ، كانوا **واحديين** ، اى انه لم يكن هناك مكان فى نظرتهـــم

www.kassioun.org

للعالم لتلك الهوة السحيقة التى تفصل المادة عن الروح فى فكر **الثنائيين** . فكتلة ما من المادة — عند الثنائى — ليست قادرة على التفكير الا اذا دخلها جزىء من الروح : فالمادة والروح فى نظر الثنائى جوهران مستقلان لا يشتركان فى شىء . ولهذا فان مقارنة ليبنيتز تبدو له وحشية ، لسبب بسيط هو ان الابرة المغنطيسية ليس لها روح . ولكن تصور ان هناك انسانا يحاكم بالطريقة التالية : ان الابرة حقا شىء مادى تماما . ولكن ما هى المادة نفسها ؟ اعتقد انها تدين بوجودها للروح ، لا بمعنى ان **الروح قد خلقتها** ، بل بمعنى انها هى **الروح نفسها** الا انهـــا موجودة فى شكل آخر . وهذا الشكل لا يتجاوب مع الطبيعة الحقة للروح ، بل انه يتعارض تعارضا تاما مع هذه الطبيعة ، الا ان هذا لا يمنعه من ان يكون شكلا لوجـــود الروح ، لان الروح — بحكم طبيعتها ذاتها — يجب ان تتحول الى نقيض لنفسها . — قد تدهشك هذه المحاكمة ايضا ، لكنك ستوافق على اى حال على ان من يجدها مقنعـــة ، من لا يرى فى المادة الا «**وجودا آخر للروح**» ، لن ينفر من التفسيرات التى تضفى على المادة وظائف الروح او تجعل هذه الوظائف متعلقة تعلقا وثيقا بقوانين المادة . فمثل هذا الانسان قد يقبل **تفسيرا ماديا** للظواهر النفسانية ، ويعطيه فى نفس الوقت **معنى مثاليا** صرف (اما ان يتـــم ذلك باستدلال ملتو او بدونه فتلك مسألة اخرى) . وهذا ما فعله المثاليون الالمان .

يخضع نشاط الانسان النفسانى لقوانين الضرورة المادية ، لكن هذا لا يزيل حرية الانسان على الاطلاق . فقوانين الضرورة المادية نفسها ليست الا قوانين فعل الروح . **فالحرية تفترض الضرورة ، والضرورة تتحول كلية الى حرية** ، ومن هنا فان حرية الانسان فى الواقع اوسع بما لا يقارن مما يظن الثنائيون الذين ، فى سعيهم الى وضع الحد الفاصل بين النشاط **الحر** والنشـــاط **الضرورى** ، يفصلون عن **مملكة الحرية** كل تلك المنطقـــة التى يخصصونها **للضرورة** ، وهى — حتى فى رأيهم — منطقة واسعة جدا .

بهذه الطريقة عرض المثاليون الجدليون فكرتهم . وكما يرى

www.kassioun.org

القارئ فانهم تمسكوا بشدة «بابرة» ليبنيتز «المغنطيسية» ، الا ان هذه الابرة قد تحولت تماما او بعبارة اخرى قد تحولت الى ابرة روحية فى ايديهم .

لكن تحول الابرة لم يحل بعد كل الصعاب المرتبطة بمسألة العلاقة بين الحرية والضرورة . فلنفترض ان الفرد حر تماما على الرغم من خضوعه لقوانين الضرورة ، بل **بسبب** هذا الخضـــوع بالذات . ولكن فى المجتمع ، وبالتالى فى التاريخ ، نحن لسنـــا بصدد فرد واحد بل بمجموعة كاملـــة من الافراد . وهنا يثار السؤال ، ألا تخرق حرية **كل منهم** بحرية **الآخرين** ؟ فانا عقدت النية على ان افعل هذا او ذاك ، ان احقق ، مثلا ، الحق والعدالة فى العلاقات الاجتماعية . وقد عقدت هذه النية **بحرية** ، وبنفس **الحرية** ستكون افعالى التى احاول عن طريقها ان احققها . لكن جيرانى يعوقوننى عن تحقيق هدفى . لقد ثاروا على نيتى بنفس **الحرية** التى عقدتها بها . وافعالهم الموجهـــة ضدى **حرة** بنفس القدر . فكيفَ سأتغلب على العقبات التى يخلقونها لى ؟ بديهى اننى اناقشهم واقنعهم ، بل اتوسلهم او ارهبهم . ولكن كيف لى ان اعرف ما اذا كان هذا سيؤدى الى شىء ؟ لقد قال المنورون الفرنسيون : la raison finira par avoir raison * . ولكن لكـــى ينتصر عقلى لا بد ان يعترف به جيرانى باعتباره عقلهم **ايضا** . فأى اساس لدى يدفعنى لان آمل ذلك ؟ فطالما ان نشاطهم حر – وهو حر تماما – وطالما ان **الضرورة** المادية بطرق غير معروفة لى تحولت الى **حرية** – والفرض هو انها قد **تحولت كلية الى حرية** – فان تصرفات الآخرين لا يمكن التنبؤ بها . وفى استطاعتى ان آمل التنبؤ بها فقط بشرط ان استطيع دراستها كما ادرس كل الظواهر الاخرى فى العالم المحيط بى ، اى كنتائج **ضرورية لاسباب محددة** معروفة لى او يمكن لى معرفتها . وبعبارة اخرى فان حريتى لن تكون عبارة فارغة بشرط واحد هو ان **الوعى** بها يصحبه **فهم للاسباب** التى تولد التصرفات **الحرة** لجيرانى ، اى اذا ما استطعت دراستها من زاوية **ضرورتها** . ويمكن لجيرانى ان يقولوا نفس الشىء عن افعالى **انا** . ولكن ماذا يعنى هذا ؟ انه يعنى ان **امكانية**

* [يثبت العقل دائما انه على حق فى التحليل النهائى .]

www.kassioun.org

النشاط التاريخى الحر (الواعى) لاى شخص معين تنتهى الى الصفر اذا لم تكن تكمن فى اساس تصرفات الناس الحرة ضرورة يمكن للفاعل ان يفهمها .

لقد رأينا فيما سبق ان المادية الميتافيزيقية الفرنسية ادت فى واقع الامر الى **الجبرية** . فالحقيقة انه اذا كان مصير شعب بأسره يعتمد على ذرة ضالة ، فان كل ما نستطيع ان نفعله هو ان نجلس مكتوفى الايدى ، لاننا عاجزون تماما ولن نستطيع اطلاقا ان نتنبأ بمثل هذه الحيل من جانب الذرات المنفردة او ان نمنعها .

ونرى الآن ان **المثالية يمكن ان تؤدى الى نفس الجبريـــة** . فاذا لم تكن ثمـــة ضرورة فى تصرفات الآخرين ، او اذا لم اكن قادرا على فهمها من زاوية الضرورة ، فان كل ما استطيع ان افعله هو ان اعتمد على العناية الرحيمة : فاكثر خططى حكمة ، واشـــد رغباتى كرما ، ستتحطم امام التصرفات التى لا يمكن التنبؤ بها لملايين البشر الآخرين . ففى هذه الحالـــة – على حد تعبيـــر لوكريتيوس **يمكن ان ينتج اى شىء من اى شىء** .

ومما يلفت النظر انه كلما حاولت المثالية تأكيد جانب الحرية فى مجال **النظرية** زاد اضطرارها الى الهبوط بها الى لا شىء فى مجال **النشاط العملى** ، حيث لا تكون للمثالية قدرة على معالجة **الصدفة المسلحة بكل قوة الحرية** .

وقد فهم المثاليون الجدليون هذا جيدا جدا . ففى فلسفتهم العملية كانت **الضرورة هى ضمان الحرية الاكيد الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه** . فختى الواجب الاخلاقى – كمـــا قال شيلنج – لا يمكنه ان يطمئننى فيمـــا يتعلق بنتائج تصرفاتى اذا كانت هذه النتائج تعتمد على الحرية وحدها . «**ففى الحرية لا بد ان تكون ثمة ضرورة**» .

ولكن عن اى ضرورة يمكن الحديث فى هذه الحالة ؟ لا استطيع ان اتمتع كثيرا بمجرد الترديد الدائم لفكرة ان الحركات الارادية المعينة تتجاوب بالضرورة مع حركات معينة فى مادة المخ . فلا يمكن اقامة اى تقديرات عملية على مثل هذه القضيـــة المجردة ، وليست ثمة امامى آفاق للتقدم فى هذا الاتجاه ، لان رأس جارى ليس خلية نحل زجاجية ، وليست ليفات مخه نحلا ، ولا استطيع

www.kassioun.org

ان اراقب حركاتها حتى لو خرفت بالتأكيد – ولا زال امامنا شوط بعيد لنصل الى هذا الوضع – انه بعد هذه الحركة او تلك لهذه الليفة العصبية او تلك ، سينشأ هذا القصـــد او ذاك فى نفس جارى ، وبالتالى فان علينا ان نعالج الضرورة فى تصرفات الناس من زاوية اخرى .

وهذا ضرورى بوجه خاص لان بومة منيرفا لا تحلق ، كمـــا نعرف ، الا فى الليل ، اى ان العلاقات الاجتماعية بين الناس **لا تمثل ثمرة نشاطهم الواعى** . ان الناس يتبعون بوعى اغراضهـــم الخاصة والشخصية . لنفترض ان كلا منهم يسعى بوعى الى زيادة ملكيته ، الا انه تنشأ عن المجموع الكلى لتصرفاتهم الفردية نتائج اجتماعية معينة ربما لم يكونوا يرغبون فيهـــا على الاطلاق ، وما كانوا بالتأكيد ليتنبأوا بهـــا . لقد اشترى المواطنون الرومـــان الاغنياء اراضى الزارعين الفقراء . وكل منهم كان يعرف بالطبع انه بسبب تصرفاته ، فان البعض يصبحون بروليتاريين لا يملكون ارضا . ولكن من منهم تنبأ بان الضياع الواسعـــــة ستقضى على الجمهورية ومعها على ايطاليا نفسها ؟ من منهم ادرك ، او **استطاع** ان يدرك ، النتائج التاريخية لتملكه ؟ ان احدا منهم لم يستطع ان يدرك ولم يدرك ذلك . والحال انه كانت هناك النتائج : فبفضل الضياع الواسعة هلكت الجمهورية وايطاليا على حد سواء .

فمن تصرفات الافراد الواعية الحرة تنتج بالضرورة نتائج غير متوقعة لهم ، نتائج لم يتنبأوا بها ، الا انها تخص المجتمـــــع بأسره ، اى انها تؤثر على المجموع الكلى للعلاقات المتبادلة بين هؤلاء الافراد انفسهم . **وهكذا فمن مجال الحرية ننتقل الى مجال الضرورة** .

واذا ادت النتائج الاجتماعية لتصرفات الناس الفردية – والتى تم الوصول اليها دون وعى منهم – الى تغيير للنظام الاجتماعى ، الامر الذى يحدث دائما وان لم يكن بسرعة واحدة ، فان اهدافا فردية جديدة تطرح امام الناس . ويأخذ نشاطهم الواعى الحـــر بالضرورة شكلا جديدا . **فمن مجال الضرورة ننتقل ثانية الى مجال الحرية** .

ان كل عملية ضرورية هى عملية تحدث فى توافق مع القانون .

www.kassioun.org

فالتغيرات فى العلاقات الاجتماعية التى لا يمكن للناس التنبؤ بها والتى تظهر بالضرورة رغم ذلك كنتيجة لتصرفاتهم ، تحدث ، كما هو واضح ، وفقا لقوانين محددة . **وعلى** الفلسفة النظريـــة ان **تكتشفها** .

كما ان التغيرات التى تدخلها فى **الاهداف** الحياتية والنشاط الحر للناس العلاقات الاجتماعية المتغيرة تحدث ، كما هو واضح ، وفقا لقوانين محددة ايضا . وبعبارة اخرى **فان انتقال الضرورة الى الحرية يحدث كذلك وفقا لقوانين محددة يمكن للفلسفة النظرية ويجب عليها ان تكتشفها** .

وحالما تؤدى الفلسفة النظرية هذه المهمة فستوفر اساســا مكينا وجديدا تماما للفلسفة **العملية** . فحالما اعرف قوانين التقدم الاجتماعى التاريخى فاننى استطيع ان اؤثر فى هذا التقدم وفقــا لاهدافى ، دون ان اهتم بحيل الذرات الضالة ، او باعتبــار ان الآخرين ، ككائنات تتمتع بالارادة الحرة ، يعدون لى فى كل لحظة اكواما من المفاجآت المذهلة . وبالطبع لن استطيع ان اتكلم باسم كل فرد من ابناء جلدتى ، وبخاصة اذا كان ينتمى الى «الطبقــة المثقفة» ، لكننى ساعرف الخطوط العريضة لاتجاه قوى المجتمع ، ولن يبقى امامى الا ان اعتمد على محصلتها للوصول الى اهدافى .

وهكذا ، فاذا استطعت ان اصل ، مثلا ، الى ايمان سعيد بان روسيا ، خلافا للبلدان الاخرى ، ستنتصر فيها «اسس المجتمع» ، فلن استطيع هذا الا الى الحد الذى انجح فيه فى فهم تصرفــات «الروس» الامجاد كتصرفات تتوافق مع القانون ، وفى دراستها من زاوية الضرورة وليس من زاوية الحرية . ويقول هيجل «**ان تاريخ العالم هو تقدم الوعى بالحرية ، وهو تقدم يجب ان نفهمــه فى ضرورته**» .

ثم اننا مهما درسنا جيدا «طبيعة الانسان» فسنظل بعيديــن جدا عن فهم تلك النتائج الاجتماعيــة التى تنتج عن تصرفات الافراد . ولنفترض اننا نعترف مع اقتصاديى المدرسة القديمة بان السعى الى الاثراء هو السمة الرئيسية المميزة للطبيعة الانسانية . فهل سنكون فى وضع نستطيع فيــه ان نتنبــأ بالاشكال التى سيتخذها هذا السعى ؟ نعم ، نستطيع فى ظل العلاقات الاجتماعية

www.kassioun.org

المحددة والمعروفة لنا . ولكن هذه العلاقات الاجتماعية المحددة والمعروفة لنا ستتغير تحت ضغط «الطبيعة الانسانية» ، تحت تأثير النشاط الامتلاكى للآخرين . ففى اى اتجاه ستتغير ؟ لن يكون هذا معروفا لنا كثيرا ، كما لن يكون معروفا ذلك الاتجاه الجديد الذى سيتخذه السعى الى الاثراء فى ظل العلاقات الاجتماعية الجديدة المتغيرة . وسنجد انفسنا فى نفس الوضع تماما اذا بدأنا نؤكد ، مع الأساتذة الاشتراكيين الالمان (٣٧) ، ان طبيعة الانسان لا يستنفدها مجرد السعى الى الاثراء ، وان لديه كذلك «احساسا اجتماعيا» (Gemeinsinn) . فلن يكون هذا الا اغنية جديدة بلحن قديم . ولكى نتحرر من هذا الجهل ، الذى تستره تعبيرات علمية الى هذه الدرجة او تلك ، علينا ان ننتقل من دراسة **طبيعة الانسان** الى دراسة **طبيعة العلاقات الاجتماعية** ، علينا ان نفهم هذه العلاقات كعملية ضرورية تتوافق مع القانون . وهذا يعود بنا ثانية الى مسألة : **على ما تتوقف طبيعة العلاقات الاجتماعية وما يحددها ؟**

لقد رأينا انه لا ماديو القرن الماضى ، ولا الاشتراكيون الطوبويون ، قد قدموا اجابة مقنعة عن هذه المسألة . فهل نجح المثاليون الجدليون فى حلها ؟

كلا . لقد فشلوا هم ايضا . وقد فشلوا بالتحديد لانهم كانوا **مثاليين** . ولكى ندرك نظرتهم لنسترجع الجدال الذى اشرنا اليه فيما سبق حول ايهما يتوقف على الآخر – الدستور على الاخلاق ام الاخلاق على الدستور . لقد لاحظ هيجل بحق عن هذا الجدال ان السؤال قد وضع هنا بطريقة خاطئة تماما ، ذلك انه فى الواقع وان تكن اخلاق شعب ما تؤثر بلا شك على دستوره ودستوره يؤثر على اخلاقه ، الا ان كلا منهما مع هذا يمثل نتيجة «**لشىء ما ثالث**» ، لقوة ما خاصة تخلق كلا من الاخلاق المؤثرة على الدستور والدستور المؤثر على الاخلاق . ولكن ما هى ، عند هيجل ، هذه القوة الخاصة ، هذا الاساس الاخير الذى يقف عليه كل من طبيعة الناس وطبيعة العلاقات الاجتماعية ؟ هذه القوة هى «**المفهوم**» او «**الفكرة**» – وهما سيان – التى يعتبر تحقيقها هو كل تاريخ الشعب المعين . **فكل شعب يحقق فكرته الخاصة** ، وكل فكرة

www.kassioun.org

خاصة ، فكرة كل شعب بمفرده تمثل مرحلة من مراحل تطـــور **الفكرة المطلقة** . وهكذا ينتهى التاريخ الى ان يكون – اذا امكـــن القول – منطقا تطبيقيا : فتفسير عصر تاريخى معين يعنى ايضاح اى مرحلة من مراحل التطور المنطقى للفكرة المطلقة يتجاوب معها هذا العصر . ولكن ما هى اذن هذه «الفكرة المطلقة» ؟ انها ليست سوى تجسيد عمليتنا المنطقية . اليكم ما يقوله عنها رجل تلقى بنفسه اساسا متينا فى مدرسة المثالية ، واولع بها بحماس ، لكنه سرعان ما ادرك اين تكمن النقيصة الجذرية لهذا الاتجاه الفلسفى (٣٨) .

«عندما اكون فى نفسى ، على اساس معرفتى بالتفاح والكمثرى والفراولة واللوز الحقيقى ، الفكرة «**ثمرة**» ، ثم امضى الى ابعد من ذلك **واتصور** ان . . . فكرتى المجردة «ثمرة» موجودة خارجى ، بل وانها تمثل الجوهر **الحق** للكمثرى والتفاح ، الخ . ، عندئذ فاننى اعلن ، بلغة **الفلسفة التأملية** ان «الثمرة» هى «**جوهر**» الكمثرى والتفاح واللوز ، الخ . ، فانى اقول ان الوجود كحبة كمثرى ليس جوهريا للكمثرى ، والوجود كحبة تفاح ليس جوهريا للتفاحـــة ، وان ما هو جوهرى لهذه الاشياء . . . هو الفكرة التى جردتها منها الا وهى «الثمرة» . ومن هنا فانى اعلن التفاح والكمثرى واللوز الخ . كمجرد اشكال لوجود – modi «الثمرة» . ان فهمى النهائى المعتمد على الحواس الخارجية يميز بالطبع التفاحـــة من ثمرة الكمثرى ، وثمرة الكمثرى من اللوز ، لكن عقلى التأملى يعلن ان هذه الفوارق غير هامة وغير جوهرية ، اذ انه يرى فى التفاحة ما يراه فى الكمثرى ، وفى الكمثرى ما يراه فى اللوزة ، اى «**الثمرة**» . وهو يعتبر الثمار الواقعيـــة المختلفـــة ثمارا – **اشباحا** فقط ، اساسها الحق و«جوهرها» هو «الثمرة» .

وواضح انه بهذا المنهج لن يحصل المرء على ثروة ذات شأن من المعارف . فعالم المعادن الذى لم يستطع الا ان يكرر ان كل المعادن هى فى الواقع «**معدن**» لم يكن عالم معادن الا فى خياله . . . ولذلك ، يجب على الفلسفة التأمليـــة التى تنتهى بكل الثمـــار الواقعية المختلفة الى «ثمرة» مجردة واحدة ان تحاول ، لكى تصل الى محتوى ما واقعى ، الانتقال ثانيـــة بطريقـــة او اخرى ، من

www.kassioun.org

«الثمرة» ، من «**الجوهر**» ، الى الثمار الواقعية المادية المختلفة : التفاحة والكمثرى واللوزة ، الخ . ومن الصعب ان تخرج بثمار واقعية من الفكرة المجردة «**الثمرة**» ، تماما كما كان من السهل ان تخرج بهذه الفكرة المجردة على اساس التعرف بالثمار الواقعية . انه من المستحيل ان تصل الى نقيض التجريد دون نبذ التجريد . ولذلك ينبذه الفيلسوف التأملي ، ولكن **بطريقة تأملية غيبية خاصة** . . . وهو لا يتجاوز تجريده الا فى الظاهر . انه يحاكم كما يلى :

اذا لم يكن التفاح والكمثرى واللوز والفراولة فى الحقيقة الا «**الجوهر**» ، «**الثمرة**» ، فان السؤال يثار : لماذا تكشف «الثمرة» عن نفسها احيانا كتفاحة ، واحيانا كثمرة كمثرى ، واحيانا كلوزة ؟ من اين جاء شبح **التنوع** هذا الذى يتناقض بشدة مع مفهومى التأملى عن **الوحدة** ، «**الجوهر**» ، «**الثمرة**» ؟

ويجيب الفيلسوف التأملى ان ذلك يحدث لان «الثمرة» ليست جوهرا ميتا ، خاملا ، جامدا ، بل هى جوهر حى ، متحرك ، متطور من نفسه . فتنوع الثمار الواقعية المادية له دلالة لا بالنسبة لفهمى النهائى فحسب ، بل و«للثمرة» ذاتها ، للعقل التأملى . والثمار المادية المختلفة هى مظاهر مختلفة لحياة الثمرة الواحدة . . . ففى التفاحة تكشف «الثمرة» عن نفسها فى الوجود على شكل التفاحة ، وفى ثمرة الكمثرى تكشف عن نفسها فى الوجود على شكل ثمرة الكمثرى . . . ان «الثمرة» تكشف عن نفسها كتفاحة وثمرة الكمثرى واللوزة . والفوارق الموجودة بين هذه الاثمار ليست الا التمايز الذاتى «للثمرة» ، ولذلك بالضبط فان الثمار المختلفة هى مختلف اعضاء **عملية حياة «الثمرة»** . . .»

ان هذا القول لاذع للغاية لكنه فى نفس الوقت صحيح بلا ريب . فحين تجسد المثالية عملية التفكير لدينا فى شكل فكرة مطلقة ، وتبحث فى هذه الفكرة عن حل لكل الظواهر ، فانها تسير بنفسها الى طريق مسدود لا يمكن الخروج منه الا بالتخلى عن «الفكرة» ، اى **بتوديع المثالية** . فمثلا : هل تفسر لك كلمات شيلنج التالية باية صورة طبيعة المغنطيسية : «**المغنطيسية فعل عام مولد للحياة ، وغرس الوحدة فى الكثرة ، والمفهوم فى**

www.kassioun.org

الاختلاف . ان نفس هذا الاقحام لما هو ذاتى فى ما هو موضوعى والذى هو بشكله الامثل . . . وعى الذات ، انما يظهر هنا فى الوجود» . ان هذه الكلمات لا تفسر شيئـــا على الاطلاق ، أليس كذلك ؟ وبنفس القدر فان التفسيرات المماثلة فى مجال **التاريخ** لا تفسر شيئا على الاطلاق . لماذا انهارت اليونان ؟ لان الفكرة التى كانت تشكل مبدأ الحياة اليونانية ، ومركز الروح اليونانيـــة **(فكرة الجمال)** ، لم يمكن ان تكون الا مرحلة قصيرة الاجل جدا من مراحل تطور الروح العالمية . ان اجابات من هذا النوع ليست سوى تكرار للسؤال فى شكل موجب ، متباه ومبتذل . ويبدو ان هيجل الذى قدم تفسير انهيار اليونان الذى اقتبسناه لتونا قد احس هو نفسه بذلك ، فاسرع ليستكمل تفسيره المثالى باشارة الى الواقع الاقتصادى لليونان القديمة ، فهو يقول : «**لقد سقطت اليونان اساسا بسبب عدم التكافؤ فى الملكيـــة**» . وهو يتصرف بهذه الطريقة ليس فقط بالنسبة للمسائل الخاصـــة باليونان . ويمكن القول ان هذه هى معالجته التى لا تتغير لفلسفة التاريخ : اولا عدة اشارات غامضة الى خصائص الفكرة المطلقة ، ثم تدليلات اكثر توسعا ، وبالطبع اكثر اقناعا ، عن طبيعة وتطور علاقات الملكية لدى الشعب المعنى . فليس فى هذه التدليلات الاخيرة اى عنصر مثالى على الاطلاق . وحين لجأ هيجل اليها ، وهو تعود ان يقول ان «**المثالية حقيقة المادية**» ، وقع شهادة فقر للمثاليـــة بالذات ، وكأنه اعترف ضمنا بأن الامور فى الجوهر على النقيض تماما ، وان **المادية حقيقة المثالية** .

بيد ان **المادية** التى يقترب منها هيجل هنا ، كانت جنينية غير متطورة ، سرعان ما كانت تتحول ثانية الى **المثالية** حالما كان من الضرورى تفسير مصدر انبثاق علاقات الملكيـــة هذه او تلك . صحيح انه كان يحدث هنا ايضا ان يعبر هيجل مرارا عن افكار مادية تماما ، لكنه ، كقاعدة ، كان يعتبر علاقات الملكية تجسيدا للمفاهيم الحقوقية التى تتطور بقوتها الذاتية الداخلية .

فماذا عرفنا اذن عن المثاليين الجدليين ؟

لقد تخلوا عن وجهة نظر الطبيعة الانسانية ، وبفضل ذلك تخلصوا من النظرة الطوبوية فى الظواهر الاجتماعيـــة ، فبدأوا

www.kassioun.org

يعتبرون حياة المجتمع عملية ضرورية لها قوانينها الخاصة . لكنهم عادوا بطريق دائرى ، بتجسيدهم لعملية تفكيرنا المنطقى (اى احد جوانب **الطبيعة الانسانية)** الى نفس وجهة النظر غير المقبولة ، **ومن هنا ظلت الطبيعة الحقة للعلاقات الاجتماعية غير مفهومة لديهم .**

وننتقل مرة اخرى لفترة قصيرة الى مجال فلسفتنا الروسية . سمع السيد ميخايلوفسكى من السيد فيليبوف الذى سمع من الامريكى فريزر ، ان كل فلسفة هيجل تنتهى الى «**غيبية جلفنية**» . وما قلناه فيما سبق عن المهام التى حددتها الفلسفة المثالية الالمانية لنفسها يكفى لكى يوضح للقارئ اللغو فى رأى فريزر . ويشعر السيدان فيليبوف وميخايلوفسكى نفسيهما بان امريكيهما «قد مضى الى ابعد مما يجب» . فيقول السيد ميخايلوفسكى : «يكفى ان نسترجع المسار المتتالى للميتافيزيقا السابقة وتأثيرها (على هيجل) منذ القدماء ، منذ هراقليطس . . .» الا انه يعود فيضيف فورا «ومع ذلك فان ملاحظات فريزر شيقة لاقصى درجة وتحتوى ، بالتأكيد ، قدرا معينا من الصدق» . اننا نقر رغم اننا لا بد ان نعترف . . . قد سخر شيدرين منذ وقت طويل من هذه «الصيغة» . ولكن ماذا تريد ان يصنع السيد ميخايلوفسكى الذى عمل معه فى السابق (٣٩) ، طالما انه اخذ على عاتقه ان يشرح «لغير المطلعين» فيلسوفا لم يعرفه الا بالسماع ؟ سيكون عليك – شئت ام ابيت – ان تمضى فى ترديد عبارات غير ذات معنى بهيئة العلماء . . .

ولكن فلنحاول ان نسترجع «المسار المتتالى» لتطور المثالية الالمانية . يقول السيد ميخايلوفسكى : «تترك تجارب الجلفنة تأثيرها على كل المفكرين فى اوروبا بمن فيهم الفيلسوف الالمانى الشاب آنذاك هيجل . ويخلق هيجل مذهبا ميتافيزيقيا هائلا يدوى كالرعد فى العالم كله ، حتى انك لا تستطيع ان تفلت منه وانت على ضفاف نهر موسكفا» . . . ان القضية معروضة هنا وكأن هيجل قد اصيب بعدوى «الغيبية الجلفنية» من علماء الفيزياء مباشرة . لكن مذهب هيجل لا يمثل الا تطورا لاحقا لآراء شيلنج ، وواضح ان العدوى كان لا بد ان تصيب هذا الاخير قبل ذلك .

www.kassioun.org

وهذا ما حدث ، هكذا يجيب مطمئنا السيد ميخايلوفسكى او السيد فيليبوف او فريزر : «فقد سار شيلنج ، وعلى الاخص بعض الاطباء من تلامذته السابقين ، بتعاليم القطبين الى اقصى حد» . حسن جدا . لكن سلف شيلنج ، كما نعرف ، هو فيخته . فكيف اثرت فيه العدوى الجلفنية ؟ لا يقول السيد ميخايلوفسكى شيئا عن ذلك : ربما يظن انها لم تؤثر فيه على الاطلاق . وهو على حق اذا كان يظن ذلك ، ويكفى لكى نقتنع بهذا ان نقرأ واحدا من مؤلفات فيخته الاولى : «*Grundlage der gesammten Wissenschaftslehre*», Leipzig 1794 * . فلن يكتشف اى ميكروسكوب فى هذا المؤلف اثرا «للجلفنية» ، ورغم هذا تظهر فى هذا الكتاب ايضا تلك «الثلاثية» المزعومة التى تشكل – فى رأى السيد ميخايلوفسكى – السمة المميزة الرئيسية للفلسفة الهيجلية ، والتى ينسبها فريزر «بقدر كبير من الصدق» ، كما يزعم ، الى «تجارب جالفانى وفولتا» . . . اننا نقر بأن هذا كله غريب جدا ، رغم اننا لا بد ان نعترف بان هيجل مع ذلك ، الخ . ، الخ .

والقارئ يعرف الآن افكار شيلنج عن المغنطيسية . ولا تكمن نقيصة المثالية الالمانية بأى حال فى انها استندت الى ولع زائد ولا مبرر له باكتشافات العلوم الطبيعية فى عصرها ، بحيث اكتسب ذلك الولع شكلا غيبيا ، بل انها تكمن بالعكس فى محاولتها تفسير كل ظواهر الطبيعة والتاريخ بواسطة عملية التفكير التى جسدتها .

وفى الختام ثمة نبأ سار . فقد اكتشف السيد ميخايلوفسكى ان «الصلة بين الميتافيزيقا والرأسمالية وثيقة للغاية ، وان الميتافيزيقا تشكل ، بلغة المادية الاقتصادية ، جزءا مكونا ضروريا من اجزاء «البناء الفوقى» لشكل الانتاج الرأسمالى ، وان يكن الرأسمال فى نفس الوقت يهضم ويكيف لنفسه كل نتاجات العلم التكنيكية ، ذلك العلم المعادى للميتافيزيقا والقائم على التجربة والملاحظة» . ويعد السيد ميخايلوفسكى بأن يناقش «هذا التناقض الطريف» فى وقت آخر . وستكون دراسة السيد ميخايلوفسكى «طريفة» حقا ! تأمل ولاحظ : ان ما يسميه

---

* [«اسس التعاليم العلمية الكاملة» ، ليبزيج ١٧٩٤ .]

www.kassioun.org

بالميتافيزيقا قد مر بتطور رائع سواء فى اليونان القديمة او فى المانيا فى القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر . وحتى الآن كانوا يظنون ان اليونان القديمة لم تكن بلدا رأسماليا على الاطلاق ، وان الرأسمالية كانت قد بدأت تتطور لتوها فى المانيا فى الوقت المشار اليه . ان بحث السيد ميخايلوفسكى سيوضح ان هذا ليس صحيحا على الاطلاق من وجهة نظر «**علم الاجتماع الذاتى**» ، وان اليونان القديمة والمانيا فى زمن فيخته وهيجل كانتا بلدين رأسماليين كلاسيكيين . وانت ترى الآن «لماذا هذا مهم» . فليسرع كاتبنا بنشر اكتشافه الرائع . غن يا عزيزى ولا تخجل ! (٤٠) .

www.kassioun.org

الفصل الخامس

المادية الحديثة

كان مقيضا لبطلان وجهة النظر المثالية فى تفسير ظواهر الطبيعة والاطور الاجتماعـى ان يجبر الناس **المفكرين** (اى **غير** الانتقائيين **وغير** الثنائيين) وقد اجبرهم بالفعل ، على ان يعودوا للنظرة المادية الى العالم . لكن المادية الحديثة ما كان يمكن ان تظل مجرد ترديد لتعاليم الماديين الفرنسيين فى نهاية القرن الثامن عشر . لقد انبعثت المادية من جديد واغتنت بجميع مكتسبات المثالية . واهم هـذه المكتسبات **المنهج الجدلى** ، دراسة الظواهر فى تطورها ، فى نشأتها وزوالها . وكان **كارل ماركس** هو العبقرى الذى يمثل هذا الاتجاه الجديد .

لم يكن ماركس اول من ثار على المثالية . فقد رفع **لودفيج فورباخ** راية العصيان . ثم ظهر على المسرح الادبى بعد فورباخ بقليل **الاخوان باور** ، اللذان تستحق آراؤهما اهتماما خاصا من القارىء الروسى المعاصر .

وكانت آراء الاخوين باور رد فعل على مثالية هيجل ، الا انهما ذاتهما كانا مصطبغين تماما بمثالية انتقائية ، سطحية جدا واحادية الجانب .

فقد رأينا ان المثاليين الالمان العظام لم ينجحوا فى فهم الطبيعة الحقة للعلاقات الاجتماعية وفى اكتشاف اساسها الواقعى . لقد رأوا فى التطور الاجتماعى عملية ضرورية تتوافق مع القانون ، وكانوا فى هذا على حق تماما . لكنهم ، حين ثارت مسألة المحرك الاساسى للتطور التاريخى ، استداروا نحو الفكرة المطلقة التى كان على خصائصها ان تقدم التفسير النهائى الاكثر عمقا لهذه العملية . وكان

www.kassioun.org

ذلك يشكل الجانب الضعيف للمثالية الذى هبت ضده قبل كل شىء ثورة فلسفية : فقد ثار الجناح اليسارى المتطرف من المدرسة الهيجلية بكل حسم ضد «الفكرة المطلقة» .

فالفكر ة المطلقة موجودة (اذا كانت موجودة اصلا) خارج الزمان والمكان ، وعلى اى حال خارج رأس كل انسان فرد . وحين تكرر الانسانية فى تطورها التاريخى مسار التطور المنطقى للفكرة المطلقة ، فانها تخضع لقوة غريبة عنها وقائمة خارجها . وحين هب الهيجليون الشبان ضد الفكرة المطلقة ، فقد ثاروا اول ما ثاروا باسم النشاط المستقل للناس ، باسم العقل الانسانى النهائى .

كتب ادجار باور يقول : «الفلسفة التأملية مخطئة تماما حين تتحدث عن العقل كقوة مجردة مطلقة . . . فالعقل ليس قوة موضوعية مجردة ، لا يمثل الانسان بالنسبة لها الا شيئا ذاتيا عرضيا عابرا ؛ كلا ، ان القوة المسيطرة هى الانسان نفسه ، وعيه بذاته ، وما العقل الا قوة هذا الوعى . وبالتالى فليس ثمة عقل مطلق ، وانما هناك فحسب عقل يتغير ابدا مع تطور الوعى بالذات ؛ فهو لا يوجد على الاطلاق فى شكله النهائى ، انه يتغير على الدوام» * .

وهكذا ، فليس ثمة فكرة مطلقة ولا عقل مجرد ، وانما هناك فحسب وعى الناس بالذات ، العقل الانسانى النهائى المتغير ابدا . وهذا صحيح تماما ، ولن يجادل فى هذه المسألة حتى السيد ميخايلوفسكى الذى «يستطيع» ، كما نعرف ، «ان يجادل» فى كل مسألة . . . بهذا القدر او ذاك من التوفيق . ولكن هناك امر غريب حقا ! فكلما اكدنا هذه الفكرة الصحيحة زادت صعوبة الوضع الذى نجد انفسنا فيه . لقد كيف المثاليون الالمان القدامى التوافق مع القانون فى كل عملية فى الطبيعة والتاريخ مع الفكرة المطلقة . وهنا يطرح السؤال التالى : مع ماذا سنكيف التوافق مع القانون حين نحطم الفكرة المطلقة حاملة هذا التوافق ؟ ولنفترض اننا نستطيع فيما يتعلق بالطبيعة ان نقدم اجابة مقنعة على هذا السؤال فى بضع

---

* «Der Streit der Kritik mit Kirche und Staat», von *Edgar Bauer*, Bern 1844, S. 184. [**ادجار باور** ، «خصومة النقد مع الكنيسة والدولة» ، برن ١٨٤٤ ، ص ١٨٤ .]

www.kassioun.org

كلمات : اننا نكيفه مع خصائص المادة . لكن الامور ابعد ما تكون عن هذه البساطة بالنسبة للتاريخ ، اذ اتضح ان القوة المسيطرة فى التاريخ هى وعى الانسان بذاته ، هى العقل الانسانى النهائى المتغير ابدا . فهل ثمة اى توافق مع القانون فى تطور هذا العقل ؟ جواب ادجار باور على هذا السؤال لا بد ان يكون بالايجاب طبعا ، لانه يعتبر الانسان – وبالتالى عقله – ليس عرضيا ابدا كما رأينا . لكن لو انك سألت باور هذا نفسه ان يشرح لك مفهومه عن التوافق مع القانون فى تطور العقل الانسانى ، لو انك سألته ، مثلا ، لماذا تطور العقل الانسانى على هذا النحو فى عصر تاريخى معين ، وعلى ذلك النحو فى عصر آخر ، لما تلقيت فى واقع الامر اية اجابة منه . انه سيحدثك عن ان «العقل الانسانى المتطور ابدا يخلق الاشكال الاجتماعية» ، وان «العقل التاريخى هو القوة المحركة لتاريخ العالم» ، وان كل نظام اجتماعى معين يبدو بالتالى بائدا حالما يخطو العقل خطوة جديدة فى تطوره * . لكن كل هذه التأكيدات وما شابهها لن تكون اجابة على السؤال ، بل هى بالاحرى دوران حول مسألة لماذا يخطو العقل الانسانى خطوات جديدة فى تطوره ، ولماذا يخطو هذه الخطوات فى هذا الاتجاه دون ذاك . فاذا ما اجبرته على ان يعالج بالتحديد هذه المسألة ، لنحاها ادجار باور جانبا على عجل باشارة لا معنى لها الى خصائص العقل الانسانى النهائى المتغير ابدا ، تماما كما اقتصر المثاليون القدامى على الاشارة الى خصائص الفكرة المطلقة .

ان اعتبار العقل القوة المحركة لتاريخ العالم ، وتفسير تطوره بنوع او آخر من خصائصه الكامنة الداخلية الخاصة ، يعنى تحويله الى شىء مطلق او ، بعبارة اخرى ، بعث الفكرة المطلقة ذاتها فى شكل جديد وهى التى اعلنوا لتوهم انهم قد دفنوها الى الابد . وكانت اهم نقيصة فى هذه الفكرة المطلقة التى بعثت الى الحياة هى انها تتعايش سلميا مع الثنائية المطلقة او انها – اذا شئنا الدقة – تفترضها مقدما من كل بد . فلما كانت عمليات الطبيعة غير مشروطة بالعقل الانسانى النهائى المتغير ابدا ، فان ثمة قوتين تظهران الى الوجود : المادة فى الطبيعة ، والعقل الانسانى فى التاريخ . وليس

* L. c., S. 185. [المصدر ذاته ، ص ١٨٥ .]

www.kassioun.org

هناك جسر يربط حركة المادة بتطور العقل ، مملكة الضرورة بمملكة الحرية . وهذا هو السبب الذى دعانا لان نقول ان آراء باور قد تشربت تماما بمثالية انتقائية ، سطحية جدا واحادية الجانب .

الرأى يحكم العالم – هكذا قال المنورون الفرنسيون ، وهكذا ايضا قال ، كما رأينا ، الاخوان باور حين ثارا ضد المثالية الهيجلية . ولكن اذا كان الرأى يحكم العالم ، فان المحركين الرئيسيين للتاريخ هم اولئك الذين ينقد فكرهم الآراء القديمة ويخلق آراء جديدة . وقد آمن الاخوان باور بذلك بالفعل . فقد انتهى جوهر العملية التاريخية فى نظرهما الى اعادة صياغة «الروح النقدية» لرصيد الآراء القائم ولاشكال حياة المجتمع التى يحددها هذا الرصيد . وقد استجلبت آراء الاخوين باور هذه بكليتها الى الادب الروسى على يد مؤلف «الرسائل التاريخية» (٤١) الذى تحدث عن «الفكر النقدى» لا عن «الروح» النقدية لان مجلة «سوفريمينيك» كانت تمنع الحديث عن الروح .

وحالما يتصور الانسان «ذو التفكير النقدى» نفسه على انه معمارى التاريخ الرئيسى وصانعه فانه بذلك يعزل نفسه ومن يشبهونه كنوع خاص ارقاه من الجنس الانسانى . وتقابل هذا النوع الارقى ، **الكتلة** الغريبة على الفكر النقدى والتى لا تستطيع الا ان تلعب دور الصلصال فى الايدى الخلاقة للشخصيات «ذات التفكير النقدى» ، و«**الابطال**» يقابلهم «**الجمهور**» . ومهما كان البطل يحب الجمهور ، مهما امتلأ بالعطف على بؤسه المزمن وآلامه المستمرة ، فانه لا يستطيع الا ان ينظر اليه من اعلى الى اسفل ، لا يستطيع الا ان يدرك ان كل شىء يتوقف عليه هو ، اى البطل ، فى حين ان الجمهور كتلة غريبة عن اى عنصر خلاق ، هو شىء يشبه عددا ضخما من الاصفار التى لا تكتسب دلالة ايجابية الا اذا ما تنازلت وحدة رحيمة من «ذوى التفكير النقدى» واخذت مكانها على رأسها . وكانت مثالية الاخوين باور الانتقائية هى اساس هذا الغرور الرهيب – بل المنفر – لدى «المثقفين» الالمان «ذوى التفكير النقدى» فى العقد الخامس من القرن التاسع عشر ، وهى اليوم تولد نفس النقيصة عند مثقفى روسيا عن طريق مؤيديها الروس . والعدو اللدود الذى ادان هذا الغرور كانه ماركس الذى نبدأ الآن فى عرض آرائه .

www.kassioun.org

قال ماركس ان المقابلة بين الشخصيات «ذات التفكير النقدى» وبين «الكتلة» ، ليست اكثر من صورة كاريكاتيرية لنظرة هيجل الى التاريخ – النظرة التى بدورها لم تكن الا نتيجة تأملية لمذهب التضاد القديم بين الروح والمادة . «فلقد كانت روح التاريخ المطلقة * عند هيجل تعامل الكتلة كمادة ، وتجد التعبير الحق عنهـــا فى **الفلسفة** وحدها . لكن الفيلسوف عند هيجل لم يكن اكثر من العضو الـــذى تصل من خلاله الروح المطلقة – صانعة التاريخ – **الى** الوعى بذاتها **بعد ان تكون الحركة قد انتهت** . وتنتهى مساهمة الفيلســـوف فى التاريخ الى هذا الوعى الذى ينشأ مع نهاية الحركة ، لان الـــروح المطلقة تحدث الحركة التاريخية الواقعية بدون وعى * * . وهكذا الفيلســوف post festum * * * . – ولدى هيجل هنـــا تناقض مزدوج : اولا ، لانه وهو يعلن فى مذهبه ان الروح المطلقـــة لا تصل الى الوعى بذاتها ، وبالتالى الى الوجود ، الا فى الفلسفـــة ؛ يرفض ان يعترف بالفيلسوف الفعلى ، الفرد ، باعتباره الـــروح المطلقة ؛ وثانيا ، لان الروح المطلقة وفقا له لا تصنع التاريـــخ الا **فى الظاهر** . وبالفعل ، فما دامت الروح المطلقة لا تعى ذاتهـــا باعتبارها الروح الخلاقة الا فى الفيلسوف و post festum فقط ، فانها لا تصنع التاريخ الا فى وعى الفيلسوف ورأيه وتصوره ، اى الا فى المخيلة التأملية . ويزيـــل السيـــد برونـــو باور * * * * هـــذا التناقض عنـــد هيجـــل . فهـــو ، اولا ، يعلـــن عن النقد باعتباره الروح المطلقة ، وعن نفســـه باعتبار النقد . وكما ينتفى عنصر النقد عن الكتلة ، فكذلك ينتفى عنصر الكتلة عن النقد . ومن هنا يرى النقد نفسه متجسدا ليس فى **الكتلة** ، بـــل فى **حفنة** صغيرة مختارة من الرجال ، فى السيد باور واتباعه . ثم

---

* هى نفسها الفكرة المطلقة .

* * لم ينس القارئ عبارة هيجل التى اقتبسناها فيما سبق : ان بومة منيرفا لا تبدأ فى التحليق الا فى المساء .

* * * بعد انتهاء الحفل (**المترجم**) .

* * * * برونو باور – هو الشقيق الاكبر لادجار باور الذى ذكرناه من قبل ومؤلف كتاب اشتهر فى عصره هو : «Kritik der evangelischen Geschichte der Synoptiker». [« نقد الحكاية الانجيلية للمنجمين » .]

www.kassioun.org

ان السيد باور يزيل التناقض الثانى عند هيجل : فهو لا يكتفى بدور الروح الهيجلية التى لا تصنع التاريخ الا فى مجال المخيلة و *post festum*، بل انه يلعب **عن وعى** دور **الروح العالمية** خلافا لكتلة بقية البشر ؛ وهو يدخل فى الحاضر فى علاقة **درامية** مع الكتلة ؛ وهو يبتدع التاريخ ويصنعه بعد تأمل ناضج وبنية مسبقة. فمن ناحية تقف الكتلة ، التى تمثل هذا العنصر **المادى** والسلبى وغير الروحى وغير التاريخى من عناصر التاريخ ، ومن ناحية اخرى تقف الروح ، النقد ، السيد برونو وشركاه ، بوصفهم العنصر الايجابى الذى ينبثق منه كل فعل **تاريخى** . وهكذا ينتهى التحول الاجتماعى الى **العمل الذهنى** للنقد النقدى» * .

ان هذه السطور تولد لدى القارىء وهما غرَيبا : فانها تبدو وكأنها قد كتبت لا من خمسين عاما مضت ، بل منذ ما يقرب من شهر مضى ، وانها ليست موجهة ضد الهيجليين اليساريين الالمان بل ضد علماء الاجتماع «الذاتيين» الروس . ويزداد هذا الوهم قوة حين يقرأ المرء الاقتباس التالى من مقال انجلس .

«ان النقد المكتفى بذاته ، لا ينبغى بالطبع ان يعترف بالتاريخ كما كان يسير حقا ، لان هذا يعنى الاعتراف بالكتلة المبتذلة فى كل ما تنتهى اليه من كتلية ، فى حين ان المشكلة هى تحرير الكتلة من كتليتها . ومن هنا يتحرر التاريخ من كتليته . ويصيح النقد بالتاريخ – بما له من موقف حر تجاه موضوعه – قائلا : كان ينبغى لك ان تسير على هذا النحو وذاك ! لقوانين النقد قوة استرجاعية ؛ فقد سار التاريخ سيرا مختلفا تماما قبل مراسيم النقد

---

* «Die heilige Familie oder Kritik der Kritischen Kritik. Gegen Bruno Bauer und Consorten» von *F. Engels* und *K. Marx*. Frankfurt a. Main 1845, S. 126—128. [«العائلة المقدسة او نقد النقد النقدى . ضد برونو باور وشركاه» بقلم **ف . انجلس وك . ماركس** . فرانكفورت على الماين ١٨٤٥ ، ص ١٢٦–١٢٨ .] هذا الكتاب مجموعة من مقالات كتبها انجلس وماركس ضد مختلف الآراء التى عبر عنها «النقد النقدى» . والفقرة الواردة اعلاه مأخوذة من مقال ماركس ردا على مقال برونو باور . كما ان الصفحة الواردة فى الفصل السابق مأخوذة من مؤلف ماركس ايضا .

www.kassioun.org

عنه بعدها ، ولذلك ، فان ما يسمى بالتاريخ الواقعى ، التاريـــخ الكتلى ، يختلف كثيرا عن التاريخ النقدى» * .

عمن يدور الحديث فى هذا المقتطف ؟ أيدور عن الكتاب الالمان من العقد الخامس ، ام عن بعض «علماء الاجتماع» المعاصرين لنا ، الذين يناقشون فى ثقة بالنفس الموضوع التالى وهو ان الكاثوليكى يرى مجرى الاحداث التاريخية بطريقة ، بينما يراه البروتستانتـــى بطريقة اخرى ، ويراه الملكى بطريقة ثالثة ، والجمهورى بطريقـة رابعة ، ولذلك فان الانسان الذاتى الطيب لا يستطيع فحسب ، بل وينبغى عليه ، ان يبتدع لنفسه ، من اجل استعماله الروحـــى ، تاريخا يتجاوب كلية مع افضل المثل ؟ هل كان انجلس يتنبأ حقـــا بحماقاتنا الروسية ؟ كلا على الاطلاق ! بل هو بالطبع لم يفكر فيها ، واذا كانت سخريته تصيب الهدف ، تصيب مفكرينا الذاتيين بعـد نصف قرن ، فتفسير ذلك حقيقة بسيطة هى ان هراءنا الذاتى ليس فيه شىء اصيل : انه لا يمثل اكثر من صورة «سوزدالية» (٤٢) رخيصة عن كاريكاتير لنفس «الهيجلية» التى يشن عليها الحرب دون نجاح . . .

من وجهة نظر «النقد النقدى» كانت كل الصراعات التاريخيـــة الكبرى تنتهى الى صراع بين **افكار** . وقد لاحظ ماركس ان **الافكار** «اخفقت» فى كل مرة لم تتوافق فيهـا مـــع المصالح الواقعية ، الاقتصادية لتلك الفئة الاجتماعية التى تحمل فى زمن معين لواء التقدم التاريخى . فادراك هذه المصالح هو وحده الذى يستطيع ان يزودنا بمفتاح لفهم المجرى الحقيقى للتطور التاريخى .

وقد رأينا فيما سبق ان المنورين الفرنسيين انفسهم لـــم يتغاضوا عن هذه المصالح ، وانهم بدورهم لم يكونوا يعارضون فى التحول اليها بحثا عن تفسير للوضع المعين فى مجتمع معين . لكـن فكرتهم عن الاهمية الحاسمة **للمصالح** كانت مجرد نوع من «الصيغة» القائلة ان الآراء تحكم العالم : فمصالح الناس نفسها تعتمد عندهم على آرائهم وتتغير مع تغير هذه الاخيرة . ومثل هذا التفسير لاهمية المصالح يمثل انتصارا للمثالية فى تطبيقها على التاريخ . وهـــو

---

* المصدر ذاته ، ص ٦ .

www.kassioun.org

يتجاوز كثيرا حتى المثالية الالمانية الجدلية التى وفقا لها تنشـــأ لدى الناس مصالح مادية جديدة فى كل مرة ترى فيها الفكرة المطلقة ان من الضرورى لها ان تخطو خطوة جديدة فى تطورها المنطقى . اما ماركس فيفهم اهمية المصالح المادية على العكس تماما .

وتبدو نظرية ماركس التاريخية للقارئ الروسى العادى نوعا من الهجو المشين للجنس الانسانى . وقد وصف ج . إ . اوسبينسكى فى روايته «الدمار» – اذا لم اكن مخطئا – زوجة موظف عجوز تهذى وهى فى سرير الموت مكررة بعناد القاعدة اللئيمة التى سارت عليها طيلة حياتها : «صوب الى الجيب ، الى الجيب !» . ويتخيل المثقفون الروس بسذاجة ان ماركس ينسب هذه القاعدة اللئيمة الى البشرية كلها ؛ وانه ، كما يقولون ، يزعم ان الناس ، مهما كان ما يشتغلون به ، فانهم دائما وابدا وبوعى قد «**صوبوا الى الجيب**» . وبالطبـــع يجد «المثقف» الروسى النزيه مثل هذه النظرة «غير مقبولة» مثلما تبدو نظرية داروين «غير مقبولة» لزوجة موظف من الدرجة التاسعة ينتهى كل ما تفهمه عن هذه النظرية الى قضية مثيرة للاستياء ، هى انها – ويا للعار – وهى الزوجة المحترمة لموظف كبير ، ليست سوى قردة ترتدى قبعة . والحق ان ماركس لا يفترى على «المثقفين» ، مثلما لا يفترى داروين على زوجات الموظفين .

وكيما نفهم افكار ماركس التاريخية يجب ان نسترجع النتائج التى وصلت اليها الفلسفة والعلم الاجتماعى والتاريخى فى الفترة التى سبقت ظهوره مباشرة . لقد وصل المؤرخون الفرنسيون فى فترة عودة الملكية ، كما نعلم ، الى استنتاج ان «الظروف المدنية» – «علاقات الملكية» تشكل الاساس الرئيسى لنظام المجتمع بأسره . ونحن نعرف ايضا ان نفس النتيجة قد وصلت اليها الفلسفـــة المثالية الالمانية فى شخص هيجل ، وصلت اليها رغم ارادتها وعـلى الرغم من روحها ، لسبب بسيط هو قصور وبطلان التفسير المثالى للتاريخ . ان ماركس الذى استوعب كل نتائج المعرفة العلمية والفكر الفلسفى فى عصره ، متفق تماما مع المؤرخين الفرنسيين ومع هيجل حول النتيجة التى ذكرناها . فقد قال : انى اقتنعت «بان العلاقـات الحقوقية واشكال الدولة ، لا يمكن فهمها لا بحكم ذاتها ، ولا بحكم ما يسمى التطور العام للروح الانسانية ، بل انها تمد جذورهـــا فى

www.kassioun.org

العلاقات الحياتية المادية التى سمى هيجل مجموعها «بالمجتمع» المدنى» على غرار ما فعل الكتاب الانجليز والفرنسيون من القرن الثامن عشر، وانه ينبغى البحث عن تفسير المجتمع المدنى فى اقتصادة» (٤٣) .

لكن علام يعتمد **اقتصاد** مجتمع معين؟ لا المؤرخون الفرنسيون ، ولا الاشتراكيون الطوبويون ولا هيجل ، كانوا قادرين على الاجابة عن هذا السؤال اجابة مرضية بعض الشيء . فقد اشاروا – بشكل مباشر او غير مباشر – الى الطبيعة الانسانية . وتتمثل الخدمة العلمية العظيمة التى اداها ماركس ، فى انه عالج المسألة من الجانب المضاد تماما ، وانه اعتبر الطبيعة الانسانية نفسها نتيجة متغيرة ابدا من نتائج التقدم التاريخى الذى يكمن سببه **خارج** الانسان . فلكى يستطيع الانسان ان يعيش يجب عليه ان يغذى جسده ، مستعيرا المواد التى يحتاجها من **الطبيعة الخارجية التى تحيط به** . وتفترض هذه الاستعارة مقدما تأثيرا معينا من قبل الانسان على هذه الطبيعة الخارجية . لكن «الانسان ، اذ يؤثر على الطبيعة الخارجية ، فانه يغير طبيعته هو» (٤٤) . هذه الكلمات القليلة تنطوى على جوهر نظرية ماركس التاريخية بأسرها ، وان لم تكن بالطبع لتقدم ، اذا ما اخذت وحدها ، فهما كافيا لها ، وتحتاج الى تفسير .

اطلق فرانكلين على الانسان اسم «الحيوان صانع الادوات» . والواقع ان استخدام الادوات وانتاجها يمثلان السمة المميزة للانسان . وقد عارض داروين الرأى القائل ان الانسان وحده هو القادر على استخدام الادوات ، وقدم كثيرا من الامثلة التى توضح ان استخدامها فى شكله الجنينى هو سمة كذلك لكثير من الثدييات . وهو بالطبع على حق تماما من وجهة نظره ، اى بمعنى انه ليست فى «طبيعة الانسان» المزعومة سمة واحدة لا يمكن ان توجد فى هذا النوع او ذاك من انواع الحيوانات ، ومن ثم فليس ثمة مبرر على الاطلاق للنظر الى الانسان باعتباره كائنا متميزا ينتمى الى «مملكة» متميزة . لكن يجب الا ننسى ان **الفوارق الكمية تتحول الى فوارق كيفية** . فما يوجد **كجنين** فى نوع من انواع الحيوانات يمكن ان يصبح **السمة المميزة** لنوع آخر من الحيوانات . وينطبق هذا بشكل خاص على استخدام الادوات . فالفيل يقطع اغصانا ويهش بها الذباب . هذا شيء شيق وله دلالته . لكن استخدام الاغصان فى

www.kassioun.org

هش الذباب لم يلعب على الارجح اى دور ملموس فى تاريخ تطور نوع «**الفيل**» ، ولم تصبح الفيلة فيلة لان اسلافهـــا من حيوانات تشبه الفيلـــة بدرجـــة او اخـــرى كانـــت تهش الذبـــاب بالاغصان . والامر على العكس بالنسبة للانسان * .

فوجود المتوحش الاسترالى يعتمد كليا على البومرانج ، مثلمـــا يعتمد وجود بريطانيا المعاصرة كليا على آلاتها . انزع من الاسترالى بومرانجه ، واجعل منه فلاحا ، عندئذ سيغير بالضرورة كل اسلوب حياته ، كل عاداته ، كل طريقته فى التفكير ، كل «طبيعته» هو .

قلنا : اجعل منه **فلاحا** . ومن مثل الزراعة نستطيع ان نـــرى بوضوح ان عملية التأثير الانتاجى للانسان على الطبيعة لا تفترض مقدما ادوات العمل فحسب ، فادوات العمل لا تشكل الا جزءا مـــن الوسائل الضرورية للانتاج . ومن هنا يكون اكثر دقة الا نتحدث عن تطور **ادوات العمل** ، بل عن تطور **وسائل الانتاج ، القوى المنتجـة** عموما ، رغم انه من المؤكد تماما ان اهم دور فى هذا التطور يعود ، او كان يعود حتى وقتنا هذا على الاقل (حتى ظهور صناعات **كيميائية** هامة) الى **ادوات العمل** بالذات .

ويكتسب الانسان فى ادوات العمل ما يمكن أن نسميه اعضاء جديدة تغير تركيبه البنوى . ومنذ ان ارتقى الانسان الى استعمالها ، فانه يعطى مظهرا جديدا تماما لتاريخ تطوره : فقد كان هذا التاريخ ينتهى فيما مضى – مثله مثل تواريخ كل الحيوانـــات الاخرى – الى التغيرات النوعية فى اعضائه الطبيعية ؛ اما الآن فان هذا التاريخ يصبح قبل كل شىء **تاريخ اتقان اعضائه الصناعية ، تاريخ نمو قواه المنتجة .**

والانسان – **الحيوان صانع الادوات** – هو فى نفس الوقت **حيوان**

---

* «So thoroughly is the use of tools the exclusive attribute of man, that the discovery of a single artificially shaped flint in the drift or cavebreccia, is deemed proof enough that man has been there». — «Prehistoric Man», by *Daniel Wilson*, vol. I, p. 151—152, London 1876.
[«استخدام الادوات فى كل مكان صفة قاصرة على الانسان وحده لدرجة ان اكتشاف اى حجر مشكل بطريقة اصطناعية فى جرف او كهف يعتبر دليلا كافيا على ان الانسان كان يعيش هنا» . «انسان ما قبل التاريخ» بقلم **دانييل ولسن** ، المجلد الاول ، ص ١٥١–١٥٢ ، لندن ١٨٧٦ .]

www.kassioun.org

اجتماعى متحدر من اسلاف عاشوا لاجيال عديدة فى قطعـــان كبيرة بدرجة او باخرى . ولا يعنينا هنا لماذا بدأ اسلافنا يعيشون فـى قطعـــان – فعلى **علماء الحيوانـــات** ان يفسروا ذلـــك ، وهم يفسرونه – لكن من المهم الى اقصى حد من وجهة نظر فلسفة التاريخ ان نلاحظ انه منذ الوقت الذى بدأت فيه اعضاء الانسان الصناعية تلعب دورا حاسما فى وجوده ، بدأت حياة المجتمع تتغير وفقا لمسار تطور قواه المنتجة .

«ان العلاقات المتنوعة التى يقيمها الناس اثناء انتاج المنتجات لا تتحدد بعلاقتهم بالطبيعة . فالانتاج ممكن فقط فى ظل نوع معين من المشاركة والتبادل فى الاعمال التى يقوم بها المنتجون . ولكى يتم الانتاج يقيم الناس ارتباطات وعلاقات متبادلة معينة ، وفى اطار هذه الارتباطات والعلاقات الاجتماعية ومن خلالها فقط تنشأ تلـك التأثيرات التى يمارسها الناس على الطبيعة والتى لا غنى عنهـــا للانتاج» * .

وهكذا نرى ان الاعضاء الصناعية – ادوات العمل – ليست اعضاء للانسان الفرد بقدر ما هى اعضاء **للانسان الاجتماعى** . وهذا هـــو السبب فى ان كل تغير جوهرى فيها يولد تغيرا فى التركيـــب الاجتماعى .

«وفقا لطابع وسائل الانتاج تتغير العلاقات الاجتماعية القائمة بين المنتجين وتتغير علاقات نشاطهم المشترك ومساهمتهم فى مجرى الانتاج اجمع . فمع اختراع اداة جديدة للحرب مثل الاسلحة النارية ، تغير بالضرورة كل التنظيم الداخلى للجيش وكذلك العلاقات المتبادلة التى تقوم بين الافراد المنتمين الى الجيش والتى بفضلهـــا يشكل الجيش جسما واحدا منظما ، كما تغيرت ، اخيرا ، العلاقات المتبادلة بين الجيوش باكملها . وهكذا ، فان علاقات المنتجين الاجتماعية ، علاقات الانتاج الاجتماعية تتغير مع تغير وتطور وسائل الانتـــاج المادية ، اى القوى المنتجة . وتشكل علاقات الانتاج بمجموعها مـا يسمى بالعلاقات الاجتماعية ، المجتمع ، علما بانه مجتمع قائم فى مرحلة تاريخية معينة من التطور ، مجتمع ذو طابع خاص . فالمجتمع

---

* «Lohnarbeit und Kapital». [«العمل الماجور وراس المال»] بقلم **كارل ماركس** (٤٥) .

www.kassioun.org

القديم والمجتمع الاقطاعى والمجتمع البرجوازى هى مثل هذه التجميعات الاصلية من علاقات الانتاج ، وكل نوع من انواع التنظيم الاجتماعى هذه يوافق بدوره مرحلة معينة من التطور فى تاريخ البشرية» * .

ليس من الضرورى ان نضيف ان المراحل الاولى للتطور الانسانى تمثل بنفس القدر تجميعات لا تقل اصالة لعلاقات الانتاج . وليس من الضرورى كذلك ان نكرر انه كان لحالة القوى المنتجة فى هـــذه المراحل الاولى ايضا تأثير حاسم على علاقات الناس الاجتماعية .

وعند هذه النقطة يجب ان نتوقف لكى ندرس بعض الاعتراضات التى قد تبدو مقنعة لدى الوهلة الاولى .

والاعتراض الاول كما يلى :

كثيرا ما يقال للماركسيين : لا ينازع احد فى الاهمية الكبيرة لادوات العمل ، ولا فى الدور العظيم للقوى المنتجة فى تقدم البشرية التاريخى ، لكن الانسان هو الذى يبتدع ادوات العمل ويستخدمها . وانتم انفسكم تعترفون بان استخدامها يفترض درجة عالية نسبيا من التطور العقلى . وكل خطوة جديدة الى الامام فى سبيل تحسين ادوات العمل تتطلب جهودا جديدة للعقل الانسانى . فجهود العقل هـــى **السبب** ، وتطور القوى المنتجة هو **النتيجة** . ومن هنا فان العقل هو المحرك الرئيسى للتقدم التاريخى ، الامر الذى يعنى ان اولئك الذين اكدوا ان الآراء تحكم العالم ، اى ان العقل الانسانى هـــو العنصر الحاكم ، قد كانوا على حق .

ليس ثمة ملاحظة اكثر طبيعية من هذه الملاحظة ، لكن هذا لا يمنع من ان تكون بلا اساس .

لا شك ان استخدام ادوات العمل يفترض تطورا عاليا لعقـــل الحيوان-الانسان . ولكن انظر الى الاسباب التى تفسر العلوم الطبيعية الحديثة بها هذا التطور .

يقول داروين : «ما كان فى وسع الانسان ابدا ان يصـــل الى موقع السيادة فى العالم دون استخدام يديه ، وهما اداتان تخضعان لارادته بشكل رائع» * * . وليست هذه فكرة جديدة : فمن قبل عبر

---

* المصدر ذاته (٤٦) .

* * «La descendance de l'homme etc.», Paris 1881, p. 51 [« اصل الانسان الخ . » . باريس ١٨٨١ ، ص ٥١ .]

www.kassioun.org

عنها هلفيسيوس . لكن هلفيسيوس الذى لم يكن قادرا على ان يستند بثبات الى وجهة نظر التطور ، لم يكن قادرا على ان يضفى على فكرته شكلا مقنعا الى حد ما . اما داروين فقد قدم دفاعا عنها ترسانة كاملة من الحجج ، وبالرغم من ان لها جميعا طابعا افتراضيا محضا ، الا انها تكفى فى مجموعها للاقناع . فماذا يقول داروين اذن ؟ من اين ظهرت لدى شبه الانسان يدان حاليتان ، انسانيتان تماما مارستا مثل هذا التأثير الرائع على نجاحات «عقله» ؟ على الارجح انهما تشكلتا بحكم بعض خصائص **البيئة الجغرافية** التى جعلت من المفيد التقسيم الفسيولوجى للعمل بين الاطراف الامامية والخلفية . وجاءت نجاحات «العقل» **نتيجة بعيدة** لهذا التقسيم ، ثم اصبحت بدورها – فى ظروف خارجية ملائمة – **سببا مباشرا** لظهور اعضاء صناعية لدى الانسان ، لاستخدام الادوات . وقدمت هذه الاعضاء الصناعية الجديدة خدمات جديدة لتطوره العقلى ، ومن جديد انعكست نجاحات «العقل» على الاعضاء . فامامنا هنا عملية طويلة يتبادل فيها السبب والنتيجة مراكزهما باستمرار . لكن من الخطأ ان تدرس هذه العملية من زاوية **التفاعل البسيط** . فلكى يستطيع الانسان ان يستفيد من النجاحات التى احرزها «عقله» لتحسين ادواته الصناعية ، اى **لزيادة سيطرته على الطبيعة** ، يجب ان يكون فى بيئة جغرافية **معينة** قادرة على تزويده : ١) بالمواد الضرورية لهذا التحسين ؛ ٢) بالاغراض التى تتطلب معالجتها وجود الادوات المحسنة . فحيث لم تكن هناك معادن ما كان فى وسع عقل الانسان الاجتماعى ان يقوده فى اى حال من الاحوال خارج حدود «مرحلة الحجر المصقول» ؛ كما ان الانتقال الى حياة الرعى والزراعة كان يحتاج الى انواع معينة من الحيوانات والنباتات لولاها لظل «العقل» بلا حركة . والامر لا يقف عند هذا الحد . فقد كان مقيضا للتطور العقلى للمجتمعات البدائية ان يتقدم بسرعة اكبر كلما كثرت الاتصالات المتبادلة بينها ، وقد تعددت هذه الاتصالات فيما بينها بالطبع كلما تنوعت الظروف الجغرافية فى الاماكن التى تقطنها ، اى كلما قل الشبه بالتالى بين منتجات مكان ومكان * . واخيرا ، يعرف الجميع

* يوجد فى كتاب فون مارتسيوس الشهير عن سكان البرازيل البدائيين عدد من الامثلة الشيقة التى توضح مدى اهمية خصائص مختلف

www.kassioun.org

اى اهمية تكتسبها فى هذا المجال طرق المواصلات الطبيعية ؛ فقد كان هيجل هو الذى قال ان الجبال تفصل بين الناس بينما البحار والانهار تقربهم * .

وتمارس البيئة الجغرافية تأثيرا لا يقل حسما على مصير مجتمعات اكبر ، على مصير دول تنشـأ على انقاض المؤسسات العشائرية البدائية . «ان ما يشكل الاساس الطبيعى للتقسيم الاجتماعى للعمل ويجبر الانسان ، بحكم تنوع الظروف الطبيعية المحيطة به ، على تنويع حاجاته الذاتية وقدراته ووسائل وطرائق الانتـاج ، ليس خصوبة التربة المطلقة ، بل تمايزها وتنوع منتجاتها الطبيعية . ان ضرورة وضع سيطرة المجتمع على قوة طبيعية معينة من اجـل استغلالها على نطاق واسع واخضاعها للانسان عن طريق الجهـود

المناطق ـ التى قد تبدو قليلة الدلالة ـ فى تطور العلاقات المتبادلة بين سكانها .

* بيد اننا يجب ان نلاحظ فيما يتعلق بالبحر انه لا يقرب الناس دائما . فقد قال راتزل بحق («Antropo-Geographie», Stuttgart 1882, S. 92) [«الجغرافيا البشرية» ، شتوتجارت ١٨٨٢ ، ص ٩٢] ان البحر يمثل فى مرحلة معينة ، دنيا ، من مراحل التطور حدودا **مطلقة** ، اى انه يجعل من المستحيل قيام علاقات ايا كانت بين الشعوب التى يفصل بينها . فالعلاقات التى لم تجعلها ممكنة فى البداية سوى مميزات البيئة الجغرافية ، تضع من ناحيتها طابعها على سحنة القبائل البدائيـة . فسكان الجزر يتميزون كثيرا عن سكان القارات . «Die Bevölkerungen der Inseln sind in einigen Fällen völlig andere als die des nächst gelegenen Festlandes oder der nächsten grösseren Insel; aber auch wo sie ursprünglich derselben Rasse oder Völkergruppe angehören, sind sie immer weit von derselben verschieden; und zwar, kann man hinzusetzen, in der Regel weiter als die entsprechenden festländischen Abzweigungen dieser Rasse oder Gruppe untereinander». (*Ratzel*, l. c., S. 96). [«ان الشعـوب التى تقطن الجزر تختلف كلية فى بعض الحالات عن الشعوب التى تقطن اقرب قارة او اقرب جزيرة كبيرة ؛ الا انها تختلف دائما بشدة ، حتى فى مكان حيث كانت تنتمى الى عرق واحد او مجموعة واحدة من الشعوب ، عن هذا العرق ؛ ونضيف الى ذلك انها ، كقاعدة ، تختلف بعضها عن البعض اكثر مما تختلف الفروع المعنية من هذا العرق ، او الجماعات قاطنة القارة» (**راتزل** ، المؤلف المذكور ، ص ٩٦) .] وهنا يتكرر نفس قانون تشكل انواع الحيوانات واصنافها .

www.kassioun.org

الانسانية المنظمة تلعب دورا حاسما فى تاريخ الصناعة . هكذا كانت اهمية تنظيم المياه فى مصر ولومبارديا وهولندا او الهند وفارس، حيث لا يقوم الرى عن طريق القنوات الصناعية بمد التربة بالماء اللازم لها فحسب ، بل يجلب فى طميه مخصبات معدنية من الجبال . ويكمن سر الازدهار الصناعى فى اسبانيا وصقلية فى ظل سيطرة العرب فى شبكة القنوات هناك» * .

وهكذا ، **لم يستطع اسلافنا من اشباه الانسان ان يصلوا الى مستوى التطور العقلى الذى كان ضروريا لتحولهم الى** *toolmaking animals* (حيوانات صانعة للادوات – المترجم) **الا بفضل بعض الخصائص المميزة للبيئة الجغرافية . كما انه كان فى وسع بعض خصائص البيئة ذاتها فقط ان تفسح المجال رحبا لاستخدام هذه القدرة الجديدة على «صنع الادوات» فى التطبيق وعلى تحسينها على الدوام»** . وفى العملية التاريخية لتطور القوى المنتجة يجب النظر الى قدرة الانسان على «صنع الادوات» قبل كل شىء **كمقدار ثابت** ، والى الظروف الخارجية المحيطة لاستخدام هذه القدرة فى التطبيق **كمقدار متغير على الدوام** * * .

---

* *Marx, Das Kapital*. Dritte Auflage, S. 524—526. [ماركس ، راس المال ، الطبعة الثالثة ، ص ٥٢٤ــ٥٢٦ .] ويضيف ماركس فى الهامش (ص ٥٢٦) قائلا : «كان تنظيم تدفق الماء احد الاسس المادية لسلطة الدولة على التكوينات الانتاجية الصغيرة غير المترابطة فى الهند . وقد ادرك حكام الهند المسلمون ذلك افضل مما ادركه اخلافهم الانجليز» . لنقارن رأى ماركس الوارد فى النص برأى احدث بحث : «Unter dem, was die lebende Natur dem Menschen an Gaben bietet, ist nicht der Reichtum an Stoffen, sondern der an Kräften oder, besser gesagt, Kräfteanregungen am höchsten zu schätzen» (*Ratzel*, l. cit., S. 343.) [« بين جميع العطايا التى تمنحها الطبيعة الحية الانسان تعود اكبر قيمة ليس الى الثروة المادية بل الى الثروة فى القوى ، او بالاحرى ، الى دوافع تطوير القوى» . (**راتزل** ، المؤلف المذكور ، ص ٣٤٣ .)]

* * يقول ل . جيحر : «ينبغى ان نحذر من ان ننسب للتفكير دورا كبيرا جدا فى اصل الادوات .فبالطبع حدث اكتشاف الادوات الاولى ذات الاهمية القصوى بالصدفة لكثير من الاكتشافات العظيمة فى الازمنة الحديثة . والارجح انه تم العثور عليها ، لا اختراعها . وقد توصلت الى هذه الفكرة على وجه الخصوص من ان اسماء الادوات لا تشتق ابدا من

www.kassioun.org

وتفسير الفارق فى النتائج **(مراحل التطور الحضارى)** التى احرزتها مختلف المجتمعات الانسانية هو بالضبط ان الظروف المحيطة لـــم تسمح لمختلف القبائل الانسانية بان تستخدم بقدر واحد قدرتها على «الاختراع» . وثمة مدرسة من علماء الانسان تنسب الفــارق فى النتائج المذكورة الى اختلاف خصائص **الاجناس الانسانية** . لكن رأى هذه المدرسة لا يتحمل اى نقد : فهو ليس سوى صنف جديد من الاسلوب القديم الذى يفسر الظواهر التاريخية بالاشارات الى «الطبيعة الانسانية» (اى بالاشارات الى **طبيعة الجنس** هنا) ، وهو لم يذهب فى عمقه العلمى ابعد من آراء طبيب موليير الذى اعلن بمظهر الحكيم ان الافيون ينوم لان به خاصية التنويم (فالجنس تخلف لان بـــه خاصية التخلف) .

واذ يؤثر الانسان فى الطبيعة الخارجية فانه يغير طبيعته هــو .

تشغيلها ، وانها (اى الاسماء) لا تتخذ ابدا طابعا توليديا ، بل تنشأ من استخدام الادوات . وهكذا نجد فى اللغـــة الالمانيـــة ان Scheere (المقص) و Säge (المنشار) وHacke (القطاعـــة) هـــى ادوات تقــص (scheeren) او تنشر (sägen) او تقطع (hacken) . ولا بد ان يستلفت قانون اللغة هذا اهتماما على الاخص ، لان اسماء التصميمات من غيـــر الادوات تشتق بطريقة توليدية سلبية من المادة او العمل الذى تنشـــأ منه او بفضله . مثلا . الجلد الذى يستخدم كآنية للنبيذ يعنى فى اصله فى كثير من اللغات الجلد المسلوخ من حيوان ما : فالكلمة الالمانيـــة Schlauch تقابلها الكلمة الانجليزية slough – جلد الثعبان . كما ان الكلمة اليونانية ascós تعنى فى نفس الوقت الجلد المستخدم كآنية وجلد الحيوان . وبالتالى ، فان اللغة ترينا هنا بوضوح تام مم وكيف صنع التصميم المسمى جلدة . والامر على خلاف ذلك بالنسبة للادوات . واذا انطلقنا من اللغة فاننا نقول انها فى البداية لم تكن تصنع على الاطلاق ؛ فالسكين الاول ، مثلا ، قد وجد بالصدفة ، ويمكننى ان اقول انه كان حجرة مدببـــة استخدمت فى اللعب » . (*L. Geiger*, Die Urgeschichte der Menschheit im Lichte der Spache. Mit besonderer Beziehung auf die Entstehung des Werkzeugs, S. 36—37. «Zur Entwickelungs geschichte der Menschheit», Stuttgart 1878.) [**ل . جيجر** ، «التاريخ البدائـــى للانسانية على ضوء اللغة ، والذى يلفت اهتماما خاصا لاصل ادوات العمل» ، ص ٣٦–٣٧ . فى المجموعة : «حول تاريخ تطور الانسانية» ، شتوتجارت ١٨٧٨ .]

www.kassioun.org

انه يطور كل قدراته ومن بينها ايضا قدرته على «صنع الادوات» . **لكن مقياس هذه القدرة يتحدد فى اى زمن معين بمقياس ما تحقق من تطور للقوى المنتجة .**

وبما ان اداة من ادوات العمل تصبح مادة للانتاج ، فان امكانية صنعها وكذلك هذه الدرجة او تلك من اتقانه تتوقف كليا على ادوات العمل التى تصنع بها . وهذا امر يفهمه كل امرئ حتى دون شرح . لكنه قد يبدو غير مفهوم على الاطلاق لدى الوهلة الاولى : فقد وجد بلوتارك ، وهو يذكر اختراعات ارشميدس خلال حصار الرومان لسيراقوسه ان من الضرورى ان **يبرر** ما فعله المخترع . لقد كان يحاكم على النحو التالى : من غير اللائق بالفيلسوف ان يشغل نفسه باشياء من هذا القبيل ، لكن لارشميدس عذره فى الحالة الطارئة التى وجدت بلاده نفسها فيها . واننا لنسأل من الذى يخطر بباله الآن ان يبحث عن ظروف مخففة لخطيئة اديسون ؟ فنحن اليوم لا نعتبر استخدام الانسان فى التطبيق لقدرته على الاختراعات الميكانيكية امرا مشينا ، بل على العكس تماما ، فى حين ان اليونان (او الرومان اذا شئت) كانوا يتبنون ، كما ترى ، فكرة مغايرة . ومن هنا كان لا بد لمسار الاكتشافات والاختراعات الميكانيكية ان يتقدم بينهم ببطء ، لا يقارن عنه بيننا ، وقد سار كذلك فعلا . وهنا قد يبدو من جديد ان **الآراء تحكم العالم** . لكن من اين استمد اليونان «رأيهم» الغريب هذا ؟ لا يمكن تفسير مصدره بصفات «العقل» الانسانى . ولا يبقى امامنا الا ان نسترجع علاقاتهم الاجتماعية . فقد كانت مجتمعات اليونان والرومان ، كما هو معلوم ، مجتمعات **ملاك عبيد** . وفى مثل هذه المجتمعات يقع كل العمل البدنى ، كل الانتاج ، على كاهل العبيد . وكان الرجل الحر **يخجل** من مثل هذا العمل ، ومن هنا نشأ بالطبع موقف الازدراء حتى من اهم الاختراعات الخاصة بعمليات الانتاج ، ومن بينها الاختراعات الميكانيكية . وهذا هو السبب فى ان نظرة بلوتارك الى ارشميدس تختلف عن النظرة التى ننظر بها الآن الى اديسون * . لكن لماذا

---

* «اسس (هذه الميكانيكا) ... ايودوكس وارخيتاس اللذان اضفيا على الهندسة مضمونا اكثر تنوعا واهمية متجاهلين قضاياها التجريدية التى لا تخضع للبرهنة بالرسوم البيانية وذلك لاجل الاستخدام الملموس

www.kassioun.org

قامت العبودية فى اليونان ؟ ألم يكن ذلك لان اليونان ، بسبب بعض اخطاء «عقلهم» قد اعتبروا نظام العبوذية افضل نظام ؟ كلا ، ليس هذا هو السبب . فقد كان زمن لم تكن عند اليونان فيه عبودية ، وهم لم يكونوا يعتبرون آنذاك على الاطلاق نظام العبودية الاجتماعى نظاما طبيعيا حتميا . وفيما بعد نشأت العبودية عند اليونان ، وبدأت تلعب بالتدريج دورا متزايد الاهمية فى حياتهم . وعندئذ تغير ايضا رأى المواطنين اليونان بصددها : فبدأوا يدافعون عن العبودية كمؤسسة طبيعية وضرورية تماما . لكن لماذا ، اذن ، نشأت العبودية وتطورت عند اليونان ؟ على الارجح ان سبب ذلك هو ذات سبب ظهورها وتطورها فى البلدان الاخرى الموجودة فى مرحلة معينة من مراحل تطورها الاجتماعى . وهذا السبب معروف : انه حالة القوى المنتجة . فالواقع انه لكى يكون من الارجح لى ان احول عدوى المقهور الى عبد لا الى لحم مشوى ، لا بد ان يكون ناتج عمله السخرى قادرا لا على اعالته فحسب ، بل وعلى اعالتى انا كذلك – جزئيا على الاقل ، وبعبارة اخرى لا بد من ان تكون هناك درجة معينة من تطور القوى المنتجة الموجودة تحت تصرفى . ومن هذا الباب بالتحديد تدخل العبودية التاريخ . وليس عمل العبيد ملائما جدا لتطور القوى المنتجة ، فهو يتقدم ببطء شديد الى اقصى حد فى ظل ظروف العبودية ، الا انه يتقدم مع ذلك . وتحل ، اخيرا ، لحظة يثبت فيها استغلال عمل العبد انه اقل فائدة من استغلال عمل الحر ، حينئذ **تلغى** العبودية او **تضمحل** بالتدريج . ويلقيها خارج الباب نفس تطور القوى المنتجة الذى

مباشرة والهام تكنيكيا لهذا العلم ... وعندما اشار افلاطون لهما ساخطا انهما يدمران عظمة الهندسة التى تبتعد بسببهما عن الاشياء المجردة وغير المجسدة وتلتفت الى اشياء حسية تحتاج الى معالجة خشنة من قبل الحرفيين ، فان الميكانيكا المطرودة من الرياضيات قد انفصلت عنها ، واصبحت بسبب اهمالها وقتا طويلا من جانب الفلسفة ، واحدا من العلوم المساعدة للفن العسكرى» . (*Plutarchi*, Vita Marcelli, edit. Teubneriana, C. Sintenis, Lipsiae 1883, Cap. XIV, p.p. 135—136.) [**بلوتارك** ، حياة مارتسيليوس ، دار تايبنر للطبع والنشر ، ليبزيج ١٨٨٣ ، الفصل ١٤ ، ص ١٣٥–١٣٦ .] وكما يرى القارئ لم يكن رأى بلوتارك جديدا جدا فى ذلك الوقت .

www.kassioun.org

ادخلها التاريخ * . وهكذا ، فاننا ، اذ نعود الى بلوتارك ، نجد ان رأيه بصدد اختراعات ارشميدس قد حددته حالة القوى المنتجة فى عصره . ولما كان لآراء من هذا النوع بلا شك تأثير كبير جدا على المجرى اللاحق للاكتشافات والاختراعات ، فاننا نستطيع ان نقول بخاصة انه **لدى كل شعب معين ، فى كل مرحلة معينة من تاريخه ، يحدد التطور اللاحق لقواه المنتجة بحالتها فى الفترة موضوع البحث .**

وبديهى اننا حيثما نصادف الاكتشافات والاختراعات ، نصادف «العقل» ايضا . فان الاكتشافات والاختراعات مستحيلة دون العقل ، كما كانت مستحيلة قبل ان يظهر الانسان على الارض . والتعاليم التى نتحدث عنها لا تهمل على الاطلاق دور العقل ؛ انها تحاول فقط ان تفسر لماذا كان العقل **يتصرف** ، فى كـــل زمن معين ، **بهذه الطريقة لا بغيرها** ؛ انها لا تهمل انجازات العقل ، وانما تسعى فقط لان تجد سببا كافيا لها .

وفى الفترة الاخيرة اخذوا يقدمون برضاء اعتراضا آخر على هذه التعاليم ذاتها ، وسنترك للسيد كارييف ان يعرضه :

يقول هذا الكاتب بعد ان عرض فلسفة انجلس التاريخية كيفما اتفق : «مع مرور الزمن اكمل انجلس رأيه باعتبارات جديدة ادخلت عليه تعديلا جوهريا . فاذا لم يكن فيمـــا مضى يعترف كاساس للمفهوم المادى الا بدراسة التركيب الاقتصادى للمجتمع ، فانه قد اعترف فيما بعد بنفس الاهمية لدراسة تركيب العائلة ، وقد تم

---

* من المعروف انه كان فى استطاعة الفلاحين الروس لمدة طويلة ان يكون لديهم اقنانهم هم ، وكان لديهم اقنان فى حالات غير نادرة . ولا يمكن ان تكون ظروف القن جذابة للفلاح . ولكن فى ظل حالة القوى المنتجة فى روسيا فى ذلك الحين لم يكن يوجد فلاح واحد يعتبر هذه الظروف شاذة . «فالموجيك» الذى جمع بعض النقود وجد من الطبيعى ان يفكر فى شراء قن ، كما كان العتيق الرومانى يسعى لامتلاك العبيد . وقد شن العبيد الذين ثاروا بقيادة سبارتاكوس الحرب ضد اسيادهم لا ضد العبودية ؛ ولو انهم نجحوا فى كسب حريتهم لاصبحوا هم انفسهم ، فى ظل ظروف ملائمة ، وبضمير مرتاح تماما ، ملاك عبيد . وسواء اراد المرء او لم يرد فانه لا بد ان يسترجع عندهذه النقطة كلمات شيلنج التى تكتسب معنى جديدا : **ان الحرية يجب ان تكون ضرورية** . ويظهر التاريخ ان ايا من اشكال الحرية لا يظهر الا حيثما يصبح ضرورة اقتصادية .

www.kassioun.org

هذا تحت تأثير التصور الجديد عن الاشكال البدائية لعلاقات الزواج والعائلة ، مما اجبره على ان يضع فى حسبانه ، لا عملية انتاج المنتجات فحسب ، بل كذلك عملية تكاثر الإجيال الانسانية . وفى هذا الخصوص كان التأثير جزئيا لكتاب مورجان «المجتمع القدّيم» * الخ .

وهكذا ، اذا كان انجلس فيما مضى «يعترف كاساس للمفهوم المادى (؟) عن التاريخ بدارسة التركيب الاقتصادى للمجتمع» فانه فيما بعد «وقد اعترف بنفس الاهمية» الخ . . الخ . . قد كف ، والحق يقال ، عن ان يكون ماديا «اقتصاديا» . ويعرض السيد كاريف هذا الحدث فى لهجة المؤرخ غير المتحيز ، بينما السيد ميخايلوفسكى «يثب ويقفز» حول نفس الموضوع ، لكنهما كليهما يقولان نفس الشىء فى الاساس ، وهما يكرران ما قاله قبلهما الكاتب الالماني شديد السطحية ويزينجرون فى كتابه «Entwickelungs gesetze der Menschheit» * * .

ومن الطبيعى تماما ان انسانا رائعا كانجلس ، والذى تابع باهتمام تقدم العلم فى عصره لعقود باكملها ، كان «يكمل» بشكل جوهرى جدا رأيه الاساسى بصدد تاريخ الانسانية . بيد ان ثمة فارقا بين اكمال واكمال ، كما ان ثمة فارقا بين «fagot et fagot» * * * والمسألة بأسرها فى هذه الحالة هى **هل تغيرت آراء** انجلس كنتيجة لهذه «الاضافات» التى ادخلها عليها ؛ هل كان مضطرا حقا لان يعترف الى جنب تطور «الانتاج» بفعل عامل آخر تزعم له «نفس اهمية» العامل الاول ؟ ومن السهل على اى امرئ ان يجيب على هذا السؤال اذا ما توفرت لديه ادنى رغبة فى معالجته بعناية وبطريقة جادة .

يقول داروين : فى بعض الاحيان تهش الفيلة الذباب بالاغصان . وقد لاحظنا فى هذا الخصوص ان الاغصان بالرغم من ذلك لا تلعب اى دور جوهرى فى حياة الفيلة ، وان الفيل لم يصبح فيلا لانه يستخدم الاغصان . لكن الفيل يتكاثر . وتقوم بين الفيل الذكر

---

* راجع : «المادية الاقتصادية فى التاريخ» — «فيستنيك يفروبى» (٤٧) ، اغسطس ١٨٩٤ ، ص ٦٠١ .

* * [«قوانين تطور الانسانية» .]

* * * [«شىء وشىء» .]

www.kassioun.org

والانثى علاقة معينة ، كما توجد لدى الذكر والانثى علاقة معينة باطفالهما . وواضح ان هذه العلاقات لم تخلقها «الاغصان» : لقد خلقتها الظروف العامة لحياة هذا النوع ، وهى ظروف لا يلعب فيها «الغصن» سوى دور ضئيل للغاية يمكن اعتباره ، دون خطأ ، معادلا **للصفر** . لكن عندما نتخيل ان الغصن قد بدأ يلعب فى حياة الفيل دورا يتزايد فى اهميته ، بمعنى انه قد بدأ يؤثر اكثر فاكثر فى تركيب تلك الظروف العامة التى تتوقف عليها كل عادات الفيلة ، بل ووجودها نفسه فى آخر المطاف ؛ وعندما نتخيل ان الغصن قد اكتسب فى النهاية تأثيرا **حاسما** فى خلق هذه الظروف ، عندئذ سيكون علينا ان نعترف بانه يحدد ايضا علاقة ذكر الفيل بانثاه وبطفله ، حينئذ سيكون علينا ان نعترف بانه كان وقت تطورت فيه العلاقات «العائلية» للفيلة بشكل مستقل (اى مستقل عن علاقتها بالغصن) ، ولكن فيما بعد جاء زمن بدأت فيه هذه العلاقات تتحدد «بالغصن» . فهل ستكون هناك غرابة فى مثل هذا الاعتراف؟ كلا على الاطلاق ، الا غرابة الفرض نفسه بان يحتل الغصن فجأة اهمية حاسمة فى حياة الفيل . ونحن نعرف انفسنا ان هذا الفرض لا يمكن الا ان يكون غريبا بالنسبة للفيل ، لكن الامر سيكون مختلفا بالنسبة لتاريخ **الانسان** .

لم ينفصل الانسان عن العالم الحيوانى الا بالتدريج . لقد كان هناك وقت لعبت فيه الادوات فى حياة اسلافنا من اشباه الانسان دورا غير ذى دلالة كما هى حالة الغصن بالنسبة للفيل . وخلال هذه الفترة الطويلة جدا كانت علاقة الذكور اشباه الانسان باناثهم وكذلك علاقة اشباه الانسان ذكورا واناثا بصغارهم تتحدد بالظروف العامة لحياة هذا النوع ، وهى ظروف لا ترتبط باى علاقة **بادوات العمل** . فعلام كانت تعتمد العلاقات «العائلية» لدى اسلافنا ؟ ان على علماء الطبيعيات تفسير ذلك . فليس لدى المؤرخ بعد ما يفعله فى هذا المجال . لكن جاء وقت بدأت فيه ادوات العمل تلعب دورا يتزايد فى اهميته فى حياة الانسان ، وتطورت القوى المنتجة اكثر فاكثر ، واخيرا حانت لحظة اكتسبت فيها هذه الاخيرة تأثيرا حاسما على كل تركيب العلاقات الاجتماعية ومن بينها العلاقات العائلية . وعند هذه النقطة يبدأ **عمل المؤرخ** : ان عليه ان يوضح كيف

www.kassioun.org

ولماذا تغيرت العلاقات العائلية لدى اسلافنا فى الارتباط بتطور قواهم المنتجة وكيف تطورت العائلة فى التعلق بالعلاقـــــات الاقتصادية . لكن من الواضح انه حالما يضع امامه مهمة مثل هذا التفسير فان عليه ، وهو يدرس العائلة البدائية ، الا يـــرى الاقتصاديات فقط ؛ فقد كان الناس يتكاثرون حتى قبل ان اكتسبت ادوات العمل اهميتها الحاسمة فى حياة الانسان ؛ فحتى قبل ذلك الحين وجدت علاقات عائلية حددتها الظروف العامـة لوجود نوع — homo sapiens * فما الذى على المؤرخ ان يفعله ؟ عليه اولا ان يطلب ملف هذا النوع من عالم الطبيعيات الذى يترك له دراسة تطور الانسان فيما بعد ، وعليه ثانيا ان يكمل هذا الملف «مـــن مصادره هو» . وبعبارة اخرى عليه ان يأخذ «العائلة» كما ظهرت الى الوجود ، لنقل ، فى الفترة الحيوانية من تطور الانسانية ، ثم يوضح اى تغيرات دخلت عليها خلال الفترة **التاريخية** بتأثير تطور القوى المنتجة ، ينتيجة التغيرات فى العلاقات الاقتصادية . هذا كل مـــا يقوله انجلس . وانا لنتساءل : هل هو ، حين يقول ذلك ، يغير ادنى تغيير رأيه «الاولى» بصدد اهمية القوى المنتجة فى تاريـــخ الانسانية ؟ هل هو يقبل فعل عامل آخر «له نفس الاهمية» بالاضافة الى هذا العامل ؟ يبدو انه لا يغير شيئا ، يبدو انه لا يقبل مثل هذا العامل . حسنا ، اذا لم يفعل ذلك فلماذا يتحدث السيدان ويزينجرون وكاريف عن تغييره لآرائه ، لماذا يثب السيد ميخايلوفسكـــى ويقفز ؟ والارجح ان سبب ذلك خفة عقلهم .

ان خصومنا يصيحون جماعة : «ولكن من الغريب حقا ان تنتهوا بتاريخ العائلة الى تاريخ العلاقات الاقتصادية ، حتى فى تلك الفترة التى تسمونها الفترة التاريخية» . وقد يكون هذا القول غريبا ، وقد لا يكون : هذا امر يحتمل الجدال اذا استخدمنا تعبير السيـــد ميخايلوفسكى . ونحن لا نخشى مناقشته معكم ايها السادة ، ولكن بشرط واحد : خلال النقاش تصرفوا بجدية ، تمعنوا فى معنـــى كلماتنا ، ولا تنسبوا لنا ابتكاراتكم ، ولا تسرعوا لكى تكتشفوا عندنا تناقضات لا توجد ولم تكن ابدا لدينا ولدى معلمينا . هـل توافقون ؟ حسنا ، فلنتناقش .

* [الانسان العاقل .]

www.kassioun.org

تقولون : لا يجوز تفسير تاريخ العائلة بتاريخ العلاقـــات الاقتصادية ، فهذا التفسير ضيق احادى الجانب غير علمى . ونحن نؤكد العكس ونستعين بوساطة الباحثين المتخصصين .

انتم تعرفون بالطبع كتاب جيرو-طولون «Les origines de la famile»* ؟ اننا نفتح هذا الكتاب الذى تعرفونه ، ونجد فيه ، مثلا ، الفقرة التالية :

«الاسباب التى ولدت داخل القبيلة البدائية (يقول جيرو-طولون فى واقع الامر «داخل القطيـع»— (de la horde)) مجموعات عائلية منفصلة ، ترتبط ، كما يبدو ، بنمو ثروة هذه القبيلة . فاستخدام او اكتشاف نبات من نباتات الحبوب ، وتدجين نوع جديد من انواع الحيوانات ، يمكن ان يكون سببا كافيا لتحولات جذرية فى المجتمع الوحشى : وقد توافقت كل الانجازات الحضارية العظيمة دائمـــا مع تغيرات عميقة فى الحياة الاقتصادية للسكان» (ص ١٣٨) * * .

وبعد ذلك ببضع صفحات نقرأ :

«على ما يبدو تميز الانتقال من نظام قرابة الانثى الى نظام قرابة الذكر على الاخص بنزاعات ذات طابع حقوقى حول اساس حق الملكية» (ص ١٤١) .

وفيما بعد : «ان تنظيم العائلة التى يسود فيها حق الذكر قد نشأ فى كل مكان ، كما يبدو لى ، بفعل قوة بسيطـــة كما هى عفوية . . . **بفعل حق الملكية**» (ص ١٤٦) .

وانتم تعرفون بالطبع اى دلالة يضفيها ماك-لينان على وأد الاطفال الاناث فى تاريخ العائلة البدائية ؟ لقد وقف انجلس ، كما هـــو معروف ، موقفا سلبيا جدا من ابحاث ماك-لينان ، لكن من الشيق لنا بخاصة فى هذه الحالة ان نطلع على آراء ماك-لينان عن السبب الذى ولد ظهور وأد الاطفال الذى يزعم ان له دورا حاسما فى تاريخ العائلة .

«بالنسبة للقبائل التى يحيط بها الاعداء والتى ، بسبب ضعف تطور التكنيك ، لم تسد الرمق الا بصعوبة ، كان الابنـاء مصدرا

---

* [«اصل العائلة» .]

* * نقتبس من الطبعة الفرنسية الصادرة عام ١٨٧٤ .

www.kassioun.org

للقوة سواء فى مجال الدفاع او فى مجال كسب القوت ، اما البنات فكن مصدرا للضعف» * .

فما الذى سبب اذن ، فى رأى ماك-لينان ، وأد الاطفال الاناث فى القبائل البدائية ؟ عدم كفاية وسائل الحياة ، ضعف القـــوى المنتجة ؛ فلو كان لدى هذه القبائل طعام كاف فربما كانت لا تقتل بناتها الصغيرات لمجرد الخوف من انه ذات يوم قد يأتى الاعداء فيقتلونهن او يأسرونهن .

ونعود فنكرر ان انجلس لم يكن يشاطر ماك – لينان رأيـــه بصدد تاريخ العائلة ، ونحن ايضا نجده غير ملائم ؛ لكن المهم الآن بالنسبة لنا هو ان ماك-لينان ايضا يشترك فى ذات الخطيئـة التى يلومون انجلس عليها : انه هو ايضا يبحث فى حالة القوى المنتجة عن حل لغز تاريخ العلاقات العائلية .

هل نحن فى حاجة لان نواصل اقتباساتنا فنأخذ عن ليبـــرت ومورجان ؟ لا نرى حاجة الى ذلك لان كل من قرأهما يعرف انهمـــا مخطئان فى هذا الخصوص كماك-لينان او انجلس . ولم يكن سبنسر ، كما هو معروف ، بلا خطيئة فى هذا الشأن ، رغم ان افكاره الاجتماعية لا علاقة لها «بالمادية الاقتصادية» .

ومن الممكن بالطبع ان يستفاد من هذا الظرف الاخير لاغراض جدالية وان يقال : ها انتم تقولون ! اذن ، يستطيع المرء ان يتفق مع ماركس وانجلس فى هذه المسألة او تلك ، والا يشاطرهمـــا نظريتهما التاريخية العامة ! بالطبع يستطيع المرء ذلك . ولكـــن المسألة كل مسألة هى : فى صف من يقف المنطق عند ذلك ؟

ولنمض الى ابعد من ذلك .

يقول جيرو-طولون ان تطور العائلة يتحدد بتطور حق الملكية ، ويضيف الى ذلك ان كل انجازات الحضارة تتوافق عموما مع تغيرات فى الحياة الاقتصادية للانسانية . وربمـــا يكون القارئ قد لاحظ بنفسه ان جيرو-طولون ليس دقيقا تماما فى اصطلاحاته : فيبدو ان مفهومه عن «حق الملكية» يعادله مفهومه عن «الحياة الاقتصادية» .

---

* «Studies in ancient hystory, — primitive marriage», by *John Ferg.* *Mac-Lennan*, p. 75. [**جون فيرغ . ماك-لينان** ، «دراسات فى التاريخ القديم ، – الزواج البدائى» ، ص ٧٥ .]

www.kassioun.org

لكن على اى حال الحق هو الحق ، والاقتصاد هو الاقتصاد ، ولا يجب الخلط بين المفهومين . فمن اين جاء حق الملكية هذا ؟ ربما نشأ تحت تأثير اقتصاد المجتمع المعين (يقول لاسال : دائما ما يستخدم القانون المدنى كمجرد تعبير عن العلاقات الاقتصادية) او ربما يدين بأصله الى سبب مختلف تماما . وهنا يجب مواصلة التحليل وعدم الكف عن اجرائه فى اللحظة التى يصبح فيها ذا اهمية عميقة وحيوية بشكل خاص .

رأينا من قبل ان المؤرخين الفرنسيين فى فترة عودة المَلَكية لم يجدوا اجابة مرضية على مسألة اصل حق المُلْكية . ويعالج السيد كارييف فى مقاله «المادية الاقتصادية فى التاريخ» مدرسة الحق التاريخية الالمانية . ولن يضيرنا ان نسترجع آراء هذه المدرسة .

اليكم ما يقوله استاذنا عن هذه المدرسة : «حين نشأ فى المانيا فى بداية القرن الحالى ما يسمى «بمدرسة الحق التاريخية» ، تلك المدرسة التى بدأت تدرس الحق لا على انه نظام لا حراك به من القواعد الحقوقية – كما كان يتصوره الحقوقيون السابقون – بل كشىء يتحرك ويتغير ويتطور ، ظهر فى تلك المدرسة اتجاه قوى للمقابلة بين النظرة التاريخية الى الحق باعتبارها النظرة الوحيدة الصحيحة ، وبين كل وجهات النظر الممكنة الاخرى فى هذا المجال : فان النظرة التاريخية لم تقبل ابدا وجود حقائق علمية تنطبق على كل العصور ، اى ما يسمى بلغة العلم الحديث قوانين عامة ، بل انكرت هذه القوانين بشكل مباشر ، ومعها نظرية الحق العامة ، لصالح الفكرة القائلة ان الحق يعتمد على الظروف المحلية ، وهو اعتماد موجود دائما وفى كل مكان ، لكنه لا يستبعد مبادئ مشتركة لدى كل الشعوب» * .

يوجد فى هذه السطور القليلة كثير من . . . ماذا نقول ؟ لنقل ، مثلا ، الاخطاء التى كان ممثلو ومؤيدو مدرسة الحق التاريخية سيحتجون عليها . فقد كانوا سيقولون مثلا ان السيد كارييف ، حين ينسب لهم انكار «ما يسمى بلغة العلم الحديث قوانين عامة» ، فانه اما يشوه رأيهم عن عمد ، او يشوش مفاهيمهم بطريقة لا تليق على

* «فيستنيك يفروبى» ، يوليو ١٨٩٤ ، ص ١٢ .

www.kassioun.org

الاطلاق «بفيلسوف التاريخ» ويخلط بين تلك «القوانين» التى هى من اختصاص تاريخ الحق ، وتلك التى تحدد التطور التاريخى للشعوب : فلم تنو مدرسة الحق التاريخية ابدا انكار وجود النوع الثانى من القوانين ، بل حاولت ان تكتشفها رغم ان جهودها لم تكلل بالنجاح . لكن سبب فشلها ذاته يعلمنا الكثير ، ولو ان السيد كاريف قد كلف نفسه مؤونة التفكير فيه لربما – من يدرى ؟ – اتضح له ايضا فى النهاية «**جوهر العملية التاريخية**» .

كان الناس يميلون فى القرن الثامن عشر لان يفسروا تاريخ الحق بفعل «المشرع» . وقد ثارت المدرسة التاريخية بقوة ضد هذا الميل . ففى عام ١٨١٤ صاغ سافينى النظرة الجديدة بهذه الطريقة : «ينحصر المجموع الكلى لهذه النظرة فى ما يلى : ينشأ كل حق مما يسمى فى الاستعمال الدارج – ولكن بشكل غير دقيق – **قانون العرف** ، اى انه ينشأ فى البدء من عرف وعقيدة الشعب ، ولا ينشأ من علم الحقوق الا بعد ذلك ؛ وهكذا تخلقه فى كل مكان قوى داخلية غير ملحوظة لا الارادة الشخصية للمشرع» * .

وقد طور سافينى هذه النظرة فيما بعد فى كتابه الشهير : «System des heutigen römischen Rechts» * * وهو يقول فى هذا الكتاب : «فالحق الوضعى يعيش فى الوعى العام لشعب ما ، ولذلك يمكننا ان نسميه ايضا **الحق الشعبى** . . . لكن لا يجب ان يفهم من ذلك باى حال ان الحق خلقه اعضاء افراد من الشعب بارادتهم الشخصية . . . ان الحق الوضعى تخلقه روح الشعب التى تعيش وتفعل فى الاعضاء الافراد من الشعب ، ومن ثم فان الحق الوضعى هو – بالضرورة لا بالصدفة – ذات الحق القائم فى وعى الافراد» * * * .

---

* «Vom Beruf unserer Zeit für Gesetzgebung und Rechtswissenschaft», von *D. Friedrich Carl von Savigny*. Dritte Auflage, Heidelberg 1840 [**د . فريدريك كارل فون سافينى** ، حول ميل عصرنا الى التشريع وعلم الحقوق ، الطبعة الثالثة ، هيدلبرج ١٨٤٠ .] (الطبعة الاولى عام ١٨١٤ ، ص ١٤ .)

* * [«نظام الحق الرومانى الحديث» .]

* * * Erster Band, S. 14—15. [المجلد الاول ، ص ١٤–١٥] (طبعة برلين عام ١٨٤٠) .

www.kassioun.org

ثم يستطرد سافينى قائلا : «لو درسنا مسألة اصل الدولة فسيكون علينا ان نحاول تفسيره بالضرورة العليا وبفعل قوة داخلية بناءة ، بنفس طريقة تفسيرنا لاصل الحق عموما ؛ ونحن نقول هذا ليس عن وجود الدولة عموما فحسب ، بل وعن الشكل الخاص الذى تتخذه الدولة فى كل شعب على حدة» * .

فينشأ الحق بنفس «الطريقة غير المرئية» التى تنشأ بها اللغة ، ويعيش فى وعى الشعب العام ، لا فى شكل «قواعد مجردة ، بل فى شكل تصور حى للمؤسسات الحقوقية فى ارتباطها العضوى» ، بحيث انه حينما تنشأ الضرورة تفرز القاعدة المجردة فى شكلها المنطقى من هذا التصور العام «بواسطة عملية ما مصطنعة (durch einen künstlichen Prozess)» * * .

ولا تهمنا هنا التطلعات العملية لمدرسة الحق التاريخية ؛ لكننا نستطيع الآن ان نقول فيما يتعلق **بنظريتها** ، وعلى اساس كلمات سافينى السابقة ، انها تمثل :

١ – رد فعل ضد النظرة التى كانت واسعة الانتشار فى القرن الثامن عشر ، والقائلة بان الحق ينشأ عن الارادة الشخصية لبعض الافراد («المشرعين») ؛ ومحاولة لايجاد تفسير علمى لتاريخ الحق ، ولفهم هذا التاريخ كعملية ضرورية وبالتالى متوافقة مع القانون ؛

٢ – محاولة تفسير هذه العملية بالانطلاق من **وجهة نظر مثالية** صرف : «فروح الشعب» ، «وعى الشعب» هو المرجع الاخير الذى كانت تلجأ اليه مدرسة الحق التاريخية .

وقد عبر بوختا عن الطابع المثالى لنظرات هذه المدرسة بحدة اكبر .

فالحق البدائى – عند بوختا كما عند سافينى – هو حق العرف . ولكن كيف ينشأ حق العرف ؟ كثيرا ما يقال ان هذا الحق تخلقه الممارسة (Uebung) اليومية ، لكن هذا ليس سوى حالة خاصة من النظرة المادية عن اصل المفهومات الشعبية . «والنظرة المضادة بالذات هى الصحيحة : فليست الممارسة اليومية سوى اللحظة

---

* Ibid., S. 22 [المصدر ذاته ، ص ٢٢ .]

* * Ibid., S. 16 [المصدر ذاته ، ص ١٦ .]

www.kassioun.org

الاخيرة ، انها تجسد فحسب الحق الذى نشأ ، والذى يعيش فى اعتقاد ابناء الشعب المعنى . ولا يؤثر العرف على الاعتقاد الا بمعنى ان هذا الاخير يصبح بفضل العرف اكثر وعيا واكثر ثباتا» * .

وهكذا ينشأ الاعتقاد الشعبى فيما يتعلق بهذه المؤسسة الحقوقية او تلك مستقلا عن الممارسة اليومية ومبكرا عن «العرف» . فمن اين ينشأ هذا الاعتقاد اذن ؟ انه ينشأ من اعماق روح الشعب . ويفسر الشكل الخاص الذى يتخذه هذا الاعتقاد عند شعب معين بالسمات الخاصة لروح هذا الشعب . وهذا شىء غامض جدا ، غامض الى حد انه لا يكشف عن اى دليل من ادلة التفسير العلمى . ويشعر بوختا نفسه بان الامور هنا ليست على ما يرام تماما ، فيحاول ان يصلحها بملاحظة من هذا النوع : «ينشأ الحق بطريق غير محسوس . فمن يستطيع ان يأخذ على عاتقه تتبع تلك الطرق التى تؤدى الى نشوء الاعتقاد المعنى ، الى جنينه ونموه وازدهاره واعلانه عن نفسه ؟ ان الذين حاولوا ذلك قد انطلقوا فى الاغلب من تصورات خاطئة» * * .

«فى الاغلب . . .» هذا يعنى انه كان هناك ايضا باحثون كانت تصوراتهم الاولى صحيحة . فالى اى نتائج اذن وصل هؤلاء فيما يتعلق باصل نظرات الشعب الحقوقية ؟ اكبر الظن ان ذلك الامر قد ظل مغلقا امام بوختا ، لانه لم يخط خطوة واحدة ابعد من الاشارات الفارغة الى خصائص روح الشعب .

ولا توضح ايضا اى شىء ملاحظة سافينى التى سبق ذكرها عن

---

* «Cursus der Institutionen», Erster Band, Leipzig 1841, S. 31.
[«منهج الحقوق المدنية» ، المجلد الاول ، ليبزيج ١٨٤١ ، ص ٣١ .] فى احد الهوامش يتحدث بوختا بحدة عن الانتقائيين الذين يسعون الى التوفيق بين النظرات المتناقضة حول اصل الحق ، ويستخدم تعبيرات تثير امامنا ، اردنا او لم نرد ، السؤال التالى : أليس من الممكن انه تنبأ بظهور السيدكارييف ؟ ولكن يجب ان نقول من الناحية الاخرى انه كان فى المانيا فى وقت بوختا ما يكفى من الانتقائيين ، فمهما كان النقص فى اشياء اخرى فان ثمة دائما وفى كل مكان موارد لا تنفد لهذا النوع من العقول .

* * Ibid., S. 28. [المصدر ذاته ، ص ٢٨ .]

www.kassioun.org

ان الحق يعيش فى الوعى العام للشعب لا فى شكل قواعد مجردة بل «فى شكل تصور حى للمؤسسات الحقوقية فى ارتباطها العضوى» . وليس من الصعب ان ندرك ما الذى حث سافينى على ان يقدم لنا هذه المعلومات المضطربة الى حد ما . فلو اننا قد افترضنا ان الحق يوجد فى وعى الشعب «فى شكل قواعد مجردة» لاصطدمنا ، فى المحل الاول ، «بالوعى العام» للحقوقيين الذين يعرفون جيدا باى صعوبة يدرك الناس هذه القواعد المجردة ، ولاتخذت نظريتنا الخاصة باصل الحق ، فى المحل الثانى ، شكلا لا يمكن تصديقه ابدا ، اذ سيبدو ان الناس ، الذين يشكلون شعبا من الشعوب ، وقبل ان يدخلوا فى علاقات عملية مع بعضهم البعض ، قبل ان يكتسبوا خبرة حياتيـة ايا كانت ، يضعون لانفسهم مفهومات حقوقية محددة ، وبعـد ان يختزنوا هذه المفهومات كما يختزن الجوال الزاد ، ينطلقون الى مجال الممارسة اليومية ويدخلون فى طريقهم التاريخى . ولن يصدق احـد بالطبع ذلك ، ومن ثم ازال سافينى «القواعد المجردة» : فالحق يوجد فى وعى الشعب لا فى شكل مفهومات محددة ؛ انه لا يمثل مجموعة من البلورات التى تشكلت تماما ، بل محلولا مشبعا بدرجة او اخـرى تتسرب منه البلورات الحقوقية المطلوبة «حينما تنشـأ ضرورة ذلك» ، اى حين الاصطدام بالممارسة اليومية . ولا تخلو هـذه المعالجة من ألمعية ، لكنها بالطبع لا تقربنا باذنى درجة من الفهم العلمى للظواهر .

فلنأخذ مثلا .

يخبرنا رينك انه لا تكاد توجد لدى الاسكيمو ملكية منظمة ؛ ولكن بما انه يمكن ان يدور الحديث عنها ، فانه يشير الى ثلاثة اشكال منها :

«١ – ملكية تابعة لاتحاد عدة عائلات ، مثل منازل الشتاء . . .

٢ – ملكية تابعة لعائلة واحدة او ، على الاكثر ، لثلاث عائلات من الاقارب ، مثل الخيام الصيفية وكل الادوات المنزلية كالمصابيح والبراميل والاطباق الخشبية والقدور الحجرية وغيرها ؛ القارب او **الاوملك** المستخدم لنقل كل هذه الاشياء مع الخيمة ، الزحافات والكلاب التى تجرها . . . واخيرا ، مؤن الشتاء . . .

www.kassioun.org

٣ – ملكية خاصة للافراد . . . الملابس والاسلحة والادوات ، اى كل ما يستخدمه الانسان بنفسه . وتنسب الى هذه الاشياء صلة خفية تربطها بمالكها والتى تشبه الصلة بين الروح والجسم . وليس من المألوف ان تعار هذه الاشياء لآخرين» * .

فلنحاول ان نتصور اصل هذه الاشكال الثلاثة من الملكية من وجهة نظر مدرسة الحق التاريخية القديمة .

لما كانت الاعتقادات – كما يقول بوختا – تسبق الممارسة اليومية ولا تنشأ على اساس العرف فان على المرء ان يفترض ان الامور سارت كما يلى : قبل ان يعيش الاسكيمو فى منازل الشتاء ، بل قبل ان يبنوها ، توصلوا الى اعتقاد بانه حالما تظهر لديهم منازل الشتاء فانها يجب ان تعود الى اتحاد عدة عائلات ؛ وبنفس الطريقة اقتنع متوحشونا بانه حالما تظهر لديهم الخيام الصيفية والبراميل والاطباق الخشبية والقوارب والقدور والزحافات والكلاب فان هذه جميعا يجب ان تكون ملكية عائلة واحدة او ، على الاكثر ، ثلاث عائلات من الاقارب ؛ واخيرا ، كان لديهم اعتقاد لا يقل رسوخا بان الملابس والاسلحة والادوات لا بد ان تكون ملكية خاصة ، وانه سيكون من غير الجائز حتى اعارة هذه الاشياء . ولنضف الى هذا انه ربما لم تظهر كل هذه «الاعتقادات» فى شكل قواعد مجردة بل «فى شكل تصور حى للمؤسسات الحقوقية فى ارتباطها العضوى» ، وانه من هذا المحلول من المفهومات الحقوقية ترسبت فيما بعد – «حينما نشأت ضرورة ذلك» ، اى حينما قابل الاسكيمو المساكن الشتوية والخيام الصيفية والبراميل والقدور الحجرية والاطباق الخشبية والقوارب والزحافات والكلاب – ترسبت قواعد حق الاسكيمو العرفى فى «شكلها المنطقى» الى هذا الحد او ذاك . اما خصائص المحلول الحقوقى المذكور فقد كانت تحدد بالخصائص الخفية لروح الاسكيمو .

---

* «Tales and Traditions of the Eskimo», by *Dr. Henry Rink*, p.p. 9 and 30. [**الدكتور هنرى رينك** ، «اقاصيص وتقاليد الاسكيمو» ، ص ٩ و ٣٠ .]

www.kassioun.org

ليس هذا تفسيرا علميا على الاطلاق ، بل مجرد Redensarten * كما يقول الالمان .

ان نوع المثالية الذى قال به مؤيدو مدرسة الحق التاريخية قد اثبت فى تفسيره للظواهر الاجتماعية انه اقل تماسكا حتى من مثالية شيلنج وهيجل الاكثر عمقا .

كيف خرج العلـــم من هذا الطريق المسدود الذى وجدت المثالية نفسها فيه ؟ لنسمع مـا يقول السيد م . كوفاليفسكى وهو واحد من ابرز ممثلى علم الحقوق المقارن الحديث .

بعد ان اشار السيد كوفاليفسكى الى ان الحياة الاجتماعيـة للقبائـل البدائية تتسـم بطابـع الشيوعية قال (واستمـع يا سيد ف . ف . ، فانه ايضا «استاذ») :

«فاذا سألنا انفسنا عن الاسس الواقعية لمثل هذا النظام ، اذا حاولنا ان نعرف الاسباب التى اجبرت اسلافنـا البدائيين ، ولا تزال تجبر المتوحشين اليوم ، على التمسك بشيوعية متجلية بهذه الدرجة او تلك ، فسيكون علينا على الخصوص ان نعرف اساليب الانتاج البدائية ، لان توزيع واستهلاك الثروات لا بد ان تحددهما اساليب خلقها . وفيما يتعلق بذلك يقرر علـم السلالات البشرية ما يلى : تحصل الشعوب التى تقوم بالقنص وصيد الاسمـاك على طعامهـا كقاعدة فى جماعـات كبيرة (en hordes) . . . ففى استراليا يتم صيد الكنجر بواسطة فصائل مسلحة من عشرات بل مئات السكان الاصليين . ويحدث نفس الشىء فى البلدان الشمالية عند صيد الرنة . . . ومما لا شك فيه ان الانسان يعجزه وحده عن المحافظة على وجوده ، فهو يحتاج الى المساعدة والمساندة ، وتتضاعف قـواه عشرات الاضعاف بالاتحاد . وهكذا نرى الانتـاج الاجتماعى فى بدايـة التطور الاجتماعى ، وكنتيجة طبيعية لذلك نرى الاستهلاك الاجتماعى . ويفيض علم السلالات البشرية بالوقائع التى تدلل على ذلك» * * .

---

* [كلام فارغ .]

** *M. Kovalevsky*, Tableau des origines et de l'évolution de la famille et de la propriété. Stockholm 1890, p.p. 52—53 [م . **كوفاليفسكى**]

www.kassioun.org

وبعد ان اورد السيد كوفاليفسكى نظرية ليرمينيه المثالية التى وفقا لها تنشأ الملكية الخاصة من الوعى الذاتى للفرد استمر قائلا :

«كلا ، ليس الامر كذلك . فليس هذا هـــو سبب وصول الانسان البدائى الى فكرة التملك الشخصى للحجر المصقول الذى يستخدمه كسلاح ، ولا للجلد الذى يغطى جسده . فهو يصل الى هذه الفكرة كنتيجة لتطبيق قواه الفردية فى انتاج الاشياء . فالحجر الذى يستخدمه كفأس قد صقلتـــه يداه هو . وفى الصيد الذى يشترك فيه مع العديد من رفاقه وجه هو الضربة القاضية للحيوان ولذلك اصبح جلد هذا الحيوان ملكيته الشخصية . ويتميز حق العرف لدى المتوحشين بدقة كبيرة فى هذا الشأن . فهو ينص مثلا على الحالة التى يسقط فيها الحيوان تحت ضربات مشتركة من صيادين اثنين : وفى هذه الحالة يصبح جلد الحيوان ملكا للصياد الذى اخترق سهمه الحيوان فى موضع اقرب الى القلب . وهـــو ايضا ينص على حالة ما اذا وجهت الى حيوان جرح بالفعل الضربة القاضية من صياد كان يمر بالصدفة . وبالتـالى فان استخدام العمل الفردى يوَلد منطقيا التملك الفردى . ونستطيع ان نتتبع هذه الظاهرة فى التاريخ كله . فمن زرع شجرة فاكهة اصبح مالكا لها ... وفيما بعد كان المحارب الذى يكسب غنيمة معينة هو مالكها الوحيد بحيث لا يصبح لعائلته اى حق عليهـا ؛ وبنفس الطريقة ليس لعائلة الكاهن حق فى القرابين التى يقدمها المؤمنون ، والتى تصبح ملكية شخصية لـــه . وتؤكد هذا بنفس الدرجة القوانين الهندية وحق العرف عند السلاف الجنوبيين وقوزاق نهر الدون او الايرلنديين القدامى . ومن المهـم الا نخطئ بالنسبة للمبدأ الحقيقى لهذا التملك الذى هو النتيجة لاستخدام الجهود الشخصية للحصول على شىء معين ، اذ انه حينمـــا تضاف الى

صورة لاصل وتطور العائلة والملكية . ستوكهولم ١٨٩٠ ، ص ٥٢ـ٥٣ .]
يجد القارئ فى كتاب المرحوم ن . زيبر «دراسات فى الحضارة الاقتصادية البدائية» عديدا من الوقائع التى تبين بوضوح كامل ان اساليب التملك تحددها اساليب الانتاج .

www.kassioun.org

الجهود الشخصية لانسان مساعدة آخرين فان الاشياء لا تصبح عندئذ ملكية خاصة» * .

وبعد كل ما قيل يصبح مفهوما لماذا غدت الاسلحة والملابس والطعام والحلى الخ . اول موضوع للتملك الشخصى . «ومنذ الخطوات الاولى فى مجال تدجين الحيوانات تشكل الكلاب والخيول والقطط ودواب العمل اهم رصيد للملكية الشخصية وملكية العائلة . . .» * * . ولكن مدى التأثير الذى يستمر يمارسه تنظيم الانتاج على اساليب التملك يتضح مثلا من الحقيقة التالية : يقوم الاسكيمو بصيد الحيتان فى قوارب كبيرة وفى فصائل كبيرة ؛ وتمثل القوارب التى تستخدم لهذا الغرض ملكية اجتماعية ، اما القوارب الصغيرة التى تستخدم فى نقل الاشياء التى تملكها العائلة فتنتمى الى عائلات منفردة ، او «على الاكثر لثلاث عائلات من الاقارب» .

ومع ظهور الزراعة اصبحت الارض ايضا موضوعا للتملك . وغدت الارض ملكا لاتحادات من اقرباء الدم متفاوتة فى الحجم . وهذا بالطبع احد اشكال التملك **الاجتماعى** . فكيف يمكن تفسير اصل هذا التملك ؟ يقول السيد كوفاليفسكى : «يبدو لنا ان اسبابه تكمن فى نفس الانتاج الاجتماعى الذى ولد فى وقت ما تملك الجزء الاكبر من الاشياء المنقولة» * * * .

ولا حاجة للقول ان الملكية **الخاصة** اذ تنشأ حتى تدخل فى تناقض مع اسلوب للتملك **الاجتماعى** اكثر قدما . وحيثما يفتح التطور السريع للقوى المنتجة ميدانا اوسع واوسع «للجهود الفردية» تزول الملكية الاجتماعية بسرعة ملحوظة ، او تستمر فى الوجود فى شكل نظام **اثرى** اذا جاز القول . وسنرى فيما بعد ان عملية تحلل الملكية الاجتماعية البدائية فى مختلف الازمنة ومختلف الاماكن بسبب الضرورة الطبيعية ، **المادية** ، كان مقيضا لها ان تتميز بتنوع كبير . اما الآن فنكتفى بالاشارة الى النتيجة العامة التى وصل اليها علم الحقوق الحديث وهى ان **المفهومات**

---

* Ibid., p. 95. [المصدر ذاته ، ص ٩٥ .]

* * Ibid., p. 57. [المصدر ذاته ، ص ٥٧ .]

* * * Ibid., p. 93 [المصدر ذاته ، ص ٩٣ .]

www.kassioun.org

الحقوقية – او الاعتقادات حسب تعبير بوختا – **تحددها** فى كل مكان **اساليب الانتاج** .

قال شيلنج فى احدى المناسبات ان ظاهرة المغنطيسية يجب ان تفهم باعتبارها غرس «الذاتى» فى «الموضوعى» . ولا تمثل كل محاولات اكتشاف تفسير مثالى لتاريخ الحق اكثـر من اضافة ، «Seitenstück» ، للفلسفة الطبيعية المثالية . انها تنتهى دائما الى نفس المحاكمات فى موضوع الروح **المتطورة بذاتها** ، المكتفية بذاتها . وهى محاكمات لامعة وعبقرية فى بعض الاحيان ، لكنهـا تظل دائما اعتباطية غير ذات اساس .

لم يمكن للاعتقاد الحقوقى ان **يسبق** الممارسة اليومية لسبب واحد هو انه لو لم يكن **قد نما من هذه الممارسة** لما كان هناك **سبب** لوجوده على الاطلاق . فالاسكيمو يؤيدون التملك الشخصى للملابس والاسلحة وادوات العمل لسبب بسيط هو ان مثل هذا التملك اكثر ملاءمة ، وتمليه **نفس صفات الاشياء** . فلكى يستطيع الصياد البدائى ان يتعلم الاستخدام الصحيح لسلاحه – لقوسـه او بومرانجه – يجب ان **يتكيف معه** وان يدرس جيدا كل خصائصه الفردية وان **يكيفه** ، قدر الامكان ، مع خصائصه الفـردية * .

---

* من المعروف ان الصلة الوثيقة بين الصياد وسلاحه توجد فى كل القبائل البدائيـــة . يقول مارتسيوس عن سكان البرازيل البدائيين «Der Jäger darf sich keiner fremden Waffen bedienen» [«لا يجـب ان يستخدم الصياد اى سلاح من اسلحة الغير»] وهو يفسر من اين نشـأ لدى هؤلاء المتوحشين مثـل هذا «الاعتقاد» : «Besonders behaupten die-jenigen Wilden, die mit dem Blasrohr schiessen, dass dieses Geschoss durch den Gebrauch eines Fremden verdorben werde, und geben es nicht aus ihren Händen». («Von dem Rechtszustande unter den Ureinwohnern Brasiliens». München 1832, S. 50.) [«وعلى الخصوص يصر المتوحشون الذين يستخدمون الانبوبة فى اطلاق سهامهم على ان هذا السلاح يفسد اذا استخدمه غريب ولا يتركونه من ايديهم» . («عن العلاقات الحقوقية بين السكان الاصليين فى البرازيل» ، مونيخ ١٨٣٢ ، ص ٥٠ .)] «Die Führung dieser Waffen (القوس والسهام) erfordert eine grosse Geschicklichkeit und beständige Uebung. Wo sie bei Wilden Völkern im Gebrauche sind, berichten uns die Reisenden, dass schon die Knaben sich mit Kindergeräten im Schiessen üben». (*Oskar Peschel*, Völkerkunde, Leipzig 1875,

www.kassioun.org

فالملكية الخاصة شيء عادى هنا اكثر من اى شكل آخر للتملك ، ومن هنا فالمتوحش «معتقد» بمزاياها : بل انه كما نعرف يضفى على ادوات العمل الفردى وعلى الاسلحة نوعا من الصلة الخفية بمالكها . لكن اعتقاده نما على اساس الممارسة اليومية ولم يسبقها ، انه يدين بوجوده لا لخصائص «روحه» بل لخصائص الاشياء التى يستخدمها ولطابع اساليب الانتاج الحتمية بالنسبة له فى ظل الحالة القائمة لقواه المنتجة .

ويوضح عديد من التصرفات الرمزية الموجودة فى الحق البدائى الى اى حد سبقت الممارسة اليومية «الاعتقاد» الحقوقى . فاساليب الانتاج قد تغيرت ، وتغيرت معها بالمثل العلاقات المتبادلة بين الناس فى عملية الانتاج ، لقد تغيرت الممارسة اليومية ، بيد ان «الاعتقاد» قد حافظ على شكله القديم . انه يناقض الممارسة الجديدة ، ومن ثم تظهر الاوهام والايماءات والتصرفات الرمزية التى هدفها الوحيد هو ازالة هذا التناقض ازالة شكلية . ومع مرور الزمن يزال التناقض اخيرا بشكل جوهرى : فعلى اساس الممارسة الاقتصادية الجديدة يتشكل اعتقاد حقوقى جديد .

ولا يكفى تقرير ظهور الملكية الخاصة لهذه الاشياء او تلك فى مجتمع معين من اجل تحديد طابع هذه المؤسسة . فللملكية الخاصة دائما حدود تتوقف كلية على اقتصاد المجتمع . «ففى حالة التوحش لا يتملك الانسان الا تلك الاشياء التى يستفيد منها مباشرة . اما الفائض – حتى لو تحقق من عمل يديه – فانه يعطيه عادة بلا مقابل للآخرين : لافراد عائلته او عشيرته او قبيلته» . هكذا يقول السيد كوفاليفسكى . ويقول رينك نفس الشيء عن الاسكيمو . لكن من اين تنشأ مثل هذه الانظمة لدى الشعوب المتوحشة ؟ انها تدين بنشأتها ، كما يقول السيد كوفاليفسكى ، الى ان المتوحشين لا يعرفون **الادخار** * . ان هذا التعبير غير

(S. 190) [«ان استخدام هذه الاسلحة (القوس والسهام) يتطلب مهارة كبيرة وتمرينا دائما . ويخبرنا الرحالة انه حيث تستخدم الاسلحة بين الشعوب المتوحشة فان الاطفال يتمرنون على الرمى بلعب من الاسلحة» . (**اوسكار بيشل** ، علم السكان ، ليبزيج ١٨٧٥ ، ص ١٩٠ .)]

* L. c., p. 56. [المؤلف المذكور ، ص ٥٦ .]

www.kassioun.org

الواضح تماما ليس موفقا بخاصة لان الاقتصاديين المبتذلين قد اساءوا استعماله . ولكنه من المفهوم مع ذلك باى معنى يستعمله صاحبنا . «فالادخار» غير معروف حقا لدى الشعوب البدائيـــة لسبب بسيط ، هو ان ممارسته غير ملائمة ، بل ويمكن القول ، مستحيلة بالنسبة لهذه الشعوب . فلا يمكن ان «يدخر» لحـــم الحيوان المقتول الا لفترة ضئيلة جدا : انه يفسد ويصبح آنذاك غير ملائم تماما للاستعمال . وبالطبع ، لو انه كان من الممكن بيعه لكان من السهل «ادخار» النقود التى بيع بها . لكن النقود لم تكن قد ظهرت بعد فى هذه المرحلة مـــن التطور الاقتصادى . وبالتالى ، فان اقتصاد المجتمع البدائى نفسه كان يضع حـدودا ضيقة لتطور روح «الادخار» . وبالاضافة الى هذا فقد اكون اليوم محظوظا واقتل حيوانا كبيرا اقاسم الآخرين فى لحمه ، لكننى غدا (فالصيد عمل غير مضمون) قد اعود بيدين فارغتين ، وسيقتسم معى الآخرون من افراد غنيمتهم . وهكذا ، فان عادة الاقتسام هى شىء.يشبه التأمين المتبادل الذى يصبح وجود قبائل الصيد بدونه مستحيلا . واخيرا يجب الا ننسى ان الملكية الخاصة فى مثل هذه القبائل تظهر فى شكل جنينى فحسب ، بينما الملكية السائدة هى الملكية **الاجتماعية** ؛ ومن هنا فان العادات والعرف التى نشأت على هذا الاساس تضع بدورها حدودا لتعسف المالك الخاص . ان الاعتقاد يتبع الاقتصاد هنا ايضا .

ويصور المثل الذى اورده رودبيرتس فى كتاباته مرات كثيرة وبرغبة كبيرة العلاقة بين المفهومات الحقوقية للناس وبين حياتهم الاقتصادية تصويرا جيدا . فمن المعروف ان الكتاب الرومانيين القدامى كانوا يسخطون بشدة على **الربا** . واعتبر كاتو الكنســـور ان المرابى اسوأ من اللص مرتين (وهذا هو تعبير الرجل العجوز : مرتين بالضبط) . وفى هذا الصدد كان آباء الكنيسة المسيحية يقفون كلية مع الكتاب الدنيويين . لكنهم جميعا – وهذه حقيقـة جديرة بالملاحظة – لم يثوروا الا ضد الفائدة التى ينتجهـا رأس المال **النقدى** ، اما موقفهم من الاقراض العينى **والفائض الـــذى يحققه** فقد كان اهدأ نسبيا . لماذا هذا الفارق ؟ لان رأس المال النقدى ، الربوى هو بالتحديد الذى كان يحدث مثل هذا الخراب

www.kassioun.org

الضخم بالمجتمع فى ذلك الحين ، لان هذا بالتحديد هو الذى كان «**يدمر ايطاليا**» . «فالاعتقاد» الحقوقى كان يسير هنا ايضا يدا فى يد مع الاقتصاد .

يقول بوست : «الحق هو النتاج الخالص للضرورة او بتعبير ادق للحاجة ، وعبثا نحاول انّ نجد فيه اساسا مثاليا ايا كان» * . وكان علينا ان نقول ان هذا يتمشى تماما مع روح علم الحقـــوق الحديث لو ان عالمنا لم يقدم على خلط كبير فى المفاهيم ، الامر الذى كانت له نتائج شديدة الضرر .

وعلى العموم ، فان اى اتحاد اجتماعى يسعى لكى يقيم نظامـا للحق يشبع احتياجاته بافضل الطرق ، ويكون اكثر فائدة له فى زمن معين . وكون المجموع المعنى للمؤسسات الحقوقية مفيدا او ضارا بالمجتمع لا يمكنه باى حال من الاحوال ان يتوقف على صفات «فكرة» ايا كانت ولاى واحد كان : **فهو** ، كما رأينـا ، **يتوقف على اساليب الانتاج وعلى تلك العلاقات المتبادلة بيـــن الناس التى تخلقها هذه الاساليب** . وبهذا المعنى ليس للحق ، ولا يمكن ان يكون له ، اى اساس **مثالى** ، لان اساسه دائمـــا **واقعى** . لكن **الاساس الواقعى** لكل نظام معين للحق لا يستبعد **موقفا مثاليا تجاه هذا النظام** من جانب اعضاء المجتمـــع المعين . فليس فى هذا الموقف الذى يتخذه اعضاء المجتمع من هذا النظام الا ما يفيد المجتمع ككل . وبالعكس ، ففى العصور الانتقالية ، حين لا يعود نظام الحق القائم فى المجتمع صالحا لاشباع احتياجاته التى نمت كنتيجة لمزيد من تطور القوى المنتجة ، يستطيع القسم الطليعى من السكان ، بل يجب عليه ان ينسب صفات مثالية الى **النظام الجديد من المؤسسات** وهو نظام اكثر تمشيا مع «روح العصر» . والادب الفرنسى حافل بامثلة تدل على نسب الصفـــات المثالية الى النظام الجديد ، القادم .

ان كون اصل الحق هو «**الحاجة**» لا يستبعد اساســـا «**مثاليا**»

---

* «Der Ursprung des Rechts. Prolegomena zu einer allgemeinen vergleichenden Rechtswissenschaft», von *Dr. Alb. Herm. Post.* Oldenburg 1876, S. 25. [**الدكتور البير هيرمان بوست** ، «اصل الحقوق . مدخل الى علم الحقوق العام المقارن» ، اولدينبورج ١٨٧٦ ، ص ٢٥ .]

www.kassioun.org

للحق الا فى مفهوم هؤلاء الذين تعودوا ان ينسبوا **الحاجات** الى مجال **المادة الفجة** ، وان يقابلوا بين هذا المجال وبين «الروح الخالصة» الغريبة عن اى حاجة . والواقع ان ما يفيد الناس فحسب هو «مثالى» ، وان اى مجتمع لا يستعين الا بحاجاته فى صياغة **مثله العليا** . والاستثناءات الظاهرية من هذه القاعدة التى لا شك فى انها عامة ، ترجع الى انه **بسبب تطور المجتمع** كثيرا ما تتخلف **مثله العليا** عن **حاجاته الجديدة** * .

ان ادراك تبعية العلاقات الاجتماعية لحالة القوى المنتجة ينفذ اكثر فاكثر الى العلم الاجتماعى الحديث ، رغم الانتقائية المحتومة لكثير من العلماء ورغم اوهامهم المثالية . يقول اوسكار بيشل الذى اقتبسنا عنه فيما سبق : «وكما ان علم التشريح المقارن قد رفع المثل اللاتينى القائل : «**من المخالب اعرف الاسد**» الى مستوى الحقيقة العلمية ، فان علم السكان يستطيع ان يصل من سلاح شعب ما الى نتيجة دقيقة حول درجة مدنية» * * . . . «ويرتبط انقسام المجتمع اوثق ارتباط باسلوب حصوله على

---

* ينتمى بوست على وجه التحديد الى اولئك الناس الذين لم يقطعوا كل صلة بالمثالية . فهو يعتبر مثلا ان الاتحاد العشيرى يتوافق مع حياة الصيادين والرحل ؛ وانه مع ظهور الزراعة والاستقرار المرتبط بها يترك الاتحاد العشيرى المكان ا «Gaugenossenschaft» (نستطيع ان نقول : مشاعية الجيرة) . وقد يبدو واضحا ان الرجل لا يبحث عن مفتاح لتفسير تاريخ العلاقات الاجتماعية الا فى تطور القوى المنتجة ؟ وفى بعض الحالات كان بوست مخلصا تماما تقريبا لهذا الاتجاه . الا ان هذا لا يمنعه من اعتبار «im Menschen schaffend ewigen Geist» [«الروح الخلاقة الابدية العائشة فى الانسان»] سببا اساسيا لتاريخ الحق . فيبدو ان هذا الرجل قد خلق خصيصا ليبهج السيد كارييف .

* * L. c., p. 139. [المؤلف المذكور ، ص ١٣٩ .] عندما اقتبسنا هذا النص تصورنا ان السيد ميخايلوفسكى سينهض من مكانه بسرعة ويهتف قائلا : «بوسعى ان اجادل ضد ذلك : فالصينيون يمكن ان يتسلحوا ببنادق انجليزية . فهل يجوز ان نحكم على مستوى مدنيتهم استنادا الى هذه البنادق ؟» حسنا جدا ، ايها السيد ميخايلوفسكى ، ليس من المنطقى الانطلاق من البنادق الانجليزية فى الحكم على المدنية الصينية ؛ فمن المنطقى الانطلاق منها فى الحكم على المدنية الانجليزية .

www.kassioun.org

الطعام . فحيثما يجتمع الانسان مع انسان آخر تظهر سلطة معينة . واضعف الروابط الاجتماعية هى الروابط فى قبائل الصيادين الرحل فى البرازيل . لكن عليها ايضا ان تدافع عن مناطقها ، وهى فى حاجة على الاقل الى قائد عسكرى . . . وفى غالب الاحيان تكون القبائل الرعوية تحت سلطة حكام ابويين ، اذ ان القطعان هى ، كقاعدة ، ملك لسيد واحد يخدمه افراد قبيلته او اصحاب قطعان كانوا مستقلين ثم افتقروا . ويتميز نمط الحياة الرعوى على الاغلب – وان لم يكن هذا دائما – بهجرات كبيرة للشعوب سواء فى شمال العالم القديم ام فى جنوب افريقيا ؛ ومن جهة اخرى لا يعرف تاريخ امريكا الا قليلا من الهجمات المنفردة لقبائل الصيد المتوحشة على حقول الشعوب المتمدنة التى كانت تجذبها . ولم يكن من الممكن لشعوب باكملها تغادر اماكن سكناها السابقة ان تقوم برحلات كبيرة وطويلة الا فى صحبة قطعانها التى تزودها بالطعام الضرورى فى طريقها . وبالاضافة الى هذا فان تربية المواشى فى البرارى يدفع بذاته الى تغيير المراعى ، لكن سرعان ما يظهر مع نمط الحياة المستقر والزراعة التطلع لاستخدام عمل العبيد . . . وعاجلا او آجلا تقود العبودية الى الطغيان ، لأن من يمتلك اكبر عدد من العبيد يستطيع بمساعدتهم ان يخضع الاضعف منه لارادته . . . والانقسام الى احرار وعبيد هو بداية انقسام المجتمع الى طبقات» * .

ان لدى بيشل افكارا كثيرة من هذا النوع ، احداها صحيحة تماما ومفيدة جدا ، والاخرى «تحتمل الجدال» حتى عند غير السيد ميخايلوفسكى . لكن ما يهمنا هنا ليس تفصيلات معينة بل الاتجاه العام لفكر بيشل . ويتوافق هذا الاتجاه العام كلية مع ما رأيناه عند السيد كوفاليفسكى : **انه يبحث عن تفسير لتاريخ الحق وحتى عن تفسير لتنظيم المجتمع باسره فى اساليب الانتاج ، فى حالة القوى المنتجة .**

وهذا بالتحديد ما نصح به ماركس باصرار رجال العلم الاجتماعى منذ فترة طويلة مضت . وهنا بالتحديد يكمن الى حد

---

* L. c., p.p. 252—253. [المؤلف المذكور ، ص ٢٥٢–٢٥٣ .]

www.kassioun.org

كبير – وان لم يكن كلية – (وسيري القارئ فيما بعد لماذا نقول : لم يكن كلية) معنى المقدمة الشهيـرة لمؤلف «Zur Kritik der politischen Oekonomie» * تلك المقدمة التى كانت سيئة الحظ فى روسيا ، والتى اساء فهمها بشكل غريب ومريع الى اقصى حد اغلب الكتاب الروس الذين قرأوها فى الاصل او قرأوا مقتطفات منها .

«ان الناس ، اثناء الانتاج الاجتماعى لحياتهم ، يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية ، مستقلة عن ارادتهم ، هى **علاقات الانتاج** التى تطابق درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية . ومجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف **البناء الاقتصادى** للمجتمع ، اى الاساس الواقعى الذى يقوم عليه بناء فوقى حقوقى وسياسى» (٤٨) .

يقول هيجل عن شيلنج ان المبادئ الاساسيـة لمذهب هذا الفيلسوف تظل دون تطوير ، وان الروح المطلقة تظهر دون توقع **كانها طلقة مسدس** (wie aus der Pistole geschossen) . وحيـن يسمع المثقف الروسى المتوسط انه لدى ماركس «ينتهى كل شىء الى الاساس الاقتصادى» (وثمة اخرون يقولون ببساطـة : «الى الاقتصاديات») ، فانه يحتار وكأن احدا قد اطلق مسدسا بجوار اذنه فجأة . وهويتساءل فى كآبـة وحيرة : «ولكن لمـاذا الى الاقتصاديات ؟» «صحيح ان الاقتصاديات مهمة ايضا (خصوصـا بالنسبة لفقراء الفلاحين والعمال) ، لكن على اى حال فان العقليات لا تقل عنها اهمية (خصوصا بالنسبة لنا ، نحن المثقفيـن)» . ونأمل ان يكون ما عرضناه سابقا قد اوضح للقارئ ان الحيرة التى يقع فيها المثقف الروسى المتوسط فى هذه الحالة انما ترجع فقط الى انه – اى المثقف – كان دائما مهملا بعض الشىء لما هو «**المهم خصوصا من العقليات**» بالنسبة له . فحين قال مـاركس انه «**ينبغى البحث عن تفسير المجتمع المدنى فى اقتصاده**» (٤٩) لم يكن يقصد باى حال ان يحير عالم الفكر بطلقـات مسدس فجائية : وانما كان يقدم فقط اجابة مباشرة ودقيقة على «المسائل البغيضة» التى اضنت رؤوس المفكرين **طيلة قرن باكمله** .

---

* [«مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى»]

www.kassioun.org

لقد استنتج الماديـــون الفرنسيون ، اذ طوروا بانسجـــام نظراتهم الحسية ، ان الانسان بكل افكاره ومشاعره ومطامعه هو نتاج للبيئة الاجتماعية المحيطة به . وكان من الضرّورى ، لاجل السير الى ابعد من ذلك فى تطبيق النظرة المادية على دراســـة الانسان ، حل مشكلة ما الذى يحدد تركيب البيئة الاجتماعية ، وما هى قوانين تطورها . كان الماديون الفرنسيون عاجزين عن الرد على هذا السؤال ، ومن هنا اضطروا الى التراجع والى العودة الى وجهة النظر **المثالية** القديمة التى ادانوها بشدة : فقالوا ان «**رأى**» الناس هو خالق البيئة .. واذ لم يرض المؤرخون الفرنسيون فى عصر عودة الـمَـلكية عن هذه الاجابة السطحية ، فقد وضعوا امامهم مهمة تحليل البيئة الاجتماعية . وكانت نتيجة تحليلهم – وهى نتيجة هامة للعلـــم الى اقصى حد – هى ان **الدساتير السياسية** تضرب جذورها فى **العلاقات الاجتماعية** ، بينما تتحدد العلاقـــات الاجتماعية **بحالة المُلْكية** . ومع هذه النتيجة ثارت امام العلم مشكلة جديدة ما كان ليستطيع التقدم دون حلها : **ما الذى يحدد اذن حالة المُلْكية** ؟ كان حل هذه المشكلة فوق مستوى المؤرخين الفرنسيين فى عهد عودة المَـلَكية ، فاضطروا لان ينحوها جانبا بملاحظات عن خصائص الطبيعة الانسانية لا تفسر شيئـــا على الاطلاق . ان مثاليى المانيا العظيمين – وبالذات شيلنج وهيجل – اللذين عاشا وعملا فى وقت واحد معهم ، قد ادركا جيدا عدم كفاية وجهة نظر الطبيعة الانسانية . وسخر هيجل منها سخرية لذاعة . لقد ادركا ان مفتاح تفسير تقدم الانسانية التاريخى يجب ان يبحث عنه **خارج** طبيعة الانسان . وكان ذلك خدمة جليلة من جانبهما ، ولكن لكى تكون هذه الخدمة مثمرة تماما للعلم كان من الضرورى الايضاح **اين يجب بالتحديد البحث عن هذا المفتاح** . وقد بحثا عنه **فى خصائص الروح** ، فى **القوانين** المنطقية **لتطور الفكـــرة المطلقة** . وكان ذلك خطأ جذريا ارتكبه المثاليان العظيمـان عاد بهما بطريق ملتو الى **وجهة نظر الطبيعة الانسانية** ، لان الفكـرة المطلقة – كما رأينا – ليست اكثر من تجسيد عملية تفكيرنـــا المنطقية . وقد صحح اكتشاف ماركس العبقرى هذا الخطأ الجذرى الذى وقعت فيه المثالية ، وبذلك وجه لها ضربة ساحقة : فحالة

www.kassioun.org

الملكية ، ومعها كل خصائص البيئة الاجتماعية (وقد رأينا فى فصل الفلسفة المثالية ان هيجل ايضا قد اضطر الى الاعتراف بالدور الحاسم «لحالة الملكية») انما تتحدد لا بخصائص الروح المطلقة ولا بالطبيعة الانسانية ، بل تحددها العلاقات المتبادلة التى يقيمها الناس بالضرورة فيما بينهم «اثناء العملية الاجتماعية لانتاج حياتهم» ، اى فى صراعهم من اجل الوجود . وكثيرا ما قورن ماركس بداروين – وهى مقارنة تثير ضحك السيدين ميخايلوفسكى وكارييف واخوتهما . وسنوضح فيما بعد باى معنى يجب ان تفهم هذه المقارنة رغم ان من المحتمل ان كثيرا من القراء يرون ذلك دون مساعدتنا ؛ اما الآن فسنسمح لانفسنا مع كل الاحترام الواجب لمفكرينا الذاتيين بعقد مقارنة اخرى .

كان علم الفلك قبل كوبرنيكوس يقول ان الارض مركز ثابت تدور حوله الشمس وغيرها من الاجرام السماوية . وقد افضت هذه الفكرة الى استحالة تفسير العديد من ظواهر الميكانيكا الفلكية . وقد عالج هذا العبقرى البولندى تفسيرها من وجهة النظر المضادة تماما : فقد افترض ان الشمس ليست هى التى تدور حول الارض ، بل بالعكس ان الارض هى التى تدور حول الشمس . وهكذا اكتشفت وجهة النظر الصحيحة واتضح الكثير مما لم يكن واضحا قبل كوبرنيكوس . وكان رجال العلم الاجتماعى قبل ماركس يأخذون مفهوم الطبيعة الانسانية نقطة انطلاق لهم ، وبسبب هذا ظلت اهم مسائل التطور الانسانى دون اجابة . اما تعاليم ماركس فقد اعطت للامور وجها آخر تماما . قال ماركس : **بينما يؤثر الانسان على الطبيعة الخارجية من اجل الحفاظ على وجوده ، فانه يغير طبيعته هو** (٥٠) . وبالتالى ، فان التفسير العلمى للتطور التاريخى يجب ان يبدأ من الطرف المقابل : يجب ان نستوضح كيف تجرى عملية التأثير الانتاجى للانسان على الطبيعة الخارجية . ويمكن ان يوضع هذا الاكتشاف بكل حق ، من حيث اهميته العظيمة للعلم ، فى صف واحد مع اكتشاف كوبرنيكوس ومع اكبر الاكتشافات العلمية واكثرها اثمارا على وجه العموم .

كان للعلم الاجتماعى قبل ماركس فى الواقع اساس اقل رسوخا

www.kassioun.org

منه لعلم الفلك قبل كوبرنيكوس . وكان الفرنسيون يسمون ولا يزالون كل العلوم التى تدرس المجتمع الانسانى sciences morales et politiques * لتمييزها عن «sciences» ، «**العلوم**» بالمعنى الخاص لهذه الكلمة ، وهى العلوم التى كانوا ولا يزالون يعتبرونها العلوم الدقيقة الوحيدة . ويجب ان نقر بان العلم الاجتماعى قبل ماركس لم يكن وما كان فى استطاعته ان يكون علما دقيقا . فطالما ظل العلماء يلجأون الى الطبيعة الانسانية كمرجع اعلى ، كان عليهم بالضرورة ان يفسروا العلاقات الاجتماعية للناس بآرائهم ، **بنشاطهم الواعى** ؛ لكن النشاط الواعى للانسان يجب ان يبدو له بالضرورة نشاطا **حرا** . والنشاط الحر يستبعد **مفهوم الضرورة** ، اى التوافق مع القانون ، والتوافق مع القانون هو الاساس الضرورى لاى تفسير علمى للظواهر . **لقد حجبت فكرة الحرية مفهوم الضرورة ومن هنا عاقت تطور العلم** . ويمكن ان نلاحظ هذا الضلال حتى اليوم بوضوح مذهل فى المؤلفات «الاجتماعية» للكتاب الروس «الذاتيين» .

لكنا نعرف **ان الحرية يجب ان تكون ضرورة** . فبحجب مفهوم الضرورة اصبحت فكرة الحرية معتمة جدا وقليلة الجدوى . وحينما طردت الضرورة من الباب فانها دخلت من النافذة . وحين انطلق الباحثون من فكرة الحرية فانهم اصطدموا بالضرورة فى كل لحظة ووصلوا فى آخر المطاف الى الاعتراف الحزين بفعلها المحتوم الذى لا يقاوم ولا يقهر ابدا . واتضح ان الحرية ، ويا لفزعهم ، دافعة اتاوة ابدية ، عاجزة ، لا امل فيها ، انها العوبة عاجزة فى يد الضرورة العمياء . وكم هو مؤثر ذلك اليأس الذى كان يسيطر فى بعض الاوقات على اكثر الاذهان المثالية ذكاء ونبلا . يقول جورج بوخنر : «منذ بضعة ايام امسك بقلمى فى كل لحظة لكننى لا استطيع ان اكتب كلمة . لقد كنت ادرس تاريخ الثورة . فاحسست بنفسى وكانما تسحقنى جبرية التاريخ الرهيبة . انى ارى فى الطبيعة الانسانية شيئا عاديا مثيرا للنفور ، وفى العلاقات الانسانية قوة لا تقهر تنتمى للجميع عموما ولا تنتمى لاحد بشكل

---

* [علوم اخلاقية وسياسية]

www.kassioun.org

خاص . فليس الانسان الفرد سوى زبد فوق قمة الموج ، وليست العظمة سوى صدفة ، وليست سلطة العبقرى سوى مسرحية عرائس ، سوى محاولة مضحكة لمحاربة قانون حديدى يمكن معرفته على احسن فرض ولكن من المستحيل اخضاعه لارادة المرء» * . ويمكن ان يقال ان على المرء ، لكى يتجنب نوبات اليأس المشروع على اى حال ، ان يتخلى ولو مؤقتا عن وجهة النظر القديمة ، وان يحاول **تحرير الحرية** باللجوء الى نفس **الضرورة** التى جعلت من الحرية مسخا ؛ عليه ان يعيد مرة اخرى النظر فى المسألة التى اثارها المثاليون-**الجدليون** حول ما اذا كانت الحرية لا تنبع من الضرورة ، وما اذا كانت هذه الاخيرة لا تشكل الاساس الثابت الوحيد ، الضمان الثابت الوحيد ، والشرط الحتمى للحرية الانسانية ؟

وسنرى الام تفضى هذه المحاولة عند ماركس . ولكن لنحاول اولا ان نوضح لانفسنا آراءه التاريخية حتى لا يظل فى اذهاننا سوء فهم يتعلق بهذا الموضوع .

على اساس حالة معينة للقوى المنتجة تتكون علاقات انتاج معينة ، تجد التعبير الامثل عنها فى المفهومات الحقوقية للناس ، وفى «القواعد المجردة» بدرجة او اخرى ، وفى العرف غير المكتوب والقوانين المكتوبة . ولم نعد فى حاجة لان نوضح ذلك : فعلم الحقوق الحديث يوضحه كما راينا (وليتذكر القارئ ما قاله السيد كوفاليفسكى فى هذا الشأن) . ولكن لا يضيرنا ان ندرس المسألة من وجهة نظر اخرى وهى التالية . بما اننا قد استوضحنا كيف تكون **علاقات** الناس **الانتاجية مفهوماتهم** الحقوقية ، فلن تدهشنا كلمات ماركس التالية : «ليس وعى الناس هو الذى يعين معيشتهم (اى شكل معيشتهم الاجتماعية) ، بل على العكس من ذلك ، معيشتهم الاجتماعية هى التى تعين وعيهم » (٥١) . ونحن نعرف الآن ان الامر كذلك بالفعل فى احد مجالات الوعى على الاقل ،

---

* فى خطاب لخطيبته كتبه عام ١٨٣٣ . **ملحوظة للسيد ميخايلوفسكى** : ليس هذا هو بوخنر الذى دعا للمادية «بالمعنى الفلسفى العام» ، وانما هو اخوه الذى مات شابا ، وهو مؤلف تراجيديا شهيرة هى «مصرع دانتون» .

www.kassioun.org

ونعرف لماذا هو كذلك . وما علينا الا ان نقرر ما اذا كان الامر كذلك دائما ، واذا كان الرد بالايجاب ، فلماذا هو كذلك دائما ؟ ولنبق فى الوقت الحالى عند نفس المفهومات الحقوقية .

«عندما تبلغ **قوى** المجتمع **المنتجة** درجة معينة من تطورها ، تدخل فى تناقض مع **علاقات الانتاج** الموجودة فى هذا المجتمع ، او مع علاقات الملكية – وليست هذه سوى التعبير الحقوقى لتلك – التى كانت الى ذلك الحين تتطور ضمنها . ومن الاشكال **التى كانت تساعد** تطور القوى المنتجة تتحول هذه العلاقات الى **عائق** فى وجه تطورها . وعندئذ ينفتح عهد الانقلاب الاجتماعى» (٥٢) .

فالملكية الاجتماعية للاموال المنقولة وغير المنقولة تنشأ لانها ملائمة بل ضرورية لعملية الانتاج البدائى . انها تحافظ على وجود المجتمع البدائى وتساعد فى تطور قواه المنتجة لاحقا ، ويتمسك الناس بها ويعتبرونها طبيعية وضرورية . ولكن **بفضل علاقات الملكية هذه وفى داخلها** ، تطورت القوى المنتجة الى حد انفتح معه مجال اوسع لتطبيق الجهود الفردية . فالآن اصبحت الملكية الاجتماعية فى بعض الحالات **ضارة** بالمجتمع ، اذ انها تعوق تطور قواه المنتجة لاحقا ، ومن هنا تخلى المكان **للتملك الشخصى** : ويحدث انقلاب تتفاوت سرعته فى المؤسسات الحقوقية للمجتمع . وهذا الانقلاب يصحبه بالضرورة انقلاب فى المفاهيم الحقوقية للناس : فالناس الذين كانوا يعتقدون فيما مضى ان الملكية الاجتماعية وحدها هى السليمة ، قد بدأوا يعتبرون ان التملك الفردى افضل فى بعض الحالات . ولكن كلا ، اننا نعبر عن الموضوع بطريقة غير دقيقة ، اننا نعرض كعمليتين منفصلتين شيئا لا يقبل الانفصال على الاطلاق ، شيئا لا يمثل سوى جانبى عملية واحدة بعينها : **بسبب تطور القوى المنتجة كان من الضرورى لعلاقات الناس الواقعية فى عملية الانتاج ان تتغير ، وهذه العلاقات الواقعية الجديدة انعكست فى مفاهيم حقوقية جديدة .**

يؤكد لنا السيد كارييف ان المادية احادية الجانب فى تطبيقها على التاريخ تماما كالمثالية . فكل منهما لا يمثل ، فى رأيه ، الا «لحظة» فى تطور الحقيقة العلمية الكاملة . «وبعد اللحظتين الاولى والثانية لا بد ان تأتى لحظة ثالثة : وستجد احادية الجانب فى

www.kassioun.org

كل من القضية ونقيضها التوفيق بينها فى التركيب كتعبير عن الحقيقة الكاملة» * . وانه ليكون تركيبا شيقا . ويضيف السيد الاستاذ : «مم سيتكون هذا التركيب ، لن اتحدث فى الـــوقت الحالى» . واأسفاه ! لكن من حسن الحظ ان صاحبنـــا «فيلسوف التاريخ» لم يراع عهد الصمت الذى فرضه على نفسه مراعاة دقيقـــة . فسرعان ما جعلنا نفهم مم ستتكـــون ومن اين ستنشأ هـــذه الحقيقة العلمية الكاملة التـــى ستدركها اخيرا كل الانسانيـــة المتنورة ، لكن لا يعرفها الآن سوى السيد كارييف . انها ستنشأ من الاعتبارات التالية : «كل شخصية انسانية تتكون من جســـد وروح ، وتعيش حياة مزدوجة – جسمية ونفسانية ، ولا تبـــدو امامنا كمجرد جسد له احتياجاته المادية ، ولا كمجرد روح لهـــا احتياجاتها العقلية والمعنوية . فلكل من جسد الانسان وروحـــه متطلباته التى تبحث عن تلبيتها والتى تضع شخصية الفـرد فى علاقات مختلفة بالعالم الخارجى ، اى بالطبيعة وبغيره من الناس – اى بالمجتمع . ولهذه العلاقات طابع مزدوج» * * .

اما ان الانسان يتكون من روح وجسد فهو «تركيب» حق ، مع انه ليس جديدا تماما . ولو كان استاذنا يعرف تاريخ الفلسفة الحديثة فانه لا بد ان يعرف انها احفت قدميها حول هذا التركيب طيلة قرون ، ولم تستطع ان تعالجه بشكل سليم . ولو انـــه تصور ان هذا «التركيب» سيكشف له «جوهر العملية التاريخية» ، فان السيد ف . ف . نفسه سيوافق على ان «استاذه» وقـــع فى ورطة وان السيد كارييف ليس هو الذى قدر له ان يكون سبينوزا «فلسفة التاريخ» .

فمع تطور القوى المنتجة المؤدية الى تغير العلاقات المتبادلة بين الناس فى عملية الانتـــاج الاجتماعية تتغير كل علاقـــات الملكية . ولكن جيزو هو الذى اخبرنا ان الدساتير السياسية تضرب بجذورها الى علاقات الملكية . ويؤكد العلم الحديث هذا تماما . فقد ترك اتحاد الاقارب المكان للاتحاد الاقليمى بسبب

---

* «فيستنيك يفروبى» ، يوليو ١٨٩٤ ، ص ٦ .
* * «فيستنيك يفروبى» ، يوليو ١٨٩٤ ، ص ٧ .

www.kassioun.org

التغيرات التى حدثت فى علاقات الملكيـــة بالتحديد . واندمجت اتحادات اقليمية تتفاوت فى كبرها فى كيانات تدعى الـــدول ، وذلك بسبب التغيرات التى حدثت فى علاقات الملكية ، او بسبب المتطلبات الجديدة لعملية الانتاج الاجتماعية . وقد اتضح هذا بشكل رائع فى دول الشرق الكبيرة * . كما اتضح بنفس الدرجة فيما يتعلق بدول العالم القديم ** . واجمالا ليس من الصعب ان نوضح صدق ذلك بالنسبة لاى دولة لدينا معلومات كافيـــة عن نشأتها . وعند ذلك ينبغى الا نضيق – بقصد او بـــدون قصد – نظرة ماركس . وهذا ما نعنيه بذلك .

ان الحالة المعينة للقوى المنتجة تحدد العلاقات **الداخليـــة** للمجتمع المعين . لكن نفس حالة القوى المنتجة تحدد ايضـــا **علاقاته الخارجية** بالمجتمعات الاخرى . وعلى اساس هذه العلاقات الخارجية تنشأ لدى المجتمع **متطلبات جديدة** تنشأ لتلبيتهـــا **اجهزة جديدة** . وعند النظرة السطحية تبدو العلاقات المتبادلـة بين المجتمعات كسلسلة من التصرفات «السياسية» ليس لهـا ارتباط بالاقتصاديات . والواقع ان ما يكمن فى العلاقات بيـــن المجتمعات هو بالذات **الاقتصاديات** التى تحدد الاسباب الحقيقية (لا الخارجية فحسب) للعلاقات بين القبائل والعلاقات الدوليـة ونتائجها . ويطابق كل درجة من درجات تطور القوى المنتجـة نظامها الخاص للتسلح ، وتكتيكها العسكرى ، ودبلوماسيتها ، وقانونها الدولى . وبالطبع انه من الممكن التنويه بحالات كثيرة ليس للنزاعات الدولية فيها علاقة مباشرة بالاقتصاديات . ولن

---

* انظر كتاب الراحل ل . ميتشنيكوف عن «**الانهار التاريخيـــة العظمى**» . ومؤلف هذا الكتاب لخص فى جوهر الامر النتائج التى وصل اليها المؤرخون المتخصصون الثقات مثل لينورمان . ويقول اليزى ركلو فى تقديمه لهذا الكتاب ان فكرة ميتشنيكوف ستشكل عصرا كاملا فى تاريخ العلم . وهذا ليس صحيحا بمعنى ان هذه الفكرة ليست جديدة : فقد عبر عنها هيجل بطريقة محددة جدا . لكن مما لا شك فيه ان العلم سيكسب كثيرا اذا ما تمسك بثبات بهذه الفكرة .

** انظر كتاب **مورجان** «Ancient society» [«المجتمع القديم»] وكتاب **انجلس** «اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة» .

www.kassioun.org

يجادل احد من اتباع ماركس فى وجود مثل هذه الحالات . فكل ما يقولونه هو : لا تقفوا عند سطح الظواهر ، اذهبوا الى اعمق من ذلك ، اسألوا انفسكم على اى اساس نما هذا القانون الدولى ؟ ما الذى خلق امكانية نزاعات دولية من هذا النوع ؟ – وستصلون فى آخر المطاف الى الاقتصاديات ، وان كانت دراسة بعض الحالات تزداد صعوبة ، اذ كثيرا ما تكون المجتمعات المتنازعة فى **مراحل غير متشابهة من التطور الاقتصادى** .

ولكن هنا تقاطعنا جوقة من الخصوم الاذكياء . انهم يصيحون : «فليكن . لنفترض ان العلاقات السياسية تضرب بجذورها الى العلاقات الاقتصادية . لكن حالما تظهر العلاقات السياسية فانها – بصرف النظر عن المكان الذى جاءت منه – تؤثر بدورها على الاقتصاديات . وبالتالى ، فان هناك تفاعلا ، ولا اكثر من تفاعل» .

نحن لم نخترع هذا الاعتراض . ان «الحادثة الحقيقية» التالية تبين مدى الاهمية التى يعلقها عليه خصوم «المادية الاقتصادية» .

اورد ماركس فى مؤلفه «رأس المال» وقائع توضح ان الاريستقراطية الانجليزية استخدمت سلطتها السياسية لاحراز اهدافها فى مجال ملكية الارض . فالدكتور باول بارت الذى كتب «تجربة نقدية» بعنوان : Die Geschlichtsphilosophie Hegels's und der Hegelianer» قد تشبث بذلك ليأخذ على ماركس انه يناقض نفسه . فهو يقول : انت نفسك تعترف بان ثمة تفاعلا ؛ ولكى يثبت ان هذا التفاعل موجود حقا يشير دكتورنا الى كتاب شتيرنج ، وهو كاتب قدم الكثير لدراسة التاريخ الاقتصادى لالمانيا . ويعتقد السيد كاريف ان «الصفحات التى خصصها بارت فى كتابه لنقد المادية الاقتصادية يمكن ان تعتبر نموذجا لكيفية حل مشكلة دور العامل الاقتصادى فى التاريخ» . وبديهى انه لم يلبث ان اشار للقراء الى اعتراضات بارت والى الاعلان الموثوق به لاناما-شتيرنج «الذى حتى يصوغ الموضوع العام القائل بان التفاعل بين السياسة والاقتصاد هو السمة الاساسية لتطور كل الدول والشعوب» . ولا بد ان نسلط ولو قليلا من الضوء على هذا الخلط .

فاولا ، ماذا يقول إناما-شتيرنج بالفعل ؟ انه يقدم الملاحظة

www.kassioun.org

التالية بصدد عصر شارلمان لتاريخ المانيـــا الاقتصادى : «ان التفاعل بين السياسة والاقتصاد الذى يشكل السمة الاساسية لتطور كل الدول وكل الشعوب يمكن ان نتتبعه هنا بادق شكل . ان الدور السياسى المقدر لشعب معين يمارس تأثيرا حاسما على تطور قواه لاحقا ، وعلى طابع وتكوين مؤسساته الاجتماعيـــة ؛ وبنفس الطريقة تماما فان القوة الداخلية الملازمة للشعب وكذلك القوانين الطبيعية لتطورها تحدد مقياس ونوع نشاطه السياسى . وبهذه الطريقة بالتحديد لم يكن تأثير النظام السياسى فى عصر شارلمان على النظام الاجتماعى والعلاقات الاقتصادية التى عاش فيها الشعب فى ذلك الحين اقل من تأثير قوى الشعب العفويـة وحياته الاقتصادية على اتجاه هذا النظام السياسى بوضع طابع خاص عليه » * . وهذا كل شىء . هذا قليل ، ولكن هذا القليل يعتبر كافيا لدحض ماركس .

ولنسترجع الآن ، ثانيا ، ما يقوله ماركس عن العلاقـــة بين الاقتصاديات من ناحية ، وبين الحق والسياسة من الناحيـــة الاخرى .

«تتشكل المؤسسات الحقوقية والسياسية على اساس العلاقات الفعلية بين الناس فى عملية الانتاج الاجتماعية . فلفترة مـــن الوقت **تساعد** هذه المؤسسات فى تطور القوى المنتجة لشعب ما وازدهار حياته الاقتصادية» . تلك بدقة هى كلمات ماركس ، واننا لنسأل اى انسان ذى ضمير نقابله هل تحوى هذه الكلمات اى انكار لاهمية العلاقات السياسية فى تطور الاقتصاد ، وهل يدحض ماركسَ هؤلاء الذين يذكرونه بتلك الاهمية ؟ أليس صحيحا انه ليس ثمة اثر لمثل هذا الانكار لـــدى ماركس ، وان هؤلاء الناس لا يدحضون اى شىء على الاطلاق ؟ والى هذا الحد أليس صحيحا ان المسألة الجديرة بان تثار ليست مسألة دحض ماركس

---

* «Deutsche Wirtschaftsgeschichte bis zum Schluss der Karolingen-periode», Leipzig 1889, Band I, S. 233—234. [«تاريخ الاقتصاد الالمانى حتى اواخر عهد شارلمـــان» ، ليبزيج ١٨٨٩ ، المجلد الاول ، ص ٢٣٣—٢٣٤ .]

www.kassioun.org

وانما مسألة لماذا يسيئون فهمه الى هذا الحد ؟ ولا نستطيع ان نجيب على هذا السؤال الا بالمثل الفرنسى القائل : la plus belle fille du monde ne peut donner que ce qu'elle a.*

فنقاد ماركس لا يستطيعون ان يتجاوزوا مقياس الفهم الذى منحتهم اياه الطبيعة الخيرة * * .

ان التفاعل بين السياسة والاقتصاد موجود . هذا امر لا مجال للشك فيه ، تماما كعدم فهم السيد كاربيف لماركس . ولكن هل يمنعنا وجود التفاعل من ان نسير الى ابعد من ذلك فى تحليلنا لحياة المجتمع ؟ كلا ، ان التفكير فى ذلك يعنى ان نتصور ان نقص الفهم الذى كشف عنه السيد كاربيف يمكن ان يمنعنا نحن من الوصول الى المفاهيم الصحيحة فى «فلسفة التاريخ» .

وتؤثر المؤسسات السياسية على الحياة الاقتصادية . فهى

---

* [ان اجمل فتاة فى العالم لا تستطيع ان تمنح اكثر مما لديها .]

* * يقول ماركس : «**كل صراع طبقى هو صراع سياسى**» (٥٣) . **وبالتالى ، يستخلص بارت ، ان السياسة فى رايكم لا تؤثر اطلاقا على الاقتصاد ، الا انكم انفسكم توردون وقائع تثبت ... الخ** . . . — برافو ! — هكذا يصيح السيد كاربيف ، — هذا ما اسميه نموذجا لمجادلة ماركس ! ان «نموذج» السيد كاربيف يكشف على العموم عن قوة فكر عجيبة . فيقول النموذج : «ان روسو كان يعيش فى مجتمع وصلت فيه التمايزات والامتيازات الطبقية حدها الاقصى ، وخضع فيه الجميع لحكم مطلق شامل القوة ؛ الا ان منهج التركيب الرشيد للدولة الماخوذ عن العهد القديم ، ذلك المنهج الذى استخدمه ايضا هوبز ولوك ، قد قاد روسو الى خلق مجتمع امثل يقوم على المساواة الشاملة وعلى الحكم المطلق للشعب . وكان هذا المثل الاعلى يتناقض كلية مع النظام القائم فى فرنسا . وقد طبقت الجمعية الوطنية (٥٤) نظرية روسو ؛ وبالتالى ، اثرت الفلسفة على السياسة ؛ ومن خلالها على الاقتصاديات» (L. c., p. 58.) [المؤلف المذكور ، ص ٥٨ .]

ما هو رأيك فى هذه الحجة اللامعة التى تحول روسو لصالحها ، وهو ابن جمهورى جنيفى فقير ، الى نتاج للمجتمع الاريستقراطى ؟ ان مجادلة بارت تعنى التكرار . لكن ماذا تقول عن السيد كاربيف الذى يصفق لبارت ؟ آه ، يا سيد ف . ف . ان استاذك «استاذ التاريخ» سيىء حقا ! واننا لننصحك باخلاص ان تجد لنفسك «استاذا» آخر .

www.kassioun.org

اما تساعد فى تطور هذه الحياة **واما تعوقه** . ولا تثير الحالة الاولى اى دهشة من وجهـــة نظر ماركس ، لان ابداع النظـــام السياسى المعين انما يستهدف **المساعدة فى تطور القوى المنتجة لاحقا** (وسواء لدينا فى هذه الحالة ان كان الابداع قد تم بوعى او بدون وعى) . اما الحالة الثانية فانها لا تناقض وجهة النظر هذه باى حال لان الخبرة التاريخية توضح انه حالمـــا يكف نظام سياسى معين عن ان يطابق حالة القوى المنتجة ، حالما يتحول الى عقبة امام تطورها لاحقا ، فانه يبدأ يميل الى الانحطاط ويزول فى آخر المطاف . وفضلا عن ذلك فان هذه الحالـــة لا تناقض تعاليم ماركس : اذ انها تثبتها بافضل الطرق ، لان هذه الحالة هى التى توضح باى معنى تتحكم الاقتصاديات فى السياسة ، وباى طريقة يسبق تطور القوى المنتجـــة التطـــور السياسى لشعب ما .

ويجلب التطور الاقتصادى فى اثره انقلابات حقوقية . وليس من السهل على **الميتافيزيقى** ان يفهم ذلك ، لانه رغم صياحه عن التفاعل ، قد تعود ان يدرس الظواهر واحدة بعد الاخرى ، وكل واحدة بمعزل عن الاخرى . لكنه سيكون امرا مفهوما دون صعوبة لكل من يستطيع بادنى قدر ان يفكر تفكيرا **جدليا** . فانه يعرف ان **التغيرات الكمية** ، اذ تتراكم بالتدريج ، **تفضى** فى النهاية الى **تغيرات فى الكيف** ، وان هذه التغيرات الكيفية تمثل لحظـــات **الوثبات ، الانقطاعات فى التدريج** .

وعند هذه النقطة لا يستطيع خصومنا التحمـــل ويعلنون «الكلمة والفعل» (٥٥) . انهم يصيحون : هكذا كان يحاكـــم **هيجل** . ونحن نجيبهم : هكذا **تسلك الطبيعة كلها** .

ما اسرع ان تحكى قصة ، لكن العمل يمشى بطريقـــة ابطأ . ونستطيع ان نغير هذا المثل اذا ما طبقناه على التاريخ فنقول : ما ابسط ان تحكى قصة ، لكن العمل معقد الى اقصى حد . نعم ، من السهل القول ان تطور القوى المنتجة يجلب فى اثره انقلابات فى المؤسسات الحقوقية ! بيد ان هذه الانقلابات تمثل عمليات معقدة ، تتجمع فى مجراها مصالح الافراد من اعضاء المجتمـــع باغرب شكل . فالبعض يجد من الافيد له ان يساند الانظمـــة

www.kassioun.org

القديمة فيدافعون عنها بكل وسيلة . وبالنسبة للبعض اصبحت الانظمة القديمة ضارة وكريهة فيهاجمونها بكل القوة التى تحت تصرفهم . والامر لا يتوقف عند هذا الحد . فمصالح دعاة الجديد ابعد من ان تكون متشابهة فى كل الاحوال : فبعض الاصلاحات اكثر اهمية بالنسبة للبعض ، وغيرها اكثر اهمية لدى غيرهم . ويثور النزاع داخل معسكر المصلحين انفسهم ، ويصبح الصراع اكثر تعقدا . ورغم ان الانسان يتكون من روح وجسد ، كما لاحظ السيد كارييف بحق ، فان الصراع من اجل المصالح المادية التى لا شك فى ماديتها يثير بالضرورة امام الطرفين المتنازعين **مشكلة العدالة** التى لا شك فى روحيتها . الى اى حد يناقض النظام القديم العدالة ؟ الى اى حد تتوافق المطالب الجديدة مع العدالة ؟ تتبادر تلك الاسئلة حتما فى اذهان المتنازعين برغم انهم لن يسمونها دائما العدالة ببساطة ، بل قد يجسدونها فى الاهة ذات شكل انسانى او حيوانى . وهكذا ، وعلى الرغم من تحذير السيد كارييف ، فان «الجسد» يولد «الروح» : الصراع **الاقتصادى** يثير مسائل **معنوية** ، وتثبت «الروح» عند الدراسة الادق انها هى «الجسد» : وكثيرا ما تتضح «**عدالة**» **المحافظين** باعتبارها **مصالح المستغلين** .

ونفس هؤلاء الذين ينسبون الى ماركس ، بدهاء مدهش ، انكار دلالة السياسة ، يزعمون انه لم يعلق دلالة ايا كانت على المفاهيم الاخلاقية والفلسفية والدينية والجمالية للناس ، وانه لم ير فى كل مكان وفى اى مكان سوى «الاقتصاديات» . وتلك من جديد ثرثرة غريبة على حد قول شيدرين . ان ماركس لم ينكر «**دلالة**» كل هذه المفاهيم ، بل استوضح فحسب اصلها .

«ما هى الكهرباء ؟ — شكل خاص من اشكال الحركة . وما هى الحرارة ؟ — شكل خاص من اشكال الحركة . وما هو الضوء ؟ شكل خاص من اشكال الحركة . أوه ، هكذا اذن ! هذا يعنى انك لا تعطى اعتبارا لا للضوء ولا للحرارة ولا للكهرباء ؟ انها جميعا فى رأيك حركة واحدة . يا له من ضيق ، يا لها من احادية فى المفاهيم !» هكذا تماما ايها السادة ، انه هو الضيق بالضبط . لقد فهمتم جيدا معنى مذهب تحول الطاقة .

www.kassioun.org

فكل درجة معينة من تطور القوى المنتجة تسبب بالضرورة **تجميعا معينا للناس** فى عملية الانتاج الاجتماعية ، اى **علاقات انتاج معينة** ، اى **تركيبا معينا المجتمع بأسره** . لكن حالما نعرف تركيب المجتمع فلن يكون صعبا علينا ان نفهم ان طابع هذا التركيب سينعكس على كل **سيكولوجية** الناس عموما ، على كل عاداتهم واخلاقهم ومشاعرهم وآرائهم ومطامحهم ومثلهم العليا . فعلى العادات والاخلاق والآراء والمطامح والمثل العليا ان تتكيف بالضرورة مع طريقة حياة الناس ، مع **اسلوبهم فى الحصول على الطعام** (اذا استخدمنا تعبير بيشل) . **ان سيكولوجية المجتمع دائما تتلاءم مع اقتصاده ، دائما تتجاوب معه ، دائما تتحدد به .** وتتكرر هنا نفس الظاهرة التى قد لاحظها الفلاسفة اليونان فى الطبيعة :. الملاءمة تنتصر بسبب بسيط هو انه ما هو غير ملائم مقضى عليه بالهلاك بحكم طبيعته . هل من المفيد للمجتمع فى صراعه من اجل الوجود هذا التكيف لسيكولوجيته مع اقتصاده ومع ظروف حياته ؟ هذا امر مفيد جدا لان العادات والآراء التى لا تتجاوب مع الاقتصاد والتى تتناقض مع ظروف الوجود يمكن ان تعوق الحفاظ على هذا الوجود . فالسيكولوجية الملائمة تفيد المجتمع تماما كما ان الاعضاء الملائمة جيدا لوظيفتها تفيد الكائن . ولكن هل القول بان اعضاء الحيوانات لا بد ان تتوافق مع ظروف وجودها – هل يعنى هذا القول انه ليس لهذه الاعضاء دلالة بالنسبة للحيوان ؟ العكس تماما . انه يعنى الاعتراف **بدلالتها** الهائلة ، **الجوهرية** . والرؤوس الضعيفة جدا هى وحدها التى يمكن ان تفهم الامر على خلاف ذلك . والحالة هى نفسها – تماما ايها السادة – بالنسبة للسيكولوجية . فحينما اعترف ماركس بانها تتكيف مع اقتصاد المجتمع ، فانه بذلك اعترف بدلالتها الكبيرة التى لا تعوض بشىء .

ان الفرق بين ماركس وبين السيد كارييف مثلا ، ينتهى هنا الى ان هذا الاخير ، رغم ميله الى «التركيب» ، يظل ثنائيا من انقى نوع . فمن وجهة نظره يوجد الاقتصاد هنا والسيكولوجية هناك ؛ الروح فى جيب والجسد فى الجيب الآخر . وبين هذين الجوهرين ثمة تفاعل ، لكن لكل منهما وجوده المستقل الذى يظل منشؤه فى

www.kassioun.org

طى الغوامض * . اما وجهة نظر ماركس فانها تزيل هذه الثنائية . **فاقتصاد المجتمع وسيكولوجيته** يمثلان لديه جانبين لظاهرة واحدة بعينها هى «انتاج حياة» الناس ، هى صراعهم من اجل الوجود ، هذا الصراع الذى يتجمعون فيه بطريقة معينة بفضل الحالة المعينة للقوى المنتجة . والصراع من اجل الوجود يخلق **اقتصادهم** ، وعلى نفس الاساس تنشأ **سيكولوجيتهم** . فالاقتصاد نفسه شىء مشتق مثله مثل السيكولوجية . وهذا بالتحديد هو السبب فى ان اقتصاد كل مجتمع متقدم **يتغير** : فالحالة الجديدة للقوى المنتجة تجلب معها تركيبا اقتصاديا جديدا ، وكذلك سيكولوجية جديدة ، «روح عصر» جديدة . ونستطيع من ذلك ان نرى ان المرء لا يمكنه الحديث عن الاقتصاد **كسبب اولى** لكل الظواهر الاجتماعية الا فى الأحاديث المبسطة . فالاقتصاد بعيد عن ان يكون سببا اوليا ، انه ذاته نتيجة ، «وظيفة» للقوى المنتجة .

والآن يأتى النص الذى وعدنا به فى الهامش . «فلكل من جسد الانسان وروحه متطلباته ، التى تبحث عن التلبية والتى تضع شخصية الفرد فى علاقات مختلفة بالعالم الخارجى ، اى بالطبيعة ، وبغيره من الناس . . . ومن ثم فان علاقة الانسان بالطبيعة ، وطبقا لاحتياجاته الجسدية والروحية ، تخلق من ناحية مختلف انواع الفنون التى تستهدف ضمان الوجود المادى للشخصية ، ومن ناحية اخرى كل الثقافة الذهنية والاخلاقية . . .» (٥٦) . وتكمن العلاقة المادية للانسان بالطبيعة فى احتياجات جسده ، فى خواص المادة . وعلى المرء ان يكتشف فى احتياجات الجسد «اسباب الصيد وتربية الماشية والزراعة والصناعات التحويلية والتجارة والعمليات النقدية» . — والامر كذلك بالطبع من وجهة نظر الادراك السليم : فلو لم يكن للانسان جسد فلماذا كان سيحتاج المواشى والوحوش والارض والآلات

---

* لا تتصوروا اننا نفترى على الاستاذ المحترم . فانه يورد باحترام شديد رأى بارت ، ووفقا له «يمارس الحق وجودا منفصلا وان لم يكن مستقلا» . وهذا «الانفصال وان لم يكن الاستقلال» هو الذى يمنع السيد كاريف من فهم «كنه العملية التاريخية» . وسيوضح **النص** حالا كيف يمنعه من ذلك .

www.kassioun.org

والتجارة والذهب ؟ ولكن يجب إن نقول من الناحية الاخرى : ما الجسد دون الروح ؟ ليس اكثر من مادة ، والحال ان المادة ميتة . انها لا تستطيع بذاتها ان تخلق شيئا اذا لم تكن بدورها مؤلفة من روح وجسد . وبالتالى فان المادة تصيد الحيوانات الوحشية وتربى الماشية وتحرث الارض وتتاجر وتدير البنوك ، لا بفضل عقلها هى بل بتوجيه الروح . واذن ، فعلى المرء ان يبحث فى الروح عن السبب النهائى لاصل علاقة الانسان المادية بالطبيعة . وهكذا فان للروح ايضا متطلبات مزدوجة ، وبالتالى فانها تتألف ايضا من روح وجسد ، ويبدو هذا سخيفا كل السخافة . والامر لا يقف عند هذا الحد . فاراد المرء او لم يرد يساوره «الشك» حول الموضوع التالى كذلك . يبدو ان علاقة الانسان المادية بالطبيعة تنشأ ، وفقا للسيد كاريف ، على اساس احتياجاته الجسدية . ولكن هل هذا القول دقيق ؟ العلاقة بالطبيعة وحدها ؟ ربما يذكر السيد كاريف كيف لعن الاب جيبرت الكومونات البلدية التى كانت تسعى للتحرر من النير الاقطاعى ، معتبرا اياها مؤسسات «يعيضة» ، قائلا ان هدف وجودها الوحيد هو التهرب من التنفيذ الواجب لفروضها الاقطاعية . ما الذى كان يتحدث فى شخص الاب جيبرت حينئذ : «الجسد» او «الروح» ؟ لو انه كان «الجسد» لقلنا ثانية ان ذلك الجسد يتألف من «جسد» و«روخ» ، ولو انه كان «الروح» لكانت تتكون من «روح» و«جسد» ، لانها فى هذه الحالة لم تكشف الا عن قليل من الموقف غير المغرض بالنسبة للظواهر ، وهو ما يمثل ، حسب كلمات السيد كاريف ، السمة المميزة «للروح» .حاول ان تفهم ذلك ! ربما يقول السيد كاريف ان الروح هى التى كانت تتكلم فى الاب جيبرت ، لكنها كانت تتكلم باملاء الجسد ، وان نفس الامر يحدث عندما ينشغل الانسان بالصيد ، بالبنوك ، الخ . . ولكن ، اولا ، لكى يستطيع الجسد ان يملى لا بد ان يكون مؤلفا من جسد وروح ، وثانيا ، قد يلاحظ مادى فج قائلا : حسنا ، هنا تتحدث الروح باملاء الجسد ، وبالتالى فان كون الانسان مؤلفا من روح وجسد لا يعنى بذاته شيئا على الاطلاق : فربما كان كل ما صنعته الروح خلال التاريخ هو ان تتحدث باملاء الجسد ؟ وسيشعر السيد كاريف بالطبع بالسخط

www.kassioun.org

على هذا الفرض ، ويبدأ فى دحض «المادى الفج» . ونحن على ثقة من ان النصر سيكون فى صف الاستاذ المحترم ، ولكن هـــل سيساعده كثيرا فى هذا الصراع ذلك الشرط الذى لا شك فيه من ان الانسان يتألف من روح وجسد .

ولكن الامر لا يتوقف عند هذا الحد . فقد طالعنا فى مؤلفات السيـــد كارييف انـــه على اساس المتطلبـــات الروحيـــة للشخصية تنمو : «الاساطير والديـــن . : . والادب والفنـــون» وبشكل عام – «الموقف النظرى مـــن العالم الخارجى (مـــن ذات الشخص ايضا) ومن مسائـــل الوجود والمعرفـــة» ، وبالمثـل «التصوير الخلاق غير المغرض للظواهر الخارجية (ولنوايا المـــرء كذلك)» . وقد صدقنا السيد كارييف . ولكن . . . احد معارفنا طالب تكنولوجى كرس نفسه لدراسة تكنيك الصناعة التحويلية ، لكنه لم يكشف ابدا عن موقف «نظرى» من كل ما عدده السيد الاستاذ . وهكذا نجدنا نتساءل : أيمكن ان يكون صديقنا مؤلفا من جسد فحسب ؟ ونرجو السيد كارييف ان يزيل باسرع مـــا يمكن هذا الشك الذى يؤرقنا ويذل شابا تكنولوجيا موهوبا الى اقصى حد ، ويمكن ان يكون عبقريا !

واذا كان لحجة السيد كارييف معنى ما فانه ما يلى : لدى الانسان متطلبات من درجة عليا ودرجة دنيا . ان له مطامح انانية ومشاعر ايثارية . وتلك حقيقة لا يمكن النزاع فيها على الاطلاق ، لكنها لا تصلح ابدا لان تكون اساسا «لفلسفة التاريخ» . ولـن تستطيع ان تصل معها الى ابعد من التأملات الفارغة التى طـــال مضغها حول موضوع الطبيعة الانسانية : بل انها ذاتها ليست اكثر من مثل هذا التأمل .

وبينما كنا نتحدث مع السيد كارييف ضبطنا ناقدونا الاذكياء متلبسين بالتناقض مع انفسنا ، بل ، وهذا الرئيسى ، مـــع ماركس . لقد قلنا ان الاقتصـــاد ليس هو السبب الاولى لكـــل الظواهر الاجتماعية ، بيد اننا نزعم فى نفس الوقت ان سيكولوجية المجتمع تتكيف مع اقتصاده – هذا هو التناقض الاول . ونقول ان اقتصاد وسيكولوجية المجتمع يمثلان جانبين لنفس الظاهرة ، بينما يقول ماركس ان الاقتصاد هو الاساس الواقعى الذى تنشأ

www.kassioun.org

عليه البناءات الفوقيـــة الايديولوجية – هذا تناقض ثان ، وهو مؤسف بدرجة اكبر لاننا ننحرف عن الرجل الذى اخذنا على عاتقنا مهمة عرض آرائه . فلنشرح الامر .

ان كون تطور القوى المنتجة هو السبب الاساسى للعمليـــة الاجتماعية التاريخية امر ننقله بحذافيره عن ماركس – فلا يوجد تناقض هنا . وبالتالى فاذا كان ثمة تناقض فانه لا يوجد الا فى مسألة العلاقة بين اقتصاد مجتمع وبين سيكولوجيته . فلنر اذا ما كان هناك تناقض .

وليتذكر القارئ كيف تنشـــأ الملكية الخاصـــة . ان تطور القوى المنتجة يضع الناس فى علاقات انتاج يكون فى ظلها التملك الشخصى لبعض الاشياء اكثر ملاءمة لعملية الانتاج . ووفقا لذلك تتغير المفاهيم الحقوقيـــة للانسان البدائى . وتتكيف **سيكولوجية** المجتمع مع **اقتصاده** . ففوق **اساس اقتصادى** معين ينبثق حتمـــا **بناء فوقى ايديولوجى** ملائم له . ولكن كل خطوة جديدة لتطور القوى المنتجة ، من ناحية اخرى ، تضع الناس فى حياتهم اليومية فـــى مواقف متبادلة جديدة لا تتجاوب مع علاقات الانتاج التى مضى زمنها الآن . وهذه المواقف الجديدة التى لم يسبق لها مثيـــل تنعكس بالضرورة فى سيكولوجية الناس وتغيرها بشدة . فى اى اتجاه ؟ ان بعض اعضاء المجتمع يدافعون عن الانظمة القديمة ، وهؤلاء هم المحافظون . وغيرهم – ممن ليس النظام القديم مفيدا لهم – يقفون فى صف التقدم ؛ فتتغير سيكولوجيتهم فى اتجاه **علاقـــات الانتاج التى ستحل** فى حينها **محل العلاقات الاقتصادية القديمة التى فات الآن زمنها** . وهكذا ، كما ترون ، يستمر تكيف السيكولوجية مع الاقتصاد ، لكن التطور السيكولوجى البطىء **يسبق** الثـــورة الاقتصادية * .

وحالما تحدث هذه الثورة يتحقق الانسجام الكامل بيـــن سيكولوجية المجتمع وبين اقتصاده . ثم على اساس هذا الاقتصاد الجديد يحدث الازدهار الكامل لهذه السيكولوجية الجديدة . ويظـــل

---

* وهذه فى الجوهر هى نفس العملية السيكولوجية التى تمر بها الآن البروليتاريا الاوروبية . ان سيكولوجيتها تتكيف مع علاقات الانتاج الجديدة المقبلة

www.kassioun.org

هذا الانسجام قائما لفترة من الزمن ، بل يصبح اكثر قوة . ولكن شيئا فشيئا تبدأ فى الظهور البراعم الاولى لعدم توافق جديد : فيسكولوجية الطبقة الطليعية وللسبب الذى ذكرناه من قبل ، تتخطى حياة علاقات الانتاج القديمة : ودون ان تكف لحظة عن ان تكيف نفسها مع الاقتصاد ، فانها من جديد تتكيف مع علاقات الانتاج **الجديدة** التى تشكل جنين اقتصاد المستقبل . حسنا ، أليس هذان جانبين لعملية واحدة ؟

وحتى الآن كنا نوضح فكرة ماركس اساسا بامثلة من مجال حق الملكية . ولا شك ان هذا الحق هو نفس الايديولوجية التى نتحدث عنها ، لكنها ايديولوجية من النوع الاول ، او من النوع الادنى اذا امكن استخدام هذا التعبير . فكيف سنفهم نظرة ماركس فيما يتعلق بالايديولوجية من النوع الارقى – العلم والفلسفة والفنون ، الخ. ؟

الاقتصاد هو الاساس فى تطور هذه الايديولوجيات بمعنى انه يجب ان يحقق المجتمع درجة معينة من الازدهار لكى يخرج منه فئة معينة من الناس الذين يهبون قواهم كليا للاعمال العلمية وما يشبهها . وفضلا عن ذلك فان نظرة **افلاطون وبلوتارك** التى اوردناها فيما مضى تبين ان **اتجاه** العمل الذهنى فى المجتمع انما تحدده **علاقات الانتاج فيه** . وكان فيكو هو الذى قال عن العلوم انها تنمو من الاحتياجات الاجتماعية . وهذا امر واضح بالنسبة لعلم الاقتصاد السياسى لدى كل من يعرف تاريخ هذا العلم ادنى معرفة . فقد لاحظ الكونت بيكيو بحق ان الاقتصاد السياسى يؤكد بخاصة قاعدة ان الممارسة تسبق العلم دائما وفى كل مكان * .

«Quand'essa cominciava appena a nascere nel diciasettesimo * secolo, alcune nazioni avevano già da più secoli fiorito colla loro sola esperienza, da cui poscia la scienza ricavò i suoi dettami». — («Storia della Economia publica in Italia etc.», Lugano 1829, p. 11.) [* وحتى قبل ان يبدأ (الاقتصاد السياسى) فى التشكل فى القرن السابع عشر ، فقد ازدهرت بعض الامم لعدة قرون بالاعتماد على خبرتها العملية وحدها . وقد استخدم العلم فيما بعد هذه الخبرة فى صياغة احكامه» . — («تاريخ الاقتصاد السياسى فى ايطاليا وهلمجرا» ، لوجانو ١٨٢٩ ، ص ١١) .]

ويكرر جون ستيوارت ميل: — «In every department of human affairs

www.kassioun.org

ويمكن بالطبع ان يفسر هذا ايضا بمعنى مجرد تماما ، اذ يستطيع المرء ان يقول : «حسنا ، يحتاج العلم بالطبع الى التجربة ، وكلما زادت التجربة اكتمل العلم» . لكن ليس هذا هو المهم هنا . قارنوا الافكار الاقتصادية لدى ارسطو او اكسينوفون بافكار آدام سميث او ريكاردو ، تروا انه لا توجد بين علم الاقتصاد فى اليونان القديمة من ناحية وبين علم الاقتصاد فى المجتمع البرجوازى من ناحية اخرى فوارق **كمية** فحسب ، بل فوارق **كيفية** ايضا : ان وجهة النظر مختلفة تماما ، والموقف من الموضوع مختلف تماما . كيف تفسر هذه الفوارق ؟ انها تفسر ببساطة بان **الظواهر ذاتها قد تغيرت** : فعلاقات الانتاج فى المجتمع البرجوازى لا تشبه علاقات الانتاج فى المجتمع القديم . وعلاقات الانتاج المختلفة تخلق افكارا مختلفة فى العلم . وهذا لا يكفى . قارنوا افكار ريكاردو بافكار واحد من اضراب باستيا ، تروا ان لهذين الرجلين افكارا مختلفة عن علاقات الانتاج التى بقيت غير متغيرة **من حيث طابعها العام** — عن علاقات الانتاج **البرجوازية** . لماذا يحدث هذا ؟ لان هذه العلاقات فى عصر ريكاردو كانت لا تزال تزدهر وتقوى ، بينما انها فى زمن باستيا قد بدأت تميل الى التدهور . فكان لا بد ان تنعكس الظروف المختلفة لنفس علاقات الانتاج بالضرورة فى افكار الناس الذين كانوا يدافعون عنها .

او لنأخذ علم القانون العام . كيف تطورت نظريته ولماذا ؟ يقول الاستاذ جومبلوفيتش : «لا يبدأ الوضع العلمى للقانون العام الا حيث تتصادم الطبقات المسيطرة فيما يتعلق بمجالات السلطة التى تخص كلا منها . وهكذا ، فان الصراع السياسى الكبير الاول

Practice long precedes Science... The conception, accordingly, of political Economy as a branch of Science, is extremely modern; but the subject with which its inquiries are conversant has in all ages necessarily constitueted one of the chief practical interests of mankind». «Principles of political Economy», London 1843, t. I, p. 1.

[«فى جميع ميادين نشاط الناس تسبق الممارسة العلم بوقت طويل ... وهكذا ، فان مفهوم الاقتصاد السياسى كفرع من فروع العلم حديث جدا . لكن موضوع دراساته كان يمثل بالضرورة فى كل العصور احدى المصالح العملية الرئيسية للبشرية» . — «مبادئ الاقتصاد السياسى» ، لندن ١٨٤٣ ، المجلد الاول ، ص ١ .]

www.kassioun.org

الذى نقابله فى النصف الثانى من العصور الوسطى فى اوروبا ، اى الصراع بين السلطة الدنيوية والسلطة الكنسية ، الصراع بين الامبراطور والبابا ، قدم الدفعة الاولى لتطور العلم الالمانى فى القانون العام . وكانت المسألة السياسية الثانية محل النزاع تلك التى خلقت انقساما بين الطبقات المسيطرة وقدمت دفعة جعلت الكتاب الاجتماعيين يعالجون الجانب المعنى من القانون العام هى مسألة انتخاب الاباطرة» * الخ . .

فما هى العلاقات المتبادلة بين الطبقات ؟ انها فى المقام الاول بالدقة تلك العلاقات التى يتخذهـــا الناس من بعضهم البعض فى عملية الانتاج الاجتماعية – **علاقات الانتاج** . وتجد هذه العلاقات تعبيرا عنها فى التنظيم السياسى للمجتمع ، وفى الصراع السياسى لمختلف الطبقـــات ، ويعطى هذا الصراع دفعـــة لظهور مختلف **النظريات السياسية** وتطورها : ففوق الاساس الاقتصادى ينبثق حتما البناء الفوقى الايديولوجى الملائم له .

وكل هذه الايديولوجيات ، ان لم تكن من النوع الاول ، فانها ليست بالتأكيد ايديولوجيات من النوع الارقى . فكيف هى الامور مثلا فى الفلسفة والفن ؟ قبل ان نجيب على هذا السؤال يجب ان نستطرد بعض الاستطراد .

انطلـــق هلفيسيوس مـــن مبـــدأ ان l'homme n'est que sensibilité * * . وواضح من وجهة النظر هذه ان الانســـان سيتجنب الاحساسات غير السارة ، وسيسعى للحصـــــول على الاحساسات السارة . فهذه هى الانانية المحتومة الطبيعية للمادة ذات الاحساس . ولكن اذا كان الامر كذلك فباى طريقة تنشأ لدى الانسان مطامح غير انانية مثل حب الحقيقة والبطولة ؟ تلك هى المشكلة التى كان على هلفيسيوس ان يحلها . ولم يكن قادرا على ذلك ، ولكى يتخلص من هذه الصعوبة حذف بكل بساطـــة هذه «السين» ذاتها ، هذه الكمية المجهولة التى كان قد اخذ على عاتقه

---

* «Rechtsstaat und Sozialismus». Innsbruck 1881, S.S. 124—125.
[«الدولة الحقوقية والاشتراكية» ، انسبروك ١٨٨١ ، ص‌ص ١٢٤–١٢٥ .]

* * [ليس الانسان سوى حساسية .]

www.kassioun.org

تعريفها . فبدأ يقول انه ليس هناك عالم واحد يحب الحقيقة بلا انانية ، وان كل انسان لا يرى فى ذلك سوى طريق للمجد ، ويرى فى المجد طريقا للنقود ، وفى النقود وسيلة للحصول على الاحساسات الجسدية السارة مثل شراء الطعام الشهى او belles esclaves * . ولا داعى للقول كم هى عقيمة تلك التفسيرات . انها لا توضح الا ما لاحظناه من قبل — عجز المادية **الميتافيزيقية** الفرنسية عن معالجة **مسائل التطور** .

وينسبون الى مؤسس المادية **الجدلية** المعاصرة نظرة الى تاريخ الفكر الانسانى لا تكون اكثر من تكرار لتأملات هلفيسيوس الميتافيزيقية . فغالبا تفهم نظرة ماركس الى تاريخ الفلسفة مثلا كما يلى تقريبا : اذا كان كانط ينشغل بمسائل الجمالية المتعالية واذا كان يتحدث عن مقولات العقل او تناقضات الفهم ، فلم تكن هذه سوى عبارات فارغة ؛ فهو لم يكن فى الواقع يهتم على الاطلاق لا بالجمالية ولا بالتناقضات ولا بالمقولات ؛ انه لم يرد سوى شىء واحد : ان يزود الطبقة التى ينتمى اليها ، اى البرجوازية الصغيرة الالمانية ، باكبر قدر ممكن من الاطباق الشهية و«الجوارى الجميلات» . وقد بدت له المقولات والتناقضات وسيلة رائعة لتحقيق ذلك ، ومن ثم بدأ فى «اشتقاقها» .

هل ينبغى التأكيد ان كل هذا لغو مطلق ؟ فحين يقول ماركس ان نظرية معينة تتجاوب مع فترة كذا وكذا من التطور الاقتصادى للمجتمع ، فانه لا يقصد على الاطلاق ان يقول بذلك ان الممثلين المفكرين للطبقة التى حكمت خلال هذه الفترة قد كيفوا نظراتهم عن وعى مع مصالح المحسنين اليهم الاكثر او الاقل غنى وكرما .

كان هناك دائما وفى كل مكان متملقون اذلاء ، لكن هؤلاء ليسوا هم الذين تقدموا بالعقل الانسانى الى الامام . فاولئك الذين تقدموا به الى الامام كانوا يهتمون بالحقيقة وليس بمصالح اصحاب النهى والامر * * .

---

* [الجوارى الجميلات .]

* * ولم يمنعهم هذا من ان يخشوا الاقوياء فى بعض الاحيان . فقال كانط مثلا عن نفسه : «لن يجبرنى احد على ان اقول ما هو ضد معتقداتى ، لكنى لن اجسر على قول **كل** ما اؤمن به» .

www.kassioun.org

يقول ماركس : «وفوق الاشكال المختلفة للملكيـــة ، فوق ظروف الوجود الاجتماعيـــة ينبثق بنـــاء فوقى كامل من مختلف المشاعر والاوهام والنظرات والمفاهيم . وكل هذا تخلقه وتصوغه الطبقة بأسرها على اساس ظروف وجودها الماديـــة والعلاقات الاجتماعية المتجاوبة معها» (٥٧) . وتتم عملية انبثاق البناء الفوقى الايديولوجى **بطريقة غير ملحوظة من جانب الناس** . فهم لا ينظرون الى هذا البناء الفوقى باعتباره نتاجا مؤقتا لعلاقات مؤقتة ، بل كشىء طبيعى وحتمى من حيث جوهره . وقـــد يمتلىء الافراد الذين تتشكل نظراتهم ومشاعرهم تحت تأثير التربية والبيئة المحيطة بهم على العموم باخلص **المواقف والمتفانيـــة** تماما من النظرات واشكال الوجود الاجتماعى التى نشأت تاريخيا على اساس **المصالح الطبقية الضيقة** بدرجة او اخرى . وينطبق نفس الشىء على الاحزاب بكاملها . فقد عبر الديمقراطيون الفرنسيون فى عام ١٨٤٨ عن اطماع البرجوازية الصغيرة ، وكانت البرجوازية الصغيرة تسعى بالطبع للدفاع عن مصالحها الطبقية . يقول ماركس انه «من ضيق الافق التصور ان البرجوازية الصغيرة تسعى عن وعى للدفاع عن المصلحة الطبقية الانانيـــة . انها تعتقد على العكس أن الظروف **الخاصة** لتحررها هى الظروف العامة التى يمكن فى اطارها فحسب انقاذ المجتمع المعاصر وتجنب الصراع الطبقى . كما انه لا ينبغى التصور ان ممثلى البرجوازية الصغيرة هم جميعـــا فى الواقع من اصحاب الحوانيت او انصارهم المتحمسين . فهم قد يكونون من حيث تربيتهم ومركزهم الفردى بعيدين عن اصحاب الحوانيـــت بعد السماء عن الارض. . وما يجعلهم ممثلين للبرجوازية الصغيرة هو ان فكرهم لا يتخطى حدود الحياة اليومية للبرجوازية الصغيرة، وانهم بالتالى يصلون الى نفس المهام والحلول فى النظرية ، التى يصل اليها البرجوازى الصغير ، بفضل مصالحه الماديـــة ومركزه الاجتماعى ، فى التطبيق . تلك بشكل عام هى العلاقة بين ممثلى الطبقة المعنية السياسيين والادبيين من ناحية وبين هذه الطبقة ذاتها من ناحية اخرى» (٥٨) * .

* لكى يثبت لامارك ان ظروف الحياة (les circonstances) تؤثر على تنظيم الحيوانات يقدم ملاحظة من المفيد ان نسترجعها هنا كى نتجنب

www.kassioun.org

يقول ماركس ذلك فى كتابه عن coup d'état * نابليـــون الثالث . وهو يوضح فى مؤلفه الآخر – وربما بشكل افضـــل – الجدلية السيكولوجية **للطبقات** ، حين يتحدث عن الدور التحريرى الذى يتعين احيانا على بعض الطبقات ان تلعبه .

«لا يمكن لاى طبقـــة ان تلعب هذا الدور دون ان تستثير لبعض الوقت حماسا بين صفوفهـــا وبين الجماهير . فانها خلال هذا الوقت تتآخى مع المجتمـــع كله ، ويعترفون بها **ممثلا عاما** ويعطفون عليها بوصفها طبقة ؛ وحقوق هذه الطبقة ومطالبها خلال هذا الوقت هى بالفعل حقوق ومطالب المجتمع كله ، وهذه الطبقة

سوء الفهم . يقول لامارك : «ان من لا يذهب الى ابعد من معنى كلماتى الحرفى ينسب الىّ نظرة خاطئة . ذلك لانه مهما كانت ظروف الحياة فانها لا تحدث اى تغير مباشر فى شكل وتنظيم الحيوانات» . بيد انه بسبب تغيرات ذات شان فى ظروف الحياة تظهر لدى الحيوانات احتياجات جديدة تختلف عن تلك التى كانت قائمة من قبل . ولو بقيت هذه الاحتياجات الجديدة دائمة او لمدة طويلة جدا ، فانها تؤدى الى ظهور **عادات** جديدة . «وعندئذ ، فاذا كانت ظروف الحياة الجديدة ... قد ادت الى ظهور **عادات** جديدة لدى الحيوانات ، اى دفعتهم الى نشاطات جديدة تصبح معتادة ، فان نتيجة ذلك ستكون هى تفضيل استخدام بعض الاعضاء ، واحيانا عدم استخدام بعضها الآخر الذى اصبح غير مفيد» . ولن تظل زيادة الاستخدام او عدم الاستخدام بلا تاثير على تركيب **الاعضاء** ، وبالتالى على الكائن كله . (*Lamarque*, Philosophie zoologique etc., nouvelle édition par Charles Martin, 1873, t. I, p.p. 223—224.) [**لامـارك** ، فلسفة علم الحيوان والخ . ، طبعة شارل مارتان الجديدة ، ١٨٧٣ ، المجلد الاول ، ص ٢٢٣–٢٢٤ .] وبنفس الطريقة ايضا ينبغى ان نفهم تاثير الاحتياجات الاقتصادية وغيرها مما ينشأ عنها على سيكولوجيـــة الشعب . فهنا تحدث عملية بطيئة من التكيف بسبب الاستخدام او عدم الاستخدام ؛ بينما يتخيل خصوم المادية «الاقتصادية» لدينا ان الناس يغيرون – فى رأى ماركس – نظراتهم فورا وعن عمد حالما تظهر لديهم احتياجات جديدة . ومفهوم ان ذلك يبدو لهم سخيفا ، لكنهم هم الذين قد ابتدعوا هذه السخافة : فماركس لا يقول شيئا من هذا القبيل . وبشكل عام تذكرنا اعتراضات هؤلاء المفكرين الحجة المظفرة التالية التى استخدمها احد الكهنة ضد داروين : «يقول داروين : الق دجاجة فى الماء تنمو لها زعنفة . اما انا فاؤكد انها ستغرق بكل بساطة» .

* [انقلاب]

www.kassioun.org

هى رأس هذا المجتمع وقلبه . ولا تستطيع طبقة ما ان تطالب لنفسها بالسيادة على كل الطبقات الاخرى الا باسم الحقوق العامة للمجتمع . وللاستيلاء بالاقتحام على هذا الدور ، دور المحـــرر والمستغل السياسى فى نفس الوقت لكل المجالات الاجتماعية لما فيه مصلحة مجال طبقة معينة ، لا تكفى الهمة والثقة الروحيـــة بالنفس . ولكى تصبح طبقة واحدة وكأنها تشمل المجتمع بأسره لا بد على العكس ان تتركز كل نقائص المجتمع فى طبقة ما اخرى ، لا بد ان تكون طبقة معينة هى طبقة تثير نفور الجميع ، لا بد ان تكون تجسيدا لما هو يقيد الجميع . . . ولكى تكون طبقة واحدة هى الطبقة المحررة par excellence لا بد ان تكون طبقة ما اخرى بالعكس هى الطبقة المستعبِدة فى نظر الجميع . وقد حددت الدلالة السلبية الشاملة للنبلاء والكهنة الفرنسيين الدلالة الايجابيـــة الشاملة لطبقة البرجوازية التى تجاورهم وتواجههم» * .

وبعد هذا التفسير التمهيدى ليس من الصعب ان نستوضح نظرة ماركس الى الايديولوجيات من النوع الارقى كالفلسفة والفن مثلا . ولكى نجعل الامر اكثر وضوحا سنقارنها بنظرة هـ . تين :

يقول هذا الكاتب : «لكى يفهم المرء عملا فنيا ، او فنانا ، او جماعة من الفنانين يجب ان يتصور الحالة العامة للاذهان والاخلاق فى عصرهم . فهناك يكمن التفسير النهائى ، هنـــاك نجد السبب الاول الذى يحدد كل الاسبـــاب الاخرى . وتؤكد الخبرة هذه الحقيقة . فالواقع اننا لو تتبعنا العصور الرئيسية فى تاريخ الفن ، لوجدنا ان الفنون تظهر وتختفى مع حالات معينة للاذهان والاخلاق ترتبط بها . هكذا ظهرت التراجيديا الاغريقيـــة – تراجيديـــا اسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس – مع انتصار الاغريق على الفرس ، فى العصر البطولى لجمهوريات الدويلات ، فى لحظة تلك الجهود العظيمة التى كسبوا بفضلها استقلالهم واقاموا سيادتهم فى العالم المتمدن . وقد اختفت هذه التراجيديـــا ، وكذلك هذا

---

* مقالـــة : «Deutsch — Französische Jahrbücher», Paris 1844, «Zur Kritik der Hegelschen Rechtsphilosophie, Einleitung», p. 82.
[«الحولية الالمانية الفرنسية» ، باريس ١٨٤٤ ، مقالة : «مساهمة فى نقد فلسفة الحق عند هيجل ، المقدمة» ، ص ٨٢ .]

www.kassioun.org

الاستقلال وهذه الجهود حينما ادى تحلل الاخلاق والغزو المقدونى الى تسليم اليونان الى سلطة اجنبية . — وبنفس الطريقة تطور فن المعمار القوطى مع الاستقرار النهائى للنظام الاقطاعى فى فترة شبه النهضة فى القرن الحادى عشر ، فى وقت اصبح فيه المجتمع اكثر استقرارا بعد ان تحرر من غزوات النورمان وقطاع الطرق : واختفى حينما تحلل النظام العسكرى للبارونات على اختلاف درجة بأسهم فى نهاية القرن الخامس عشر ، ومعه كل الاخلاق التى ترتبت عليه ، كنتيجة لظهور الملكيات الجديدة . — وبالمثل ازدهر الفن التصويرى الهولندى فى تلك اللحظة المجيدة التى اطاحت فيها هولندا بفضل عنادها وشجاعتها بالنير الاسبانى نهائيا ، ونجحت فى نضالها ضد انجلترا ، واصبحت اكثر دول اوروبا غنى وتطورا صناعيا وازدهارا ؛ وتدهور فى بداية القرن الثامن عشر ، حين انحدرت هولندا الى الدور الثانى واخلت المكان الاول لانجلترا ، واصبحت مجرد بنك ، مجرد بيت تجارى مرتب للغاية ، هادئ ومريح يستطيع فيه الانسان ان يعيش حياة مطمئنة كبرجوازى متبصر دون طموحات وانفعالات . واخيرا بنفس الطريقة ظهرت التراجيديا الفرنسية حين استقر فى عهد لويس الرابع عشر النظام الملكى بثبات وجلب معه سيطرة آداب السلوك ، وخياة البلاط ، وابهة ورشاقة الاريستقراطية المذعنة ؛ واختفت حين الغت الثورة مجتمع النبلاء واخلاق البلاط . . . وكما يدرس علماء الطبيعة الحرارة الفيزيقية لكى يفهموا ظهور هذا النبات او ذاك ، الشوفان او الذرة ، الصنوبر او الصبار ، فان علينا ان ندرس بالمثل الحرارة الاخلاقية لكى نفسر ظهور هذا النوع من انواع الفن او ذاك : النحت الوثنى او التصوير الواقعى ، فن المعمار الغيبى او الادب الكلاسيكى ، الموسيقى الشهوانية او الشعر المثالى . فاعمال الروح الانسانية مثلها مثل اعمال الطبيعة الحية انما تفسرها بيئتها وحدها» * .

ولا شك ان كل واحد من اتباع ماركس سيوافق على هذا

---

* «Philosophie de l'art», deuxième édition, Paris 1872, p.p. 13—17.

[« فلسفة الفن » ، الطبعة ١٢ ، باريس ١٨٧٢ ، ص ١٣–١٧ .]

www.kassioun.org

كله : نعم ، ان كل عمل من اعمال الفن – كأى مذهب فلسفى – يمكن تفسيره بحالة الاذهان والاخلاق فى العصر المعين . لكن ما الذى يفسر هذه الحالة العامة للاذهان والاخلاق ؟ يعتقد اتباع ماركس ان ما يفسرها هو النظام الاجتماعى ، هو خصائص البيئة الاجتماعية . ويقول تين نفسه : «يؤدى كل تغير فى اوضاع الناس الى تغير فى حالتهم النفسية» * . وهذا صحيح . لكن السؤال الوحيد هو ، ما الذى يسبب التغييرات فى وضع الانسان الاجتماعى ، اى فى النظام الاجتماعى ؟ فى هذه النقطة فقط يختلف «الماديون الاقتصاديون» مع تين .

فمهمة التاريخ بوصفه علما – عند تين – هى فى التحليل الاخير «**مهمة سيكولوجية**» . ففى رأيه ان الحالة العامة للاذهان والاخلاق تخلق مختلف انواع الفن والادب والفلسفة ، بل تخلق كذلك **صناعة الشعب المعنى** وكل مؤسساته الاجتماعية . ويعنى هذا ان السبب النهائى للبيئة الاجتماعية هو «حالة الاذهان والاخلاق» .

وهكذا ينتهى الامر الى ان **الحالة النفسية** للانسان الاجتماعى تتحدد **بوضعه** ، وان **وضعه** يتحدد **بحالته النفسية** . وذلك هو التناقض الذى نعرفه والذى عجز المنورون من القرن الثامن عشر عن معالجته . ولم يحل تين هذا التناقض ؛ وانما قدم فقط فى عدد من المؤلفات البارزة ايضاحات عديدة رائعة لقضيته الاولى – قضية هى ان **حالة الاذهان والاخلاق تتحدد بالبيئة الاجتماعية** .

اما معاصرو تين فى فرنسا ، الذين عارضوا نظريته الجمالية ، فقد قدموا **نقيض القضية** هو ان **خصائص البيئة الاجتماعية تتحدد بحالة الاذهان والاخلاق** * * . ويمكن لهذا النوع من النقاش ان

---

* «Philosophie de l'art dans les Pays-Bas, Paris 1869, p. 96.
[«فلسفة الفن فى هولندا» ، باريس ١٨٦٩ ، ص ٩٦ .]

* * «Nous subissons l'influence du *milieu* politique ou historique, nous subissons l'influence du milieu social, nous subissons aussi l'influence du milieu physique. Mais il ne faut pas oublier que si nous la subissons, nous pouvons pourtant aussi lui resister et vous savez sans doute qu'il y en a de mémorables exemples... Si nous subissons l'influence du milieu, un pouvoir que nous avons aussi, c'est de ne pas nous laisser faire,

www.kassioun.org

يستمر حتى يوم الحساب دون ان يحل التناقض المشؤوم ، بل حتى دون ان يلاحظ وجوده .

ونظرية ماركس التاريخية هى وحدها التى تحل هذا التناقض ، وبذلك تصل بالنقاش الى نتيجة مرضية ، او تقدم على اى حال **امكانية** الوصول الى مثل هذه النتيجة المرضية لاناس لهم آذان تسمع واذهان تفكر .

ان خصائص البيئة الاجتماعية تتحدد بحالة القوى المنتجة فى كل عصر معين . فاذا كانت حالة القوى المنتجة معروفة ، فمعروفة بالتالى خصائص البيئة الاجتماعية وكذلك السيكولوجية المطابقة لها والتفاعل بين البيئة من جانب وبين الاذهـــان والاخلاق من الجانب الآخر . فبرونيتيير على حق تماما حين يقول اننا لا نكيف انفسنا مع البيئة فحسب بل ونكيف البيئة مع احتياجاتنا . وقد تسألون : لكن من اين تنشأ الاحتياجات التى **لا** تتجاوب مـــع خصائص البيئة المحيطة بنا ؟ انها تنشأ فى داخلنا – وحين نقول ذلك فنحن لا نقصد الاحتياجات المادية فحسب بل وكل ما يسمى بالاحتياجات الروحية للناس – بفضل الحركة التاريخية ذاتها ، بتطور القوى المنتجة ذاته الذى يصبح كل نظام اجتماعى معين بسببه ، عاجلا او آجلا ، نظاما غير واف بالغرض ، شائخـــا ، يتطلب اعادة بناء جذرية ، وربما لا يستوجب الا الهدم . وقـــد اوضحنا من قبل استنادا الى مثال المؤسسات الحقوقية كيف يمكن ان تسبق سيكولوجية الناس الاشكال المعنية لحياتهم الاجتماعية .

---

ou pour dire encore quelque chose de plus, c'est de conformer, c'est d'adapter le milieu lui-même à nos propres convenances». *(F. Brunetière,* L'évolution de la critique depuis la renaissance jusqu'à nos jours, Paris 1890, p.p. 260—261.) [«اننا نتعرض لتاثير البيئة السياســـة او التاريخية ، ونتعرض لتاثير البيئة الاجتماعية ، كما نتعرض ايضا لتاثير البيئة الفيزيقية . ولكن يجب الا ننسى اننا وان كنا نتعرض لهذا التاثير ففى استطاعتنا فى الوقت نفسه ان نقاومه ، وانتم تعرفون بلا شك امثلة لا تنسى على ذلك ... واذا كنا نتعرض لتاثير البيئة فان لنا كذلك مقدرة على الا نخضع له ، بل فى استطاعتنا ايضا ان نكيف هذه البيئة مـــع احتياجاتنا» . (**ف . برونيتيير** . «تطور النقد منذ عصر النهضة حتى ايامنا» ، باريس ١٨٩٠ ، ص ٢٦٠–٢٦١ .)]

www.kassioun.org

ونحن واثقون ان كثيرا من قرائنـــا – وحتى من اكثرهم ميلا لنا – قد تذكروا عند قراءة هذه السطور عديدا من الامثلـــة والظواهر التاريخية التى يبدو وكأنها غير قابلة للتفسير من وجهة نظرنا ؛ وهم على استعداد بالفعل لان يقولوا لنا : «انتم على حق ، ولكنكم لستم على حق تماما ، والذين يتبنون نظرات مضـــادة لنظراتكم على حق ، ولكنهم ليسوا على حق تماما : فانتم وهم لا ترون سوى نصف الحقيقة» . ولكن مهلا ، ايها القارئ لا تبحث عن الخلاص فى **الانتقائية** قبل ان تستوعب كل ما تستطيع ان تقدمه النظرة **الواحدية الحديثة** ، اى **النظرة المادية** الى التاريخ .

لقد كانت قضايانا حتى الآن ، بحكم الضرورة ، مجردة للغاية. لكننا نعرف بالفعل انه **ليس ثمة حقيقة مجردة ، فالحقيقة دائما ملموسة** . فيجب ان نعطى قضايانا شكلا اكثر تحديدا .

لما كان كل مجتمع تقريبا يتعرض لتاثير جيرانه فيمكـــن القول انه **توجد لكل مجتمع** ، بدوره ، **بيئة اجتماعية تاريخية معينة تؤثر على تطوره** . ولا يمكن ابدا ان يكون مجموع التأثيرات التى يتعرض لها كل مجتمع معين من قبـــل جيرانه مساويـــا لمجموع التأثيرات التى يتعرض لها فى نفس الوقت مجتمع آخر . ومـــن هنا **فان كل مجتمع يعيش فى بيئته التاريخية الخاصة التى قـــد تكون – وكثيرا ما تكون بالفعل – مشابهة جدا للبيئة التاريخيـــة التى تحيط بشعوب اخرى ، لكنها لا يمكـــن ان تكون ابدا – ولا تكون ابدا – متطابقة معها** . وهذا يدخل عامل التنوع القوى للغاية على عملية التطور الاجتماعى التى كانت تبدو من وجهة نظرنـــا السابقة ، المجردة تخطيطية الى اقصى حد .

اليكم مثلا . ان الاتحاد العشيرى شكل من اشكال الحيـــاة الاجتماعية يميز المجتمعات الانسانية كلها فى مرحلة معينة مـــن تطورها . لكن تأثير البيئة التاريخية ينوع كثيرا مصائر العشيرة فى مختلف القبائل ، فيضفى على العشيرة نفسها طابعا او آخر ، طابعا فرديا ، اذا جاز القول ، فهو يعوق ويعجل تحللها ، وهو على الخصوص ينوع عملية هذا التحلل . لكن التنوع فى عملية تحلل العشيرة يسبب تنوعا فى تلك الاشكال من الحياة الاجتماعية التى تتلو الحياة العشائرية . لقد قلنا سابقا ان تطور القوى المنتجة

www.kassioun.org

يفضى الى ظهور الملكية الخاصة وزوال الشيوعية البدائية . وعلينا الآن ان نقول ان طابع الملكية الخاصة التـــى تنبعث على انقاض الشيوعية البدائية يتنوع تحت تأثير البيئة التاريخية المحيطة بكل مجتمع معين . «فالدراسة الدقيقة للاشكال الآسيوية – والهنديـــة على الخصوص – للملكية المشاعية سترينا كيف نشأت عن مختلف اشكال المشاعية البدائية اشكال مختلفة من تحللها . وهكذا ، مثلا ، يمكن تتبع انواع مختلفة من الملكية الخاصة الرومانيـــة والالمانية فى اشكال مختلفة من المشاعية الهندية» * .

ان تأثير البيئة التاريخية المحيطة بمجتمع معيـــن ينعكس بالطبع على تطور ايديولوجياته كذلك . فهل تضعف التأثيـــرات الاجنبية تبعية هذا التطور للتركيب الاقتصادى للمجتمع ، واذا كانت تفعل ذلك فالى اى حد ؟

قارن الانيادة بالاوديسة ، او قارن التراجيديا الكلاسيكيـــة الفرنسية بالتراجيديا الكلاسيكية الاغريقية . وقارن التراجيديـــا الروسية فى القرن الثامن عشر بالتراجيديا الكلاسيكية الفرنسية . فماذا ترى ؟ ليست الانيـــادة الا محاكاة للاوديســـة ، وليست التراجيديا الكلاسيكية فى فرنسا الا محاكاة للتراجيديا الاغريقية ؛ وقد الفت التراجيديا الروسية فى القرن الثامن عشر – وان كتبتها ايد غير ماهرة – على صورة التراجيديا الفرنسية ومثالها . لقـد كانت ثمة محاكاة فى كل مكان ، ولكن بين المحاكى وبين النموذج الذى يحاكيه كل تلك المسافة التى تفصل بين المجتمع الـــذى انجب **المحاكى** وبين المجتمع الذى عاش فيـــه **النموذج** . ولاحظ اننا **لا** نتكلم هنا عن درجة **الكمال** بل عما يشكل **روح** العمل الفنى موضع البحث . فهل يشبه آخيل راسين يونانيا لم يكد يخرج بعد من حالة البربرية ام مركيزا – talon rouge – من القرن السابـــع عشر ؟ وقد لوحظ ان شخصيات الانيادة هى شخصيات رومانية من عهد اغسطس . صحيـــح اننا لا نكاد نستطيـــع ان نصف شخصيات التراجيديات الروسية المزعومة من القرن الثامن عشر

---

* «Zur Kritik der politischen Oekonomie», S. 10, Anmerkung.
[«مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى» ، ص ١٠ ، ملحوظة .]

www.kassioun.org

بانها صورة من الروس فى ذلك الحين ، لكن تفاهتها ذاتها تكشف عن حالة المجتمـــع الروسى عندئذ . انهـــا توضح لنـــا **عدم نضوجه** .

واليكم مثلا آخر . لا شك ان لوك كان معلم الغالبية العظمى من الفلاسفة الفرنسييـــن فى القرن الثامن عشر (وقد سمـــاه هلفيسيوس اعظم ميتافيزيقى فى كل العصور وعند كل الشعوب) . بيد انه توجد بين لوك وبين تلامذته الفرنسيين بالتحديد تلـك المسافة التى تفصل بين المجتمـع الانجليزى فى عصر «glorious revolution» وبين المجتمع الفرنسى قبل بضعة عقود من «great rebellion» للشعب الفرنسى (٥٩) .

وخذوا مثلا ثالثا . ان «الاشتراكييـــن الحقيقيين» (٦٠) فى المانيا فى الاربعينات قد استوردوا افكارهم من فرنسا مباشرة . بيد اننا نستطيع ان نقول ان هذه الافكار قد ختمت على الحدود بطابع المجتمع الذى قدر لها ان تنتشر فيه .

وهكـــذا **فان تأثير ادب بلد ما على ادب بلد آخر يتناسب مباشرة مع تشابه العلاقات الاجتماعية فى هذين البلدين . فلا يوجد هذا التأثير على الاطلاق حين يصل هذا التشابه الى الصفر** . مثلا . ان الزنوج الافريقيين لم يتأثروا حتى اليوم ادنى تأثر بـالآداب الاوروبية . **ويكون هذا التأثير وحيد الجانب حين لا يستطيع شعب ما ، بسبب تخلفه ، ان يقدم شيئا ما للآخر لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون** . مثلا . لم يتأثر الادب الفرنسى فى القرن المنصرم على الاطلاق بالادب الروسى بينما اثر هـــو على الادب الروسى . واخيرا ، **يكون هذا التأثير متبادلا حين يكون فى وسع الشعبين المتبادلين ان يستعيرا من بعضهما البعض كنتيجة لتشابه الحياة الاجتماعية ، وبالتالى لتشابه التطور الحضـارى** . مثلا . تأثر الادب الفرنسى بالادب الانجليزى وهو يمارس تأثيره على هذا الاخير .

لقد كـــان الادب الفرنسى الكلاسيكى الكاذب يعجب جـــدا الاريستقراطية الانجليزية ذات يوم . لكن المحاكين الانجليز لم يستطيعوا ابدا ان يصلوا الى مستوى نماذجهم الفرنسية . وذلك لان كل جهود الاريستقراطية الانجليزية لم تكن تستطيع ان تنقل

www.kassioun.org

الى انجلترا! تلك العلاقات الاجتماعية التى ازدهر فيهـــا الادب الفرنسى الكلاسيكى الكاذب .

وكان الفلاسفة الفرنسيون معجبين اشد الاعجاب بفلسفـــة لوك . الا انهم قد تجاوزوا بعيدا معلمهم . ذلك لان الطبقة التى كانوا يمثلونها فى فرنسا كانت قد وصلت فى نضالها ضد النظام القديم الى ابعد مما وصلت اليه تلك الطبقة من المجتمع الانجليزى التى كانت تعبر عن مطامحها مؤلفات لوك الفلسفية .

وحين يكون لدينـــا نظام بأسره من المجتمعات التى تؤثر بقوة خارقة على بعضها البعض ، كما هو الحال فى اوروبا الحديثة على سبيل المثال ، فان **تطور الايديولوجيات** فى كل من هذه المجتمعات يتعقد بقدر ما يتعقد **تطوره الاقتصادى** بتأثير التبادل التجـارى المتواصل مع البلدان الاخرى .

وعندئذ امامنا ما يشبه ادبا واحدا مشتركا لدى كل البشرية المتمدينة . ولكن كما ينقسم الجنس الحيوانى الى انواع فان هذا الادب العالمى ينقسم الى آداب الشعوب المفردة .

(فكل اتجاه ادبى ، كل فكرة فلسفية ، تتخذ سماتها المميزة ، بل دلالة جديدة تماما فى بعض الاحيان ، فى كل بلد من البلدان المتمدينة المفردة) * .

حين زار هيوم فرنسا حياه «الفلاسفة» الفرنسيون كزميل لهم فى التفكير . لكن هذا الزميل الاكيد فى التفكير للفلاسفة الفرنسيين بدأ فى احدى المناسبات ، وهو فى وليمة مع هولباخ ، يتحدث عن «الدين الطبيعى» . قال : «اما بالنسبة للملحدين فاننى لا اسلم بوجودهم : فانا لم اقابل احدا منهم ابدا» . فرد عليه هـــولباخ مؤلف «نظام الطبيعة» قائلا : «انك لم تكن حسن الحظ حتى الآن ، اما اليوم فانك ترى هنا ، الى المائدة ، سبعة عشر ملحدا» . وكان لهيوم نفسه تأثير حاسم على كانط اذ ايقظه – كما اعترف هـــذا الاخير – من **سباته الدوجماطيقى** . الا ان فلسفـة كانط تختلف كثيرا عن فلسفة هيوم . وقد ادى نفس رصيد الافكار الى الحاد الماديين الفرنسيين العنيد ، والى لامبالاة هيوم الدينية ، والى دين

---

* [لا توجد هذه الجملة الا فى الطبعة الاولى .]

www.kassioun.org

كانط «العملى» . وكان السبب فى ذلك هو ان المسألة الدينية لم تكن تلعب فى انجلترا فى ذلك الحين نفس الدور الذى كانت تلعبه فى فرنسا ، ولم يكن دورها فى فرنسا كما هو فى المانيا . وقد نتج هذا الاختلاف فى دلالة المسألة الدينية عن ان ترابط القوى الاجتماعية فى كل من هذه البلدان كان يختلف عنه فى كل من البلدان الاخرى . فعناصر المجتمع المتشابهة فى **طبيعتها** وغير المتشابهة فى درجة. تطورها كانت تترابط بصورة مختلفة فى مختلف البلدان الاوروبية ، الامر الذى ادى الى ان كانت فى كل منها «**حالة اذهان واخلاق**» خاصة عبرت عن نفسها فى الادب والفلسفة والفن القومى ، الخ . . وكنتيجة لذلك كان يمكن لنفس المسألة ان تثير للغاية الفرنسيين وتبقى الانجليز باردين ، وكان يمكن ان يعامل المانى تقدمى حجة ما بالاحترام بينما ينظر اليها فرنسى تقدمى بحقد مرير . فالى اى شىء تدين الفلسفة الالمانية بانجازاتها الهائلة ؟ يجيب هيجل انها تدين بذلك للواقع الالمانى : ليس لدى الفرنسيين وقت للاشتغال بالفلسفة ، وتدفعهم الحياة الى المجال العملى (zum Praktischen) ، اما الواقع الالمانى فهو اكثر معقولية وفى وسع الالمان ان يكملوا النظرية فى هدوء (beim Theoretischen stehen bleiben) . وفى حقيقة الامر كانت هذه المعقولية التصورية للواقع الالمانى ترجع الى فقر الحياة الاجتماعية والسياسية الالمانية ، هذا الفقر الذى لم يترك للالمان المثقفين فى ذلك الحين خيارا الا العمل كموظفين لهذا «الواقع» غير الجذاب (ان يكيفوا انفسهم مع «العملى») او البحث عن العزاء فى **النظرية** ، وتركيز كل قوى عاطفتهم وكل طاقة فكرهم فى هذا المجال . ولكن لو ان بلدانا اكثر تقدما ، تلك البلدان المنغمسة فى «العملى» ، لم تدفع الى الامام بالفكر النظرى للالمان ، لو انها لم توقظهم من «سباتهم الدوجماطيقى» ، لما كان فى وسع هذه الخاصية السلبية – فقر الحياة الاجتماعية والسياسية – ان تولد هذه النتيجة الايجابية الهائلة كازدهار الفلسفة الالمانية الباهر .

يقول جوته على لسان مفيستوفيليس : «Vernunft wird

www.kassioun.org

Unsinn, Wohlthat — Plage» * . واذا ما طبق المرء هـذه العبارة على تاريخ الفلسفة الالمانية لجرؤ على ان يقول : لقد ولد اللغو عقلا ، ورب ضارة نافعة .

لكنى اعتقد انه يمكن ان ننهى هذا الجزء من عرضنا . فلنوجز ما قلناه فيه .

يوجد التفاعل فى الحياة الدولية ، كما يوجد فى الحياة الداخلية للشعوب ؛ وهو امر طبيعى تماما ولا شك فى حتميته ، الا انه **بذاته لا** يفسر شيئا . فلكى نفهم التفاعل يجب ان نستوضح صفات القوى المتفاعلة ، ولا تجد هذه الصفات تفسيرا نهائيا لها فى واقع التفاعل مهما كانت تتغير بفضله . وفى الحالة التى نحن بصددها تفسر خصائص القوى المتفاعلة وصفات الكائنات الاجتماعية التى تؤثر على بعضها البعض ، تفسر فى آخر المطاف بالسبب الذى نعرفه : **التركيب الاقتصادى لهذه الكائنات الذى يتحدد بحالة قواها المنتجة** .

ونأمل ان تكون الفلسفة التاريخية التى نعرضها قد اتخذت الآن شكلا اكثر تحديدا الى حد ما . لكنها لا تزال مجردة ، لا تزال بعيدة عن «الحياة الحية» . وعلينا ان نخطو خطوة اخرى نحو هذه الاخيرة .

تحدثنا فى البداية عن «المجتمع» ، ثم انتقلنا الى تفاعل المجتمعات . لكن المجتمعات ليست متجانسة فى تركيبها ؛ فنحن نعرف ان تحلل الشيوعية البدائية قد ادى الى اللامساواة والى نشأة الطبقات ذات المصالح المختلفة بل والمتعارضة تماما فى احوال كثيرة . ونحن نعرف ان الطبقات تخوض فيما بينها صراعا لا يكاد ينقطع ، خفيا حينا وصريحا حينا آخر ، مزمنا حينا وحادا حينا آخر . ويمارس هذا الصراع تأثيرا كبيرا جدا وشديد الاهمية على تطور الايديولوجيات . ونستطيع ان نقول دون مبالغة اننا لن نفهم شيئا عن هذا التطور **ما لم نضع فى اعتبارنا الصراع الطبقى** .

يسأل برونيتيير : «هل تريد ان تعرف – اذا جاز هذا

---

* [«لقد انقلبت الحكمة خبالا والخير شرا» .]

www.kassioun.org

التعبير – السبب الحقيقى لتراجيديا فولتير ؟ ابحث عنه اولا فى شخصية فولتير ، وبالاخص فى تلك الضرورة التى حتمت عليه ان يصنع شيئا مختلفـــا عما قد صنعه راسين وكينو ، وان يتبعهما فى نفس الوقت . اما الدراما الرومانسية – دراما هوجـو ودوماس – فانى اسمح لنفسى ان اقول ان تعريفها يستوعبه كلية تعريف دراما فولتير . فاذا لم ترد الرومانسية ان تصنع هـذا الامر او ذاك على المسرح فذلك لانها كانت تريد ان تصنع عكس الكلاسيكية . . . وفى الادب كما فى الفن يرجع اهم تأثير ، بعـد تأثير الفرد ، الى تأثير بعض المؤلفات على بعضها الآخر . فنحن نتطلع فى بعض الاحيان الى منافسة اسلافنا فى ميدانهم – وبهذه الطريقة تتثبت الاساليب المعروفة وتنشأ المدارس وتتشكـــل التقاليد . وفى احيان اخرى نحاول ان نصنع غير ما صنعوا ، – وعندئذ يدخل التطور فى تناقض مع التقليد ، وتظهر مـدارس جديدة ، وتتغير الاساليب» * .

ونحن ، اذ ننحى جانبا لفترة ما مسألة دور الفرد ، نلاحظ انه قد حان الوقت من زمان للتأمل فى «تأثير بعض المؤلفات على بعضها الآخر» . فالتطور فى كل الايديولوجيات بلا استثناء يحدث بالطريقة التى اشار اليها برونيتيير . فايديولوجيو عصر ما **اما** ان يتبعوا اسلافهم مطورين افكارهم **هم** ومطبقين اساليبهـم **هم** ولا يسمحون لانفسهم الا «بمنافستهم» ، **واما** ان يثوروا ضد الافكار والاساليب القديمة **ويدخلوا فى تناقض معها** . فالعصور **العضويـة المتناسقة** تحل محلها عصور **نقدية** ، اذا استخدمنا تعبير سان-سيمون . وهذه الاخيرة على الاخص جديرة بالدراسة .

خذوا اى مسألة ، مسألة النقود مثلا . كانت النقود لـدى التجاريين (٦١) هى الثروة par excellence * * : **فقد اضفوا على** النقود اهمية مبالغا فيها بل استثنائية تقريبا . اما اولئك الذين ثاروا ضد التجاريين بدخولهم «**فى تناقض**» معهم ، فانهـم لـم يصححوا هذه الاستثنائية فحسب ، بل وقعوا هم انفسهم – او

---

* L. c., p.p. 262—263. [المؤلف المذكور ص ٢٦٢–٢٦٣ .]

* * [فى الغالب]

www.kassioun.org

على الاقل اكثرهم غيرة – فى استثنائية اخرى هى بالتحديد الطرف الاقصى الآخر ، فقالوا ان النقود ليست سوى رموز ، ولا قيمة لها فى ذاتها على الاطلاق .وكان هذا مثلا هو رأى هيوم فى النقود . واذا كان فى الوسع تفسير نظرة التجاريين بعدم نضوج الانتاج السلعى والتداول فى ايامهم ، فانه يكون من الغريب ان نفسر نظرات خصومهم بمجرد ان الانتاج السلعى والتداول قد تطورا كثيرا جدا . ذلك ان هذا التطور اللاحق لم يحول النقود فى الواقع لحظة واحدة الى مجرد رموز محرومة من القيمة الداخلية . فمن اين جاءت استثنائية نظرة هيوم اذن ؟ ان اصلها هو الصراع ، هو «**التناقض**» مع التجاريين . لقد اراد ان «يصنع عكس» ما صنع التجاريون ، تماما كما «اراد» الرومانسيون «ان يصنعوا عكس» الكلاسيكيين . ومن هنا يستطيع المرء ان يقول – كما قال برونيتيير عن الدراما الرومانسية – ان نظرة هيوم الى النقود تتضمنها كلية نظرة التجاريين باعتبارها **نقيضها** .

واليكم مثلا آخر : ناضل فلاسفة القرن الثامن عشر بحدة وحسم ضد اى نوع من الغيبية ، بينما كان الطوبويون الفرنسيون مصطبغين بالشعور الدينى بدرجة او باخرى . فما الذى جلب هذه العودة الى الغيبية ؟ هل كانت لرجال مثل مؤلف «المسيحية الجديدة» (٦٢) «lumières» * اقل مما للانسيكلوبيديين (٦٣) ؟ كلا ، لم تكن lumières لديهم اقل ، وبشكل عام كانت افكارهم وثيقة الارتباط بافكار الانسيكلوبيديين ؛ لقد انحدروا منهم فى خط مباشر ، لكنهم دخلوا «فى تناقض» مع الانسيكلوبيديين فى بعض المسائل ، – اى فى الحقيقة فى مسألة تنظيم المجتمع – فظهر لديهم التطلع لان «يصنعوا عكس» الانسيكلوبيديين ؛ وكان موقفهم من الدين هو مجرد عكس الموقف الذى تبناه «الفلاسفة» ؛ فنظرتهم الى الدين قد تضمنتها نظرة هؤلاء الاخيرين .

وخذوا ، اخيرا ، تاريخ الفلسفة : انتصرت **المادية** فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ؛ وتحت رايتها سار القسم المتطرف من tiers état ** فى فرنسا . وفى انجلترا كانت

---

* [معارف]

** [الطبقة الثالثة .]

www.kassioun.org

المادية فى القرن السابع عشر هى هوى المدافعين عن النظـــام القديم ، الاريستقراطيين ، انصار الحكـــم المطلق . والسبب واضح هنا ايضا . فاولئك الذين كان الاريستقراطيون الانجليز فى فترة عودة الملكية (٦٤) «فى تناقض» معهم كانوا متهوسيـن دينيين الى اقصى حد ؛ وكيما «يصنع» **الرجعيون** «عكس» ما يفعلون كان عليهم ان يصلوا حتى الى **المادية** . اما فى فرنسا فى القـرن الثامن عشر فقد كانت الامور على العكس تماما ؛ كان المدافعون عن النظام **القديم** يقفون فى صف الدين ، وكان الثوريون المتطرفون هم الذين وصلوا الى **المادية** . وتـــاريخ الفكر الانسانـــى ملىء بامثلة كهذه وانها كلها تؤكد الشىء نفسه : **لكى نفهم «حالـــة الاذهان» فى كل عصر نقدى معين ، لكى نفسر لماذا كانت لهـذه التعاليم بالذات وليس لغيرها اليد العليا فى هذا العصر ، يجب ان نتعرف فى البدء «بحالة الاذهان» فى العصر الســـابق ؛ يجب ان نكتشف اى تعاليم واتجاهات كانت سائدة حينئذ** . ودون ذلك لن نستطيع ان ندرك حالة الاذهان للعصر الذى ندرسه مهما كنا نعرف اقتصاده جيدا .

ولكن حتى هذا يجب الا نفهمه بطريقة مجردة كما تعـــود «المثقفون» الروس ان يفهموا كل شىء . فايديولوجيو عصر ما لا يشنون ابدا ضد اسلافهم صراعا sur toute la ligne * فى كـل مسائل المعرفة الانسانية والعلاقات الاجتماعية . فقـــد كـان الطوبويون الفرنسيون فى القرن التاسع عشر يتفقون تماما مـــع الانسيكلوبيديين فى عديد من النظرات الانثروبولوجية ؛ وكـان اريستقراطيو انجلترا فى فتـــرة عودة الملكية على اتفاق مـــع البيوريتان – رغم حقدهم عليهم – فى عديد من المسائل مثل القانون المدنى ، الخ . . فارض السيكولوجية تنقسم الى مقاطعـــات ، والمقاطعات الى اقضية ، والاقضية الى نواح ومشاعيات ، وتمثل المشاعيات اتحادات للافراد (اى للمسائل المفردة) . وحين ينشأ «التناقض» ، حين يشتعل الصراع ، لا يشمل لهيبه ، كقاعدة ، الا مقاطعات مفردة – او حتى اقضية مفردة – اما المناطق المجـاورة

---

* [على طول الخط]

www.kassioun.org

فلا تعانى الا انعكاساته . واول ما يتعرض للهجـــوم هو تلك المقاطعة التى **كانت لها السيادة** فى العصر السابق . وبالتدريج فقط تبدأ «شرور الحرب» فى الانتشار الى اقرب جيران المقاطعة التى تعرضت للهجوم ، الى حلفائها الاكثر اخلاصا . ومن هنـــا فعلينا ان نضيف ان من الضرورى ، ونحن نكتشف طابع اى عصر نقدى معين ، الا نعـــرف فحسب السمات العامة لسيكولوجيـــة الفترة العضوية السابقة بل السمات الفردية لهذه السيكولوجية كذلك . فخلال فترة ما من التاريخ تكون السيادة للدين ، وتكون فى فترة اخرى للسياسة وهكذا دواليك . وينعكس هذا الظرف حتما على طابع العصور النقدية المقابلة لها ، وكل من هذه العصور اما ان يستمر ، وفقا للظروف ، فى الاعتراف الرسمى بالسيادة القديمة مدخلا على المفهومات السائدة مضمونا جديدا **مضادا** (مثل الثورة الانجليزية الاولى) ، واما ان ينبذه كلية وتنتقل السيادة الى مقاطعات اخرى للفكر (مثل ادب التنوير الفـــرنسى) . واذا تذكرنا ان ذلك النزاع حول سيادة المقاطعات السيكولوجية المفردة يمتد كذلك الى جيرانها ، ويمتد بالاضافة الى ذلك بدرجات مختلفة وفى اتجاهات مختلفة فى كل حالة مفردة ، فسندرك الى اى حد لا يجـــوز للمرء هنا – كما فى اى مكان – ان يقتصر على القضايـــا المجردة .

يرد خصومنا قائلين : «قد يكون كل ذلك صحيحا ، لكننا لا نرى علاقة الصراع الطبقى بهذا كله ، واننا نعتقد انكم اردتـــم ان تعالجوا المريض فاوديتم به الى الهلاك . فانتم انفسكم تعترفون الآن بان تحركات الفكر الانسانى تخضع لقوانين خاصة لا علاقة لها بقوانين الاقتصاديات او بتطور القوى المنتجة الذى تحدثتم عنه حتى مللنا الحديث» . – ونسرع فنجيب .

فى حدود معرفتنا ليس هناك مادى «اقتصادى» واحد قد انكر ابدا ان لتطور الفكر الانسانى ، او بتعبير ادق ، **لتوافق المفاهيم والافكار الانسانية قوانين خاصة** . فلم يطابق احدهم مثلا بين قوانين المنطق وبين قوانين تداول السلع . ومع ذلك لم يجـــد واحد من هذا النوع من الماديين ان من الممكن البحث فى قوانين التفكير عن السبب النهائى ، عن **المحرك الاساسى** لتطور الانسانية

www.kassioun.org

العقلي . وهذا بالتحديـــد ما يميز «الماديين الاقتصاديين» عن المثاليين ، وبشكل خاص عن الانتقائييـــن ، وانـــه **لتمييز في صالحهم** .

فحالما تزود المعدة بكمية معينة من الطعام فانها تبدأ عملها وفق القوانين العامة للهضم . ولكن هل يستطيع احد ان يجيب بمساعدة هذه القوانين عن الســـؤال لماذا يهبط الطعام الشهى المغذى معدتك يوميا بينما هو زائر نادر لمعدتى ؟ هل تفسر هذه القوانين لماذا يأكل البعض كثيرا بينما يتضـــور آخرون جوعا ؟ يبدو انه يجب البحث عن تفسير ذلك فى ميدان آخر ، فى فعل نوع آخر من القوانين . والامر كذلك بالنسبة لذهن الانسان . فحالما يوضع فى مركز معين ، حالما تزوده البيئة المحيطة بانطباعـــات معينة ، فانه ينسقها وفقا لقوانين عامة معينة (علما بان النتائج تتنوع هنا ايضا الى اقصى حد بتنوع الانطباعات) . لكن ما الذى يضعه فى هذا المركز ؟ ما الذى يحدد سيل وطابع الانطباعـــات الجديدة ؟ ذلك هو السؤال الذى لا يمكن الرد عليه باى قوانين للفكر .

وبعد . تصوروا ان كرة مرنة تسقط من فوق برج عال . ان حركتها تحدث وفقا **لقانون من قوانين الميكانيكا** بسيط ومعروف للجميع . لكن الكرة تصطدم بسطح مائل ، فتتغير حركتها وفقا **لقانون** آخر **من قوانين الميكانيكا** بسيط ومعروف للجميع ايضا . وكنتيجة لذلك يكون لدينا خط منكسر للحركة يمكن ويجب ان نقول انه يدين باصلـــه للفعل المشترك للقانونين المذكورين . لكن من اين جاء السطح المائل الذى اصطدمت به الكرة الساقطة ؟ لا يفسر القانون الاول ولا القانون الثانى ولا حتى فعلهما المشترك هذا الامر . والوضع كذلك بالضبط فى حالـــة الفكر الانسانى . فمن اين جاءت الظروف التى جعلت حركاته خاضعة للفعل المشترك لكذا وكذا من القوانين ؟ لا تفسر هذا الامر قوانين الفكر المفردة ولا فعلها المشترك .

يجب ان نبحث عن الظروف التى تحدد حركة الفكر حيث بحث عنها المنورون الفرنسيون . لكننا لم نعد اليوم نتوقف عند هذا «الحد» الذى لم يستطيعوا «عبوره» . فنحن لا نقول فحســـب ان

www.kassioun.org

الانسان بكل افكاره ومشاعره نتاج البيئة الاجتماعية ؛ اننا نحاول ان **نفهم اصل هذه البيئة** . ونحن نقول ان صفاتها تتحدد بكذا وكذا من الاسباب القائمة خارج الانسان والتى كانت غير مستقلة عن ارادته حتى الآن . وتولد التغيرات المتعددة **فى العلاقـــات المتبادلة الواقعية بين الناس** تغيرات فى «حالـــة الاذهان» ، **فى العلاقات المتبادلة بين الافكار والمشاعر والمعتقدات** . وتترابط الافكار والمشاعر والمعتقدات فيما بينها وفقا لقوانينها الخاصة . لكن الذى يحرك هذه القوانين هو الظروف الخارجية التى لا علاقة لها بهذه القوانين . فحيثما لا يرى برونيتيير سوى تأثير بعض المؤلفات الادبية على الاخرى ، نرى بالاضافة الى ذلك التأثيرات المتبادلة بين الفئات والشرائح والطبقات الاجتماعيـــة ، وهى تأثيرات تكمن فى مكان اعمق ؛ وحيثما يقول ببساطـــة : ظهر التناقض ، اراد الناس ان يصنعوا عكس ما كان يصنعه اسلافهم ، – نضيف نحن : والسبب فى انهم ارادوا ذلك هو ان تناقضا جديدا قد ظهر فى **علاقاتهم الواقعية** ، انه قد برزت شريحة او طبقـــة اجتماعية جديدة لم تعد تستطيع ان تعيش كما عاش الناس فى الايام الخالية .

وبينما لا يعرف برونيتيير الا ان الرومانسيين قد رغبوا فى مناقضة الكلاسيكيين يحاول براندس ان يفسر ميلهم الى «التناقض» بمركز الطبقة الاجتماعية التى انتموا اليها . تذكروا مثلا ما قاله عن سبب المزاج الرومانسى لدى الشبـــاب الفرنسى خلال عودة الملكية وفى عهد لويس فيليب .

وحين يقول ماركس : «**لكى تصبح طبقة ما هى الطبقة المحررة** *par excellence* **لا بد ان تكون طبقة اخرى بالعكس هى الطبقـــة القاهرة فى نظر الجميع**» (٦٥) – فانه يشير ايضـــا الى قانون خاص ، وهام جدا ، من قوانين تطور الفكر الاجتماعى . لكن هذا القانون يفعل ويمكنه ان يفعل فى المجتمعات المنقسمة الى طبقات ، ، وفى هذه المجتمعات وحدها ؛ انه لا يفعل ولا يمكنـــه ان يفعل فى المجتمعات البدائية ، حيث لا توجد الطبقات ولا الصراع فيما بينها.

فلنتأمل فعل هذا القانون . حين تكون طبقة معينة مستعبدة للجميع فى نظر باقى السكان ، فان الافكار السائدة فى صفوف

www.kassioun.org

هذه الطبقة تتمثل بالطبع امام السكان كافكار ليست جديرة الا بالمستعبدين . ويدخـــل الوعي الاجتماعى فى «تناقض» معهـــا ؛ وتجتذبه الافكار **المضادة** . لكنا قد قلنا من قبل ان الصراع من هذا النوع لا يدور ابدا على طول الخط : فيظل هناك عدد معين من الافكار التى يعترف بها كل من الثوريين والمدافعين عن النظام القديم . اما اقسى هجوم فانما يشن على تلك الافكار التى تعبر عن الجوانب الاكثر اضرارا فى النظام المحتضر فى وقت معين . فبالنسبة **لتلك** الجوانب يشعر الايديولوجيون الثوريون برغبة لا تكبت فى «**التناقض**» مع اسلافهم . لكنهم كثيـــرا ما يظلون غير مبالين بالنسبة للافكار الاخرى بالرغم من انها قد قامت على اســـاس العلاقات الاجتماعية القديمة ، بل يستمرون فى بعض الاحيان فى التعلق بها بحكم التقاليد . وهكذا بينما كان الماديون الفرنسيون يناضلون ضد الافكار الفلسفية والسياسية للنظام القديم (اى ضد الكهنة وملكية النبلاء) فانهم غالبا ما تركوا المأثورات **الادبية** القديمة على بكارتها . صحيح ان نظريات ديدرو الجمالية كانت هنا ايضا تعبيرا عن العلاقات الاجتماعية الجديدة . لكن الصراع كان ضعيفا جدا فى هذا المجال لان القوى الرئيسية قد تمركزت فى ميدان آخر * . ولم ترفع راية العصيان هنا الا فيما بعد ، بل رفعها اناس كان يجب بحكم تعاطفهم الحار مع النظام القديم الذى اطاحت به الثورة ان يتعاطفوا مع النظرات الادبية التى تشكلت فى العصر الذهبى لهذا النظام ؛ بل حتى هذا الشذوذ الظاهرى ذاته يمكن تفسيره بمبدأ «التناقض» . فمثلا كيف يمكن ان تتوقـــع تعاطف شاتوبريان مع النظرية الجمالية القديمة التى كان فولتير – فولتير البغيض الخبيث ! –احد ممثليها .

يقول هيجل – Der Widerspruch ist des Fortleitende * * . ويبدو ان تاريخ الايديولوجيات يوضـــح من جديـــد ان هذا «الميتافيزيقى» العجوز لم يكن مخطئا . وانه يؤكد كذلك ، على ما

---

* دار الصراع بين الافكار الادبية فى المانيا ، كما نعرف ، بطاقة اكبر ، لكن انتباه دعاة الجديد هنا لم يكن يشتته الصراع السياسى .

* * [التناقض يقود الى الامام]

www.kassioun.org

يبدو ، ان التغيرات الكمية تتحول الى تغيرات كيفية . لكنا نرجو القارئ الا تقلقه هذه الفكرة ، وان ينصت الينا حتى النهاية .

حتى الآن كنا نقول انه حالما تتحدد القوى المنتجة للمجتمع ، يتحدد كذلك تركيبه وبالتالى سيكولوجيته . وعلى هذا الاساس كان من الممكن ان ينسب الينا القول بان المرء يستطيع ان يستخلص من الحالة الاقتصادية لمجتمع ما نتيجة دقيقة عن تركيب افكار هذا المجتمع . لكن الامر ليس كذلك ، لان ايديولوجيات كل عصر معين ترتبط دائما ارتباطا وثيقا – سواء ايجابيا او سلبيا – بايديولوجيات العصر السابق عليه . ولا يمكن فهم «حالة الاذهان» فى كل عصر معين الا فى ارتباطها بحالة الاذهان فى العصر السابق . وبالطبع لن تجد اى طبقة نفسها اسيرة افكار تناقض مطامحها . فكل طبقة تكيف «مثلها العليا» بشكل رائع دائما – وان بغير وعى – مع احتياجاتها الاقتصادية . لكن هذا التكيف يمكن ان يحدث بطرق مختلفة ، اما لماذا تكيفت الطبقة على هذا النحو دون ذاك فلا يمكن تفسيره بتناول مكانة هذه الطبقة وهى بمعزل عن الطبقات الاخرى ، بل بكل السمات الخاصة للعلاقات بين هذه الطبقة وبين خصمها (او خصومها) . فبظهور الطبقات لا يصبح **التناقض** مبدأ **محركا** فحسب ، بل يصبح ايضا مبدأ **تشكيليا** * .

لكن ما هو اذن دور الفرد فى تاريخ الأيديولوجيات ؟ يضفى برونيتيير على الفرد اهمية ضخمة ، **مستقلة** عن البيئة . ويؤكد **جويو** ان العبقرى يبتكر على الدوام جديدا ** .

اما نحن فنقول ان العبقرى يسبق معاصريه فى مجال الافكار

---

* قد يسال المرء : اى علاقة بين الصراع الطبقى وبين تاريخ فن كفن المعمار مثلا ؟ انه يرتبط اوثق الارتباط بهذا الصراع . انظر كوروييه L'architecture gothique [فن المعمار القوطى] وخصوصا الجزء الرابع «L'architecture civile» [«فن المعمار المدنى» .]

** «Il introduit dans le monde des idées et des sentiments, des types nouveaux». («L'art au pouint de vue sociologique», Paris 1889, p.. 31.)
[«انه يدخل الى عالم الافكار والعواطف اطرزة جديدة» . («الفن من وجهة نظر علم الاجتماع» ، باريس ١٨٨٩ ، ص ٣١ .)]

www.kassioun.org

الاجتماعية بمعنى **انه يفهم قبلهم معنى العلاقات الاجتماعية الجديدة التى تظهر الى الوجود** . وبالتالى يستحيل فى هذه الحالـــة حتى الحديث عن استقلال العبقرى عن البيئة . وفى مجال العلوم الطبيعية يكتشف العبقرى قوانين لا يتوقف فعلها بالطبع على العلاقـــات الاجتماعية . لكن دور البيئة الاجتماعية فى تاريخ اى اكتشاف عظيم يظهر اولا فى تراكم ذلك الرصيد من المعارف الذى لا يستطيع اى عبقرى بمفرده ان يصنع شيئا بدونـــه ، ويظهر ثانيا فى تحويل انتباه العبقرى الى هذا الاتجاه او ذاك * . وفى مجال الفن يقدم العبقرى افضل تعبير عن الاتجاهات الجمالية السائدة فى مجتمـــع معين ، او لدى طبقة معينة من طبقات المجتمع ** . واخيرا ،

---

* بيد ان هذا التاثير ليس ذا طبيعة مزدوجة الا بمعنى شكلى . فلقد تراكم كل رصيد معين من المعارف لان الاحتياجات الاجتماعية اجبرت الناس على تجميعه ، وحولت انتباههم الى الاتجاه الملائم .

** كان مؤلف «العلاقات الجمالية بين الفن والواقع» (٦٦) يعرف الى اى حد تعتمد الاتجاهات والاحكام الجمالية لكل طبقة معينة على وضعها الاقتصادى . فقال :ـ الجمال هو الحياة . وشرح فكرتـــه باعتبارات كالتالية : «الحياة الطيبة ، «الحياة كما يجب ان تكون» لدى الناس العاديين هى ان ياكلوا ما يكفيهم ، ويسكنوا منزلا حسنا ، وينام وا نوما طيبا ؛ لكن مفهوم الفلاح عن الحياة فى نفس الوقت يتضمن دائما فكرة العمل : فمن المستحيل ان تعيش بلا عمل ، والحق ان الحياة تكـــون مملة بدونه . وكنتيجة لكفاية الحياة التى يصحبها عمل جاد لكنه غير مرهق سيكون الصبى الفلاح او الفتاة الفلاحة مشرق الطلعة مورد الوجنات ، وتلك اولى صفات الجمال وفقا لمفهومات الناس العاديين . فاذا كانت الفتاة الفلاحة تعمل كثيرا ولذا فانها متينة التكوين ، فستكون ممتلئة الجسد ـ وتلك ايضا صفة ضرورية لفاتنة القرية . فسكان الريف ينظرون الى فاتنة المجتمع «الاثيرية» باعتبارها «خالية من الجمال» تماما ، بل ويشمئزون منها ، لانهم قد تعودوا النظر الى «النحافة» كنتيجة للمرض او «لسوء الحال» . بيد ان العمل لا يسمح للمرء بالسمنة : ولذا فاذا كانت الفتاة الفلاحة سمينة فانهم ينظرون اليها كمريضة ، ويقولون انها «مترهلة» ، وينظر الناس الى البدانة كنقيصة ؛ ولا يمكن ان تكون لفاتنة القرية يدان وقدمان صغيرتان لانها تعمل كثيرا ـ ولذا لا تذكر فى اغانينا صفات الجمال هذه . وباختصار لن تجد فى اوصاف الجمال الانثوى فى الاغانى الشعبية صفة للجمال واحدة لا تعبر عن الصحة الجيدة وتوازن

www.kassioun.org

يظهر تاثير البيئة الاجتماعية فى كل هذه المجالات الثلاثة فى انها توفر بدرجات متفاوتة امكانية تطور القابليات العبقرية للافراد .

وبالطبع لن نستطيع ان نفسر كل **تفرد** العبقرى بتأثير البيئة فحسب ، غير ان هذا ليس له دلالة فى حد ذاته .

فعلم حركة القذائف يستطيع ان يفسر حركة قنبلة اطلقت من مدفع . انه يستطيع التنبؤ بحركتها ، لكنه لا يستطيع ان يخبرك بدقة عن عدد الشظايا التى ستنفجر من هذه القنبلـــة ، ولا عن اتجاه كل من هذه الشظايا . بيد ان هذا لا يقلل باى حال من صحة النتائج التى ينتهى اليها هذا العلم . ولسنا فى حاجة لان نتخذ وجهة نظر مثالية (او انتقائية) فى علم حركة القذائف : فتكفينـــا التفسيرات الميكانيكية تماما ، رغم ان احدا لا يستطيع ان ينكر

القوى فى الجسم ، وكلها دائما من نتاج حياة الكفاية والعمل الدائب ولكن غير المرهق . اما فاتنة المجتمع فانها مختلفة كلية : فقد عاش اسلافها عدة اجيال دون ان يؤدوا عملا بدنيا ؛ ومع حياة الكسل لا يتدفق الى الاطراف سوى قليل من الدم ؛ ومع تعاقب الاجيال تضعف عضلات الاذرع والاقدام وتصبح العظام اكثر نحافة ؛ والنتيجة الحتمية لهذا كله هى الايدى والاقدام الصغيرة – وهى دليل على الحياة التى وحدها تعتبر حياة خليقة بالطبقات العليا للمجتمع – حياة بدون عمل بدنى ؛ فلو كانت لسيدة المجتمع قدمان ويدان كبيرتان لاعتبر هذا نقيصة فى بنية جسدها او علامة على انها لم تنحدر من اسرة شريفة عريقة ... صحيح ان الصحة الجيدة لا يمكن ان تفقد قيمتها بالنسبة للانسان ، لان الحياة رديئة بدون صحة جيدة حتى فى حياة الرفاهية والرخاء – ومن هنا تظل الوجنات المتوردة واشراق الصحة الجيدة جذابة بالنسبة لرجالات المجتمع ايضا ؛ لكـــن الاعتلال والخور والرخاوة والدعة تمثل فضيلة الجمال لديهم ما دامت تبدو نتيجة لحياة الكسل والبذخ . وتعنى الوجنات الشاحبة والدعة والاعتلال معنى آخر لرجال المجتمع : فالفلاحون يريدون الراحة والهدوء ، اما اولئك الذين ينتمون الى المجتمع المثقف ، ممن لا يعانون الحاجة المادية والاجهاد البدنى ، بل كثيرا ما يعانون الملل الناشئ عن الكسل وغياب الاهتمامات المادية ، فانهم يبحثون عن «الاثارة والعواطف الحارة» التى تضفى على حياة مجتمعهم لونا وتنوعا وجاذبية تصبح بدونها جافة . لكن الاثارة والعواطف الحارة سرعان ما تنهك المرء : فكيف لا تسحر المرء دعـــة وشحوب الفاتنة حين تكون دعتها وشحوبها امارة على انها قد عاشت حياة لاهية ؟» (راجع مجموعة «علم الجمال والشعر» ، ص ٦–٨) .

www.kassioun.org

ان هذه التفسيرات تترك المصائر «الفردية» للشظايا وحجمهـــا وشكلها من غير ايضاح .

يا لسخرية القدر ! ان مبدأ التناقض ذاته ، ذلك المبدأ الذى يتألب عليه ذاتيونا بحمية باعتباره ابتكارا فارغا «للميتافيزيقى» هيجل ، يبدو وكأنه يقربنا avec nos chers amis les ennemis * . فاذا كان هيوم ينكر القيمة الداخليـــة للنقود بهدف التناقض مـــع التجاريين ؛ واذا كان الرومانسيون يخلقون الدراما لهدف واحد هو ان «يصنعوا عكس» ما صنع الكلاسيكيون ، فليس ثمة اذن حقيقة موضوعية ، ليس هناك سوى الحقيقـــة بالنسبـــة لى ، وبالنسبة للسيد ميخايلوفسكى ، وبالنسبة للامير ميشيرسكى ، الخ . . وهكذا فان الحقيقة ذاتية ، وكل ما يشبع حاجتنـــا الى المعرفة لا بد ان يكون حقيقيا .

كلا ، ليس الامر على هذا النحو ! فمبدأ التناقض لا يدمر الحقيقة الموضوعية ، بل يقودنا اليها . وبالطبع **ليس** الطريق الذى يجبر الانسانية على السير فيه **خطا مستقيما** على الاطلاق . لكننا نعرف فى الميكانيكا ايضا حالات نكسب فيها فى السرعة ما خسرناه فى المسافة : فالجسم الذى يتحرك على **خط دويرى** يصل فى بعض الاحيان من نقطة الى نقطة اخرى واقعة فى اسفل ، فى وقت اقل مما لو كان يسير فى خط **مستقيم** . «فالتناقض» لا يظهر الا حيث يكون الصراع ، حيث تكون الحركة ؛ وحيثما تكون الحركة يمضى الفكر **الى الامام** ولو بطرق ملتوية . ان التناقض مع التجاريين قد دفع هيوم الى فكرة خاطئة عن النقود . لكن حركة الحياة الاجتماعية ، وبالتالى حركة الفكر الانسانى ايضا ، لم تتوقف عند النقطة التى وصلت اليها فى ايام هيوم . انها وضعتنا فى حالة «تناقض» مـــع هيوم ، وانتج هذا التناقض فكرة صحيحـــة عن النقود . وهذه الفكرة الصحيحة ، هذه النتيجة لدراسة الواقع من كل الجوانب ، **هى حقيقة موضوعية** لا يمكن ان تزيلها تناقضـــات جديدة . لقد كان مؤلف «تعليقات على ميل» (٦٧) هو القائل بحماس :

---

* [من اصدقائنا الاعداء الاعزاء .]

www.kassioun.org

وهذا صحيح بلا شك فى حالة المعرفة فليس ثمـــة قدر يستطيع ان ينتزع منا اليوم اكتشافات كوبرنيكوس ، ولا اكتشاف تحول الطاقة ، ولا اكتشافات ماركس العبقرية .

تتغير العلاقات الاجتماعية ، ومعها تتغير النظريات العلمية . وكنتيجة لهذه التغيرات تظهر اخيرا دراســة الواقــع من كل الجوانب ، وبالتالى الحقيقـــة الموضوعيـــة . لقد كانت لدى اكسينوفون افكار اقتصادية تختلف عن افكار جان باتيست ساى . وافكار ساى لا بد وان تبدو هراء فى نظر اكسينوفون ؛ وقد اعلن ساى ان افكار اكسينوفون هراء . لكننا نعرف الآن من اين جاءت افكار اكسينوفون ، ومن اين جاءت افكار ساى ، ومن اين جاءت احادية الجانب لدى كل منهما . وهذه المعرفـــة اليوم حقيقـــة موضوعية ، ولن يستطيع اى «قدر» ان يبعدنا عن وجهة النظر الصحيحة التى اكتشفت فى النهاية .

– لكن الفكر الانسانى لن يتوقف بالتأكيد عند ما تسمونه اكتشاف او اكتشافات ماركس ؟ – كلا ، ايها السادة ! انـــه سيحقق اكتشافات جديدة تكمل وتؤكد نظرية ماركس هذه ، كما كانت الاكتشافات الجديدة فى علم الفلك تكمل وتؤكد اكتشـــاف كوبرنيكوس .

ان «المنهج الذاتى» فى علم الاجتماع سخافة كبرى . لكن لكل سخافة سببها الكافى ، ونحن ، الاتباع المتواضعين لرجل عظيم ، نستطيع ان نقول بفخر اننا نعرف السبب الكافى لهذه السخافة . وها هو .

لم يكتشف «المنهج الذاتى» للمـــرة الاولى لا السيـــد ميخايلوفسكى ولا «ملاك المدرســـة» ، اى مؤلف «الرسائـــل التاريخية» . لقد تمسك به برونو باور واتباعه – برونو باور الذى انجب مؤلف «الرسائل التاريخية» ، ذلك المؤلف «للرسائل التاريخية» (٦٩) الذى انجب السيد ميخايلوفسكى واخوته .

«موضوعية المؤرخ ، ككل موضوعية ، مجرد ثرثرة ليس الا .

www.kassioun.org

ولا يعنى هذا اطلاقا ان الموضوعية مثال اعلى لا يمكن الوصول اليه . فتجاه الموضوعية ، اى النظرة التى تميز الاغلبية ، اى نظرة الجمهور الى العالم لا يستطيع المؤرخ الا ان **يهبط بنفسه** . وحالما يفعل ذلك يكف عن ان يكون خالقا ، انه يعمل بالقطعة ، ويصبح اجير زمنه» * .

كتب هذه السطور شيليجا الذى كان تابعا متحمسا لبرونو باور والذى سخر منه ماركس وانجلس سخرية لاذعة فى كتابهما «Die Heilige Familie» * * . ضع تعبير «عالم الاجتماع» محل كلمة «المؤرخ» فى هذه السطور ، ومحل «الخلق الفنى» للتاريخ خلق «المثل العليا» الاجتماعية فانك تحصل على «المنهج الذاتى فى علم الاجتماع» .

تأمل فى سيكولوجية المثالى . «فآراء» الناس لديه هى السبب الاساسى ، النهائى للظواهر الاجتماعية . يبدو له انه كثيرا جدا ما تحققت فى العلاقات الاجتماعية اشد الآراء سخافة كما يشهد التاريخ على ذلك . وهو يقول لنفسه : «لماذا اذن لا يتحقق رأيى ايضا ما دام — والحمد لله — بعيدا عن ان يكون سخيفا . وحالما يوجد مثال اعلى توجد على اى حال امكانية التحولات الاجتماعية المرغوب فيها من وجهة نظر هذا المثال الاعلى . اما اختبار هذا المثال الاعلى بمقياس موضوعى معين فهو امر مستحيل ، اذ لا يوجد مثل هذا المقياس : فآراء الاغلبية لا تصلح لان تكون مقياسا للحقيقة» .

وهكذا ، فان ثمة امكانية لتحولات معينة لان مثلى العليا تتطلبها ، لاننى اعتبر هذه التحولات مفيدة . وانا اعتبرها مفيدة لانى اريد ان اعتبرها كذلك . فباستثناء المقياس الموضوعى ليس لدى مقياس آخر غير رغباتى الخاصة . لا تتدخل فى

---

* Die Organisation der Arbeit der Menschheit und die Kunst der Geschichtschreibung Schlosser's, Gervinus's, Dahlmann's und Bruno Bauer's, von Szeliga. Charlottenburg 1846, S. 6. [شيليجا ، تنظيم عمل البشرية وفن كتابة التاريخ لدى شلوسر وجيرفينوس ودالمان وبرونو باور ، شارلوتينبورغ ١٨٤٦ ، ص ٦ .]

** [«العائلة المقدسة» .]

www.kassioun.org

ارادتى ! – تلك هى الحجة الاخيرة للذاتية . والمنهج الذاتى هو reductio ad absurdum * للمثالية ، وللانتقائية ايضا بالتأكيد ، لان كل اخطاء «سادة» الفلسفة «المحترمين» تقع على رأس هذا الطفيلى الذى يعتاش منهم .

ويستحيل ، من وجهـــة نظر ماركس ، ان توضع آراء الفرد «**الذاتية**» فى مواجهة آراء «الجمهور» ، «**الاغلبيـــة**» ، الخ . كشىء **موضوعى** . فالجمهور يتشكل من الناس ، وآراء الناس دائمـــا «**ذاتية**» ، لان الآراء من اى نوع هى خاصية من خصائص **الذات** . والموضوعى ليس هـو آراء «الجمهور» ، بل هو تلك **العلاقات** فى الطبيعة او المجتمع **التى يعبر عنها فى هذه الآراء** . ومقياس الحقيقة ليس فىّ انا ، بل فى العلاقات القائمة خارجى . **وصحيحة** هى الآراء التى تمثل تلك العلاقات بشكل صحيح ، اما الآراء التى تشوهها **فهى خاطئة** . **وصحيحة** هى نظرية العلم الطبيعى التى تدرك بشكل صحيح العلاقات المتبادلـة بين ظواهـــر الطبيعة ؛ **وصحيح** ذلك الوصف التاريخى الذى يصور بشكل صحيح العلاقات الاجتماعية فى العصر الذى يصفه . وحيثما يتعين على المؤرخ وصف الصراع بين قوى اجتماعية متضادة فانه سيتعاطف حتما مع طرف او آخر ، ما لم يكن هو ذاته قد اصبح متحذلقا جافا . ومن هذه الوجهة سيكون **ذاتيا** سواء تعاطف مـــع **الاقلية** او مع **الاغلبية** . لكن مثل هذه الذاتية لن تمنعه من ان يكون مؤرخا موضوعيا **تماما** اذا لم يبدأ **فى تشويه تلك العلاقات الاقتصادية الواقعية التى نمت على اساسها القوى الاجتماعية المتصارعة** . اما تابع المنهج «الذاتى» فانه ينسى هذه **العلاقات الواقعية** ، ولذلك لا يستطيع ان يقدم شيئـا سوى تعاطفه الغالى او نفوره الرهيب ، ومن ثم فانه يحدث ضجة كبيرة ويلوم خصومه لاهانتهم للاخلاق فى كل مرة يخبرونه فيها ان ذلك لا يكفى . انه يشعر بعدم استطاعته النفاذ الى سر العلاقات الاجتماعية الواقعية ، ومن هنا يعتبر كل اشارة الى قوتها الموضوعية اهانة له وسخرية من عجزه هو . انه يسعى الى اغراق هذه العلاقات فى مياه سخطه الاخلاقى .

---

* [الايصال الى اللامعقول]

www.kassioun.org

ويتضح من وجهة نظر ماركس ان المثل العليا متعددة الانواع : دنيئة وسامية وصحيحة وخاطئة . **صحيح هو المثال الاعلى الذى يتجاوب مع الواقع الاقتصادى** . وعندئذ سيقول الذاتيون الذين يسمعون هذا الكلام اننى لو بدأت اكيف مثلى العليا مع الواقع فساصبح خادما ذليلا «للطروبين» . لكنهم لن يقولوا ذلك الا لانهم كميتافيزيقيين لا يدركون الطابع **التناقضى** المزدوج لكل واقع . **فجماعة «الطروبين» تستند الى واقع يموت بالفعل** ويولد تحته واقع **جديد** ، واقع المستقبل الذى تعنى خدمته المساعدة على انتصار «**قضية الحب العظيمة**» (٧٠) .

ويرى القارئ الآن ما اذا كان هذا المفهوم الذى يصور به الماركسيون على انهم **لا يعلقون اية اهمية على المثل العليا** يتطابق مع «**الواقع**» . فهذا المفهوم عنهم هو **نقيض مباشر** «**للواقع**» . ولو تحدث المرء من زاوية «المثل العليا» لكان عليه ان يقول ان نظرية ماركس هى **أكثر النظريات التى وجدت فى تاريخ الفكر الانسانى مثالية** . وهذا صحيح بنفس الدرجة بالنسبة لمهامها **العلمية** البحتة وبالنسبة لمهامها **العملية** .

«ماذا تريدنا ان نفعل اذا كان السيد ماركس لا يدرك دلالة الوعى بالذات وقوته ؟ ماذا تريدنا ان نفعل اذا كان يقلل الى الحد الادنى من قيمة حقيقة الوعى بالذات التى تم ادراكها ؟»

كتبت هذه الكلمات فى عام ١٨٤٧ ، وكتبها احد اتباع برونو باور * ، وبالرغم من انهم لا يتحدثون اليوم بلغة اربعينات القرن فان اولئك السادة الذين يأخذون على ماركس انه يتجاهل عنصر الفكر والشعور فى التاريخ لم يذهبوا حتى الآن ابعد مما ذهب اوبيتز . فكلهم ما زالوا مقتنعين بان ماركس يقلل الى الحد الادنى من قيمة قوة وعى الانسان بذاته ؛ وكلهم يرددون نفس الشىء

---

* «Die Helden der Masse. Charakteristiken». Herausgegeben von *Theodor Opitz*. Grünberg 1848, S. 6—7. [«ابطال الجمهور . الاوصاف» . اصدار **تيودور اوبيتز** . جرونبرج ١٨٤٨ ، ص ٦—٧ .] ونحن ننصح السيد ميخايلوفسكى بشدة بان يقرأ هذا المؤلف . انه سيجد فيه الكثير من افكاره **الاصيلة** .

www.kassioun.org

بطرق مختلفة* . والواقع ان ماركس قد اعتبر تفسير «**وعى**» الانسان «**بالذات**» من اهم مهام العلم الاجتماعى .

لقد قال : «ان النقيصة الرئيسية لكل مادية قامت حتى اليوم ، بما فى ذلك مادية فورباخ ، هى انها لم تتصور الواقع ، العالم الشيئى المدرك بالحواس الخارجية ، الا على شكل **موضوع** او على شكل **تامل** وليس على شكل **النشاط الانسانى الملوس** ، ليس على شكل **الممارسة** ، ليس **ذاتيا** . ومن هنا فان المثالية كانت ، خلافا للمادية ، تطور حتى الآن الجانب **النشط** ، لكنها كانت تطوره بشكل مجرد ، لان المثالية بالطبع لا تعترف بالنشاط الملموس من حيث هو» (٧١) . هل حاولتم ايها السادة ان تتأملوا فى كلمات ماركس هذه ؟ سنخبركم ما تعنيه .

بذل هولباخ وهلفيسيوس واتباعهما كل جهودهم لاثبات امكانية تفسير الطبيعة تفسيرا ماديا . وحتى انكار الافكار الفطرية لم يدفع هؤلاء الماديين الى ابعد من اعتبار الانسان بوصفه عضوا فى المملكة الحيوانية ، بوصفه matière sensible** . ولم يحاولوا ان يفسروا **تاريخ الانسان** من وجهة نظرهم ، واذا كانوا قد حاولوا (هلفيسيوس) فقد انتهت محاولاتهم بالفشل . لكن الانسان لا يصبح «**ذاتا**» **الا فى التاريخ** ، ففيه وحده يتطور **وعيه بذاته** . والاقتصار على اعتبار الانسان بوصفه عضوا فى المملكة الحيوانية يعنى الاقتصار على اعتباره بوصفه «**موضوعا**» ، يعنى تجاهل تطوره التاريخى و«ممارسته» الاجتماعية ، يعنى تجاهل النشاط الملموس للانسان . لكن تجاهل كل هذه الامور من شأنه ان يجعل المادية «**جافة ، قابضة ، حزينة**» (جوته) ، بل من شأنه – وقد اوضحنا ذلك من قبل – ان يجعل المادية **جبرية** ، ويحكم على

---

* ولكن كلا ، ليس الكل : فان احدا لم يتصور بعد انه يستطيع ان يهزم ماركس بان يشير الى ان «الانسان يتكون من روح وجسد» . ان السيد كاريف مزدوج الاصالة : ١ – فان احدا قبله لم يجادل ماركس بهذه الطريقة ، ٢ – وربما لا احد بعده سيجادله بها . ومن هذه الملحوظة سوف يرى السيد ف . ف . اننا ايضا نعرف كيف نقدم فروض الاحترام «لاستاذه» .

** [مادة حساسة]

www.kassioun.org

الانسان بالتبعية الكاملة للمادة العمياء . وقد لاحظ ماركس هذه النقيصة لدى المادية الفرنسيـــة ، بل مادية فورباخ ، فتوخى **تصحيحها** . وماديته «الاقتصاديـــة» هى الاجابة على السؤال كيف يتطور «**النشاط الملموس**» للانسانُ ، وكيف يتطور بفضله **وعيه بذاته** ، وكيف ينشأ **الجانب الذاتى للتاريخ** . وحين تجيب المادية على هذا السؤال – ولـو جزئيا – فستكف عن ان تكـون جافة ، قابضة ، حزينة ، وستكف عن ان تخلى للمثالية المكان الاول فى تفسير الجانب النشط للوجود الانسانى . وعندئذ ستتحرر من الجبرية التى تلازمها .

وذوو الحساسية ولكن ضعاف العقول يشمئزون من نظريـة ماركس لانهم يأخذون كلمتها **الاولى** على انها كلمتها **الاخيرة** . يقول ماركس : لننظر ، لدى تفسير **الذات** ، الى العلاقات المتبادلة التى يقيمها الناس فيما بينهم بتأثير الضرورة **الموضوعية** . وحالمـــا تكون هذه العلاقات معروفة يصبح من الممكن ان نستوضح كيف يتطور بتأثيرها وعى الانسان بذاته . وسيساعدنا **الواقع الموضوعى** فى ايضاح **الجانب الذاتى** للتاريخ . وعند هذه النقطة بالذات يقاطع ذوو الحساسية ولكن ضعاف العقول ماركس عادة . وهنا بالذات يتردد عادة شىء يشبه المحادثة بين تشاتسكى وفاموسوف شبها مذهلا . – «ان الناس يصطدمون ، اثنـاء عملية انتاج حياتهـــم الاجتماعية ، بعلاقات معينة ، محددة ، مستقلة عن ارادتهم ، هى علاقات انتاج» . . . – اوه ، يا الهى ، انه جبرى ! . . – وفوق الاساس الاقتصادى تقوم بناءات فوقية ايديولوجية . . . – مـاذا يقول ! وانه يقول كما يكتب ! انه لا يعترف على الاطلاق بدور الفرد فى التاريخ ! . . – لكن استمعوا ولو مرة واحدة ؛ فمما قيل آنفـا ينتج ان . . . – انا لا استمع ، ارسلوه الى المحاكمة ! ارسلوه الى المحاكمة الادبية بواسطة شخصيات تقدميـــة نشطة ، تحت المراقبة العلنية لعلم الاجتماع الذاتى ! !

وقد انقذ تشاتسكى ، كما هو معروف ، ظهور سكالوزوب . اما فى النقاش بين اتباع ماركس الروس وبين قضاتهم الذاتيين القساة فقد سارت الامـــور حتى الآن على نحو آخر . لقد كـــم سكالوزوب افواه اشباه تشاتسكى ، فاخرج اشباه فاموسوف (٧٢)

www.kassioun.org

من علماء الاجتماع الذاتى اصابعهم من آذانهم وقالوا بوعى كامل بتفوقهم : ها انتم ترون ، انهم لم يقولوا سوى كلمتين اثنتين ؛ ولا تزال آراؤهم غير موضحة تماما (٧٣) .

كان هيجل هو القائل انّ كل فلسفة يمكن الانتهاء بهـــا الى **شكلية فارغة** اذا ما اقتصرت على تكرار بسيط لمبادئها الاساسية . لكن ماركس لم يرتكب حتى هذه الخطيئة . فانه لم يكتف بتكرار الفكرة القائلة ان تطور القوى المنتجة هو اساس كل التقدم التاريخى للانسانية . وقد لا تعثر بسهولة على مفكـر آخر بذل من الجهد مثلما بذله ماركس فى تطوير قضاياه الاساسية .

وهنـــا يجأر السادة الذاتيون ويزعقـــون وينادون ويرعدون باصوات مختلفة : – لكن اين بالتحديد طور ماركس آراءه ؟ انظروا الى داروين : ان لديه **كتابا** ، اما ماركس فليس لديه حتى كتاب ، ولهذا فعلينا ان **نعيد بناء** ارائه .

ولا شك ان «اعادة البناء» امر غير مستطاب وغير سهل ، خاصة بالنسبة لمن ليست لديهـــم مواهب «ذاتية» لفهم افكار الآخرين فهما صحيحا ومن ثم «اعادة بنائها» . ولكن ليست ثمة حاجـة الى اعادة البناء ، والكتاب الذى يتفجع السادة الذاتيون على غيابـــه موجود منذ وقت طويل ، بل ثمة عدة كتب كل منها يفسر افضل من الآخر نظرية ماركس التاريخية .

الكتاب الاول هو تاريخ الفلسفة والعلم الاجتماعى منذ نهاية القرن الثامن عشر . طالعوا هذا الكتاب الشيق (ولا يكفى بالطبع ان تقرأوه فى كتاب «**لويس**») : انه سيريكم لماذا ظهرت نظريـة ماركس ، ولماذا **كان يجب ان تظهر** ، وما هى المسائل التى اجابت عليها من مسائل لم يتم حلها او لم يكن من الممكن حلها حتى ذلك الحين ، وبالتالى ما هى **الدلالة الحقيقية** لهذه النظرية .

والكتاب الثانى هو «**رأس المال**» ، نفس «**رأس المـال**» الذى «قرأتموه» جميعا ، والذى «تتفقون» معه جميعا ، ولكن ايا منكم ، ايها السادة الاعزاء ، لم يفهمه .

والكتاب الثالث هو تاريخ الاحداث الاوروبية منذ عام ١٨٤٨ ، اى منذ ظهور «البيان» المعروف . كلفوا انفسكم مؤونة النفاذ الى محتوى هذا الكتاب الضخم والمفيد وقولوا لنا بكل امانة – اذا كان

www.kassioun.org

هناك عدم تحيز فى امانتكم «الذاتية» – ألـم تخول نظرية ماركس له قدرة مذهلة لم تعرف من قبل على التنبؤ بالاحداث ؟ مـا هو مصير طوبويى الرجعية والركود او التقدم ممن عاصروه ؟ ما هو العجين الذى صنع من غبار تحولت اليه «**مثلهم العليـا**» عند اول اصطدام **بالواقع** ؟ لم يبق ثمة اثر حتى من الغبار ؛ اما ما قالـه ماركس فقد تحقق – فى خطوطـه العريضة بالطبـــع – كل يوم ، وسيتحقق على الدوام حتى تتجسد مثله العليا فى آخر المطاف .

ألا يبدو ان شواهد هذه الكتب الثلاثة كافية ؟ ألا يبدو انه لا يمكن انكار وجود اى منها ؟ ستقولون بالطبع اننا نقرأ فيها ما ليس فيها ؟ حسنا ، قولوا هذا وبرهنوا عليه ؛ ونحن على احر من الجمر لمعرفة براهينكم ، وحتى لا ترتبكـــوا فى هذه البراهين سنشرح لكم فى البداية معنى الكتاب الثانى .

تقولون : – انكم تعترفون بآراء ماركس **الاقتصادية** بينمـــا تنكرون نظريته التاريخيـــة . ينبغى الاقرار بان هذا القول يعنى الكثير جدا : **ان هذا القول يعنى انكم لم تفهموا نظريته التاريخية ولا آراءه الاقتصادية .**

عما يجرى الحديث فى المجلد الاول من «رأس المال» ؟ يجرى الحديث فيه مثلا عن القيمة . جـــاء فيه ان القيمة **علاقة انتـــاج اجتماعية** . فهل توافقون على ذلك ؟ اذا لم توافقوا فانكم بذلك انما تتخلون عن كلماتكـــم انتم بصدد اتفاقكـم مع نظرية ماركس الاقتصادية .واذا وافقتم فانكم تعترفون **بنظريته التاريخية** رغـم انه من الواضح انكم لا تفهمونها .

فما دمتم تعترفون بان علاقات الناس فى الانتاج ، تلك العلاقات التى توجد مستقلة عن ارادتهم وتعمل من خلف ظهورهم ، تنعكس فى اذهانهم فى شكل مختلف مقولات الاقتصاد السياسى : **فى شكل القيمة ، وفى شكل النقود ، وفى شكل رأس المال** وما الى ذلك ، فانكم بهذا تعترفون بانه لا بد ان تنشأ فوق الاساس الاقتصادى المعين بناءات فوقية ايديولوجية معينة تتفق مع طابعه . وفى هذه الحالة نكون قد قطعنا شوطا بعيدا فى هدايتكم الى الحقيقـة ، اذ سيكون كل ما عليكم ان تفعلوه هو ان تطبقوا رأيكم «انتم» ، اى ذلك الرأى الذى استعرتموه من ماركس ، على تحليـل المقولات

www.kassioun.org

الايديولوجية من النوع الارقى : الحق والعدالة والاخلاق والمساواة وما اليها .

او ربما لا تتفقون مع ماركس الا ابتداء من المجلد الثانى من مؤلفه «رأس المال» ؟ فثمة سادة لا «يعترفون بماركس» الا من حيث انه صاحب الرسالة المزعومة الى السيد ميخايلوفسكى (٧٤) .

انتم لا تعترفون بنظرية ماركس التاريخيـــة ؟ وبالتالى فهى مخطئة ، فى رأيكم ، وجهة النظر التى كان يقيم على اساسهـــا مثلا احداث التاريـــخ الفرنسى منذ عام ١٨٤٨ حتى عـــام ١٨٥١ فى جريدته (٧٥) «Neue Rheinische Zeitung» * وفى غيرهـــا من دوريات ذلك العهد ، وكذلك فى كتابه «Der achtzehnte Brumaire des Louis Bonapartes» ?** . ومن المؤسف انكم لم تكلفوا انفسكم مؤونة ايضاح مكمن خطأ وجهة النظر هذه ؛ ومن المؤسف ان آراءكم تظل **بلا تطور** وانه **يستحيل حتى «اعادة بنائها» بسبب عدم كفاية المعلومات** .

انتم لا تعترفون بنظرية ماركس التاريخيـــة ؟ وبالتالى فهى مخطئة ، فى رأيكم ، وجهة النظر التى كان يقيم على اساسها مثلا اهمية التعاليم الفلسفيـــة للماديين الفرنسيين من القرن الثامن عشر ؟ من المؤسف انكم لم تدحضوا ماركس فى هذه الحالة ايضا . ولربما انكم تجهلون اين ناقش هذا الموضوع ؟ ففى هذه الحالة لا نريد ان نمد اليكم يد العون فى ارتباككم هذا ، اذ عليكم على اى حال الالمام «بما كتب فى الموضوع» الذى اخذتم على عاتقكـــم مناقشته ؛ فكثيرون منكم يحملون – اذا استخدمنـــا تعبير السيد ميخايلوفسكى – لقب خدم العلم العاديين وغير العاديين ، وان يكن هذا اللقب لم يمنعكم من ان تشتغلوا انفسكـــم اساسا بعلوم «خصوصية» : علم الاجتماع الذاتى وفلسفة التاريـــخ الذاتية ، الخ . .

– ولكن لماذا لم يكتب ماركس كتابا يعرض ، من وجهـــة نظره ، تاريخ البشرية بأسره منذ العصور القديمة حتى يومنا هذا ،

---

* [«الجريدة الرينانية الجديدة»]

** [«الثامن عشر من برومير لويس بونابرت»]

www.kassioun.org

ويدرس كل مجـــالات التطور : الاقتصادى والحقـوقى والدينـى والفلسفى وما اليها ؟

ان الخاصيـــة الاولى لاى ذهن مثقف هى قدرته على صياغة الاسئلة ، ومعرفة اى الاجابات يمكن ان يطلب من العلم الحديث وايهـــا لا يمكن . ولكن يبدو ان هذه الخاصية غائبة عن خصوم ماركس رغم **كفاءاتهم غير العادية** بل **والعادية** فى بعض الاحيان ، او ربما بسبب هذه الكفاءات ذاتها . هل تظنون حقا انه يوجد فى الادب البيولوجى كتاب عرض بشكل كامل تاريخ المملكة الحيوانية والنباتية بأسره من وجهة نظر داروين ؟ تحدثوا فى هذا مع اى عالم نبات او حيوان ، وعندئذ سيعرفكم بعد ان يضحك على سذاجتكم الطفولية ، ان عرض كل التاريخ الطويل للانواع من وجهة نظر داروين هو **المثل الاعلى** للعلم الحديث وليس من المعروف متى يحققه ؛ اما الآن فقد تم اكتشاف **وجهة النظر** التى يمكن على اساسها وحدها فهم تاريخ الانواع * . والامر كذلك بالذات فى العلـــم التاريخى الحديث .

يسأل السيد ميخايلوفسكى : «ما هو عمل داروين كله ؟ بعض الافكار التعميمية التى ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا وتكلل كمية

«Alle diese verschiedenen Zweige der Entwickelungsgeschichte, *
die jetzt nocht teilweise weit auseinanderliegen und die von den verschiedensten empirischen Erkenntnissquellen ausgegangen sind, werden von jetzt an mit dem steigenden Bewusstsein ihres einheitlichen Zusammenhanges sich höher entwickeln. Auf den verschiedensten empirischen Wegen wandelnd und mit den mannigfaltigsten Methoden arbeitend werden sie doch alle auf ein und dasselbe Ziel hinstreben, auf das grosse Endziel einer universalen monistischen *Entwickelungsgeschichte*». (*E. Haeckel*, Ziele und Wege der heutigen Entwickelungsgeschichte. Jena 1875, S. 96.)

[«كل هذه الفروع المختلفة لتاريخ التطور التى لا تزال اليوم بعيدة عن بعضها البعض والتى تنطلق من اكثر المصادر التجريبية للمعرفة تنوعا ستتطور منذ الآن فصاعدا مع نمو ادراك الصلـــة التى توحدها . فرغم انها تسير فى طرق تجريبية مختلفة وتستعمل اكثـــر الاساليب تنوعا ، فانها ستسعى مع ذلك الى نفس الهدف ، الهدف النهائى العظيم لتاريخ كلى واحدي للتطور» . (**أ . هيكل** ، اهداف وطرق التاريخ الحديث للتطور ، يينا ١٨٧٥ ، ص ٩٦ .)]

www.kassioun.org

هائلة مثل جبل مون بلان بكامله من الوقائع . فاين هو عمل ماركس الذى يناظر هذا ؟ انه لا يوجد . . . ولا يوجد مثل هذا العمل فى مؤلفات ماركس بل ولا فى الادب الماركسى كله رغم اتساعه وسعة انتشاره ... ان اسس المادية الاقتصادية ذاتها التى نرددهـــا مرارا وتكرارا على انها بديهيات ، لا تزال غير مترابطة فيما بينها وغير مختبرة فى الواقع ، وهذا ما يستحق انتباها خاصا فى نظرية تعتمد مبدئيا على الوقائع المادية الملموسة وتنتحل لنفسها لقب «العلمية» بشكل خاص» * .

اما ان اسس نظرية المادية الاقتصادية ذاتها تظل غير مترابطة فيما بينها فذلك **كذب محض** . وما عليـــك الا ان تقرأ مقدمة «Zur Kritik der politischen Oekonomie» ** لكـــى تـــرى كيف تترابط فيما بينها ترابطا وثيقـــا ومتسقا . وليس صحيحا ايضا ان هذه القضايا غير مختبرة : فقد تم اختبارهـــا بتحليل الظواهر الاجتماعية فى كل من «الثامن عشر من برومير» و«رأس المال» ، وليس فى فصل التراكم البدائى «بشكل خاص» كمـــا يعتقد السيد ميخايلوفسكى ، وانما **فى كل الفصول بلا استثنـــاء من الاول حتى الاخير** . فاذا كانت هذه النظرية رغم هذا لم تعرض ولو مرة واحدة فى ارتباط «بجبل مون بلان بكامله» من الوقائع ، وهذا ، كمـــا يعتقد السيد ميخايلوفسكى ، يميزها بشكل ليس فى صالحها عن نظرية داروين ، فان ثمة سوء فهم ايضا . فبواسطة الوقائع التى يتضمنهـــا مثلا كتاب «The origin of species» *** تتم البرهنـــة اساسا على **قابلية التغير** لدى الانواع ؛ **امـــا تاريخ بعض الانواع المنفردة فلا يتناوله داروين الا بشكل عرضى وافتراضى** قائلا بانه كان يمكن لهذا التاريخ ان يسير على هذا النحو او على نحو آخر ، — ولكن هناك امر واحد مؤكد هو انه **كان هناك تاريخ وان الانواع قد تغيرت** . ونحن الآن نسأل السيد ميخايلوفسكى : هـــل كان

---

* «روسكويه بوجاتستفو» ، يناير ١٨٩٤ ، الجزء الثانـــى ، ص ١٠٥–١٠٦ .

** [«مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى»]

*** [«اصل الانواع»]

www.kassioun.org

ماركس فى حاجة لان يثبت ان البشرية لا تقف فى مكانهـــا ، وان الاشكال الاجتماعية تتغيـر ، وان آراء الناس يحل بعضهـا محل بعض ، – وباختصار هل كان ضروريا ان يثبت **قابلية** هذا النوع من الظواهر **للتغير** ؟ لم يكن ذلك ضروريا بالطبع ، رغم انه كان من السهل لاثباتـه ان تكوم عشرة جبال مثل «جبل مون بلان من الوقائع» . فماذا كان على ماركس ان يفعل ؟ لقد كدس التاريخ السابق للعلم الاجتماعى والفلسفة «جبل مون بلان بكامله» من **التناقضات** التى كانت تتطلب حلا لها بالحاح . **وقد حلها ماركس بمعونة نظريـــة تتالف ، كنظرية داروين ، من «بعض الافكـار التعميمية التى ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا»** . وحين ظهرت هذه الافكار اتضح ان من الممكن بمساعدتها حل كل التناقضات التى حيرت المفكرين السابقين . فلم يكن على ماركس ان يكوم جبالا من الوقائع التى جمعها اسلافه ، بل يباشر ، مع الاستفادة من هذه الوقائـع ايضا ، دراسة التاريخ الواقعى للبشرية من وجهة النظر الجديدة . وهذا ما فعله ماركس حين اتجه الى دراسة تاريخ العصر الراسمالى ، وكنتيجة لذلك ظهر «راس المال» (ناهيك عن ابحاث مثل «الثامن عشر من برومير») .

لكن السيد ميخايلوفسكى يلاحظ ان «راس المال» «لا يناقش الا فترة تاريخية واحدة ، وحتى داخل هذه الحدود فان البحث لم يستكمل الموضوع ولو بشكل تقريبى» . هذا صحيح . لكننا لنذكر السيد ميخايلوفسكى مرة اخرى بان الخاصية الاولى للذهن المثقف هى معرفة المطالب التى يمكن طلبها من رجال العلم . فما كان فى وسع ماركس فى بحثه ان يغطى كل الفترات التاريخية ، تماما كما لم يكن فى وسع داروين ان يكتب تاريـخ **كل** الانواع الحيوانيـة والنباتية .

حتى فيما يتعلق بفترة تاريخية واحدة فان البحث لم يستكمل الموضوع ولو بشكل تقريبى . – كلا ، ايها السيد ميخايلوفسكى ، انه لـــم يستكمل ولو بشكل تقريبى . ولكن اخبرنا ، اولا ، اى موضوع قد استكمل بحثـــه ، ولو «بشكل تقريبى» فى كتابـات داروين . وثانيا ، سنشرح لك الآن كيف ولماذا لم يستكمل البحث الموضوع فى «رأس المال» .

www.kassioun.org

يتحدد التقدم التاريخى للانسانية ، وفقا للنظرية الجديدة ، بتطور القوى المنتجة التى تؤدى الى تغيرات فى العلاقات الاقتصادية . ومن هنـــا يجب ان يبدأ اى بحث تاريخى بدراسة حالة القوى المنتجة والعلاقات الاقتصادية فى البلد المعين . لكنه لا يجب ان يقف البحث عند هذه النقطة : فعليه ان يوضح كيف يرتدى الهيكل الجاف للاقتصاد لحمـا حيـا من الاشكال الاجتماعية والسياسية ، ثم – وهذا هو اكثر جوانب المهمـة خطورة وجاذبية – من الافكار والمشاعر والمطامح والمثل العليا الانسانية . ونستطيع ان نقول ان فى يدى الباحث **مادة ميتة** (ويرى القارئ اننا قد بدأنا هنـــا نستخدم الى حد ما اسلوب السيد كارييف) ، ولكن يجب ان يخرج من بين يديه **كائن ممتلئ حياة** . وقد نجح ماركس فى ان يستكمل – وبالطبع بشكل تقريبى فحسب – بحث تلك المسائل التى تشير فى اساسها الى الظروف المادية للفترة التى اختارها . وماركس لم يعمر كثيرا ، وحتى لو ان الحياة قد امتدت به عشرين عاما اخرى ، فاغلب الظن انه كان سيواصل (فيما عدا بعض الابحاث المتفرقة) بحث مسائل **الظروف المادية لنفس الفترة** . وهذا بالضبط مـــا يغضب السيد ميخايلوفسكى . فهو يضع يده على خاصرته ويبدأ يوبخ المفكر الشهير : «كيف ذلك ايهـــا الاخ ؟.. فترة واحدة فحسب ... وليس بشكل كامل مع ذلك ... كلا ، انا لا استطيع ان اوافق على ذلك ، ببساطة لا استطيع ... حبذا لو اقتفيت اثر داروين !» . وامام كل هذه الموعظة الذاتية لا يجيب مؤلف «راس المال» المسكين الا بتنهدة عميقـة واعتراف حزين : Die Kunst ist lang und kurz ist unser Leben ! *

حينئذ يتحول السيد ميخايلوفسكى بسرعة وتوعد الى «جمهرة» اتباع ماركس قائلا : فى هذه الحالة ماذا فعلتم انتم ، لماذا لم تسندوا العجوز ، لماذا لم تستكملوا بحث كل الفترات ؟ – فيجيبه هؤلاء الاتباع ، وقد انحنوا انحناءة كاملة وقبعاتهم فى ايديهم : – لم يكن لدينا وقت ، ايها السيد البطل الذاتى ، فقد كانت لدينا امور اخرى نفكر فيها ، لقد كنا نحارب علاقات الانتاج التى تطبق كنير

---

* [الفن طويل وحياتنا قصيرة .]

www.kassioun.org

ساحق على عنق البشرية الحديثة . لا تكن قاسيا علينا ! ولكن ، للمناسبة ، لقد انجزنا شيئا على اى حال ، واذا تركت لنا الوقت فسننجز المزيد .

وعندئذ يهدأ السيد ميخايلوفسكى الى حد ما : ها انتم ترون بانفسكم انه لم يستكمل كلية ؟ – وكيف يمكن لنا الا نرى ذلك ! لكن الموضوع لم يستكمل كلية حتى لدى الداروينيين * ، بل حتى فى علم الاجتماع الذاتى – وتلك قصة اخرى .

ويثير ذكر الداروينيين نوبة اخرى من السخط لدى مؤلفنا . فهو يصيح : – لماذا تضايقوننى بداروين ! لقد ولع بداروين السادة الطيبون ، وحبذه اساتذة كثيرون ، لكن من هم اتباع ماركس ؟ عمال فحسب ، وخدم العلم العاديون ممن لم يحصلوا على دبلومات من احد .

ويأخذ التوبيخ طابعا شيقا بحيث نواصل اهتمامنا به اردنا او لم نرد .

«يقول انجلس فى كتابه «اصل العائلة ، الخ .» فيما يقول ان «رأس المال» لماركس قد «صمت» عنه الاقتصاديون المحترفون الالمان ، وهو يشير فى كتابه «لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية» الى ان منظرى المادية الاقتصادية «منذ البداية توجهوا بصورة رئيسية الى العمال ووجدوا هنا الاستجابة التى لم يتوقعوها من ممثلى العلم الرسمى»» (٧٦) . فما مدى صحة هذه الوقائع ، وما هى دلالتها ؟ فاولا ، ان «الصمت عن» شىء قيم مدة طويلة لا يكاد يكون ممكنا الآن حتى عندنا فى روسيا مع كل ضعف حياتنا العلمية والادبية وتفاهتها . وهو من باب اولى محال فى المانيا بجامعاتها العديدة وتعلم سكانها جميعا ، وجرائدها وصحفها التى

---

* من الامور الشيقة ان خصوم داروين قد زعموا طويلا ، بل لم يكفوا عن ان يزعموا حتى اليوم ، ان نظريته تفتقر بالتحديد الى «جبل مون بلان» من البراهين الواقعية . ومن المعروف ان فيرخوف قد تحدث بهذا المعنى امام مؤتمر علماء الطبيعة والاطباء الالمان فى ميونخ فى سبتمبر ١٨٧٧ . وقد لاحظ هيكل بحق وهو يجيبه انه اذا لم تكن الوقائع التى نعرفها الآن قد اثبتت نظرية داروين ، فليس ثمة وقائع جديدة يمكن ان تقول شيئا فى صفها

www.kassioun.org

لا تحصى من كل اتجاه ممكن ، ومع الاهمية التى تلعبها هناك لا الكلمة المطبوعة وحدها بل والكلمه المنطوقة . واذا كان قسم معين من كهنة العلم الرسميين فى المانيا قد قابل «رأس المال» فى البداية بالصمت فلا يمكن تفسير ذلك على الارجح بالرغبة فى «الصمت عن» مؤلف ماركس . فالاصح الافتراض ان الدافع للصمت كان هو الحيرة التى نمت الى جانبها بسرعة معارضة حارة واحترام كامل ، وكنتيجة لذلك سرعان مـا اخذ الجانب النظرى من «رأس المال» مكانا عاليا دون شك فى العلم المعترف به من طرف الجميع . لكن نصيب المادية الاقتصادية كنظرية تاريخية ، بما فى ذلك آفاق الاتجاه فى المستقبل التى يتضمنها «رأس المال» ، كان مختلفـا تماما . فلم تمارس المادية الاقتصادية حتى اليوم ، ورغم وجودها منذ نصف قرن ، تأثيرا ملحوظا بعض الشىء فى المجالات العلمية ، لكنها تنتشر بسرعة كبيرة حقا بين الطبقة العاملة» * .

وهكذا ، فبعد صمت قصير سرعان ما نمت المعارضة . وهذا حق . وبلغ من حرارة هذه المعارضة ان اى استاذ مساعد ما كان ليتلقى لقب الاستاذيـة اذا اعلن ان نظريـــة ماركس ، وحتى «الاقتصادية» ، صحيحة ؛ وبلغ من حرارة هذه المعارضة ان اى استاذ مساعد عادى ، مهما كانت ضحالة مواهبه ، يمكن ان يتلقى الترقية السريعة لو انه نجح فحسب فى ابتكار اعتراضين عـــلى «رأس المال» ينساهما الجميع فى اليوم التالى . نعم يجب ان نقر بانها معارضة حارة جدا . . .

واحترام كامـــل . . . وهذا صحيح ايضا ، ايهـــا السيـــد ميخايلوفسكى ، انه احترام حقا . وهو نفس النوع من الاحترام الذى يجب ان ينظر به الصينيون اليوم الى الجيش اليابانى : فهو يحارب جيدا ومن المؤلم للغاية ان تقع تحت ضرباته . بمثل هذا الاحترام كان الاساتذة الالمـــان ولا يزالون ينظرون الى مؤلف «رأس المال» حتى اليوم . وكلما زادت مهارة ومعرفة الواحد منهم زاد احترامه هذا وادرك بوضوح اكبر انـــه لا يقدر على دحض

---

* «روسكويه بوجاتستفو» ، يناير ، ١٨٩٤ ، الجزء الثانى ، ص ١١٥-١١٦ .

www.kassioun.org

«رأس المال» . وهذا هو السبب فى ان واحدا من نجوم العلـــم الرسمى لا يجسر على مهاجمة «رأس المال» . فالنجوم يفضلون ان يرسلوا الى المعركة «خدمـــة خصوصيين» من الشبان غير ذوى الخبرة الذين يحتاجون الى الترقية .

لا جدوى من ذكى هناك ،
يكفى ان ترسلوا رياد ،
وسانتظر وارى . . . (٧٧)

انها لحقيقة لا يمكن ان تنكر : عظيـــم هو الاحترام من هذا النوع . لكننا لم نسمع عن احترام من نـوع آخر ، ولا يمكن ان يوجد مثله لدى اى استاذ ، لانهم لا يسمحون لاحد بان يصل الى درجة الاستاذية فى المانيا اذا خامره مثل هذه الاحترام .

ولكن علام يدل هذا الاحترام ؟ انه يدل على ما يلى . ان حقل البحث الذى يغطيه «رأس المال» هو بالتحديد ذلك الحقل الذى **قد تمت زراعته** من وجهة النظر الجديدة ، من وجهـة نظر **نظرية ماركس التاريخية** . وهذا الحقل لا يجرأ الخصوم على مهاجمته ؛ انهم «يحترمونه» . وهذا بالطبع شىء حكيم من الخصوم . لكن المرء فى حاجة الى كل سذاجة عالم الاجتماع «الذاتى» كى يسأل باستغراب لماذا لم يبدأ هؤلاء الخصوم حتى الآن يزرعون بقواهـــم الذاتية الحقول المجاورة بـروح ماركس . «ذلك طلب شاق ، يـــا بطلى العزيز ! فالحقل الوحيد الذى زرع بهذه الروح يقلقنا ! اننـــا لا نعرف اين نبحث عن مخرج ، فكيف تريدنا ان نزرع الحقول المجاورة ايضا بنفس النظام !» والسيد ميخايلوفسكى حكم سيئ على الجوهر الداخلى للاشياء ، ومن ثم لا يدرك «نصيب المادية الاقتصاديـــة كنظرية تاريخية» ؛ كما لا يدرك موقف الاساتذة الالمان من «آفاق المستقبل» . انهم فى شاغل عن **المستقبل** ، يا سيدى ، **فالحاضر** ينزلق من تحت اقدامهم .

بيد انه من المؤكد ان اساتذة المانيا ليسوا جميعا متشبعين الى هذا الحد بروح الصراع الطبقى والانضباط «العلمـــى» . من المؤكد ان هناك بعض الاخصائيين الذين لا يفكرون الا فى العلم وحده . وكيف لا ، فهناك امثال هؤلاء ، وهم موجودون بالطبع ،

www.kassioun.org

وليس فى المانيا وحدها . لكن هؤلاء الاخصائيين – وبالتحديد لانهم اخصائيون – **مستغرقون كلية فى ابحاثهم العلمية** ؛ انهم يزرعون قطعتهم الصغيرة من الحقل العلمى ، ولا يهتمون بالنظريات الفلسفية التاريخية العامة ايا كانت . ونادرا ما تكون لدى امثال هؤلاء فكرة عن ماركس ، فاذا كانت لديهم فهى عادة فكرة عن شخص سيئ ضايق بعض الناس فى مكان ما . فكيف تريد منهم ان يكتبوا بروح ماركس ؟ ان ابحاثهم لا تنطوى عادة على **اى روح فلسفية** . لكن ثمة حالات اشبه بتلك الحالات التى تصيح فيها الاحجار حين يصمت الناس . فالبحاثة المتخصصون انفسهم لا يعرفون شيئا عن نظرية ماركس ، لكن النتائج التى يصلون اليها تهتف بصوت عال تأييدا لها . وليس هناك بحث متخصص جدى فى تاريخ العلاقات السياسية او تاريخ الحضارة لا يؤكد هذه النظرية بطريقة او باخرى . وثمة العديد من الامثلة المذهلة التى توضح الى اى حد تجبر كل روح العلم الاجتماعى الحديث الاخصائيين على ان يتبنوا بغير قصد وجهة نظر نظرية ماركس التاريخية (النظرية **التاريخية** بالتحديد ، ايها السيد ميخايلوفسكى) . وقد رأى القارئ من قبل مثلين من هذا النوع : اوسكار بيشل وجيرو-طولون . فلنقدم الآن مثلا ثالثا . افصح فوستيل دى كولانج الشهير فى مؤلفه «La cité antique» * عن الفكرة القائلة بان الآراء الدينية كانت فى اساس كل المؤسسات الاجتماعية للعصر القديم . يبدو انه كان عليه ان يتمسك بهذه الفكرة فى دراسته لبعض مسائل تاريخ اليونان وروما . ولكن حدث ان تعرض فوستيل دى كولانج لمسالة **سقوط اسبرطة** . فاتضح ان سبب هذا السقوط لديه اقتصادى محض ** . وحدث ان تعرض لمسالة سقوط جمهورية روما – ومرة اخرى تحول الى الاقتصاديات *** . فما هى النتيجة اذن ؟

---

* [«المشاعية المدنية القديمة»]

** انظر كتابه «Du droit de propriété à Sparte» [«حول حق الملكية فى اسبرطة» .] ولا تعنينا هنا على الاطلاق نظرته الى تاريخ الملكية البدائية التى يحويها هذا الكتاب .

*** «Il est assez visible pour quiconque a observé *le détail* (le détail بالتحديد ، ايها السيد ميخايلوفسكى) et les textes, que ce sont les

www.kassioun.org

لقد اكد الرجل فى بعض الحالات نظريـة ماركس ، غير انك لـو سميته ماركسيا للوح بيديه محتجا ، الامـــر الذى كان سيحقق للسيد كاريف سرورا لا يوصف . ولكن ماذا تريد اذا لم يكن كل الناس متسقين حتى النهاية ؟

وهنا يقاطعنا السيد ميخايلوفسكى قائلا : ولكن اسمحوا لى ايضا ان اورد بعض الامثلة . «اذا اخذنا . . . مثلا كتاب بلوس (٧٨) وجدنا انه كتاب يستحق التقدير الرفيع ، الا انه لا يحمل امارات خاصة لانقلاب جذرى فى علم التاريخ . ولا يترتب على ما يقوله بلوس عن الصراع الطبقى والظروف الاقتصادية (وهو قليل جدا نسبيا) انه يبنى التاريـخ على اساس التطور الذاتى لاشكال الانتـــاج والتبادل ، بل كان من الصعب تجنب ذكـر الظروف الاقتصاديـة فى قصة احداث عام ١٨٤٨ . انزع من كتاب بلوس مدائحه لماركس كصانع لانقلاب فى علم التاريخ ، وبضع عبارات شرطية مع الاصطلاحات الماركسية ، ولن يخطر ببالك ان امامك واحدا من اتباع المادية الاقتصادية . كما يمكن لبعض الصفحات الجيدة ذات المضمون التاريخى فى مؤلفـــات انجلس وكاوتسكى وغيرهما ان تستغنى عن نعتها بالمادية الاقتصادية ، لانها من حيث جوهر الامر تضع فى الاعتبار المجموع الكلى للحياة الاجتماعية حتى ولو كان الوتر الاقتصادى هو الوتر السائد فى هذا اللحن» * .

واضح ان السيد ميخايلوفسكى يتمسك بثبات بالمثل القائل : «اذا سميت نفسك فطرة فمكانك فى سلة الفطر» . فهو يحاكـــم بالطريقة التالية : اذا كنت ماديا اقتصاديا فذلك يعنى انه يجب

---

intérêts matériels du plus grand nombre qui en ont été le vrai mobile» etc. («Histoire des institutions politiques de l'ancienne France. Les origines du système féodal», Paris 1890, p. 94.) [«وانه لمن الواضح بدرجة كافية لكل امرئ قد درس الوقائع فى تفصيلها الملموس (فى التفصيل الملموس بالتحديد ، ايها السيد ميخايلوفسكى) والنصوص ، ان المصالح المادية لاكثريـــة الناس هى التى كانت السبب المحرك حقا» الخ . . («تاريخ المؤسسات السياسية فى فرنسا القديمة . نشوء النظام الاقطاعى» ، باريس ١٨٩٠ ، ص ٩٤ .)]

* «روسكويه بوجاتستفـــو» ، يناير ١٨٩٤ ، الجزء الثانى ، ص ١١٧ .

www.kassioun.org

ان تضع عينيك على **الاقتصاديات** فقط ، والا تتعرض «للمجموع الكلى للحياة الاجتماعية حتى ولو كان الوتر الاقتصادى هو الوتر السائد» . لكننا قلنا للسيد ميخايلوفسكى من قبل ان المهمة العلمية للماركسيين تكمن بالتحديد فيما يلى : بعد ان يبدأوا «بالوتر» يجب ان يفسروا المجموع الكلى للحياة الاجتماعية . فكيف يتوقع منهم فى هذه الحالة ان يتخلوا عن هذه المهمة وان يظلوا ماركسيين فى نفس الوقت ؟ صحيح ان السيد ميخايلوفسكى لم يشأ ابدا ان يفكر جادا فى معنى هذه المهمة ، لكن هذا بالطبع ليس ذنب نظرية ماركس التاريخية .

ونحن ندرك انه طالما لم نتخل عن هذه المهمة فان السيد ميخايلوفسكى كثيرا ما سيقع فى وضع معقد جدا . وكثيرا ما يكون ، حين يقرأ «صفحة جيدة ذات مضمون تاريخى» ، ابعد من ان يفكر («لن يخطر بباله») فى ان كاتبها مادى «اقتصادى» . وهذا هو بالضبط ذلك الوضع الذى ينعت بانه سيئ ولا اسوأ ! ولكن هل يقع على ماركس اللوم اذا وجد السيد ميخايلوفسكى نفسه فى مثل هذا الوضع ؟

يتخيل بطل المدرسة الذاتية ان الماديين «الاقتصاديين» يجب الا يتكلموا الا عن «التطور الذاتى لاشكال الانتاج والتبادل» . ما هو هذا «التطور الذاتى» ايها السيد ميخايلوفسكى ، ايها المفكر العميق ؟ اذا كنت تتخيل ان اشكال الانتاج تستطيع من وجهة نظر ماركس ان تتطور «من ذاتها» فانت تخطئ خطأ جسيما . وما هى **علاقات الانتاج الاجتماعية** ؟ انها علاقات بين الناس . كيف اذن تستطيع ان تتطور بدون الناس ؟ لو لم يكن ثمة اناس لما كانت هناك بالتاكيد علاقات انتاج ! يقول الكيميائى : تتألف المادة من ذرات تتجمع فى جزيئآت ، وتتجمع الجزيئآت فى تركيبات اكثر تعقيدا ، وتحدث كل العمليات الكيميائية وفقا لقوانين محددة . وانت دونما توقع تستنتج من ذلك ان المسألة كلها ، فى رأى الكيميائى ، هى مسألة قوانين ، وان المادة – الذرات والجزيئآت – كان يمكنها الا تتحرك على الاطلاق دون ان تمنع بذلك باى حال «التطور الذاتى» للتركيبات الكيميائية . ان الجميع يرون سخافة هذا الاستنتاج . ولكن من دواعى الاسف انه لا يرى الجميع بعد سخافة

www.kassioun.org

مقابلة ، مماثلة تماما من حيث قيمتها الداخلية ، بين **الافراد** وبين **قوانين الحياة الاجتماعية** ، وبين نشاط الناس وبين المنطق الداخلى للاشكال التى يعيشون فيها .

ونكرر قولنا ، ايهـا السيد ميخايلوفسكى ، ان مهمة النظرية التاريخية الجديدة هى تفسيـــر «**المجموع الكلى للحياة الاجتماعية**» بالاستناد الى ما تسميه الوتر الاقتصادى ، اى فى الواقـــع **تطور القوى المنتجة** . و«الوتر» هو الاساس بمعنى معين (وقد شرحنا باى معنى) ، لكن عبثا يعتقد السيد ميخايلوفسكى ان الماركسى «**لا يتنفس الا بالوتر**» كاحدى شخصيات رواية «بودكا» بقلـــم ج . اوسبينسكى (٧٩) .

وانه لعمل شاق ان تفسر العملية التاريخية بأسرهـا متمسكا على الدوام بمبدأ واحد . ولكن ما الحيلة ؟ ليس العلم عمومـــا عملا سهلا ما لم يكن علمـــا «ذاتيا» : ففى هذا العلـــم تفسر كل المسائل بسهولة مذهلة . واذا بدأنا الحديث عن ذلك فنقول للسيد ميخايلوفسكى انـــه حتى اولئك الذين يعرفون «الوتر» احسن من غيرهم قد يظللون عاجزين فى المسائل المتعلقة بتطور الايديولوجيات اذا لم تكن لديهـم موهبة خاصة معينـــة الا وهى **الشعور الفنى** . السيكولوجية تتكيف مع الاقتصاد . لكن هذا التكيف عملية معقدة ، وسنحتاج اكثر من مـــرة الى موهبة الفنان حتى نستطيع ان نفهـــم مسارها كله ، وان نصور لانفسنا وللاخرين بجلاء كيف تحدث فى الواقع . فبلزاك مثلا قد بذل جهدا كبيرا ليشرح سيكولوجية مختلف الطبقات فى المجتمع الذى عاش فيه . ونستطيع ان نتعلم الكثير من ابسن ايضا ومن كثيرين غيره . ولنأمل ان يظهر مع الوقت كثير من الفنانين الذين يدركون من ناحية «القوانين الحديدية» لحركـــة «الوتر» ، ويكونون من الناحيـــة الاخرى قادرين على ان يفهمـوا ويوضحوا كيف ينشأ فوق «الوتر» وبفضل حركته بالتحديد «**الرداء الحى**» **للايديولوجيا** . ستقول انه اينما يوجد الخيال الشعرى فلا بد ان توجد نزوة الفنان وخيالية الفرضيات . وهذا صحيح بالطبع ! سيحدث هذا ايضا . وقـــد عرف ماركس ذلك جيدا ؛ وهذا هو السبب فى قوله انه يجب التمييز بدقة بين **الحالة الاقتصادية** لعصر معين ، **تلك الحالة التى يمكن تحديدها بدقة العلم الطبيعى** ، وبين

www.kassioun.org

ضآلة افكاره . ولا زال الكثير ، والكثير جدا ، غامضا علينا فى هذا المجال . ولكن لا يزال اكثر منه غامضا امام المثاليين ، واكثر من ذلك ايضا امام الانتقائيين الذين لا يدركون ابدا مغزى الصعوبات التى يواجهونها ، ويتخيلون انهم قادرون دائما على معالجة اى مسألة عن طريق «**التفاعل**» سيىء السمعة . والواقع انهم لا يقدرون ابدا على معالجة اى شىء ، وانما يختفون وراء الصعوبات التى يواجهونها . فحتى الآن – وبتعبير ماركس – فسروا النشاط الانسانى المحدد من وجهة النظر المثالية وحدها . فماذا حدث اذن ؟ هل استطاعوا ان يجدوا كثيرا من التفسيرات المرضية ؟ ان احكامنا عن نشاط «الروح» الانسانية تذكرنا بسبب ضآلة وجاهتها باحكام الفلاسفة اليونانيين القدماء عن الطبيعة : فافضل مـــا وصلوا اليه فروض عبقرية ، بل مجرد افتراضات ذكية ، من المستحيل تأكيدهـا او اثباتها لعدم وجود اى ركيزة للبرهان العلمى . ولم يتحقق شىء الا حيث اجبروا على ربط السيكولوجية الاجتماعية «بالوتـــر» . فعندمـــا لاحظ ماركس ذلك واوصى بعدم التخلى عن المحاولات السابقة ، عندما قال انه يجب دائما الاسترشاد «بالوتر» ، فقد اتهم باحادية الجانب وبضيق المفاهيم ! فاذا كانت ثمة عدالة فان علماء الاجتماع الذاتيين وحدهم هم الذين يعرفون اين هى ..

ويواصل السيد ميخايلوفسكى حديثه بسخرية : ماذا تقولون ! كلمتكم الجديدة هذه «قيلت منذ خمسين عاما» . نعم ، ايها السيد ميخايلوفسكى ، لقد قيلت منذ هذا الوقت تقريبا . ويزيدنا هذا اسفا على انك لم تفهمها حتى الآن . وهـل هى قليلة فى العلـــم «كلمات» قيلت منذ عشرات ومئات السنين ، ورغم هذا لا زالت غير معروفة لدى ملايين وملايين «**الشخصيات**» التى لا تهتم بالعلم؟ تصور انك قابلت واحدا من الهوتنتوت وانك تحاول اقناعه بان الارض تدور حول الشمس . ان لديه نظريته «الاصيلة» سواء عن الشمس او عن الارض . ومن الصعب عليه ان يتخلى عن نظريته . ومن هنا يبدأ فى السخرية : انت تعرض علىّ كلمة جديدة ، ومع ذلك تقول لى بنفسك انها قد قيلت منذ بضع مئات من السنين ! – فماذا تثبت سخرية الهوتنتوتى هذه ؟ انها لا تثبت الا انه لا يزال من الهوتنتوت ، ولكن هذا ليس فى حاجة الى اثبات .

www.kassioun.org

بيد ان سخرية السيد ميخايلوفسكى تدلل على اكثر بكثير مما كان يمكن ان تدلل عليه سخرية الهوتنتوتى . انها تدلل على ان صاحبنا «عالم الاجتماع» ينتمى الى تلك الفئـــة من الناس الذين ينسون **قرابتهم** . ان وجهة نظره موروثة عن برونو باور وشيليجا وغيرهما من **اسلاف** ماركس **بمعنى الترتيب الزمنى** . وبالتالى فان «الكلمة الجديدة» للسيد ميخايلوفسكى اقدم ، على اى حال ، من كلمتنا حتى من الناحية الزمنية ، وانهـــا اكثر قدمـــا من ناحية مضمونها الداخلى ، لان مثالية برونو باور التاريخية قد كانت ردة الى نظرات ماديى القرن الماضى * .

ويقلق السيد ميخايلوفسكى للغاية واقع ان «كتاب الامريكى مورجان عن «المجتمع القديم» قد ظهر بعد سنوات كثيرة من اعلان ماركس وانجلس لاسس المادية الاقتصادية (٨١) ومستقلا عنها تماما» . ونقول تعليقا على ذلك :

اولا ، ليس كتاب مورجان «مستقلا» عمـــا يسمى الماديـــة الاقتصادية لسبب بسيط هو ان مورجان ذاته يتبنى وجهة نظرها ، كما سيقتنع بذلك السيد ميخايلوفسكى نفسه بسهولة اذا قرأ الكتاب الذى يشير اليه . صحيح ان مورجان قد وصل الى وجهة نظر المادية الاقتصادية مستقلا **عن ماركس وانجلس** ، لكن هذا فى صالح نظريتهما .

وثانيا ، لا ضير فى ان نظرية ماركس وانجلس قد تأكدت «بعد سنوات كثيرة» باكتشافات مورجان . واننا مقتنعون انـــه سيتحقق الكثير من الاكتشافات التى ستؤكد هذه النظرية . اما عن السيد ميخايلوفسكى فاننا مقتنعون على العكس : لن يوجد اكتشاف واحد يبرر وجهة النظر «الذاتية» ، لا بعد خمس سنوات ولا بعد خمسة آلاف سنة .

لقد عرف السيد ميخايلوفسكى من احدى مقدمات انجلس (٨٢)

---

* اما عن تطبيق علم الحياة على حل المشاكل الاجتماعيـــة فان «الكلمات الجديدة» للسيد ميخايلوفسكى ترجع من حيث «موديلها» ، كما رأينا ، الى عشرينات القرن الحالى . ان «الكلمات الجديدة» للسيد ميخايلوفسكى عجوز موقرة ! «**والذهن الروسى والروح الروسية**» فيها «**يقوم بتكرار المادة القديمة ويكذب كذب الاثين**» (٨٠) .

www.kassioun.org

ان معارف مؤلف «وضع الطبقة العاملة فى انجلترا» وصديقه ماركس فى مجال التاريخ الاقتصادى كانت فى الاربعينات «غير كافية» (تعبير انجلس ذاته) . ويثب السيد ميخايلوفسكى ويقفز حول هذا الامر : ها انتم ترون ! ان نظرية «المادية الاقتصادية» بأسرها ، وهى التى ظهرت فى الاربعينات بالذات ، قد بنيت على اساس غير كاف . وتلك نتيجة جديرة بتلميذ فطين من تلامذة الصف الرابع . اما اى انسان ناضج فيفهم ان كلمات «كاف» و«غير كاف» و«صغير» و«كبير» — حينما تطبق على المعرفة العلمية كأى شىء آخر — يجب ان تؤخذ بمعنى نسبى . ولقد عاش ماركس وانجلس بضعة عقود بعد ان اعلنا اسس النظرية التاريخية الجديدة ، ودرسا بدأب التاريخ الاقتصادى وحققا انجازات كبيرة فى هذا المجال ، وهذا امر يسهل فهمه بسبب مواهبهما غير العادية . ولا بد ان معلوماتهما السابقة قد بدت لهما بفضل هذه الانجازات «**غير كافية**» ، ولكن هذا لا يعنى ان نظريتهما قد كانت **بغير اساس** . فلقد ظهر كتاب داروين عن اصل الانواع فى عام ١٨٥٩ . وفى وسع المرء ان يقول بالتأكيد ان داروين بعد عشر سنوات قد اعتبر المعارف التى كانت لديه عند نشر هذا الكتاب غير كافية . ثم ماذا ؟

ويسخر السيد ميخايلوفسكى كذلك كثيرا فى موضوع هو ان «تاريخ اليونان والجرمان القديم قد ظل الغازا لم تحلها النظرية التى زعمت انها تلقى الضوء على تاريخ العالم بعد اربعين عاما من اعلانها» * (اى حتى ظهور كتاب مورجان فى زعمه) . ولا تقوم هذه السخرية الا على «سوء الفهم» .

اما ان **صراع الطبقات كان اساس تاريخ** اليونان والرومان فهو امر لا يمكن الا ان يكون معروفا لماركس وانجلس فى نهاية الاربعينات ، ولو لمجرد انه كان معروفا لدى الكتاب اليونانيين والرومان . اقرأ ثوسيويدس واكسينوفون وارسطو ، اقرأ المؤرخين الرومان — حتى ولو كان ليفيوس تيتوس الذى كثيرا ما استخدم فى وصفه للاحداث وجهة نظر «ذاتية» ايضا — وستجد لدى كل منهم اعتقادا راسخا بان العلاقات الاقتصادية وصراع الطبقات الذى

---

* المصدر ذاته ، ص ١٠٨ .

www.kassioun.org

تثيره كانت اساس التاريخ الداخلى لمجتمعات ذلك العهد . وكان هذا الاعتقاد يتخذ لديهم شكلا مباشرا ، هو مجرد التسجيـــل البسيط لحقيقة يومية بسيطة معروفة جيدا ، مع انه يوجد لدى بوليبيوس شيء يشبه فلسفة للتاريخ مبنية على اساس الاعتراف بهـــذه الحقيقة . ومهما كان الامر فقد كان الجميع يعترفون بهذه الحقيقة ، ام ترى يعتقد السيد ميخايلوفسكى حقا ان ماركس وانجلس «لم يقرآ كتابات الاقدمين» ؟ واما ما ظل الغازا لا يمكن حلها لدى ماركس وانجلس ، كما لدى **جميع رجال العلم** ، فهو مسائل تتعلق باشكال **حياة ما قبل التاريخ** فى اليونان وروما وبين قبائل الجرمان (كما يقول السيد ميخايلوفسكى نفسه فى مكان آخر) . وكانـــت **تلك هى** المسائل التى اجاب عليها كتاب مورجان . ولكن هل يتصور مؤلفنا مثلا انه لم تكن هناك امام داروين مسائل غير محلولة فى علم الحياة وقت ان وضع كتابه الشهير ؟

ويستمر السيد ميخايلوفسكى قائلا : «ان مقولة الضرورة كلية لا ريب فيها بحيث تشمل حتى اكثر الآمال جنونا واكثر المخـــاوف لامعقولية يبدو انها مدعوة لمحاربة هذه الآمال والمخاوف . ومن وجهة نظرها فان الامل فى اختراق الجدار بنطحة بجبهتك ليس غباء بل ضرورة ، كما لم يكن كوازيمودو (٨٣) احدب بل ضرورة ، ولم يكن قابيل ويهوذا شريرين بل ضرورة . وباختصار ، اذا لم يكن يقودنا فى الحياة العملية سوى الضرورة ، فسنصل الى فضاء خيالى ليس له حدود ،ولا توجد فيه افكار او اشياء او ظواهر بل ظلال وحيدة اللون للافكار والاشياء» * . هكذا بالضبط ، ايها السيد ميخايلوفسكى ، فحتى التشويهات من اى نوع نتاج للضرورة مثلها مثل اكثر الظواهر طبيعية ، رغم انه لا يترتب على ذلك ان يهوذا لم يكن شريرا ، اذ من الحماقة ان نقابل بين مفهوم «الشرير» وبيـــن مفهوم «الضرورة» . ولكنك اذا كنت تتطلع ، يا سيدى العزيز ، الى صف الابطال (وكل مفكر ذاتى بطل ex professo * * اذا جاز القول) فحاول ان تثبت انك لست بطلا «مجنونا» ، وان «آمالك» ليســـت

---

* المصدر ذاته ، ص ١١٣ـ١١٤ .

* * [بحكم المهنة]

www.kassioun.org

«متهوسة» ، وان «مخاوفك» ليست «لامعقولة» ، وانك لست «كوازيمودو» فى مجال الفكر ، وانك لا تدعو **الجمهور** لان «يخترق الجدار بنطحة بجبهته» . ولكى تثبت ذلك كله سيكون عليك ان تتحول الى مقولة الضرورة ، لكنك لا تعرف كيف تعالجها ، فوجهة نظرك الذاتية تستبعد حتى امكانية مثل هذه العمليات ؛ فبفضل هذه «المقولة» يصبح الواقع لديك مملكة ظلال . وعند هذه النقطة تقع فى مأزق ، وعند هذه النقطة توقع * *testimonium paupertatis* «لعلم الاجتماع» الذى تدعو اليه ، وعند هذه النقطة بالدقة تبدأ فى تأكيد ان «مقولة الضرورة» لا تبين شيئا لانها ، فيما تزعم ، تبين كثيرا جدا . فالوثيقة الوحيدة التى تقدمها لاتباعك «**الباحثين عن اشياء ارقى**» هى شهادة فقر نظرى . وليس هذا بالشىء الكثير ، ايها السيد ميخايلوفسكى !

يزعم الزمير انه طائر بطل ، وانه بهذه الصفة لن يكلفه اشعال النار فى البحر جهدا كبيرا . وحين دعى ليشرح على اى **قوانين** فيزيقية او كيميائية وضع خطته لاشعال النار فى البحر ، وجد نفسه فى ورطة ، وحتى يتخلص منها يبدأ يغمغم فى همس حزين غير واضح قائلا ان «القوانين» ليست سوى طريقة للحديث لكنها فى الواقع لا تفسر شيئا ، وانه لا يمكن ان تبنى عليها اى خطط ؛ وانه يجب التوكل على الصدفة السعيدة لانه من المعروف من زمان انك حين تضيق بك السبل تستطيع ان تطلق النار حتى بالعصا ، وبشكل عام ان la raison finit toujours par avoir raison ** . يا له من طائر طائش بغيض .

فلنقارن بغمغمة الزمير غير الواضحة هذه فلسفة ماركس التاريخية الجريئة والمذهلة فى اتساقها .

كان اسلافنا من اشباه الانسان ، كغيرهم من الحيوانات ، خاضعين تماما **للطبيعة** . وكان تطورهم بأسره هو ذلك التطور غير الواعى الذى يحدده تكيفهم مع البيئة المحيطة بهم عن طريق الانتقاء الطبيعى فى الصراع من اجل البقاء . وكانت تلك هى مملكة **الضرورة**

---

* [شهادة الفقر]

** [ينتصر العقل فى التحليل النهائى .]

www.kassioun.org

الفيزيقية المظلمة . وفى ذلك الحين لم يكن يشرق حتى **فجر الوعى** ومن ثم **الحرية** . لكن الضرورة الفيزيقية قد وصلت بالانسان الى مرحلة من تطوره بدأ فيها ينفصل شيئا فشيئا عن بقية المملكة الحيوانية ، واصبح **حيوانا صانعا للادوات** . والاداة جهاز يؤثر الانسان به فى الطبيعة ليحقق اهدافه . وهو جهاز يخضع **للضرورة** الانسانى ، وان كان ذلك فى البداية بدرجة ضعيفة جدا ، وبوثبات ونقلات ان صح القول . **وتحدد درجة تطور القوى المنتجة مدى تسلط الانسان على الطبيعة** .

ويتحدد تطور القوى المنتجة ذاته بخصائص البيئة الجغرافية التى تحيط بالناس . وبهذه الطريقة تزود الطبيعة ذاتها الانسان بوسائل اخضاعها .

لكن الانسان لا يصارع الطبيعة وحده : فالذى يشن الصراع ضدها حسب تعبير ماركس – هو الانسان الاجتماعى (der Gesell-schaftsmensch) اى اتحاد اجتماعى كبير بدرجة او اخرى . وتتحدد خصائص الانسان **الاجتماعى** فى اى زمن معين بدرجة تطور القوى المنتجة لان تركيب الاتحاد الاجتماعى بأسره يتوقف على درجة تطور هذه القوى . .وهكذا يتحدد هذا التركيب فى المدى البعيد بخصائص البيئة الجغرافية التى تتيح للناس امكانيات متفاوتة لتطوير قواهم المنتجة . ولكن حالما تنشأ علاقات اجتماعية معينة ، فان تطورها فيما بعد يحدث **وفقا لقوانينها الداخلية الخاصة** ، التى يؤدى فعلها الى تعجيل او تأجيل تطور القوى المنتجة الذى يحدد تقدم الانسانية التاريخى . وتتحول تبعية الانسان للبيئة الجغرافية من شكلها **المباشر** الى شكل **غير مباشر** . وتؤثر **البيئة الجغرافية** فى الانسان **خلال البيئة الاجتماعية** . ولكن **بفضل ذلك** تتغير العلاقة بين الانسان وبين البيئة الجغرافية المحيطة به الى اقصى حد ، وتغدو فى كل مرحلة جديدة من مراحل تطور القوى المنتجة مختلفة عما كانت عليه من قبل . فلقد اثرت البيئة الجغرافية على البريطانيين فى عصر قيصر بطريقة مختلفة عن تأثيرها فى سكان انجلترا الحاليين . وهكذا تحل **المادية الجدلية** الحديثة

www.kassioun.org

التناقضات التى لم يستطع المنورون فى القرن الثامـــن عشر ان يعالجوها * .

ويخضع تطور البيئة الاجتماعية لقوانينها الخاصة . ويعنى ذلك ان خصائصها لا تتوقف على ارادة الناس ووعيهم الا كما تتوقف عليها خصائص البيئة الجغرافيـة . فتأثير الانسان الانتاجى على الطبيعة يولد نوعا جديدا من تبعية الانسان ، نوعا جديداً من عبوديتـــه : **الضرورة الاقتصادية** . وكلما نما تسلط الانسان على الطبيعة وكلما تطورت قواه المنتجة ، زاد رسوخ هذه العبودية الجديدة : **فمـــع تطور القوى المنتجة تصبح العلاقات المتبادلة بين الناس فى عمليـة الانتاج الاجتماعية اكثر تعقدا** ؛ ويفلت من ايديهم كلية مسار هذه العملية ، **ويصبح المنتج عبدا لما ينتجه** (ومثال على ذلـــك فوضى الانتاج الرأسمالية) .

ولكن ، كما قدمت الطبيعة التى تحيط بالانسان ذاتها اول فرصة لتطوير قواه المنتجة ، وبالتالى اول فرصة لكى يتحرر بالتدريج من سلطة الطبيعة – فكذلك تصل علاقات الانتاج ، العلاقات الاجتماعية ، بحكم منطق تطورها ذاته ، تصل بالانسان الى ادراك اسباب عبوديته للضرورة **الاقتصادية** . ويزوده هذا بفرصة انتصار جديد ونهائـــى **للوعى** على **الضرورة** ، **للعقل** على **القانون** الاعمى .

فبعد ان يدرك المنتج («الانسان الاجتماعى») ان سبب عبوديته

---

* قال مونتسكيو : حالما تعرف البيئة الجغرافية تعرف ايضـــا خصائص الاتحاد الاجتماعى : ففى بيئة جغرافية معينة لا يمكن ان يوجد سوى الحكم المطلق ، اما فى غيرها – فلا توجد الا مجتمعات جمهورية مستقلة غير كبيرة ، الخ . . ورد فولتير : كلا ، فى نفس البيئة الجغرافية تظهر فى مجرى الزمن علاقات اجتماعية مختلفة ، وبالتالى ليس للبيئة الجغرافية اى اثر على مصير الانسانيـــة التاريخى : فالمهم هو آراء الناس . – لقد رأى مونتسكيو جانبا واحدا من النقيضة ؛ ورأى فولتير وانصاره جانبا آخر . ولم تكن النقيضة تحل عادة الا عن طريق **التفاعل** . وتعترف **المادية الجدلية** ، كما نرى ، بوجود التفاعل ، لكنها تفسره بالرجوع الى تطور القوى المنتجة . والنقيضة ، التى كان افضل ما يستطيعه المنورون ازاءها هو ان يخفوها فى جيوبهم ، تحل بكل بساطـــة : ان **التفكير الجدلى** يثبت هنا ايضا انه اقوى كثيرا من **الادراك السليـــم** («العقل») عند المنورين .

www.kassioun.org

لما ينتجه هو فوضى الانتاج فانه ينظم هذا الانتاج ، ومن هنـــا يخضعه لارادته . وعندئذ تنتهى سيادة **الضرورة** وتبدأ سيـــادة **الحرية** التى تثبت هى نفسها انها **ضرورة** . لقد انتهت مقدمة تاريخ الانسانية ، ويبدأ التاريخ ذاته * .

وهكذا ، فالمادية الجدلية لا تسعى ، كما يحاول خصومها ان ينسبوا ذلك اليها ، الى اقناع الانسان بان من العبث ان يثور ضد الضرورة الاقتصادية ، الا انها تشير لاول مرة الى **كيفية التغلب** على هذه الضرورة . وبهذه الطريقة يزال الطابع **الجبرى الحتمى** الملازم

---

* نامل بعد كل ما ذكرناه ان تكون قد اتضحت العلاقة بين تعاليم ماركس وتعاليم داروين . فلقد نجح داروين فى حل مشكلة كيف تنشأ الانواع النباتية والحيوانية فى الصراع من اجل البقاء . ونجح ماركس فى حل مشكلة كيف تنشأ الانواع المختلفة من التنظيم الاجتماعى فى صراع الناس من اجل بقائهم . ويبدأ بحث ماركس ، منطقيا ، حيث ينتهى بحث داروين . فالحيوانات والنباتات تخضع لتاثير البيئة **الفيزيقية** . وتؤثر البيئة الفيزيقية على الانسان الاجتماعى خلال تلك العلاقات الاجتماعية التى تنشأ على اساس القوى المنتجة المتطورة فى البداية بسرعة متفاوتة وفقا لخصائص البيئة الفيزيقية . ولا يفسر داروين اصل الانواع بميل **فطرى** مزعوم فى الكائن الحيوانى للتطور كما فعل لامارك ، بل بتكيف الكائن مع الظروف الموجودة خارجه : **لا بطبيعة الكائن** بل بتاثير **الطبيعة الخارجية** . ولا يفسر ماركس تطور الانسانية التاريخى **بطبيعة الانسان** بل بخصائص تلك **العلاقات** الاجتماعية بين الناس التى تنشأ لدى تاثير الانسان الاجتماعى فى **الطبيعة الخارجية** . وروح البحث واحدة لدى كلا المفكرين . وهذا هو السبب فى ان فى وسع المرء ان يقول ان الماركسية هى الداروينية مطبقة على العلم الاجتماعى (ونحن نعلم ان الامر ليس كذلك **من حيث الترتيب الزمنى** ، لكن هذا ليس مهما) . وهذا هو تطبيقها **العلمى** الوحيد ، لان الاستنتاجات التى استخلصها من الداروينية بعض الكتاب البورجوازيين لم تكن تطبيقا علميا لها على دراسة تطور الانسان الاجتماعى بل مجرد طوبوية بورجوازية ، عظة ادبية قبيحة المضمون ، تماما كما ينشغل السادة الذاتيون بعظات جميلة المضمون . وحين كان الكتاب البورجوازيون يشيرون الى داروين فانهم لم يكونوا فى الحقيقة يوصون قراءهم **بمناهج داروين العلمية ، بل بالغرائز الوحشية** لتلك الحيوانات التى كتب عنها داروين . فماركس يقف مع داروين ، اما الكتاب البورجوازيون **فيقفون مع الوحوش والحيوانات التى درسها داروين** .

www.kassioun.org

للمادية الميتافيزيقية . وبنفس الطريقة يزال كل اساس لتلك النظرة التشاؤمية التى يؤدى اليها حتما ، كما رأينـــا ، التفكير **المثالى** المتسق . قال جورج بوخنر ان شخصية الفرد ليست سوى زبـد على قمة الموج ، ويخضع الناس لقانون حديدى لا يمكن الا معرفته ، ولكن لا يمكن اخضاعه للارادة الانسانية . اما ماركس فيجيب : كلا ، حالما **عرفنا** هذا القانون الحديدى ، فان التطويح بنيره يتوقـــف علينا ، ويتوقف علينا ان نجعل **الضرورة** خادما مطيعا **للعقل** .

يقول المثالى – انا دودة . ويرد المادى الجدلى – انا دودة طالما كنت جاهلا ؛ لكننى اله حين **اعرف** . Tantum possumus, quantum scimus ! *

وضد هذه النظرية ، التى وضعت للمرة الاولى حقوق العقـــل الانسانى على اساس متين ، والتى بدأت للمرة الاولى تعتبر العقـل الانسانى «لا العوبة عاجزة فى يد الصدفة بل قوة عظيمـة لا تقهر ، ضد هذه النظرية يثورون باسم حقوق هذا العقل نفسه الذى يزعمون انها تدوسه تحت قدميها ، باسم المثل العليا التى يزعمون انهـــا تحتقرها ! وهم يجرأون على اتهام هذه النظرية بالدعوة الى السكينة والتصوف وبالسعى الى التوفيق مع البيئة المحيطة ، بل التحبب الى هذه البيئة – كما كان مولتشالين (٨٤) يتحبب الى من هم ارقى منه درجة ! والحق ان الانسان يستطيع ان يقول تعليقا على ذلـــك : رمتنى بدائها وانسلت .

تقول المادية الجدلية * * ان العقل الانسانى لم يمكن ان يكون صانع التاريخ لانه هو ذاته **نتاج للتاريخ** . ولكن حالما يظهر هذا النتاج فانه **لا** يجب ، **ولا يستطيع** بطبيعته ان يخضع للواقع الذى

---

* [نستطيع قدر ما نعرف .]

* * نستخدم مصطلح «المادية الجدلية» لانها وحدها التى يمكن ان تقدم وصفا صحيحا لفلسفة ماركس . فلقـــد كان هولباخ وهلفيسيوس ماديين **ميتافيزيقيين** حاربا المثالية **الميتافيزيقية** . واخلت ماديتهما مكانها **للمثالية الجدلية** التى قهرتها بدورها **المادية الجدلية** . اما تعبير «المادية الاقتصادية» فهو تعبير غير موفق جدا ، فلم يسم ماركس نفسه ابدا ماديا اقتصاديا .

www.kassioun.org

تلقاه ارثا عن التاريخ السابق ؛ فهو يسعى بالضرورة الى تحويل هذا الواقع على صورته ومثاله ، الى **جعله معقولا** .

فالمادية الجدلية تقول كما قال فاوست عند جوته :

Im Anfang war die That!*

والفعل (نشاط الناس المتوافق مع القانون فى العملية الاجتماعية للانتاج) يفسر للمادى الجدلى التطور التاريخى لعقل الانسان الاجتماعى * * . وتنتهى الى الفعل ايضا كل **فلسفته العملية . ان المادية الجدلية هى فلسفة الفعل** .

وحين يقول المفكر الذاتى : «**مثلى الاعلى**» – فانه انما يقول بذلك : **انتصار الضرورة العمياء** . فالمفكر الذاتى يعجز عن ان يؤسس مثله الاعلى على عملية تطور الواقع ؛ ومن هنا يبدأ مباشرة خلف اسوار حديقة مثله الاعلى الصغيرة حقل الصدفة اللانهائى ، وبالتالى حقل الضرورة العمياء . اما المادية الجدلية فتوضح الاساليب التى يمكن بها تحويل كل هذا الحقل اللانهائى الى **حديقة** مزدهرة **للمثل الاعلى** . وهى تضيف فحسب ان وسائل هذا التحويل خبيئة **فى جوف هذا الحقل نفسه ، وان كل ما على المرء هو ان يكتشفها ويكون قادرا على الاستفادة منها** .

فالمادية الجدلية ، على عكس الذاتية ، لا تضيق حقوق العقل الانسانى . فهى تعرف ان حقوق العقل لانهائية وغير محدودة كقدراته . وهى تقول ان كل ما هو معقول فى الذهن الانسانى ، اى كل ما لا يمثل وهما بل معرفة حقة بالواقع ، سيتحول دونما شك الى هذا الواقع ، وسيضفى عليه دون شك نصيبه من المعقولية .

ونستطيع من ذلك ان نرى ما هو دور الفرد فى التاريخ فى نظر الماديين الجدليين . انهم ابعد ما يكونون عن الهبوط بهذا الدور الى الصفر ، بل هم يضعون امام الفرد مهمة لا بد من القول انها – اذا استخدمنا التعبير الجارى الخاطىء – مهمة **مثالية تماما وبشكل صارخ** . ولما لم يكن العقل الانسانى قادرا على الانتصار على الضرورة

---

* [فى البدء كان الفعل .]

* * «الحياة الاجتماعية هى حياة عملية اساسا . فكل ما هو سرى ، كل ما يؤدى بالنظرية الى الغيبية يجد الحل العقلانى فى الممارسة الانسانية وفى ادراك هذه الممارسة» **(ماركس)** (٨٥) .

www.kassioun.org

العمياء الا بان يصبح واعيا بالقوانين الداخلية لها ، الا بان يهزمها بقوتها هى ، فان تطور المعرفة ، تطور الوعى الانسانى ، هو اعظم وانبل مهمة للمفكر . Licht, mehr Licht * – هذا ما نحتاجه قبل كل شىء .

واذا كان قد قيل منذ زمن طويل ان احدا لا يشعل مصباحا لكى يخفى نوره ، فان الماديين الجدليين يضيفون الى ذلك ان المرء يجب الا يترك المصباح فى مكتب «المثقفين» الضيق ! فطالما يوجد «ابطال» يتصورون انه يكفيهم ان ينيروا اذهانهم هم حتى يكونوا قادرين على قيادة الجمهور حيثما يريدون ، وعلى ان يشكلوه كالصلصال وفق ما يدور فى رؤوسهم ، فان مملكة العقل تظل عبارة جميلة وحلما نبيلا . لكنها لا تبدأ فى الاقتراب منا بقفزات واسعة الا حين يصبح «الجمهور» نفسه بطل الفعل التاريخى ، وحين يتطور داخله ، داخل هذا «الجمهور» عديم اللون ، وعى بذاته مناسب لذلك . قلنا : طوروا الوعى الانسانى . ونضيف الآن قائلين : طوروا الوعى بالذات لدى المنتجين . وتبدو لنا الفلسفة الذاتية ضارة بالذات لانها تمنع المثقفين من ان يساعدوا فى تطوير هذا الوعى بالذات ، بمقابلتها بين الابطال وبين الجمهور ، وبتصورها ان الجمهور ليس سوى مجموع من اصفار لا تتوقف اهميتها الا على المثل العليا للبطل الذى يقف على رأسه .

يقول المثل الشعبى بطريقته الخشنة : لو وجد ماء راكد لوجد فيه شياطين . ويقول الذاتيون : لو وجد الابطال لوجد لهم الجمهور ، وهؤلاء الابطال هم نحن انفسا ، نحن المثقفين الذاتيين . اما نحن فنرد على ذلك : ان مقابلتكم بين الابطال وبين الجمهور ليست سوى غرور وبالتالى خداع للنفس . وستظلون مجرد . . . ثرثارين حتى تدركوا انه من اجل انتصار مثلكم العليا يجب ان تزيلوا كل امكانية لهذه المقابلة ، يجب ان توقظوا فى الجماهير وعيا بطوليا بذاتها * * .

---

* [نورا ، مزيدا من النور]

** «Mit der Gründlichkeit der geschichtlichen Action wird der Umfang der Masse Zunehmen, deren Action sie ist». *Marx.* Die heilige Familie. S. 120. [«ومع رسوخ الفعل التاريخى سينمو حجم الجماهير التى تمارس هذا الفعل» ، **ماركس** ، العائلة المقدسة ، ص ١٢٠ .]

www.kassioun.org

قال الماديون الفرنسيون : الآراء تحكم العالم ؛ ونحن ممثلو الآراء ، ومن هنا فنحن صناع التاريخ ؛ نحن الابطال وما على الجمهور الا ان يتبعهم .

وكان ضيق النظرات هذه يتوافق مع الوضع الاستثنائي للمنورين الفرنسيين . فقد كانوا ممثلي **البرجوازية** .

اما المادية الجدلية المعاصرة فانها تتطلع الى الغاء الطبقات ؛ ولقد ظهرت فى الواقع حين اصبح هذا الالغاء ضرورة تاريخية . وبالتالى فانها تتحول الى المنتجين الذين لا بد ان يصبحوا ابطالا للفترة التاريخية التى تواجهنا مباشرة . ومن هنا يحدث للمرة الاولى منذ ان وجد عالمنا ودارت الارض حول الشمس التقارب بين العلم والعاملين : فالعلم يسرع لمساعدة الجماهير الكادحة ، والجماهير الكادحة تعتمد على استنتاجات العلم فى حركتها الواعية .

فاذا لم يكن هذا كله اكثر من ميتافيزيقة فاننا لا نعرف فى الواقع ما يعنيه خصومنا بالميتافيزيقة .

ويجيب السادة الذاتيون : — لكن كل ما تقولونه لا يتعلق الا بالنبوءات ، انها كلها مجرد تخمينات لا تتخذ شكلا متسقا بعض الشىء الا بفضل حيل الجدل الهيجلى ؛ وهذا هو السبب فى اننا نسميكم ميتافيزيقيين .

ولقد اوضحنا من قبل ان اقحام «الثلاثية» فى مناقشتنا ليس ممكنا الا حين لا تكون لديك ادنى فكرة عنها . واوضحنا من قبل انها لم تلعب ابدا دور **الحجة** حتى عند هيجل ، وانها لا تشكل على الاطلاق سمة مميزة لفلسفته . كما نجرؤ على ان نقول اننا قد اوضحنا ايضا ان ما يشكل قوة المادية التاريخية ليس هو الاستناد الى الثلاثية بل هو البحث العلمى للعملية التاريخية . ومن هنا نستطيع الا نلتفت الى هذا الرد ، لكننا نعتقد انه من المفيد للقارىء ان يسترجع الحقيقة الشيقة التالية من تاريخ الادب الروسى فى السبعينات .

حين درس السيد ى . جوكوفسكى «رأس المال» لاحظ ان المؤلف فى تخميناته — كما يقولون الآن — لا يعتمد الا على اعتبارات «**شكلية**» ، وان خط حججه لا يمثل الا تلاعبا غير مقصود بالمفاهيم . واليكم ما اجاب به المرحوم ن . زيبر على هذا الاتهام :

www.kassioun.org

«نظل مقتنعين بان بحث المهمة المادية يسبق عند ماركس فى كل مكان الجانب الشكلى لعملـــه . ونحن نعتبر انه لو ان السيـــد جوكوفسكى قد قرأ كتاب ماركس بعناية اكبر وبغير تحيز لوافق معنا على ذلك . فسيرى عندئذ بلا شك ان مؤلف «رأس المـــال» يثبت ، بدراسة الظروف المادية فى فترة التطور الرأسمـــالى التى نعيش فيها ، ان الانسانية لا تضع نصب عينيها من المهام الا تلك التى تستطيع حلها . ويقود ماركس قراءه خطوة فخطوة فى تيه الانتاج الرأسمالى ويفهمنا بتحليل كل عناصره المكونة طابعه المؤقت» * .

ويواصل ن . زيبر حديثه قائلا : «فلنأخذ . . . الصناعة مثلا بتغيرها المتصل من يد الى يد عند كل عملية ، وبحركتها المحمومة التى تلقى العمال يوميا تقريبا من مصنع الى مصنع ؛ ألا تمثـــل ظروفها المادية بيئة تحضيرية لاشكال جديدة من النظام الاجتماعى ، للتعاون الاجتماعى ؟ ألا يتجه فعل الازمات الاقتصادية التى تتكرر دوريا فى نفس الاتجاه ؟ ألا يؤدى الى نفس النهاية تقليص الاسواق وتخفيض يوم العمل وتنافس مختلف البلاد على السوق العامة وانتصار رأس مال اكبر على رأس مال صغير الحجم ؟ . .» ثم يعود ن . زيبر ، بعد ان يبرز النمو السريع الذى لا يصدق للقوى المنتجة فى عملية تطور الرأسمالية ، فيتساءل : «ام ترى ليست كل هذه تحـــولات مادية بل تحولات شكلية محضة ؟ . . أليس اغراق الانتاج الرأسمالى دوريا للسوق العالمية بالبضائع ، واجباره الملايين على التضور جوعا فى وقت يوجد فيه الكثير من مواد الاستهلاك تناقضا حقـــا للانتاج الرأسمالى ؟ . . واكثر من هذا أليس تناقضـــا حقـــا للرأسمالية – تناقضا يعترف به ملاك رأس المال انفسهم طواعية – انها تسرح الكثيرين من العمل ، وتشكو فى نفس الوقت من الافتقار الى الايدى العاملة ؟ أليس تناقضا حقا للرأسمالية انها تحـــول وسائل تقليل العمل البدنى ، مثل التحسينات الميكانيكية وغيرها ، الى وسائل لتطويل يوم العمل ؟ أليس تناقضا حقا ان الرأسمالية وهى

---

* ن . زيبر ، «بعض الملاحظات على مقال السيد ى . جوكوفسكى «كارل ماركس وكتابه عن رأس المال» » («اوتيتشيستفينييه زابيسكى» ، عام ١٨٧٧ ، نوفمبر ، ص ٦) .

www.kassioun.org

تعلن قداسة الملكية تحرم غالبية الفلاحين فى نفس الوقت من الارض ، وتجبر الغالبية العظمى من السكان على العمل بالمياومة ؟ هل هذا كله وكثير غيره مجرد ميتافيزيقة ، وهل هذا كله غير موجود فى الواقع ؟ ولكن يكفى ان تأخذ اى عدد من «Economist» الانجليزية حتى تقتنع فورا بالعكس . وهكذا لا حاجة لدارس الظروف الاجتماعية والاقتصادية القائمة ان يكيف الانتاج الرأسمالى بشكل مصطنع مع تناقضات جدلية وشكلية مسبقة : فالتناقضات الحقيقية وحدها تكفيه طيلة حياته» .

ولقد كانت اجابة زيبر المقنعة فى مضمونها مهذبة فى شكلها ، اما الاجابة التى تلقاها السيد جوكوفسكى نفسه من السيد ميخايلوفسكى فقد كانت مختلفة فى طبيعتها .

ان ذاتينا المحترم ما زال حتى اليوم يفهم الكتاب ، الذى دافع عنه حينئذ ، فهما «**ضيقا**» الى اقصى حد ان لم نقل احادى الجانب ، بل انه يحاول ان يقنع الآخرين بان هذا الفهم الاحادى الجانب هو التقويم الصحيح للكتاب . ولا يمكن ان يكون مثل هذا الشخص بالطبع مدافعا يعتمد عليه عن «رأس المال» . ومن هنا فقد امتلأت اجابته بالغرائب الطفولية . وهاك واحدة منها . لقد ساند السيد جوكوفسكى اتهامه لماركس بالشكلية وباساءة استخدام جدل هيجل فيما ساند به باقتباس من فقرة فى مقدمة لكتاب «Zur Kritik der politischen Oekonomie»* . وقد وجد السيد ميخايلوفسكى ان خصم ماركس «قد رأى بحق انعكاسا للفلسفة الهيجلية» فى هذه المقدمة ، «**ولو ان ماركس لم يكن قد كتب الا هذه المقدمة لـ«*Zur Kritik*»** • **لكان السيد جوكوفسكى على حق تماما**» *** ، اى لثبت ان ماركس ليس اكثر من شكلى وهيجلى . وهنا نجح السيد ميخايلوفسكى فى ان يخطىء «التصويب» ، وقد «استنفد» الخطأ فى التصويب الى حد ان المرء لا يملك الا ان يتساءل : — هل قرأ مؤلفنا ، الذى كان حينئذ رجلا يبشر بالخير ، المقدمة المشار اليها ؟ **** . وبوسع المرء ان

---

* [«مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى» .]

** [«مساهمة فى النقد»]

*** مؤلفات ن . ك . ميخايلوفسكى ، المجلد الثانى ، ص ٣٥٦ .

**** ففى هذه الفقرة يعرض ماركس مفهومه المادى عن التاريخ .

www.kassioun.org

يورد عددا آخر من الغرائب المماثلة (وسنذكر واحدة منها فيما بعد) لكنها ليست موضوع بحثنا الآن . فمهما كان سوء فهم السيد ميخايلوفسكى لماركس الا انه بالرغم من هذا قد رأى فورا ان السيد جوكوفسكى «**يتحدث هراء**» عن «**الشكلية**» ؛ بالرغم من هذا فقد ادرك ان مثل هذا الهراء هو مجرد نتاج **لعدم . . . الحشمة** .

لقد لاحظ السيد ميخايلوفسكى حينئذ بحق : «لو ان ماركس قال ان قانون تطور المجتمع الحديث هو انه ينفى تلقائيا وضعه السابق ، ثم ينفى هذا النفى ، موفقا تناقضات المرحلتين اللتين مر بهما فى الوحدة بين الملكية الفردية والملكية المشتركة ؛ لو انه قد قال هذا ، وهذا **فقط** (ولو على صفحات عديدة) لكان هيجليا خالصا يبنى القوانين من اعماق روحه ، ويكتفى بمبادىء شكلية محضة ، اى مستقلة عن المضمون . لكن كل من قرأ «رأس المال» يعرف انه قد قال اكثر من هذا» . وحسبما قاله السيد ميخايلوفسكى يمكن ان تنزع الصيغة الهيجلية بسهولة عن المحتوى الاقتصادى الذى حشره فيها ماركس حسب زعمه كما ينزع القفاز من اليد او القبعة من الرأس . «اما فيما يتعلق بمراحل التطور الاقتصادى التى تم اجتيازها فلا يمكن ان يثور حولها شك . . . وليس من شك كذلك فى سير هذه العملية فيما بعد : تركيز وسائل الانتاج فى عدد من الايدى يقل على الدوام . اما فيما يتعلق بالمستقبل فيمكن بالطبع ان تكون هناك شكوك . ويعتبر ماركس انه لما كان تركز راس المال يصحبه تشريك العمل فان هذا الاخير هو الذى سيشكل الاساس الاقتصادى والمعنوى (كيف يمكن لتشريك العمل ان «يشكل» الاساس **المعنوى** ؟ وماذا عن «التطور الذاتى للاشكال» ؟ — **بليخانوف**) الذى ستنمو فوقه انظمة حقوقية وسياسية جديدة . لقد كان من حق السيد جوكوفسكى تماما ان يسمى هذا تخمينا ، لكن لم يكن له اى حق (معنوى بالطبع — **بليخانوف**) ان يمر فى صمت تام على ما ينسبه ماركس من اهمية لعملية التشريك» * .

ويلاحظ السيد ميخايلوفسكى بحق : «ان «راس المال» بأسره

---

* المصدر ذاته ، ص ٣٥٣—٣٥٤ .

www.kassioun.org

مكرس لدراسة كيف ان شكلا اجتماعيا ، حالما ينشأ ، يتطور على الدوام ويضاعف سماته الخاصة ، مخضعا له ومتمثلا (؟) الاكتشافات والاختراعات والتحسينات فى اساليب الانتاج والاسواق الجديدة والعلم نفسه ، مجبرا اياها على ان تعمل له ، وكيف يصبح هذا الشكل اخيرا عاجزا عن تحمل المزيد من التغيرات فى الظروف المادية» * .

«فعلى وجه التحديد ان تحليل العلاقات بين الشكل الاجتماعى (اى الرأسمالية ، ايها السيد ميخايلوفسكى ، أليس كذلك ؟ – **بليخانوف**) وبين الظروف المادية لوجوده (اى القوى المنتجة التى تجعل وجود الشكل الرأسمالى للانتاج غير ثابت اكثر واكثر – أليس كذلك ، ايها السيد ميخايلوفسكى ؟ – **بليخانوف**) هو الذى سيظل للابد شاهدا على النظام المنطقى وسعة الاطلاع الهائلة عند ماركس . وقد وجد السيد جوكوفسكى الشجاعة الادبية ليزعم انّ هذه المسألة هى التى تهرب منها ماركس . وليس فى امكاننا ان نعقب على هذا القول . ولا يبقى علينا الا ان نراقب بدهشة مزيدا من تمرينات الناقد المحيرة وهو يقوم ببهلوانيات لتسلية الجمهور ، الذى سيدرك جزء منه فورا ان ثمة بهلوانا شجاعا يتشقلب امامه ، بينما قد ينسب جزء آخر معنى مختلفا تماما لهذا المشهد المذهل» ** .

Summa summarum *** : اذا كان السيد جوكوفسكى يتهم ماركس بالشكلية فان هذا الاتهام مثل ، حسب كلمات السيد ميخايلوفسكى ، «كذبة واحدة كبيرة تتألف من عدد من الاكاذيب الصغيرة» .

هذا الحكم قاس لكنه عادل تماما . واذا كان عادلا بالنسبة للسيد جوكوفسكى فانه عادل كذلك بالنسبة لكل الذين يرددون الآن ان «تخمينات» ماركس مبنية على الثلاثية الهيجلية وحدها . واذا كان هذا الحكم عادلا بالنسبة لكل هؤلاء الناس عندئذ . . . تفضل بقراءة الاقتباس التالى :

---

* المصدر ذاته ، ص ٣٥٧ .
** المصدر ذاته ، ص ٣٥٧–٣٥٨ .
*** [الخلاصة النهائية]

www.kassioun.org

«انه (ماركس) ملأ الرسم التخطيطى الجدلى الفارغ بمحتـــوى واقعى لدرجة بحيث من الممكن نزعه عن هذا المحتوى كمـا ينزع الغطاء عن الكأس دون ان يتغير شىء ، دون ان يتلف شىء الا فيما يتعلق بنقطة واحدة – وان تكن ذات اهمية خارقـــة – الا وهى ان قوانين المجتمع «الفطرية» فيما يتعلق بالمستقبل موضوعة بطريقة جدلية للغاية . ويكفى الهيجلى الصادق الايمان ان يقول ان «النفى» لا بد ان يتبعه «نفى النفى» ، لكن اولئك الذين لا يرتبطون بالحكمة الهيجلية لا يمكنهم ان يقتنعوا بذلك : فليس الاستنتاج الجـــدلى لديهم برهانا ، **وغير** الهيجلى الذى صدقه يجب ان يعرف انه قـد صدقه فحسب ولم يقتنع به» * .

ان السيد ميخايلوفسكى قد نطق بالحكم لنفسه بنفسه .

ان السيد ميخايلوفسكى يدرك بنفسه انه يردد الآن كلمات السيد ى . جوكوفسكى فيما يتعلق «بشكلية» حجج ماركس لتأييد «تخميناته» .. فهو لم ينس مقالته «كارل ماركس امام محكمـــة السيد ى . جوكوفسكى» ، بل هو يخشى ان يتذكرها قارئه فى لحظة غير مناسبة . .ولذلك يتظاهر فى البدء بانه يقول الآن ايضا ما قاله فى السبعينات . ولهذا الغرض يكرر ان «الرسم التخطيطـى الجدلى» يمكن نزعه «كالغطاء» ، الخ . . ثم تتبع ذلك «**نقطة واحدة فقط**» يتفق فيها السيد ميخايلوفسكى تماما – دون علم القارىء – مع السيد ى. جوكوفسكى . لكن هذه «النقطة الواحدة» هى نفس النقطة «**ذات الاهمية الخارقة**» التى استخدمت كذريعة لكشف السيد جوكوفسكى فى «بهلوانياته» .

فى عام ١٨٧٧ قال السيد ميخايلوفسكى ان ماركس فيما يتعلق بالمستقبل ايضا – اى بالتحديد فيما يتعلق «بنقطة واحـدة ذات اهمية خارقة» – لم يقتصر على الاشارة الى هيجل . اما الآن فيبدو من وجهة نظر السيد ميخايلوفسكى انه قد **اقتصر** على ذلك . فى عام ١٨٧٧ قال السيد ميخايلوفسكى ان ماركس قد اوضح «بقـــوة المنطق» المدهشة و«بسعة الاطلاع الهائلة» ان «هذا الشكل» (اى

---

* «روسكويه بوجاتستفو» ، فبراير ١٨٩٤ ، الجزء الثانى ، ص ١٥٠–١٥١ .

www.kassioun.org

الرأسمالية) «يصبح عاجزا عن تحمل» مزيد من التغيرات فى «**الظروف المادية**» لوجوده . وهذا القول كان يخص بالتحديد «نقطة واحدة ذات اهمية خارقة» . اما الآن فقد نسى السيد ميخايلوفسكى ما قاله ماركس من اشياء مقنعة للغاية بصدد هذه النقطة ومدى ما كشف عنه ماركس من قوة منطق وسعة اطلاع هائلة . فى عام ١٨٧٧ تعجب السيد ميخايلوفسكى من «الشجاعة الادبية» التى مر بها السيد جوكوفسكى فى صمت على حقيقة ان ماركس فى تأكيده لتخميناته قد اشار الى تشريك العمل الذى يحدث بالفعل فى المجتمع الرأسمالى . وكان ذلك ايضا يخص «نقطة واحدة ذات اهمية خارقة» . اما اليوم فان السيد ميخايلوفسكى يؤكد للقراء ان ماركس فى هذه النقطة يخمن «بطريقة جدلية للغاية» . فى عام ١٨٧٧ كان «كل من قرأ «رأس المال»» يعرف ان ماركس «قد قال **اكثر من هذا**» . اما الآن فقد اتضح انه لم يقل «سوى هذا» ، وان ايمان اتباعه بالمستقبل «انما يقف فحسب فى نهاية سلسلة هيجل الثلاثية الاطراف» * . يا له من تحول بفضل الله !

لقد نطق السيد ميخايلوفسكى بالحكم لنفسه بنفسه وهو يدرك انه قد نطق به .

لكن ما الذى جعل السيد ميخايلوفسكى يوقع نفسه تحت فعل هذا الحكم القاسى الذى نطق به بنفسه ؟ هل احس هذا الرجل الذى فضح فيما مضى «البهلوانات» الادبيين بمثل هذا الحماس ، هل احس هو نفسه بعد ان تقدمت به السن انه يميل الى «فن البهلوان» ؟ هل مثل هذه التحولات ممكنة حقا ؟ كل التحولات ممكنة ايها القارىء ! واولئك الذين تحدث لهم مثل هذه التحولات جديرون بكل ادانة . ولن نبحث لهم نحن عن مبرر . ولكن حتى هولاء يجب ان يعاملوا معاملة انسانية . لتذكروا كلمات مؤلف تعليقات على ميل العميقة فى انسانيتها : حين يسلك انسان سلوكا سيئا فكثيرا ما لا يكون هذا ذنبه قدر ما يكون مصيبته ؛ لتذكروا ما قاله نفس الكاتب عن النشاط الادبى لـ ن . أ . بوليفوى :

«كان ن . أ . بوليفوى تابعا من اتباع كوزان الذى اعتبره

---

* المقالة ذاتها ، ص ١٦٦ .

www.kassioun.org

حلال جميع الالغاز واعظم فيلسوف فى العالم . . . ولم يستطع تابع كوزان ان يتوافق مع الفلسفة الهيجلية ، وحين نفـــذت الفلسفة الهيجلية الى الادب الروسى اتضح ان تلامذة كوزان اناس متخلفون ، ولم تكن جريمة ادبية من جانبهم ان يدافعوا عـــن معتقداتهم ، وان يصفوا بالسخف ما يقوله اناس تخطوهم فى التقدم الفكرى ؛ فلا يمكن للمرء ان يتهم انسانا لان آخرين يتمتعون بقوة اكبر وحزم اعظم منه قد تخطوه – انهم على حق لانهم اقـــرب الى الحقيقة ، لكنه هو ايضا ليس مذنبا ، اذ انه مخطىء فحسب» * .

لقد كان السيد ميخايلوفسكى طيلة حياته **انتقائيا** . وما كان يستطيع ان يتوافق مع فلسفة ماركس التاريخية بحكم تكويـــن ذهنه ذاته ، بحكم طابع تربيته الفلسفية السابقة بأسرهـــا – اذا استطاع المرء ان يستخدم مثل هذا التعبير بالنسبة للسيـــد ميخايلوفسكى . وحين بدأت افكار ماركس تنفذ الى روسيا ، حاول فى البداية ان يدافع عنها ، وحتى حينئذ لم يفعل ذلك دون العديد من التحفظات ودون «حيرة» كبيرة بمكان . لقد ظن حينئذ انـــه سيكون قادرا على ان يطحن هذه الافكار ايضا فى طاحونته الانتقائية ، وبذلك يدخل تنوعا اكبر على غذائه الذهنى . ثم رأى ان افكار ماركس لا تصلح اطلاقا كحلية لتلك الفسيفساء التى يسميهـــا الانتقائيون نظرة الى العالم ، وان انتشارها يهدد بتدميـــر الفسيفساء العزيزة عليه . ومن هنا تألب على هذه الافكار . وقد اتضح فورا بالطبع انه رجل متخلف ، بيد انه يبدو لنا فى الواقع انه ليس مذنبا وانه مخطىء فحسب .

– لكن كل هذا لا يبرر «البهلوانيات» !

– ونحن لا نبررها ، بل نشير فقط الى ظروف مخففة : فلقد وقع السيد ميخايلوفسكى ، دون ان يلاحظ على الاطلاق ، بسبب تطور الكفر الاجتماعى الروسى ، فى وضع لا يمكن للمرء ان يخرج منه الا عن طريق «البهلوانيات» . صحيح ان هناك طريقا آخـــر للخروج ، غير ان احدا لا يستطيع ان يختاره الا اذا امتلأ بطولة **حقيقية** . وهذا الطريق هو **القاء سلاحه الانتقائى** .

---

* «بحوث فى فترة جوجول فى الادب الروسى» ، سان بطرسبورج ١٨٩٢ ، ص ٢٤–٢٥ .

www.kassioun.org

خاتمة

اقتصرنا اساسا حتى الآن فى عرضنا لافكار ماركس على دراسة تلك الاعتراضات التى اثيرت ضده من الوجهة النظرية . اما الآن فان من المفيد ان نتعرف ايضا على «**العقل العملى**» لعدد معين من خصومه على الاقل . وسنستعين فى ذلك بالمنهج **التاريخى المقارن** . وبعبارة اخرى نقول اننا سنرى اولا كيف واجه «العقل العمـــــلى» **للطوبويين الالمان** افكار ماركس ، ثم نعرض بعد ذلك لعقـــــل مواطنينا الاعزاء المحترمين .

دارت فى نهاية الاربعينات مناقشة شيقـــــة بين ماركس وانجلس ، وبين كارل هينزن الشهير . واخذت المناقشة فورا طابعا حادا جدا . وقد حاول كارل هينزن ان يفعل ما يسمى بالسخرية من افكار خصميه ، وكشف فى ذلك عن شطارة لا تقل عن شطارة السيد ميخايلوفسكى فى شىء . وبالطبع عامله ماركس وانجلس بالمثل . ولم يخل الجدل من عبارات حادة . فلقد وصف هينزن انجلس بانه «صبى طائش وقح» ؛ ونعت ماركس هينزن بانه ممثل der grobianischen Literatur واطلق عليه انجلس اسم «اجهل من فى العصر» (٨٦) . لكن علام كان يدور الجدل ؟ اية افكار نسبها هينزن الى ماركس وانجلس ؟ لقد نسب اليهما ما يلى .

زعم هينزن انه من وجهة نظر ماركس لم يكن لانســـان ذى نوايا نبيلة **ما يفعله فى المانيا فى ذلك العهد** . قال هينزن ان من رأى ماركس انه «**لا بد ان تتحقق اولا سيادة البورجوازيـة التى**

www.kassioun.org

يجب ان تخلق البروليتاريا الصناعية» ، التى تبدأ بدورهـــا فى التصرف من جانبها * .

فماركس وانجلس «لم يضعا فى اعتبارهما **تلك** البروليتاريا التى خلقها مصاصو الدماء الالمان الاربعة والثلاثون» ، اى بعبارة اخرى ، مجموع الشعب الالمانى باستثناء عمال المصانع (ولا تعنى كلمة «البروليتاريا» لدى هينزن الا الوضع البائس لهذا الشعب) . وهو يزعم انه لم يكن لهذه البروليتاريا الضخمة ، من وجهة نظر ماركس ، اى حق فى المطالبة بمستقبل افضل ، لانها لم تحمل «**الا طابع القهر ولم تحمل طابع المصنع** ، بل كان عليها ان تتضـــور جوعا بصبر وتموت جوعا (hungern und verhungern) حتى تصبح المانيا كانجلترا . فالمصنع هو المدرسة التى لا بد ان يتعلـــم الشعب فيها حتى يكون له الحق فى البدء فى تحسين وضعه» * * .

وكل من يعرف تاريخ المانيا ولو قليلا يدرك اليوم مـــدى حماقة اتهامات هينزن هذه . فكل امرىء يعرف ما اذا كان ماركس وانجلس قد اغفلا الوضع البائس للشعب الالمانى . وكل امرىء يدرك ما اذا كان من الصواب ان تنسب اليهما الفكرة القائلة انه ليس لانسان نبيل ما يفعله فى المانيا ما لم تصبح المانيا كانجلترا ؛ فان هذين الرجلين ، على ما نعتقد ، قد فعلا شيئا دون ان ينتظرا مثل هذا التحول لوطنهما . لكن لماذا نسب اليهما هينزن كل هذا الهراء ؟ اكان ذلك يرجع حقا الى سوء طويته ؟ كلا ، بل نكرر القول ان ذلك الامر لم يكن ذنبه بقدر ما كان مصيبته . فالمسألـــة كلها لا تعدو انه لم يفهم افكار ماركس وانجلس ، ومن ثم فقـــد بدت له هذه الافكار ضارة ، ولما كان يحب بلده بحرارة فقـد تألب على هذه الافكار التى كانت تبدو له ضارة ببلده . لكن نقص الفهم ناصح سيىء ومساعد لا يمكن الاعتماد عليه فى مناقشـة . ولهذا فقد وضع هينزن نفسه فى مأزق حرج . لقد كان شخصـا

---

* «Die Helden des deutschen Kommunismus», Bern 1848, S. 21
[«ابطال الشيوعية الالمانية» ، برن ١٨٤٨ ، ص ٢١ .]

** Ibid., p. 22 [المصدر ذاته ، ص ٢٢ .]

www.kassioun.org

فطينا ، لكن الفطنة فى غياب الفهم لن تجدى كثيرا ، وبالتالى فان «les rieurs» * **ليسوا الآن فى صفه** .

وكما يرى القارىء يتعين النظر الى هينزن على نفس الضوء الذى يجب النظر به عندنا ، فيما يتعلق بالمناقشة المماثلة تماما ، الى السيد ميخايلوفسكى مثلا . ولكن هل الى السيد ميخايلوفسكى وحده ؟ فان كل الذين ينسبون الى «التلاميذ» (٨٧) تطلعا الى ان يدخلوا فى خدمة امثال كولوبايف ورازوفايف (٨٨) – وهم كثيرون – انما يكررون خطأ هينزن ، وان واحدا منهم لم يبتدع حجة واحدة ضد الماديين «الاقتصاديين» لم ترد **منذ ما يقرب من خمسين عاما** فى حجج هينزن . فاذا كان لديهم ما هو مبتكر فهو لا يعدو جهلهم الساذج بانهم **غير** مبتكرين . فهم يحاولون على الدوام ان يجدوا لروسيا «طرقا جديدة» ، وبسبب جهلهم يصل «الفكر الروسى البائس» الى طرق الفكر الاوروبى القديمة المليئة بالحفر والمهجورة منذ امد بعيد . هذا غريب ولكنه مفهوم تماما اذا طبقنا على تفسير هذه الظاهرة التى تبدو غريبة «مقولة الضرورة» . **ففى مرحلة معينة من التطور الاقتصادى لبلد ما تنشا «بالضرورة» فى اذهان مثقفيه حماقات لها مظهر الجدية .**

وسيريكم المثال التالى كم كان هينزن مثيرا للضحك فى مناقشته مع ماركس . فقد طالب خصميه بالحاح بان يبرزا له «مثلا اعلى» مفصلا عن المستقبل ، اذ سأل قائلا : خبرانى كيف يجب ان تنظم علاقات الملكية وفقا لآرائكما ؟ ماذا ينبغى ان تكون عليه حدود الملكية الخاصة من ناحية والملكية الاجتماعية من ناحية اخرى ؟ وكان جوابهما ان علاقات الملكية فى المجتمع تتحدد فى كل لحظة معينة بحالة قواه المنتجة ، ومن هنا لا يمكن الا الاشارة الى الاتجاه العام للتطور الاجتماعى ، ولكن لا يمكن ان توضع مسبقا اية مشاريع محددة للقوانين . ويمكن القول الآن ان تشريك العمل ، الذى تخلقه الصناعة الحديثة ، لا بد ان يفضى الى تأميم وسائل الانتاج . لكن لا يمكن التكهن بمدى تنفيذ هذا التأميم بعد السنوات العشر مثلا : فهذا الامر يتوقف على طبيعة العلاقات

---

* [«الضاحكين»]

www.kassioun.org

المتبادلة بين الصناعة الصغيرة والصناعة الكبيرة ، وبين ملكية الارض الكبيرة وملكية الفلاحين للارض وما الى ذلك . وهنا يختم هينزن اقواله معلنا : — وهكذا فليس لديكما اى مثال اعلى ، فيا له من مثال اعلى **لا تختلقه الآلات الا فيما بعد** .

ولقد تبنى هينزن وجهة النظر **الطوبوية** . وينطلق الطوبـوى دائما ، كما هو معروف لدينا ، وهو يصوغ «مثاله الاعلى» ، من **مفهوم** مجرد ما ، مفهوم الطبيعة الانسانية ، او من **مبدأ** مجرد ما ، مثل هذا الحق او ذاك للشخصية او مبدأ «الفردية» وما الى ذلك وهكذا دواليك . وحالما يوجد هذا المبدأ فلن يكون من الصعب عليه ، انطلاقا منه ، ان يحدد باكبر دقة ممكنة وبادق التفصيلات ماذا **ينبغى ان تكون** عليه (ونحن لا نعرف بالطبع فى اى وقت وفى اى ظروف) علاقات الملكية بين الناس مثلا . ومن المفهوم ان ينظر الطوبوى بدهشة الى اولئك الذين يقولون له انه لا يمكن ان تكون هناك علاقات ملكية حسنة فى ذاتها دونما نظر الى ظروف زمانها ومكانها . فيبدو له انه ليس لهؤلاء الناس اى «مثل عليا» على الاطلاق . ولو كان القارىء قد تابع عرضنا بانتباه فانه يعرف ان الطوبوى غير محق جدا فى هذه الحالة . فلقد كان لماركس وانجلس مثالهما الاعلى وهو **مثال اعلى** محدد جدا ، الا وهو اخضاع **الضرورة للحرية** ، اخضاع **القوى الاقتصادية** العمياء **لقوة العقل الانسانى** . وانطلاقا من هذا المثال الاعلى وجها نشاطهما العملى الذى لم يتلخص بالطبع فى خدمة البورجوازية ، بل فى تطوير الوعى بالذات لدى اولئك المنتجين الذين يجب ان يصبحوا ، حينما يحين الوقـــت ، سادة منتجاتهم .

ولم يكن على ماركس وانجلس ان «يعتنيا» بتحويل المانيـــا لتصبح مثل انجلترا ، او كما يقولون عندنـــا اليوم ، بخدمـــة البورجوازية : فلقد تطورت البورجوازية دون حاجة الى مساعدتهما ، وكان من المحال وقف هذا التطور ، اى لم تكن هناك قوى اجتماعية قادرة على ذلك . كما لم تكن هناك حاجة للقيام بذلك ، لان الانظمة الاقتصادية القديمة لم تكن فى التحليل الاخير افضل من الانظمة البورجوازية وقد شاخت فى الاربعينات الى حد ان اصبحت **ضارة بالجميع** . لكن كون ايقاف تطور الانتاج الرأسمالى محالا لم يكن

www.kassioun.org

كافيا لسلب المفكرين فى المانيا من امكانية **العمل من اجل رفاهية شعبها** . فللبورجوازية رفاق طريق يلازمونها بالضرورة ، هم كل اولئك الذين يعملون فعلا على تضخم كيس نقودها **بحكم الضرورة الاقتصادية** . وكلما زاد وعى هؤلاء الخدم المقهورين تحسن وضعهم وازدادت صلابة مقاومتهم لامثال كولوبايف ورازوفايف فى كل البلاد وكل الشعوب . ومن هنا اخذ ماركس وانجلس على عاتقهما مهمة تطوير هذا الوعى بالذات : وفى توافق مع روح المادية الجدلية وضعا نصب اعينهما منذ البداية **مهمة مثالية تماما وكلية** .

فمعيار المثال الاعلى هو الواقع الاقتصادي . هذا ما قاله ماركس وانجلس ، وعلى هذا الاساس اتهما بنوع من المولتشالينية الاقتصادية ، وبانهما مستعدان لان يدوسا باقدامهما ذوى المركز الاقتصادى الضعيف ويخدما مصالح ذوى المركز الاقتصادى القوى . ومصدر هذا الاتهام **فهم ميتافيزيقى لما** عناه ماركس وانجلس **بالواقع الاقتصادى** . فحين يسمع الميتافيزيقى ان على شخصية اجتماعية ان تستند الى الواقع فانه يتخيل انه انما تنصح بالتوافق مع هذا الواقع . وهو لا يدرك انه توجد فى كل واقع اقتصادى **عناصر متناقضة** ، وان توافقه مع الواقع لن يعنى الا توافقا مع احد عناصره فحسب ، وهو بالتحديد ذلك العنصر **السائد** فى الوقت المعنى . اما الماديون الجدليون فقد اشاروا ولا يزالون يشيرون الى عنصر آخر من عناصر الواقع معاد للعنصر الاول ، الى **ذلك العنصر الذى ينضج فيه المستقبل** . وانا لنسأل : اذا استند المرء الى **هذا** العنصر واخذه معيارا «لمثله العليا» ، فهل يعنى هذا انه يدخل فى خدمة امثال كولوبايف ورازوفايف ؟

ولكن اذا كان يجب ان يؤخذ الواقع الاقتصادى معيارا للمثال الاعلى فان من المفهوم اذن ان المعيار **المعنوى** للمثال الاعلى **لا يكفى** ، لا لان المشاعر المعنوية للناس تستحق الاحتقار او الازدراء ، بل لان هذه المشاعر لا تكفى لترينا سبيلا صحيحا لخدمة مصالح الآخرين . فليس يكفى ان يتعاطف الطبيب مع حالة مريضه ، بل عليه ان يدرك **الواقع الفيزيقى** للجسم وان يستند الى هذا الواقع لمكافحته هو . ولو ظن الطبيب ان فى وسعه

www.kassioun.org

الاقتصار على الاستياء المعنوى من المرض لاستحق شر سخرية . وبهذا المعنى سخر ماركس من «**النقد الاخلاقى**» و«**الاخلاق النقدية**» لدى خصومه . غير ان خصومه ظنوا انه يسخر من «**الاخلاق**» . ولهذا يصرخ هينزن قائلا : — «ليس للاخلاق والارادة الانسانية قيمة فى اعين اولئك الذين ليست لديهم اخلاق ولا ارادة» *

ويجب ان نلاحظ مع ذلك انه اذا كان خصومنـــا الروس للماديين «الاقتصاديين» يقتصرون عمومـــا على ان يكرروا — sans le savoir * * — حجج اسلافهم الالمان ، الا انهـم ينوعون حججهم الى حد ما ببعض التفاصيل . وهكذا ، مثلا ، لم ينهمـك الطوبويـون الالمان فى محاكمات مسهبـة حول «قانون التطور الاقتصادى» فى المانيا . اما لدينا فقـد اتخذت المحاكمـات من هذا النوع حجما مفزعا حقا . ويتذكر القارئ ان السيد ف . ف . قد وعد منذ بدايـة الثمانينات بكشف قانون التطور الاقتصادى لروسيا . صحيح ان السيد ف . ف . اخذ فيما بعد يخاف من هذا القانون ، لكنه اوضح بنفسه انه لا يخاف منه الا مؤقتا ، حتى يكتشف المثقفون الروس قانونا جيدا جدا وطيبا جدا . وكذلك يشترك السيد ف . ف . عن طيب خاطر فى المناقشات التى لا نهاية لها عما اذا كان من الضرورى ان تمر روسيا بمرحلة الرأسمالية ام لا . ومنذ السبعينات اقحمت تعاليم ماركس فى هذه المناقشات .

وتوضح آخر واحدث كلمة للسيد س . كريفينكو كيف تدور هذه المناقشات عندنا . ففى الرد على السيد ب . ستروفه ينصح هذا الكاتب خصمه بان يفكر جيدا فى مسألة «حتمية الرأسمالية وعواقبها الطيبة» .

«اذا كان النظام الرأسمالى يمثل مرحلة جبرية وحتمية من مراحل التطور لا بد ان يمر بها اى مجتمع انسانى ، واذا لم يكن امام المرء الا ان يحنى رأسه امام هذه الضرورة التاريخية ، فهل يجب ان يلجأ الى اجراءات لن يكون من شأنها الا تأخير حلول النظام الرأسمالى ، ام بالعكس يجب عليه ان يحاول تسهيل الانتقال اليه وان يبذل كل جهوده لحلوله باسرع ما يمكن ، اى ان يسعـى

---

* Ibid., p. 22 [المصدر ذاته ، ص ٢٢ .]

* * [دون وعى منهم]

www.kassioun.org

لتطوير الصناعة الرأسمالية ورسملـــة الحرف وتطوير فئـــة الكولاك * . . . وتدمير المشاعـــة القروية ونزع ملكية السكان للارض ، اى بشكـــل عام طرد فائض الفلاحين من القـــرى الى المصانع ؟» * * .

ويثير السيد س . كريفينكو هنا مسألتين فى الحقيقة : ١ – هل تمثل الرأسمالية مرحلة جبرية وحتمية ؟ ٢ – اذا كان الامر كذلك فاى مهام عملية تترتب على هذا ؟ ولنبدأ بالمسألة الاولى .

يصوغ السيد س . كريفينكو المسألة بشكل صحيح بمعنى ان جزءا من مثقفينا – وفى الواقع الغالبية الساحقة منهم – كان يشغل نفسه بها فى هذا الشكل بالتحديد : هل تمثل الرأسمالية مرحلة جبرية وحتمية لا بد ان يمر بها كل مجتمع انسانى ؟ وكانوا يظنون فى وقت ما ان ماركس قد اجاب على هذا السؤال بالايجـــاب ، وضايقهم ذلك للغاية . وحين نشرت رسالة ماركس الشهيرة ، التى يزعم انها موجهة للسيد ميخايلوفسكى * * * راوا لدهشتهم ان ماركس لا يعترف «بحتمية» هذه المرحلـــة فصاحوا فى فرح خبيث : ألم يخجل تلاميذه الروس ! لكن اولئك الذين شمتوا قد نسوا المثل الفرنسى : bien rira qui rira le dernier * * * * .

فلقد انغمس خصوم «التلاميذ الروس» لماركس منذ بدايـــة هذه المناقشة وحتى نهايتها فى «ثرثرة فارغة غريبة» .

والواقع انهم ، وهم يناقشون ما اذا كانت نظريـــة ماركس التاريخية صالحة للتطبيق على روسيا قد نسوا امرا تافها : لقد نسوا ان يستوضحوا لانفسهم ما هى هذه النظرية . وكم كان رائعا حقا المأزق الذى سقط فيه بسبب ذلك ذاتيونا وعلى راسهـــم السيد ميخايلوفسكى .

لقد قرأ السيد ميخايلوفسكى (اذا كان قد قرأ) مقدمـــة

* الكولاك – فلاحون اغنياء يستثمرون عمل الغير . **الناشر** .

* * «روسكويه بوجاتستفو» ، ديسمبر عام ١٨٩٣ ، الجزء الثانى ، ص ١٨٩ .

* * * فى مسودة هذه الرسالة التى لم تكمل صيغتها لم يكن ماركس يكتب للسيد ميخايلوفسكى بل لمحرر «اوتيتشيستفينييه زابيسكى» . فقد كان ماركس يتحدث عن السيد ميخايلوفسكى بضمير الغائب .

* * * * [من يضحك اخيرا يضحك كثيرا .]

www.kassioun.org

«Zur Kritik» التى عرضت فيها نظرية ماركس التاريخية الفلسفية وقرر انها ليست اكثر من هيجلية . ودون ان يلاحظ الفيل حيث يوجد الفيل بدأ يتلفت حوله ، وبدا له انه قد وجد الفيل الذى يبحث عنه فى الفصل الخاص بالتراكم الرأسمالى البدائى ، حيث يصف ماركس التقدم التاريخى للرأسمالية الغربية وليس باى حال تاريخ الانسانية بأسرها .

ان كل عملية ، ايا كانت ، «حتمية» بلا شك فى مكانهـــا . فاشتعال عود الكبريت حتمى اذا مـــا امسكت فيه النار ؛ وعود الكبريت ينطفئ «حتما» حالما تنتهى عملية الاحتراق . ويتحدث «**راس المال**» عن مجرى التطور الرأسمالى «الحتمى» بالنسبة لتلك البلاد التى يحدث فيها . واذ تصور السيد ميخايلوفسكى ان الفصل المشار اليه من «راس المال» ينطوى على فلسفة تاريخية كاملة ، فقد قرر ان الانتاج الراسمالى حتمى ، فى نظر ماركس ، بالنسبة لكل البلاد وكل الشعوب * . وعندئذ بدأ **يتشكى** حول الوضع الحرج لاولئك الروس الذين ، الخ . ثم ، بعد ان اشبـــع – يا له من

* انظر مقال : «كارل ماركس امام محكمة السيد ى . جوكوفسكى» – «اوتيتشيستفينييه زابيسكى» ، اكتوبر ١٨٧٧ . «توجد فى الفصل السادس من «راس المال» فقرة عنوانها : «ما يسمى التراكم البدائى» . كان فى نية ماركس ان يقدم هنا وصفا تاريخيا للخطوات الاولى لعملية الانتاج الراسمالية ، لكنه قدم شيئا اكبر بكثير – انه قدم نظرية تاريخية فلسفية كاملة» . ونحن نكرر ان هذا كله هراء محض : فقد عرضت فلسفة ماركس التاريخية فى مقدمة «Zur Kritik der politischen Oekonomie» التى لم يفهمها السيد ميخايلوفسكى ، وذلك على شكل «عدة افكار تعميمية تترابط فيما بينها ترابطا وثيقا» . لكنا لا نقول هذا الا عرضا . ولقد نجح السيد ميخايلوفسكى فى الا يفهم ماركس حتى فيما يتعلق «بحتمية» العملية الراسمالية بالنسبة للغرب . فلقد رأى فى قوانين المصانع «تصحيحا» للشبات الجبرى للعملية التاريخية . واذ تصور ان «**الاقتصاديات**» ، فى نظر ماركس ، تعمل بذاتها دون اى مشاركة من طرف الناس ، فقد كان متسقا حين رأى فى كل تدخل للناس فى مجرى عمليتهم الانتاجية تصحيحا . والشىء الوحيد الذى لم يعرفه هو ان هذا التدخل **فى كل شكل معين من اشكاله** هو ، فى نظر ماركس ، النتاج الحتمى للعلاقات الاقتصاديـــة المعينة . فهل يمكن ان تتناقش عن ماركس مع اناس لا يفهمونه بمثل هذه المواظبة الرائعة !

www.kassioun.org

مزاح ! – حاجته الذاتية الى التشكى ، اعلن فى وقار ورزانة موجها الخطاب للسيد جوكوفسكى : ها انت ترى اننا ايضا نعرف كيف ننقد ماركس ، فنحن ايضا لا نتبع بشكل اعمى ما magister dixit * . ومن البديهى ان هذا كله لم يتقدم بمسألة «الحتمية» قيد انملة ، ولكن بعد ان قرأ ماركس تشكى السيـــد ميخايلوفسكى انتوى مساعدته . فخطط ملاحظاته على مقال السيـــد ميخايلوفسكى فى شكل رسالة الى محرر «اوتيتشيستفينييه زابيسكى» . وحين ظهرت هذه الرسالة فى صحافتنـا بعد وفاة ماركس توفرت لدى اولئك الروس الذين ، الخ . على الاقل **فرصة** الحل الصحيح لمسألـة «الحتمية» .

ماذا كان فى وسع ماركس ان يقـــول عن مقال السيـــد ميخايلوفسكى ؟ لقد وقع الرجل فى مصيبة اذ اعتبر نظرية ماركس التاريخية الفلسفية شيئا لم يكن كذلك على الاطلاق . وواضح انه كان على ماركس اولا ان ينقذ من هذه المصيبة الكاتب الروسى الشاب المبشر بالخير . وبالاضافة الى ذلك كان الكاتب الروسى الشاب يشكو من ان ماركس يحكم على روسيا بضرورة الرأسماليـــة . وكان على ماركس ان يوضح للكاتب الروسى ان المادية الجدلية لا تحكم على اى بلد باى شىء ، اى انها لا تحدد مسارا عامـــا و«حتميا» لكل الشعوب فى كل الازمان ؛ وان المزيد من تطور اى مجتمع يتوقف دائما على نسبة القوى الاجتماعية داخله ، وبالتالى فان على اى شخص جاد ان يدرس قبل كل شىء هذه النسبة للقوى دون ان يخمن ويتشكى بصدد «حتمية» ما خيالية ؛ فهذه الدراسة وحدها هى التى تستطيع ان تبين ما هو «حتمى» وما هو «غير حتمى» فى مجتمع معين .

وهذا ما فعله ماركس . فقـــد كشف اولا «حيرة» السيـــد ميخايلوفسكى : «اريد ان اصور فى فصل التراكم البدائى السبيل الذى خرج به النظام الرأسمالى فى اوروبا الغربية من احشاء النظام الاقطاعى للاقتصاد . فقد تتبع فيه اذن ذلـــك المجـــرى للاحداث التاريخية الذى فصل المنتج عن وسائل الانتاج ، علما بان الاول قد تحول الى عامل مأجور (بروليتارى بالمعنى الحديث للكلمة) ،

* [قاله المعلم .]

www.kassioun.org

بينما تحولت الاخيرة الى رأس مال . وفى هذا التاريخ يشكل كل انقلاب عصرا ويؤدى دور الوسيلة لتطور طبقة الرأسماليين ؛ اما الاساس الرئيسى لهذا التطور فهو نزع ملكية المنتجين الزراعيين . وفى نهاية الفصل اتحدث عن الاتجاه التاريخى للتراكم الرأسمالى واؤكد ان كلمته الاخيرة تكون تحول الملكية الرأسمالية الى ملكية اجتماعية . وفى هذه الكلمات الختامية لا اورد اى براهين لصالح تأكيدى هذا ، وذلك لسبب بسيط هو ان هذا التأكيد ليس الا الاستنتاج العام للعرض المسهب الخاص بالانتاج الرأسمالى» .

ولكى يوضح ماركس بشكل افضل فكرة ان السيد ميخايلوفسكى قد اعتبر نظرية تاريخية ما لم يكن كذلك وما لم يمكن ان يكون كذلك ، اشار الى مثل روما القديمة . وانه لمثل مقنع جدا ؛ نظرا ، انه لو كان «حتميا» على كل الشعوب ان تمر خلال الرأسمالية ، فماذا نقول عن روما ، ماذا نقول عن اسبرطة ، ماذا نقول عن دولة الانكا ، ماذا نقول عن كثير من الشعوب الاخرى التى اختفت من على المسرح التاريخى بدون ان تؤدى التزامها الوهمى هذا ؟ لم يكن مصير هذه الشعوب مجهولا عند ماركس ؛ وبالتالى ما كان فى وسعه ان يتحدث عن «الحتمية» الشاملة للعملية الرأسمالية .

يقول ماركس : «ان ناقدى حوّل بحثى فى تاريخ منشأ الرأسمالية الاوروبية الغربية الى نظرية تاريخية فلسفية كاملة لطريق الشعوب التاريخى الذى كتب لكل منها ان يخطوه محتما مهما كانت الظروف لوجوده التاريخى . لكنى اسأل المعذرة : فهذا التفسير يشرفنى جدا ويهيننى جدا فى نفس الوقت» .

ولكن ذلك ليس كل ما فى الامر ! فان هذا التفسير انما يحول ماركس الى واحد من اولئك «الناس ذوى الصيغ» الذين سخر هو منهم فى مجادلاته مع برودون (٨٩) . فالسيد ميخايلوفسكى نسب لماركس «صيغة التقدم» ، فاجاب ماركس : كلا ، اشكرك كثيرا ، لست فى حاجة الى مثل هذا الانعام .

ولقد رأينا فيما سبق كيف نظر الطوبويون الى قوانين التطور التاريخى (وليذكر القارئ ما قلناه عن سان-سيمون) . لقد اتخذ التوافق مع قانون الحركة التاريخية فى نظرهم مظهرا عجيبيا ؛ وكان

www.kassioun.org

الطريق الذى تتقدم فيه البشرية من وجهة نظرهم **مرسوما من قبل** ، ولم يمكن لاى احداث تاريخية ان تغير اتجاه هذا الطريق . يا له من زيغ سيكولوجى ملفت للنظر ! «فالطبيعة الانسانيـــة» لدى الطوبويين هى نقطة البداية فى بحثهم . اما قوانين تطور هذه الطبيعة التى تكتسب فورا فى نظرهم طابعا مبهما ، **فتنقل الى مكان ما خارج الانسان وخارج العلاقات الواقعية بين الناس** ، الى مجال «**ما فوق التاريخ**» .

ان المادية الجدلية انما تنقل المسألة هنا ايضا الى ارض اخرى تماما ، وبذا تعطيها مظهرا مختلفا تماما .

فالماديون الجدليون «يردون كل شىء الى الاقتصاديات» . وقد شرحنا من قبل كيف ينبغى فهم ذلك . ولكن ما هى الاقتصاديات ؟ انها مجموع العلاقات الواقعية بين الناس ، الذين يشكلون المجتمع المعنى ، اثناء عمليتهم الانتاجية . ولا تمثل هذه العلاقات جوهرا ميتافيزيقيا جامدا ، فهى تتغير ابدا تحت تأثير تطور القوى المنتجة وتحت تأثير البيئة التاريخية التى تحيط بالمجتمع المعنى . وحالما تكون لدينا العلاقات الواقعية للناس فى عملية الانتاج فستترتب نتائج معينة بالضرورة على هذه العلاقات . وبهذا المعنى تتوافق الحركة الاجتماعية مع القانون ، ولم يوضح احد هذا التوافق بشكل افضل مما اوضحه ماركس . ولكن لما كان للحركة الاقتصادية فى كل مجتمع شكل «**اصيل**» كنتيجة «**لاصالة**» الظروف التى تحـــدث فيها ، فلا يمكن ان تكون ثمة اى «صيغـــة للتقدم» تشمل ماضى الحركة الاقتصادية فى **كل** المجتمعات وتتنبأ بمستقبلها . فصيغة التقدم هى تلك الحقيقة المجردة التى كان الميتافيزيقيون يحبونها كثيرا على حد تعبير مؤلف «بحوث فى فترة جوجول فى الادب الروسى» . ولكن – وكما يلاحظ هو نفسه بحق – ليست ثمة حقيقة مجردة ؛ فالحقيقة دائما ملموسة : وكـــل شىء يتوقف على ظروف الزمان والمكان ، واذا كان كـــل شىء يتوقف على هذه الظروف فان هذه الاخيرة هى التى يجب ان يدرسها اولئك الذين ، الخ . . (٩٠) .

«حتى اكون مؤهلا بشكل اكيد لتقدير مجرى التطور الاقتصادى فى روسيا المعاصرة تعلمت الروسية ، ثم درست طيلة عدة سنوات النشرات الرسمية وغيرها مما يخص هذا الموضوع» (٩١) .

www.kassioun.org

وتلاميذ ماركس الروس مخلصون له. فى هذه الحالـــة ايضا . وبالطبع قد تكون لدى احدهم معارف اقتصادية اكبر بينما تكون هذه المعارف لدى آخرهم اقل ، ولكن **المهم هنا ليس هو كميـــة المعلومات لدى الافراد** ، **بل وجهة النظر ذاتها** . فتلاميذ ماركس الروس لا يسترشدون باى مثال اعلى ذاتى او اى «صيغة للتقدم» وانما يتوجهون الى الواقع الاقتصادى لبلادهم .

فما هى اذن النتيجة التى انتهى اليهـــا ماركس فيما يختص بروسيا ؟ «اذا واصلت روسيا السير فى الطريق الذى اختارته بعد عام ١٨٦١ (٩٢) ، فستفقد واحدة من افضل الفرص اتاحها فى وقت ما المجرى التاريخى للشعب من اجـــل تجنب كل تقلبات التطور الرأسمالى» . وبعد ذلك بقليل اضاف ماركس ان روسيـــا فى السنوات الاخيرة «قد بذلت الكثير» بمعنى السير فى الطريـــق المذكور . ومنذ كتابة هذه الرسالة (اى منذ عام ١٨٧٧ – نضيف نحن من جانبنا) كانت روسيا تسير ابعد واسرع فى هذا الطريق .

ماذا يترتب اذن على رسالة ماركس ؟ – ترتبت نتائج ثلاث :

١ – انه خجل برسالته لا تلاميذه الروس بل السادة الذاتيين الذين كانوا يحاولون ، دون ان يكون لديهم ادنى مفهوم عن وجهه نظره العلمية ، ان يعيدوا صياغة ماركس ذاته على صورتهـــم ومثالهم ، وان يحولوه الى **ميتافيزيقى وطوبوى** .

٢ – ان السادة الذاتيين لم **تخجلهم** هذه الرسالة لسبب بسيط هو انهم – فى اخلاص «لمثالهم الاعلى» – لم يفهموا هذه الرسالة .

٣ – اذا اراد السادة الذاتيون ان يتناقشـــوا معنا حـــول مسألة كيف تتحرك روسيا والى اين تتحرك ، فان عليهـــم ان ينطلقوا فى كل لحظة معينة من **تحليل الواقع الافتصادى** .

ولقد وصلت دراسة هذا الواقع فى السبعينات بماركس الى النتيجة **غير النهائية التالية** : «اذا واصلت روسيا اتباع الطريق الذى سارت فيه منذ تحرير الفلاحين ، فستصبح بلادا رأسمالية تماما ، وبعد ذلك ، وحالما تقع تحت نير النظام الرأسمالى ، ستضطر ان تخضع لقوانين الرأسمالية التى لا ترحم كغيرها مـن الشعوب الممتهنة . وهذا كل ما فى الامر !» .

هذا كل ما فى الامر . لكن اى روسى يرغب فى العمل من اجل

www.kassioun.org

خير وطنه لا يمكن ان يقنع بمثل هذه النتيجة غير النهائية ، فيثور في ذهنه حتما سؤال ما اذا كانت روسيا ستواصل السير في هـذا الطريق ؟ أليس ثمة معلومات تسمح للمرء بان يأمل في ان تترك هذا الطريق ؟

ولكي يجيب المرء على هذا السؤال لا بد له ان يتجه من جديد الى دراسة الوضع الراهن للبلاد ، والى تحليل ظروف حياتهـــا الداخلية القائمة . ويؤكد تلاميذ ماركس الروس **على اساس مثل هذا التحليل : اجل ، انها ستواصل هذا السير ! فليس ثمـــة معلومات تسمح للمرء بان يأمل في ان تترك روسيا عن قريـب طريق التطور الراسمالي الذي سارت عليه بعد عام ١٨٦١ . وهذا كل ما في الامر !**

ويظن السادة الذاتيون ان «التلاميذ» مخطئون . ويكون عليهم ان يثبتوا ذلك بالمعلومات التي يقدمها نفس هذا **الواقع** الروسي . يقول «التلاميذ» : ستواصل روسيا السيـر في طريـــق التطور الرأسمالي لا لان ثمة قوة خارجية ما ، قانونا غامضا ما يدفعها على هذا الطريق ، بل لانه لا توجد قوة داخلية فعلية قادرة على ازاحتها عن هذا الطريق . فاذا ظن السادة الذاتيون انه توجد مثل هذه القوة فليقولوا لنا ما هي ، وليثبتوا لنا وجودها . وسيسرنا جدا ان نسمع ذلك . الا اننا حتى الآن لم نسمع منهم شيئا محددا حول هذه النقطة .

— ماذا تعني بانه لا توجد قوة ؟ وماذا عن مثلنا العليا ؟ — هكذا يصيح خصومنا الاعزاء .

ايها السادة ، ايها السادة ! انكم سذج بشكل مؤثر للغاية ! فالسؤال بالتحديد هو كيف تحققون ، لنفرض ، مثلكم العليا رغم انها تمثل شيئا اخرق بمكان ؟ صحيح ان السؤال حين يطرح بهذا الشكل يتخذ طابعا عاديا جدا ، ولكن طالما لم تجيبوا عليه فستظل «لمثلكم العليا» مجرد دلالة «مثلى» .

تخيل بطلا شابا قد ادخل سجنا حجريا ، ووضع خلف القضبان الحديدية ، واحيط بحراس متيقظين . ولكن البطل الشاب يكتفي بالابتسام . ويأخذ قطعة من الفحم كان قد اعدها من قبل ، ويرسم قاربا صغيرا على الحائط ، ثم يجلس في هذا القارب و . . . وداعا

www.kassioun.org

•ايها السجن ، وداعا ايها الحراس المتيقظون ، فان البطل الشاب قد غدا مطلق السراح فى العالم الواسع من جديد .

قصة جميلة ! بيد انها . . . **ليست سوى قصة** . لكن الواقع ان قاربا صغيرا مرسوما على الحائط **لم يحمـــل ابدا اى شخص الى اى مكان** .

لقد دخلت روسيا بالفعل منذ الغاء القنانة طريـــق التطور الرأسمالى . ويرى السادة الذاتيون هذا جيدا ، ويؤكدون بانفسهم ان العلاقات الاقتصادية القديمة تنحل عندنا بسرعة مذهلة تزداد اكثر فاكثر . لكن لا بأس – هكذا يقولون لبعضهـــم البعض : سنركب روسيا قارب مثلنا العليا الصغير ، وستطفو بعيدا عن هذا الطريق الى ارض بعيدة ، الى ممالك نائية .

ان السادة الذاتيين رواة قصص رائعون ، لكن . . . «**هذا كل ما فى الامر !**» . هذا كل ما فى الامر – وانه لامر ضئيل الى حد رهيب ، ولم يحدث ابدا من قبل ان غيرت القصص الحركـــة التاريخية لشعب ما ، لنفس السبب البسيط الذى لم يجعـــل بلبلا ما يتغذى على الاساطير (٩٣) .

ولقد تبنى السادة الذاتيون تصنيفا غريبا «لاولئك الروس الذين . . .» الى طائفتين . فاولئك الذين **يؤمنون** بامكانية الطفو بعيدا فى قارب المثل العليا الذاتية الصغير يعتبرونهم اناســـا طيبين راغبين فى سعادة الشعب . اما اولئك الذين يقولـون ان هذا الايمان **لا يقوم على اساس على الاطلاق** فينسبون اليهم نوعا من الخبث غير العادى ، ومن التصميم على ترك الفلاح الروسى يموت جوعا . ولم تكن هناك تمثيلية تحوى اشرارا اكثر مـــن هؤلاء الماديين «الاقتصاديين» الروس المتسقين فى رأى السادة الذاتيين . ويقوم هذه الرأى العجيب على اساس متين كذلـــك الذى قام عليه رأى هينزن المعروف للقراء حين نسب الى ماركس نية ترك الشعب الالمانى «hungern und verhungern» * .

ويتساءل السيد ميخايلوفسكى : لماذا ظهر الآن بالضبط سادة قادرون «بضمير هادئ على ان يحكموا على ملايين الناس

---

* [«يتضور ويموت جوعا» .]

www.kassioun.org

بالموت جوعا والبؤس» ؟ ويعتقد السيد س . ن . كريفينكو انه حالما قرر شخص متسق ان الرأسمالية حتمية فى روسيا ، فلا يبقى عليه الا ان «يسعى . . . لرسملة الحرف ، وتطوير فئة الكولاك . . . وتدمير المشاعة القروية ، ونزع ملكية السكان للارض ، وبشكل عام طرد فائض الفلاحين من القرى» . لكن السيد س . ن . كريفينكو لا يظن هذا الظن الا لانه ذاته عاجز عن **التفكير** «**المتسق**» .

لقد اعترف هينزن لماركس على الاقل بتحيز لصالح الكادحين الذين يحملون «طابع المصنع» . لكن السادة الذاتيين لا يعترفون ، على ما يبدو ، حتى بهذا الضعف الضئيل عند «تلاميذ» ماركس الروس : فهم ، والحق يقال ، يكرهون باتساق كل بنى البشر دون استثناء . انهم ليودون ان يموتوا جميعا من الجوع ربما باستثناء ممثلى فئة التجار . والواقع انه لو ان السيد كريفينكو قد اعترف باى نوايا طيبة لدى هؤلاء «التلاميذ» تجاه عمال المصانع لما كان قد كتب السطور التى اقتبسناها توا .

«ان يسعى المرء . . . بشكل عام لطرد فائض الفلاحين من القرى» . فليحفظنا القديسون ! ولماذا هذا السعى ؟ ان تدفق الايدى العاملة الجديدة الى المصانع سيؤدى بالتأكيد الى تخفيض الاجور . وحتى السيد كريفينكو يعرف ان تخفيض الاجور لا يمكن ان يكون امرا مفيدا وسارا للعمال . فلماذا يحاول «التلاميذ» المتسقون ان يضروا بالعامل ويجلبوا له الاذى ؟ واضح ان هؤلاء الناس ليسوا متسقين الا فى حقدهم على البشرية ، فهم لا يحبون حتى عامل المصنع ! او ربما كانوا يحبونه ولكن بطريقتهم الخاصة : فهم يحبونه جدا ولهذا يحاولون ان يجلبوا له الضرر : «ادخر العصا يفسد الطفل» . يا لغرابة هؤلاء الناس ! يا له من اتساق عجيب !

«ان يسعى المرء . . . لتطوير فئة الكولاك ، وتدمير المشاعة القروية ، ونزع ملكية السكان للارض» . اى فظائع ! ولكن لماذا السعى الى هذا كله ؟ ان تطور فئة الكولاك ونزع ملكية السكان للارض سينعكس بالتأكيد فى تخفيض قدرتهم الشرائية ، وسيؤدى تخفيض قدرتهم الشرائية الى تخفيض الطلب على البضائع

www.kassioun.org

المصنوعة ، والى تخفيض الطلب على الايدى العاملـــة ، اى الى تخفيض الاجور . كلا ، ان «التلاميذ» المتسقين لا يحبون العامل . فهل هم لا يحبون العامل وحده ؟ فان هبوط القدرة الشرائيـــة سيضر بالتأكيد حتى بمصالح اصحاب العمل الذين هم ، كمـــا يؤكد السادة الذاتيون ، موضع رعاية «التلاميذ» الرقيقة . كلا ، تستطيعون ان تقولوا ما تشاؤون ، لكن هؤلاء التلاميـــذ اناس غرباء حقا !

«ان يسعى المرء . . . لرسملة الحرف» . . . والا «يتردد عند شراء ارض الفلاحين ، وافتتاح دكاكيـــن وخمارات ، واى نشاط مشبوه آخر . . .» ولكن لماذا يجب ان يفعـــل الناس المتسقون ذلك ؟ انهم بالتأكيد مقتنعون بحتميـــة العمليـــة الرأسمالية ؛ وبالتالى فاذا كانت اقامة الخمارات ، مثلا ، جزءا اساسيا من هذه العملية فستظهر الخمارات حتما (وعلى المرء ان يفترض انها لا توجد حاليا) . فيبدو للسيد كريفينكو ان النشاط المشبوه لا بد ان يسرع بمجرى العملية الرأسمالية . لكنا نقول من جديد انه اذا كانت الرأسمالية حتمية فان «ما هو مشبـــوه» سيظهر من تلقاء ذاته . فلماذا «يسعى» تلاميذ ماركس المتسقون من اجله ؟

– هنا تصمت نظريتهم امام مطالب المشاعر الاخلاقيـــة : فهم يرون ان الشبهة حتمية ، وهم يقدسونها لحتميتها ، ويسرعون من كل النواحى لمساعدتها ، والا فربما لن تكون لهذه الشبهـــة الحتمية اليد العليا بسرعة كافية دون مساعدتنا .

هل الامر كذلك ، ايها السيد كريفينكو ؟ اذا لم يكن كذلك فان كل حججك عن التلاميذ «المتسقين» تصبح عديمـــة القيمة . واذا كان كذلك فان اتساقك الشخصى و«قدرتك على المعرفـــة» يصبحان عديمى القيمة .

اختر ما شئت ، وليكن رسملة الحرف . انها تمثل عملية مزدوجة : فاولا يظهر اناس **يركمون** فى ايديهم وسائل الانتاج ، وثانيا يظهر اناس **يشغّلون** وسائل الانتاج هذه لقاء اجر معين . ولنفترض ان الشبهة هى السمة المميزة لمن ينتمون الى الطائفة الاولى ، لكن اولئك الذين يعملون لديهم مقابل اجر يمكن ، على

www.kassioun.org

ما يبدو ، ان يتجنبوا هذا «الطور» من التطور الاخلاقى ؟ فاذا كان الامر كذلك ، فاى شبهة فى نشاطى اذا كرسته لهؤلاء الناس ، واذا طورت وعيهم بذاتهم ، ودافعت عن مصالحهم المادية ؟ ربما يقول السيد كريفينكو ان مثل هذا النشاط سيعوق تطور الراسمالية . كلا ، ابدا . وسيبين له مثال انجلترا وفرنسا والمانيا ان مثل هذا النشاط لم يعوق هناك تطور الراسمالية ، بل بالعكس اسرع به ، ومن ثم قرب الحل العملى لبعض مشاكلها العويصة .

او فلنأخذ تدمير مشاعة القرية . تلك ايضا عملية مزدوجة : تتركز قطع ارض الفلاحين فى ايدى الكولاك ، ويتحول عدد متزايد ابدا من الفلاحين المستقلين فيما مضى الى بروليتاريين . ويصحب هذا كله بالطبع صدام فى مصالح ، يصحبه صراع . ويظهر «التلميذ الروسى» ، اذ تجذبه الضوضاء ، فيرفع صوته فى ترتيل انشودة قصيرة حارة عن «مقولة الضرورة» و . . . **يفتح خمارة** ! هكذا سيتصرف اكثرهم «اتساقا» ؛ اما اكثرهم اعتدالا فسيقتصر على فتح **دكان** . هل الامر كذلك ، ايها السيد كريفينكو ؟ ولكن لماذا لا يأخذ «التلميذ» جانب فقراء القرية ؟

— لكن اذا اراد ان يأخذ جانبهم فعليه ان يحاول منع نزع ملكية ارضهم ؟ — **حسنا ، لنعترف بذلك ، ان هذا هو ما يجب ان يحاوله** . — لكن هذا سيؤخر تطور الراسمالية . — **انه لن يؤخره على الاطلاق** . بل انه بالعكس سيسرع به . فالسادة الذاتيون يتخلون دائما ان مشاعة القرية تميل «بذاتها» الى ان تنتقل الى «شكل ارقى» . وهم مخطئون فى ذلك . فالميل الوحيد لمشاعة القرية هو **الميل الى الانحلال** ، وكلما تحسنت اوضاع الفلاحين زادت سرعة انحلال مشاعة القرية . وفضلا عن ذلك فان هذا الانحلال يمكن ان يتم فى ظروف **مفيدة للشعب اهذه الدرجة او تلك** . وعلى «التلاميذ» ان «يسعوا» لكى يحدث هذا الانحلال فى الظروف **الاكثر فائدة للشعب** .

— ولكن لماذا لا يمكن منع الانحلال ذاته ؟

— ولماذا لم تمنعوا مجاعة عام ١٨٩١ ؟ انكم لم تستطيعوا ؟ نحن نصدقكم ، واننا لنعتبر قضيتنا خاسرة اذا كان كل ما بقى

www.kassioun.org

لنا هو ان نجعل **اخلاقيتكم** مسئولـــــة عن مثل هذه **الاحداث** المستقلة عن ارادتكم بدلا من ان ندحض **افكاركم** عن طريق **الحجج المنطقية** . ولكن لماذا اذن تعاملوننا بمقياس مختلف ؟ لمـــاذا تعرضون بؤس الشعب فى مناقشاتكم معنا وكاننا نحن المسئولون عنه ؟ لانه حين لا يساعدكم **المنطق** فقـــد تساعدكم **الكلمات** فى بعض الاحيان ، وخاصة **الكلمات المؤثرة** . انتم لم تستطيعوا ان تمنعوا مجاعة عام ١٨٩١ ؟ فمن يكفل لنـــا انكم قادرون على ان تمنعوا انحلال المشاعة القروية ونزع ملكية الفلاحين للارض ؟ فلنأخذ الطريق الوسط العزيز على الانتقائيين : ولنتخيل انكم ستنجحون فى ذلك فى بعض الحالات . ولكن فى تلك الحالات التى لن تنجح فيها جهودكم ، وحيث تنحل المشاعة القروية ويتم نزع ملكية الفلاحين للارض رغم جهودكم – كيف ستتصرفون مع ضحايا هذه العملية المهلكـــة ؟ لم ينقل خارون عبر نهر ستوكس الا الارواح القادرة على ان تدفع له مقابل عمله . فهل لن تحملوا فى قاربكم الصغير الا الاعضاء الاصليين فى مشاعة القرية كى تنقلوهم الى مملكة المثال الاعلى الذاتى ؟ وهل ستستخدمون مجاذيفكم فى ابعاد بروليتاريى الريف ؟ ربما ستوافقون انتم انفسكم ، ايهـــا السادة ، على ان هذا سيكون «**مشبوها**» للغاية . وحالما توافقون على ذلك فسيكون عليكم ان تتصرفوا معهم بنفس الطريقة التى يجب ان يتصرف بها اى انسان مهذب فى رأينا ، اى بالا تفتحوا خمارات تبيعهم المخـــدر ، بل بان تزيدوا قوة مقاومتهم **ضد** الخمارة ، ضد صاحب الخمارة ، وضد اى مخدر يقدمه التاريخ او سيقدمه لهم .

او ربما كنا **نحن** الذين نبدأ الآن فى سرد حكايات الجنيات ؟ ربما **لا** تنحل المشاعة القروية ؟ ربما **لا** يجرى نزع ملكية الشعب للارض حقا ؟ ربما اختلقنا ذلك بهدف واحد هو ان نغرق الفلاح فى البؤس بعد ان كان حتى الآن يتمتع برفاه يحسد عليه ؟ ولكن افتحوا اى بحث من بحوث شركاكم فى الرأى ، وسيوضح لكم هذا البحث كيف كانت الامور قبل الآن ، اى قبل ان يفتح اى «تلميذ» خمارة ودكانا . فانتم حين تتناقشون معنا تعرضون الامور وكأن الشعب يعيش بالفعل فى مملكة مثلكم العليا الذاتية ، بينما نجره

www.kassioun.org

نحن بسبب حقدنا الكامن على البشريـــة من اقدامـــه الى قبح الرأسمالية . لكن الامور على العكس تماما : فالقبح الرأسمالى هو القائم ، ونحن نسأل انفسنا كيف نستطيع ان نحاربـــه ، كيف نستطيع ان نضع الشعب فى وضـــع يقترب ولو الى حد ما من «الامثل» . وقد تجدون اننا نقدم اجابة خاطئة على هذا السؤال ، لكن لماذا تشبوهون نياتنا ؟ هذا حقـــا «شيء مشبوه» ، ان هذا «**النقد**» ليس جديرا حقا حتى «**بابناء سوزدال**» (٩٤) .

ولكن كيف يستطيع المرء ان يحارب القبح الرأسمالى ، الذى نكرر انه يوجد مستقلا عن جهودنا وعن جهودكم ؟ ليس لديكم سوى اجابة واحدة : إن «ندعم المشاعة القروية» ، ان نقوى العلاقة بين الفلاحين والارض . ونحن نرد عليكم بان مثل هذه الاجابـــة ليست جديرة الا بالطوبويين . لماذا ؟ لانها اجابـــة مجردة . فالمشاعة القروية من وجهة نظركم حسنة دائما وفى كل مكان ، بينما لا توجد فى رأينا حقيقة مجردة ، فالحقيقة دائما ملموسة ، وكل شيء يتوقف على ظروف الزمان والمكان . فلقد كان ثمة وقت كانت المشاعة القروية فيه مفيدة للشعب **بأسره** ؛ بل ربما توجد حتى اليوم اماكن تكون فيها مفيدة للزراعيين . ولن نكون نحن الذين نثور على **مثل** هذه المشاعة . لكن المشاعة القروية قـــد تحولت فى عدد من الحالات الى وسيلة **لاستغلال** الفلاح . ونحـــن نثور على **مثل** هذه المشاعة كما نثور على كل ما يضر بالشعب . تذكروا الفلاح الذى يدفع ، كما يصف ج . اوسبينسكى فى احدى قصصه ، «**مقابل لاشيء**» (٩٥) . فماذا يجب ان يكون ، فى رأيكم ، التصرف معه ؟ تجيبون : فلننقله الى مملكة المثل العليا . حسنا جدا ، انقلوه بعون الله . ولكن حتى ان تنقلوه ، وحتى ان يحتل مقعده فى قارب المثل العليا الصغير ، وحتى ان يقترب القارب الصغير منه ، ونحن لا نعرف حتى الآن متى يقترب ، أليس من الافضل له ان يتخلص من الدفع «مقابل لاشيء» ؟ أليس من الافضل له ان يكف عن ان يكون عضوا فى المشاعة القروية التى لا تضمن له سوى تحميله بنفقات غير منتجة على الاطلاق بالاضافة الى جلده دوريا فى مديرية الناحية ؟ نعتقد ان ذلك يكون **افضل** ، لكنكم تتهموننا من اجله باننا ننتوى اماتة الشعب جوعا . فهل هذا عدل ؟

www.kassioun.org

اليس ثمة «شيء مشبوه» فى ذلك ؟ او ربما لستم حقا قادرين على فهمنا ؟ هل يمكن ان يكون الامر كذلك حقا ؟ قال تشادايف ذات مرة ان الروسى لا يعرف حتى منطق الغرب . فهل يمكن حقا ان تكون هذه هى votre cas ؟ * اننا نسلم بان السيد س . كريفينكو لا يفهمنا باخلاص تماما ، ونسلم بذلك ايضا بالنسبة للسيد كارييف والسيد يوجاكوف . لكن السيد ميخايلوفسكى قد بدا لنا دائما رجلا ذا ذهن اكثر «حدة» بكثير .

ماذا ابتدعتم ايها السادة لتحسنوا مصائر ملايين الفلاحين الذين حرموا فى الواقع من الارض ؟ حين يدور الحديث عن اولئك الذين يدفعون «مقابل لاشىء» ، فانتم لا تستطيعون الا ان تقدموا نصيحة واحدة : بالرغم من انهم يدفعون «مقابل لاشىء» ، الا انه لا يجب ان تتحطم علاقتهم بالمشاعة القروية ، لانها اذا تحطمت فلن تعود ابدا . وبالطبع سيتضمن هذا متاعب مؤقتة لهؤلاء الذين يدفعون «مقابل لاشىء» ، ولكن . . . «لا ضير فى ان الفلاح سيعانى» (٩٦) .

وهكذا يتضح ان سادتنا الذاتيين مستعدون لان يضحوا **بمصالح الشعب** الحيوية مقابل **مثلهم العليا ! وهكذا يتضح ان مواعظهم تصبح فى الواقع مضرة بالشعب اكثر فاكثر .**

يقول تولستوى عن آنّا بافلوفنا شيرر (٩٧) ان «التحمس قد اصبح مركزها الاجتماعى» . والحقد على الرأسمالية قد اصبح المركز الاجتماعى لذاتيينا . فاى فائدة يمكن ان يحققها لروسيا حماس عانس عجوز ؟ لا شىء على الاطلاق . واى فائدة يحملها للمنتجين الروس الحقد «الذاتى» على الرأسمالية ؟ لا شىء على الاطلاق ايضا .

لكن حماس آنّا بافلوفنا كان على الاقل غير ضار . اما الحقد الطوبوى على الرأسمالية فقد بدأ يحدث اضرارا فعلية بالمنتج الروسى ، لانه يجعل مثقفينا لا يأنفون من اى وسيلة لتدعيم المشاعة القروية . فلا يكاد واحد يذكر مثل هذا التدعيم حتى يهبط ظلام تصبح فيه كل القطط ذات لون رماى واحد ، ويصبح

---

* [حالتكم .]

www.kassioun.org

السادة الذاتيون على استعـــداد لان يعانقوا «موسكوفسكيـــه فيدوموستى» (٩٨) بحرارة . وتؤدى كل تعمية الفكر «الذاتية» هذه بالتحديد الى مساعـــدة **الخمارة** التى يزعمون ان «التلاميذ» يستعدون لاقامتها . وانه لامر مخجل ان نقوله ، لكن من الخطيئة ان نخفى ان **الاعداء الطوبويين للرأسمالية يثبتون فى الواقع انهم شركاء للرأسمالية فى اكثر اشكالها فظاظة وعارا وضررا .**

حتى الآن كنا نتحدث عن الطوبويين الذين حاولوا او يحاولون اليوم ان يبدعوا حجـــة او اخرى **ضد ماركس** . فلنر الآن كيف يتصرف او كيف تصرف اولئك الطوبويـــون الذين **يميلون الى الاقتباس عنه .**

كان هينزن ، الذى يقلده الآن السادة الذاتيون الروس بدقة مذهلة فى مناقشاتهم مع «التلاميذ الروس» كان طوبويا ذا اتجاه بورجوازى ديمقراطى . ولكن كان فى المانيا فى الاربعينات كثير من الطوبويين ذوى الاتجاه المضاد لذلك (٩٩) .

وكان الوضع الاجتماعى والاقتصادى فى المانيا فى خطوطـــه العامة حينئذ كما يلى .

من ناحية ، كانت البورجوازية تتطور بسرعة ، وتطالب باصرار بكل انواع المساعدة والتأييد من الحكومات الالمانيـــة . وكان Zollverein * (١٠٠) الشهير من صنع يديها كلية ، وســـارت الدعاية له لا عن طريق «الالتماسات» فحســـب ، بل كذلك عن طريق ابحاث تتفاوت فى علميتها : ولنذكر اسم فريدريك ليست . ومن ناحية اخرى فان تحطيم «الاسس» الاقتصادية القديمة قد جعل الشعب الالمانى اعزل فى علاقته بالرأسماليـــة . وكان الفلاحون والحرفيون يشتركون بالفعل بشكل كاف فى عمليـــة التقـــدم الرأسمالى لدرجة تجعلهم يعانون بأنفسهم جوانبها الضارة التى تظهر وطأتها بقوة خاصـــة فى **الفترات الانتقالية** . لكن الجماهير الكادحة كانت لا تزال فى ذلك الحين عاجزة عن المقاومة . ولم تكن تستطيع بعد ان تقاوم ممثلى رأس المـــال الى مدى يذكر . ففى **الستينات** قال ماركس ان المانيا تعانى فى نفس الوقت من كل من

---

* [الاتحاد الجمركى .]

www.kassioun.org

تطور الرأسمالية ومن عدم كفاية تطورها . اما فى الاربعينات فقد كانت معاناتها من عدم كفاية تطور الرأسمالية اكثر من هذا . لقد حطمت الرأسمالية الاسس القديمـــة لحياة الفلاح ؛ وكان على الصناعة **اليدوية** التى ازدهرت من قبل فى المانيا ان تواجه منافسة الانتاج **الآلى** الاقوى منها كثيرا . وافتقر الحرفيون حيث كانوا يتساقطون عاما بعد عام فى تبعية اشد **للمحتكرين** . وفى نفس الوقت كان على الفلاحين ان يؤدوا فروضـــا للملاكين العقاريين والدولة ، كان يمكن تحملها فى الايام السابقة ، لكنها اصبحت فى الاربعينات اكثر قهرا لانها اصبحت اقل فاقل تجاوبا مع الظروف الواقعية لحياة الفلاح . لقد اخذ بؤس الفلاحين ابعادا مذهلـــة ، واصبح الكولاك سادة القريـــة تماما ؛ وكثيرا ما كانت حبوب الفلاح تشترى وهى لم تحصد بعد ؛ واصبح التسول نوعا من الاعمال الموسمية . وقد اشار الباحثون فى ذلك العهد الى مشاعات قرى تتشكل من بضعة آلاف من العائلات ليس بينها سوى بضع مئات لا تمارس التسول . وفى اماكن اخرى **كان الفلاحون يتغذون على الجيف** ، وهو امر لا يكاد يصدق الا ان الصحف الالمانيـــة حينئذ قد سجلته . وحين كانوا يتركون قراهم لم يكونوا ليجدوا رزقا كافيا فى المراكز الصناعية ، وقد اشارت الصحف الى البطالة المتزايدة والهجرة التى كانت تؤدى اليها .

وهكذا تصف واحدة من اكثر المجلات تقدما فى ذلك الحين وضع الجماهير العاملة : «ان مئة الف غزال فى منطقة رافينسبرج وفى غيرها من الاماكن فى الوطن الالمانى لم يعودوا يستطيعـــون العيش من عملهم ، ولا يستطيعون ان يصرفوا منتوجاتهم (فقد كانت المسألة اساسا مسألة حرفيين) ، انهم يبحثون عن العمل والخبز دون ان يجدوا هذا وذاك* ، لانه من الصعب عليهم ، ان لم يكن من المستحيل ، ان يجدوا عملا غير الغزل . وثمة تنافس واسع بين العمال بسبب ابأس الاجور» * .

ولا شك ان اخلاقية الشعب كانت تنحدر . وفى موازاة دمار

---

* «Der Gesellschaftsspiegel», Band I, S. 78 [«مرآة المجتمـــع» ، المجلد الاول ، ص ٧٨ .] **رسالة من وستفاليا** .

www.kassioun.org

العلاقات الاقتصادية القديمة كان يسير اختلال المفاهيم الاخلاقية القديمة . وامتلأت الجرائد والمجلات فى ذلك الحين بالشكاوى من انتشار السكر بين العمال ، وتفشى الانحلال الجنسى وسطهم ، ومن الاختيال والتبذير الناميين بينهم جنبـــا الى جنب مع انخفاض اجورهم . ولم تكن ثمة بعد دلائل لدى العامل الالمانى على اخلاقية جديدة ، تلك الاخلاقية التى بدأت تتطور بسرعة فيما بعد على اساس حركة التحرر الجديدة التى اثارها تطور الرأسمالية ذاته . ففى ذلك الحين لم تكن حركة الجماهير للتحرر قد بدأت بعد . ولم يكن سخط الجماهير المكتوم محسوسا من حين لآخر الا فى اضرابات يائسة وعصيانات لا هدف لهـــا وتدمير الآلات غيـــر المعقول . لكن شرارات الوعى كانت قد بدأت تنطلق الى رؤوس العمال الالمان ، واصبحت الكتب التى كانت تعتبـــر ترفا غير ضرورى فى النظام القديم مادة ضروريـــة فى الظروف الجديدة ، واخذت الرغبة فى القراءة تستحوذ على العمال .

هذه هى الحالة التى كان على صائبى الرأى من بين المثقفين الالمان (der Gebildeten كما كانوا يقولون آنذاك) ان ياخذوها فى الاعتبار . ما العمـــل وكيف يمكن مساعدة الشعب ؟ اجـــاب المثقفون : **ازالة الرأسمالية** . واستقبلت مؤلفات ماركس وانجلس التى ظهرت فى ذلك الحين بابتهـــاج من جانب جزء من المثقفين الالمان باعتبارها عددا من الحجج العلمية الجديدة **للبرهنة على ضرورة ازالة الراسمالية** . «فبينما بدأ الســـادة السياسيون الليبراليون ينفخون بقوة جديدة فى بوق «ليست» عن تعريفـــة الحماية الجمركية محاولين ان يؤكدوا . . . انهم لا يشغلهم نهوض الصناعة الا من اجل مصالح الطبقة العاملة اساسا ، وبينما كان خصومهم انصار حرية التجارة يحاولون ان يثبتوا ان انجلترا لم تصبح البلاد المزدهرة الكلاسيكية للتجارة والصناعة كنتيجـــة للحماية على الاطلاق ، كان كتاب انجلس عن اوضاع الطبقة العاملة فى انجلترا قد ظهر فى حينه تماما ، وحطم الاوهام الاخيرة (١٠١) . وقد اعترف الجميع بان هذا الكتاب يشكل واحدا من ابرز المؤلفات فى الازمنة الحديثة . . . انه يبين بالاستناد الى عدد من البراهين التى لا يمكن دحضها الى اى هاويـــة يسعى مجتمع يجعل مبدأه

www.kassioun.org

المحرك الجشع الشخصى والمنافسة الحرة بين اصحاب المشروعات الخاصة ممن الههم هو النقود» * .

اذن ، كان يجب ازالة الرأسماليـــة والا سقطت المانيا فى الهاوية التى ترقد انجلترا فى قاعها . لقد اثبت انجلس هذا . ومن سيزيل الرأسمالية ؟ المثقفون die Gebildeten . وخاصية المانيا ، على حد قول احد هؤلاء الـ Gebildeten هى بالتحديد ان المثقفين الالمان هم المدعوون لازالة الرأسماليـــة فيها ، بينما «فى الغرب (in den westlichen Ländern) فان العمال بدرجـــة اكبر هم الذين يحاربونها» ** وكيف سيزيل المثقفون الالمان الرأسماليـــة ؟ بتنظيم الانتاج (Organisation der Arbeit) *** . وماذا يجب ان يصنع المثقفون لكى ينظموا الانتـــاج ؟ اقترحت صحيفـــة «Allgemeines Volksblatt» التى كانت تصدر فى كولونيا عام ١٨٤٥ الاجراءات التالية :

١ – المساعدة على التعليـــم الشعبى وتنظيـــم المحاضرات والحفلات الشعبية ، الخ . .

٢ – تنظيم الورش الكبيرة التى يستطيع فيهـــا العمـــال والحرفيون والصناع اليدويون ان يعملوا من اجل انفسهم وليس من اجل رب عمل او محتكر . وكانت «Allgemeines Volksblatt» تأمل ان يجمع هؤلاء الحرفيون واليدويون مع مر الزمن فى روابط .

٣ – اقامة مخازن لبيع المنتوجات التى سيقدمها الحرفيـــون واليدويون والورش القومية .

ان هذه الاجراءات ستنقذ المانيا من شرور الرأسماليـــة .

---

* «Der Gesellschaftsspiegel», Band I, S. 86. Notizen und Nachrichten. [«مرآة المجتمع» ، المجلد الاول ، ص ٨٦ ، ملاحظات واخبار .]

** انظر مقال Hess فى نفس المجلد من نفس المجلة الضخمة ، ص ١ وما بعدها . قارن كذلك «Neue Anekdoten», herausgegeben von Carl Grün, Darmstadt 1845, S. 220. [«النوادر الجديدة» التى اصدرها كارل جرون ، دارمشتات ١٨٤٥ ، ص ٢٢٠ .] ففى المانيا ، على عكس فرنسا ، تقوم الاقلية المتعلمة بالصراع ضد الرأسمالية و«**تكفل الانتصار عليها**» .

*** [تنظيم العمل .]

www.kassioun.org

وتضيف الصحيفة التى اقتبسنا عنها ان اتخاذها سيسهله واقع ان «هنا وهناك بدأ الناس يقيمون مخازن دائمـــة ، ما يسمى بالاسواق الصناعية ، يستطيع الحرفيون ان يعرضوا فيها بضائعهم للبيع» ويتلقوا مباشرة بعض السلفة على هذه البضائع . . . ثم يلى ذلك عرض للمزايا التى ستترتب على هذا كله سواء بالنسبة للمنتج او المستهلك .

وتبدو ازالة الراسمالية اسهل ما يمكن حيث **تبقى ضعيفة التطور** . ولهذا ابرز الطوبويون الالمان كثيرا ما وعن طيب خاطر واقع ان المانيـــا لم تصبح بعد انجلترا . بل لقد كان هينزن مستعدا لان ينكر وجود بروليتاريا صناعية فى المانيا . ولكن لما كان الشىء الرئيسى بالنسبة للطوبويين هو ان يثبتوا «للمجتمع» ضرورة تنظيم الانتاج ، فقد انتقلوا احيانا ، ودون صعوبـــة ودون ان يلاحظوا ، الى وجهـــة نظر اولئك الذين يزعمون ان **الراسمالية الالمانية لم تعد قادرة على مزيد من التطـــور بسبب التناقضات الملازمة لها ، وان السوق الداخلى قد تشبع بالفعل ، وان القدرة الشرائية للسكان تنخفض ، وان غزو اسواق خارجية امر قليل الاحتمال ، وبالتالى فان عدد العمـــال فى الصناعـــات التحويلية لا بد حتما ان يتناقص على الدوام** . وتبنت وجهة النظر هذه مجلة «Der Gesellschaftsspiegel» * التى اقتبسنا عنها بضع مرات ، والتى كانت واحدة من الصحف الرئيسية الناطقة باسم الطوبويين الالمان فى ذلك العهد بعد صدور كتيب ل . بوهل الشيق: «Andeutungen über die Noth der arbeitenden Klassen und über die Aufgabe der Vereine zum Wohl derselben», Berlin 1845**.

وقد تساءل بوهل : هل اتحادات تطوير رخاء الطبقة العاملة قادرة على تادية مهمتها ؟ وكيما يجيب على هذا الســـؤال طرح سؤالا آخر ، هو من اين ينشأ فى الوقت الحالى بؤس الطبقـــة العاملة ؟

ويقول بوهل ان الفقير والبروليتارى ليســـا شيئا واحدا .

---

* [«مرآة المجتمع»]

** [«حول حاجات الطبقات الكادحـــة ومهام اتحادات تحسين اوضاعها» ، برلين ١٨٤٥ .]

www.kassioun.org

فالفقير لا يريد او لا يستطيع ان يعمل ؛ اما البروليتارى فيبحث عن العمل ، وهو قادر على ادائه ، لكن هذا العمل غير موجود ، فيقع فى البؤس . ومثل تلك الظاهرة لم تكن معروفة فى الازمة السابقة ، بالرغم من انه كان هناك دائما فقراء ، وكان هناك دائما مقهورون ، كالاقنان مثلا .

من اين جاء البروليتارى ؟ لقد خلقته **المنافسة** . فالمنافسة اذ حطمت القيود القديمة التى عاقت الانتاج ولدت ازدهارا صناعيا لم يسبق له مثيل . لكنها كذلك اجبرت اصحاب العمل على تخفيض اثمان بضائعهم . ومن هنا فانهم يحاولون ان يخفضوا الاجور او عدد العمال . ويتحقق الهدف الاخير بتحسين الآلات التى تلقى بكثير من العمال الى الشوارع . وبالاضافة الى هذا لا يستطيع الحرفيون ان يقاوموا منافسة الانتاج الآلى ، ويتحولون كذلك الى بروليتاريين . وتهبط الاجور اكثر فاكثر . ويشير بوهل الى مثال صناعة القطن المطبوع التى كانت مزدهرة فى المانيا فى العشرينات. وكانت الاجور حينئذ عالية . فقد كان فى وسع العامل الماهر ان يحصل على ١٨–٢٠ ثالرا فى الاسبوع . ولكن الآلات ظهرت ومعها عمل النساء والاطفال – وهبطت الاجور هبوطا رهيبا . وهكذا يعمل مبدأ المنافسة الحرة دائما وفى كل مكان حيث تكون له السيادة . **انه يؤدى الى فيض الانتاج** ، ويؤدى فيض الانتاج الى البطالة . وكلما زاد تطور الصناعة الكبيرة زاد نمو البطالة وقل عدد العمال المشتغلين فى المشروعات الصناعية . والبرهان على ذلك هو ان الكوارث المذكورة لا تحدث الا فى البلاد الصناعية ، اما الدول الزراعية فلا تعرفها . لكن الحالة التى تخلقها المنافسة الحرة خطيرة الى اقصى حد على المجتمع (für die Gesellschaft) ، ومن ثم لا يمكن ان يبقى المجتمع لامباليا بها . فماذا يجب ان يفعله المجتمع ؟ ويعود بوهل الى السؤال الذى يشغل المكان الاول من مؤلفه : هل ثمة **اتحاد** قادر على القضاء على بؤس الطبقة العاملة ؟

وضع اتحاد برلين المحلى لمساعدة الطبقة العاملة نصب عينيه هدفا «ليس هو ازالة البؤس القائم قدر ما هو منع ظهور البؤس فى المستقبل» . والى هذا الاتحاد يستدير بوهل الآن . وهو يسأل: كيف تستطيع ان تمنع ظهور البؤس فى المستقبل ، ماذا ستفعل

www.kassioun.org

لهذا الغرض ؟ ان بؤس العامل الحديث ينشأ عن قلة الطلب على العمل . فليس العامل فى حاجة الى صدقة بل الى عمل . لكن من اين سيحصل الاتحاد على العمل ؟ لكى يزيد الطلب على العمل لا بد ان يزيد الطلب على منتجات العمل . لكن هذا الطلب يقل بسبب تناقص دخول الجماهير العاملة . او ربما سيفتح الاتحاد اسواقا جديدة ؟ لا يعتقد بوهل ان هذا امر ممكن ايضا . فيصل الى نتيجة هى ان الهدف الذى وضعه اتحاد برلين نصب عينيه ليس سوى **«وهم حسن النية»** .

وينصح بوهل اتحاد برلين بأن يتأمل بعمق اكبر فى اسباب بؤس الطبقة العاملة قبل ان يبدأ فى النضال ضده . وهو يعتبر **المسكنات** غير ذات اهمية . «يمكن لبورصـــات العمل وصناديق التوفير والمعاشات وما اليها ان تحسن بالطبع من وضع بضعة افراد ، لكنها لن تستأصل شأفة الشر» . كما لن تستأصلهـــا **الاتحادات** ايضا : «فالاتحادات ايضا لن تفلت من الضرورة الشاقة (dura necessitas) للمنافسة» .

اما فيما رأى بوهل نفسه وسيلة للقضاء على الشر ، فمن الصعب على المرء ان يعرفه بدقة من هذا الكتيب . ويبدو انـــه يلمح الى ان تدخل الدولة ضرورى لعلاج الشر ، وان كان يضيف ، ان نتائج هذا التدخل **محل شك** . وعلى اى حال فقد ترك كتيبه انطباعا عميقا لدى المثقفين الالمان فى ذلك الحين . وليس بمعنى خيبة امل على الاطلاق ، بل بالعكس فلقد رأوا فيه برهانا جديدا على **ضرورة تنظيم العمل** .

وهذا ما كتبته مجلة «Der Gesellschaftsspiegel» * عن كتيب بوهل .

«نشر الكاتب البرلينى المعروف ل . بوهل مؤلفا عنوانـــه «Andeutungen» الخ . . وهو يعتقد ـ ونحن نشاطره الرأى ـ ان بؤس الطبقة العاملة ينتج عن زيادة القوى المنتجة ، وان هذه الزيادة هى نتاج للمنافسة الحرة ولآخر الاكتشافات والاختراعات فى الفيزياء والميكانيكا ؛ وان العودة الى النقابـــات والاتحادات

---

* [«مرآة المجتمع»]

www.kassioun.org

الطائفية سيكون لها نفس ضرر اعاقـــة تحقيق الاكتشافـــات والاختراعات ؛ وانه على ذلك **ففى الظروف الاجتماعية القائمـــة** (التشديد لكاتب المقال فى المجلة) ليس ثمة وسائل فعالـــة لمساعدة العمال . واذا افترض المرء استمرار علاقات المشاريع الخاصة الانانية دون تغير ، فلا بد ان يتفق مع بوهل فى ان اى اتحاد لن يكون قادرا على الغـــاء البؤس القائم . لكن مثل هذا الافتراض ليس ضروريا على الاطلاق . وبالعكس يمكن ان تنشأ — وقد بدأت تنشأ بالفعل — اتحادات تستهدف القضاء بالوسائل السلمية على الاساس الانانى سابق الذكر لمجتمعنا . وكل ما هو مطلوب هو الا تعوق الحكومة نشاط الاتحادات هذا» .

وواضح ان كاتب المقال لم يفهم او لم يرد ان يفهم فكـــرة بوهل ، لكن هذا لا يهمنا . فلقد اتجهنا الى المانيا لكى نستطيع فقط ان نفهم بطريقة افضل ، بمساعدة الدروس المستمدة من تاريخها هى ، تيارات ذهنية معينة فى روسيا المعاصرة . وبهذا المعنى تشمل حركة المثقفين الالمان فى الاربعينات الكثير مما هو مفيد لنا .

وفى المحل الاول تذكرنا حجج بوهل بحجج السيد ن . — ون . فكل منهما قد بدأ بالاشـــارة الى تطور القوى المنتجـــة كسبب لانخفاض الطلب على العمل ، وبالتالى للهبوط النسبى لعدد العمال . وكل منهما يتحدث عن تشبع السوق الداخلى ، وعن الحتميـــة المترتبة على ذلك لمزيد هبوط الطلب على الايدى العاملة . ويبدو ان بوهل لم يعترف بامكانية غزو الالمان لاسواق اجنبية ؛ والسيد ن . — ون يرفض رفضا باتا الاعتراف بهذه الامكانية فيما يتعلق برجال الصناعة الروس . واخيرا فكل منهما يترك مسألة الاسواق الاجنبية هذه دون بحث كلية : فاى منهما لا يقدم حجة جدية واحدة لصالح رأيه .

ولا يستخلص بوهل نتيجة واضحة من بحثه الا ان على المرء ان يتأمل بعمق اكبر فى وضع الطبقة العاملة قبل ان يساعدها . اما السيد ن . — ون فانه يصل الى نتيجة هى ان مجتمعنا يواجه مهمة صعبة حقا ولكنها ليست مستعصية على الحل — هى مهمـــة تنظيم الانتاج القومى . لكن اذا اضفنا الى افكار بوهل الاعتبارات

www.kassioun.org

التى قدمهـــا بخصوصهـــا كاتب المقـــال فى مجلـــة «Der Gesellschaftsspiegel» الذى اقتبسنا عنه ، فسنصل بالتحديد الى النتيجـــة التى وصل اليهـــا السيد ن . — ون . **السيد ن . — ون=بوهل+كاتب المقال** . وهذه «المعادلة» تقودنا الى الافكار التالية .

يسمى السيد ن .—ون فى بلادنا ماركسيا ، بل الماركسى «الحق» الوحيد . ولكن هل يمكن ان يقال ان مجموع افكار بوهل وكاتب المقال حول وضع المانيا فى الاربعينات كان معادلا لافكار ماركس حول هذا الوضع ذاته ؟ وبعبـــارة اخرى هل كان بوهل المضاف اليه كاتب المقال ماركسيا ، ناهيك عن الماركسى الحق الوحيد ، الماركسى par excellence ؟ * كلا بالطبع . فلا يترتب على ايضاح بوهل للتناقض الذى يقع فيه المجتمع الرأسمـــالى بفضل تطور القوى المنتجة انه قد تبنى وجهة نظر ماركس . لقد درس هذه التناقضات من وجهة نظر مجردة جدا ، وبسبب هذا وحده لم يكن ثمة ما يجمع بين بحثه **من حيث روحه** وبين افكار ماركس . فحين يسمع المرء بوهل كثيرا قد يظن ان الرأسمالية الالمانية ستختنق **اليوم او غدا** تحت ثقل تطورها ، وانه لم يعد امامها مكان تذهب اليه ؛ وان الحرف قد رسملت نهائيا ، وان عدد العمال الالمان سيهبط بسرعة . لم يعبر ماركس عن مثل هذه الافكار . بل بالعكس فحين تحدث فى نهاية الاربعينات ، وعلى وجه الخصوص فى بداية الخمسينات ، عن المستقبل القريب للرأسمالية الالمانية قال شيئا مختلفا تماما . ولم يستطع ان يعتبر امثـــال ن . — ون الالمان ماركسيين حقيقيين الا اولئك الذين لم يفهموا على الاطلاق افكار ماركس ** .

---

* [فى صورته المثلى]

** كان هناك الكثير من امثال ن .—ون فى المانيا فى ذلك العهد ومن مختلف الاتجاهات . وربما كان ابرزهـــم **المحافظون** . فالدكتور كارل فولجراف ordentlicher Professor der Rechte [استاذ كرسى الحقوق] كان فى كتيب ذى عنوان طويل الى اقصى حد («Von der über und unter ihr naturnothwendiges Mass erweiterten und herabgedrückten Concurrenz in allen Nahrungs-und Erwerbszweigen des bürgerlichen Lebens, als der

www.kassioun.org

وقد تناقش امثال ن – ون الالمان بطريقة مجردة شأنهم شأن امثال بوهل وفولجراف الحاليين عندنا . وتعنى المناقشة المجردة ارتكاب الاخطاء حتى فى تلك الحالات التى تنطلق فيها من مبدأ صحيح تماما . فهل تعرف ايها القارئ ما هى **الفيزيقا المضادة** عند دالامبر ؟ قال دالامبر انـــه سيثبت على اســـاس القوانين

---

nächsten Ursache des allgemeinen, alle Klassen mehr oder weniger drückenden Nothstandes in Deutschland, insonderheit des Getreidewuchers, sowie von den Mitteln zu ihrer Abstellung». Darmstadt 1848) [«حول المنافسة فى كل فروع انتا- المواد الغذائية وفى كل فروع الصناعة التى تخدم احتياجات السكان الواسعة – المنافسة التى تخرج عـــن الحدود الضرورية طبيعيا او لا تبلغها – بوصفها اقرب سبب للفاقة العامة فى المانيا التى تضغط بهذا القدر او ذاك على جميع الطبقات ، وخصوصا بوصفها سببا للرباء بالحبوب وحول اجراءات انهائه» ، دارمشتات ١٨٤٨] يعرض الوضع الاقتصادى فى «الوطن الالمانى» بطريقة تشبه الى حد مذهل عرض الوضع الاقتصادى الروسى فى كتاب «بحوث فى اقتصادنا الاجتماعى بعد الاصلاح» . وعرض فولجراف كذلك الامور وكان تطور القوى المنتجة قد قاد «تحت تاثير المنافسة الحرة» الى الهبوط النسبى لعدد العمال المشتغلين بالصناعة . وهو يصف بتفصيل اكبر من بوهل تاثير البطالة على حالة السوق الداخلى . فالمنتجون فى احد فروع الصناعة هم فى نفس الوقت مستهلكو منتجات الفروع الاخرى ، لكن البطالة تحرم المنتجين من القدرة الشرائية فيقل الطلب ، وكنتيجة لهذا تصبح البطالة عامة ، وينشأ البؤس العام (völliger Pauperismus) ... «**وبما ان الخراب يحل بالفلاحين ايضا بسبب المنافسة الزائدة فينشأ ركود عام . ويتحلل الكيان الاجتماعى وتؤدى عملياته الفسيولوجية الى ظهور كتلة متوحشة ، ويثير الجوع غليانا فى هذه الكتلة تعجز فى مواجهته عقوبات الدولة بل والسلاح**» . وتؤدى المنافسة الحرة فى القرى الى تجزئة قطع ارض الفلاحين . **ولا تجد الايدى العاملة فى اى استثمارة فلاحية عملا كافيا لها طيلة العام** . «وهكذا ففى آلاف القرى ، وعلى الخصوص فى المناطق المنخفضة الخصوبة ، كما فى ايرلندا تقريبا ، يقف الفلاحون الفقراء دون عمل او شغل امام ابواب منازلهم . ولا يستطيع احدهم ان يساعد الآخر اذ ليس لديهم جميعا سوى القليل جدا ، وكلهم فى حاجة الى الرزق ، وكلهم يبحثون عن العمل ولا يجدونه» . وقد ابتدع فولجراف من طرفه عددا من «الاجراءات» لمحاربة الفعل التدميرى «للمنافسة الحرة» وان لم تكن بروح المجلة الاشتراكية «Der Gesellschaftsspiegel» .

www.kassioun.org

الفيزيقية التى لا شك فيها حتمية ظواهر مستحيلة فى الواقع . وما هو على المرء ، وهو يتبع فعل قانون معين الا ان ينسى لبعض الوقت ان هناك قوانين اخرى تغير فعله . وتكون النتيجة بالطبع سخيفة تماما . ولكى يثبت دالامبر ذلك قدم عددا من الامثلة الباهرة ، بل انتوى ان يضع كتابا باكمله «**الفيزيقا المضادة**» فى اوقات فراغه . والسادة امثال فولجراف ون . — ون يكتبون بالفعل «**الاقتصادات المضادة**» ، لا كنكتة بل بشكل جاد . **ومنهجهم** كما يلى . انهم يأخذون قانونا اقتصاديا معروفا لا نزاع فيه ؛ ويشيرون بشكل صحيح الى **ميله** ؛ ثم ينسون ان تحقق هذا القانون فى الحياة هو **عملية تاريخية بأسرها** ويعرضون الامور وكأن ميل القانون المذكور **قد تحقق كلية** فى الحياة فى الوقت الذى يبدأون فيه فى وضع بحوثهم . فاذا استطاع واحد من امثال فولجراف او بوهل او ن . — ون ان يكدس كومة من المواد الاحصائية غير المهضومة جيدا ، وبدأ بمناسبة وبدون مناسبة يقتبس عن ماركس ، فان «بحثه» يكتسب مظهر بحث علمى وضع بروح مؤلف «رأس المال» . لكن هذا ليس اكثر من خداع البصر .

ان كون فولجراف مثلا قد اغفل الكثير فى تحليله للحياة الاقتصادية فى المانيا المعاصرة له ، امر توضحه حقيقة لا مجال للشك فيها ، وهى ان نبوءته حول «**تحلل الكيان الاجتماعى**» فى هذه البلاد لم تتحقق على الاطلاق . واستخدام السيد ن . — ون عبثا لاسم ماركس ، تماما كما لجأ السيد ى . جوكوفسكى عبثا الى الحساب التكاملى ، امر يمكن ان يفهمه دون صعوبة حتى س . ن . كريفينكو المحترم .

وبالرغم من رأى هؤلاء السادة الذين يعيبون على ماركس احادية الجانب ، فان هذا الكاتب لم يدرس ابدا التقدم الاقتصادى لبلد معين **بعيدا عن علاقته بتلك القوى الاجتماعية التى تنمو على اساسه وتؤثر على اتجاهه اللاحق** (وهذا ليس واضحا بعد تماما لك ، ايها السيد س . ن . كريفينكو ولكن صبرا !) . فحالما نعرف الوضع الاقتصادى المعين فاننا نعرف قوى اجتماعية معينة ، وسيؤثر فعلها بالضرورة على تطور هذا الوضع لاحقا (هل نفد صبرك ، ايها السيد كريفينكو ؟ هاك مثالا بينا) . فنحن نعرف

www.kassioun.org

اقتصاد انجلترا فى عصر التراكم الرأسمـــالى البدائى ، ومن ثم نعرف القوى الاجتماعية التى جلست ايضا فى البرلمان الانجليزى فى ذلك العهد . وكان فعل هذه القوى الاجتماعيـــة هو الشرط الضرورى لتطور الوضع الاقتصادى المعنى لاحقا ، بينمـــا تحدد اتجاه فعلها بخصائص هذا الوضع . — وحالما نعرف الوضـــع الاقتصادى لانجلترا الحديثة فنحن نعرف بالتالى قواها الاجتماعية الحديثة التى سيظهر فعلها فى تطورها الاقتصادى فى المستقبل . وحين انهمك ماركسَ فيما يسميه البعض تخميناته ، وضـــع فى اعتباره هذه القوى الاجتماعية ، ولم يتصور ان فعلها يمكن ان توقفه ارادة هذه الجماعة من الاشخاص او تلك ، القوية فحسب فـــى نواياهـــا الرائعـــة (« Mit der Gründlichkeit der geschichtlichen Action wird der Umfang der Masse zunehmen, deren Action sie ist ») (١٠٢) * .

اما الطوبويون الالمان فى العقد الخامس فقد ناقشوا بطريقة اخرى . فحين وضعوا نصب اعينهم مهام معينة لم يكن فى ذهنهم الا الجوانب السيئة للوضع الاقتصـــادى فى بلادهم ، ناسين ان يدرسوا القوى الاجتماعية التى نمت من هذا الوضـــع . فكاتب المقال المذكور آنفا كان يناقش بالطريقة التالية : ان الوضـــع الاقتصادى فى بلادنا كئيب ، وبالتالى فنحن نواجه مشكلة صعبة لكنها ليست مستعصية على الحل هى مشكلة تنظيم الانتاج . ولكن ألن تمنع هذا التنظيم القوى الاجتماعية التى نمت على اســـاس الوضع الاقتصادى الكئيب ؟ لم يسأل الكاتب حسن النية نفسه هذا السؤال . فالطوبوى لا يأخذ فى الحسبـــان ابدا بشكل كاف القوى الاجتماعية لعصره لسبب بسيط هو انه — اذا استخدمنا تعبير ماركس — **يضع نفسه** دائما **فوق المجتمع** . ولنفس السبب — اذا استخدمنا تعبير ماركس ايضـــا — فان كل تقديرات الطوبوى تتم «ohne Wirth gemacht» * * وليس كل ما يقدمه من «نقد» سوى

---

* [«ومع اكتمال الفعل التاريخى سينمو ايضا حجم الجماهير التى تمارسه» .]

* * [«دون اعتبار للمضيف»]

www.kassioun.org

انعدام كامل للنقد ، وعجز عن الدراسة النقديـــة للواقع الذى يحيط به

ان تنظيم الانتاج فى بلد معين لا يمكن ان ينشأ الا كنتيجة لفعل القوى الاجتماعية القائمـــة فى ذلك البلد . فما هو الشرط اللازم من اجل تنظيم الانتاج ؟ انه الموقف الواعى للمنتجين من عملية الانتاج **مأخوذة فى كل تعقدها وكلياتها** . وحين لا يكون هناك بعد مثل هذا الموقف الواعى فلن يستطيع ان يقدم فكرة تنظيم الانتاج كمهمة مباشرة للمجتمع الا اولئك الذين يظلون طيلـــة حياتهم طوبويين لا صلاح لهم ، حتى ولو كرروا اسم ماركس خمسة مليارات مرة باكبر احترام . فماذا يقول السيد ن . – ون عن وعى المنتجين فى كتابه سيئ السمعة ؟ لا شىء على الاطلاق : انه يعلق امله بوعى «المجتمع» . فاذا كان من الممكن والواجب بعد ذلك ان نعترف به كماركسى حق فانا لا نرى سببا على الاطلاق يجعلنا لا نعترف بالسيد كريفينكو باعتباره الهيجلى الحق الوحيد فى عصرنا ، الهيجلى par excellence * .

لكن الوقت قد حان لننتهى . فاى نتائج وصلنا اليهـــا من استخدامنا للمنهج التاريخى المقارن ؟ ما لم يجانبنا الصواب فاننا قد وصلنا الى النتائج التالية :

١ – ان ايمان هينزن وانصاره بان ماركس قد حكمت عليه افكاره بعدم الفاعلية فى المانيا قد اتضح انه لغو فارغ . وسيتضح ايضا ان ايمان السيد ميخايلوفسكى بان الذين يتبنون فى روسيا افكار ماركس لا يمكن ان يجلبوا فائـــدة للشعب الروسى ، بل بالعكس يضرونه ، هو لغو فارغ بالمثل .

٢ – اثبتت افكار امثال بوهل وفولجراف حـــول الوضـــع الاقتصادى فى المانيا فى ذلك الوقت انها ضيقة احاديـــة الجانب وخاطئة بسبب طبيعتها المجردة ، وثمـــة اساس للخوف من ان يكشف التاريخ الاقتصادى لروسيا فيما بعد نفس النقيصـــة فى افكار السيد ن . – ون .

٣ – كان اولئك الذين جعلوا مهمتهم المباشرة فى المانيـــا فى

---

* [فى صورته المثلى .]

www.kassioun.org

العقد الخامس هى تنظيم الانتاج طوبويين . وطوبويون كذلك اولئك الذين يتحدثون عن تنظيم الانتاج فى روسيا اليوم .

٤ – لقد اكتسح التاريخ اوهام الطوبويين الالمان فى العقد الخامس . ولدينا كل المبررات للاعتقاد بان نفس المصير سيحل باوهام طوبوييننا الروس . لقد سخرت الرأسمالية من الاولى ، وانا لنتنبأ – والالم يحز فى قلوبنا – بانها ستسخر من الاخرى بالمثل .

لكن ألم تجلب هذه الاوهام للشعب الالمانى اية فائدة حقا ؟ بالمعنى الاقتصـــادى – لم تجلب له فائدة على الاطلاق – او اذا شئت تعبيرا اكثر دقة – **لم تكد** تجلب له فائـــدة . فكل هذه الاسواق لبيع بضائـــع الحرفيين ، وكل هذه المحاولات لخلق اتحادات المنتجين لم تكد تخفف من وضع حتى مائة من المنتجين الالمان . لكنها ساعدت على ايقـــاظ الوعى بالذات لدى اولئك المنتجين ، وبذلك ادت لهم خدمة كبيرة . وتحققت نفس الفائدة – ولكن مباشرة هذه المرة وليس بطريق ملتو – من النشـــاط التنويرى للمثقفين الالمان : مدارسهم وصالات المطالعة الشعبية ، الخ . . فنتائج التطور الرأسمالى الضارة بالشعب الالمانى لا يمكن اضعافها او القضاء عليها – فى كل لحظة معينة – الا الى المدى الذى تطور اليه وعى المنتجين الالمان بذاتهم . وقد ادرك ذلك ماركس افضل مما ادركه الطوبويون ، ومن ثم فقد اثبت نشاطه انه اكثر فائدة للشعب الالمانى .

ولا شك فى ان الامر سيكون كذلك فى روسيا ايضا . ففى عدد اكتوبر ١٨٩٤ من «روسكويـــه بوجاتستفو» يبدى السيد س . ن . كريفينكو «اهتمامه» بتنظيم الانتاج الروسى . ولن يلغى السيد كريفينكو شيئا ولن يجعل احدا سعيدا بهذا «الاهتمام» . انه «اهتمام» اخرق غريب عقيم : لكنه اذا نجح رغم كل صفاتـــه السلبية فى ايقاظ الوعى بالذات ولو لدى منتج واحد ، فسيثبت انه مفيد ، وحينئذ يتضح ان السيد كريفينكو لم يعش على هذه الارض لكى يرتكب اخطاء فى المنطق فحســـب ، او لكى يقدم ترجمات خاطئة لمقتبسات من مقالات اجنبيـــة يجدهـــا «غير مقبولة» . ولكن يكون ممكنا فى بلادنا ايضـــا ان نحارب نتائج

www.kassioun.org

الرأسمالية الضارة الا الى المدى الذى يتطور اليه وعى المنتج بذاته . ومن كلماتنا هذه يستطيع السادة الذاتيون ان يروا اننا لسنا انصار «مادية فجة» . واذا كنا «محدودى التفكير» فما ذلك الا بمعنى واحد : اننا نضع نصب اعيننا اولا وقبل كل شىء **هدفا مثاليا** تماما .

والى ان نلتقى ثانية ، ايها السادة خصومنا ! ونحن نتذوق مقدما اعظم المسرات التى ستجلبها لنا اعتراضاتكم . ولكن ، ايها السادة ، راقبوا السيد كريفينكو . فرغم انه يكتب باسلوب غير ركيك ، ويكتب على اى حال بعواطفه ، الا انه ليس من صفاتـــه «فهم الفولة» !

www.kassioun.org

ملحق رقم ١

السيد ميخايلوفسكى مرة اخرى ، «الثلاثية» مرة الاخرى

فى عدد اكتوبر من «روسكويه بوجاتستفو» اعرب السيد ميخايلوفسكى من جديد فى رده على السيد ب . ستروفه عن بعض الاعتبارات حول فلسفة هيجل وحول المادية «الاقتصادية» (١٠٣) .

ففى رأيه ان المفهوم المادى عن التاريخ والمادية الاقتصادية ليسا امرا واحدا . فالماديون الاقتصاديون يستخلصون كل شىء من الاقتصاديات . «ولكن اذا بحثت عن الجذر او الاساس ليس لمؤسسات المجتمع الحقوقية والسياسية ولآرائه الفلسفية وغيرها فحسب ، بل كذلك لتركيبه الاقتصادى فى الخصائص العرقية او القبلية لافراده : فى النسبة بين طول وعرض جماجمهم ، وفى طبيعة زاوية وجههم ، وحجم واتجاه فكهم ، فى حجم قفص صدرهم ، فى قوة عضلاتهم ، الخ . او من ناحية اخرى فى عوامل جغرافية محضة : فى مركز انجلترا كجزيرة ، فى وجود السهوب فى جزء من آسيا ، فى الطبيعة الجبلية لسويسرا ، فى تجمد الانهار فى الشمال ، الخ . — أفلا يكون كل هذا مفهوما ماديا عن التاريخ ؟ من البين ان المادية الاقتصادية ، كنظرية تاريخية ، ليست الا احدى صور المفهوم المادى عن التاريخ . . .» *

كان مونتسكيو ميالا الى تفسير المصير التاريخى للشعوب «بعوامل جغرافية محضة» . ولا شك انه كان ماديا حيثما كان

---

* «روسكويه بوجاتستفو» ، اكتوبر عام ١٨٩٤ ، الجزء الثانى ، ص ٥٠ .

www.kassioun.org

متسقا فى تمسكه بهذه العوامل . ولا تجهل المادية الجدلية الحديثة ، كما رأينا ، تأثير البيئة الجغرافية على تطور المجتمع . الا انها تدرك بشكل افضل كيف تؤثر العوامل الجغرافية على «الانسان الاجتماعى» . انها توضح ان البيئة الجغرافية تزود الناس بامكانيات متفاوتة لتطوير قواهم المنتجة ، ومن ثم تدفعهم بقوة متفاوتة على طريق التقدم التاريخى . لقد كان مونتسكيو يناقش هكذا : تحدد بيئة جغرافية معينة خصائص فيزيقية ونفسية معينة للناس ، وتجلب هذه الخصائص فى اثرها هذا التركيب او ذاك للمجتمع . وتكشف المادية الجدلية ان مثل هذه الحجة غير مقنعة ، وان تأثير البيئة الجغرافية يتضح قبل كل شىء وباقوى درجة فى طبيعة **العلاقات الاجتماعية** التى تؤثر بدورها على افكار الناس وعاداتهم ، وحتى على تطورهم البدنى ، بقوة تزيد بما لا يقاس عن المناخ مثلا . ويتفق علم الجغرافيا الحديث (ولنذكر من جديد كتاب ميتشنيكوف ومقدمته بقلم اليزى ركلو) فى هذه المسألة تماما مع المادية الجدلية . وهذه المادية هى بالطبع احدى صور النظرة المادية الى التاريخ ، الا انها اكمل واشمل فى تفسيرها للتاريخ من «الصور الاخرى» . **فالمادية الجدلية هى ارقى تطور للمفهوم المادى عن التاريخ .**

قال هولباخ ان المصير التاريخى للشعوب قد يتحدد مقدما فى بعض الاحيان وعلى مدى قرن بأسره نتيجة حركة ذرة بدأت تلعب الاعيبها فى ذهن رجل قوى . وهذه ايضا نظرة مادية الى التاريخ . لكنها لم تكن ذات جدوى فى تفسير الظواهر التاريخية . والمادية الجدلية الحديثة اكثر اثمارا بما لا يقاس فى هذا الشأن . وهى بالطبع احدى صور النظرة المادية الى التاريخ ، الا انها بالتحديد هى الصورة الوحيدة التى تتجاوب مع الحالة الحديثة للعلم . وقد اتضح عجز مادية هولباخ فى عودة مؤيديها الى المثالية : «الآراء تحكم العالم» . اما المادية الجدلية فانها الآن تزيح المثالية عن آخر موقع لها .

ويتخيل السيد ميخايلوفسكى ان المادى المتسق هو فحسب ذلك الذى يفسر كل الظواهر بمساعدة الميكانيكا الجزيئية . ولا تستطيع المادية الجدلية الحديثة ان تكتشف تفسيرا **ميكانيكيا**

www.kassioun.org

للتاريخ . وهذا ، اذا راق لك ، هـــو **وجه ضعفها** . ولكن هل يستطيع علم الحياة الحديث ان يقدم تفسيرا ميكانيكيا لاصـــل الانواع وتطورها ؟ – كلا . وهذا هو **وجه ضعفه** . وقد يكون فى امكان العبقرى الذى تخيله لابلاس ان يتجاوز مثل هذا الضعف . بيد اننا لا نعرف البتة متى سيظهر هذا العبقرى ، ولذلك نقنع بتفسيرات للظواهر تتفق على افضل شكل مع علم عصرنا . وتلك هى «الصورة» **التى نؤثرها** للنظرة المادية .

تقرر المادية الجدلية ان وعى الناس ليس هو الذى يحـــدد وجودهم ، بل بالعكس ان وجودهم هو الذى يحدد وعيهم ؛ وانه يجب على المرء ان يبحث عن مفتاح ادراك الوضع المعين لمجتمع معين لا فى فلسفته بل فى اقتصاده . وقد اثار السيد ميخايلوفسكى عدة ملاحظات فى هذا الموضوع ؛ واحدى هذه الملاحظات هى :

«. . . ان الانصاف السلبية (!) للمعادلة الاساسية لعلماء الاجتماع الماديين تنطوى على احتجاج او رد فعل لا ضد الفلسفة بوجه عام بل ضد فلسفة هيجل على ما يبدو . فالى هذه الفلسفة بالضبط يرجع «تفسير الوجود بالوعى» . . . وقد كان مؤسسو المادية الاقتصادية هيجليين ، وبهذه الصفـــة يكررون بعناد : «ليس من الفلسفة» ، «ليس من الوعى» ، لانهم لا يستطيعون ، بل ولا يحاولون ، ان يخرجوا من دائرة الفكر الهيجلى» * .

وحين قرأنا هذه السطور ظننا ان كاتبنـــا ، مثل السيد كاريف ، يشق طريقه الى «التركيب» . وقلنا لانفسنا : بالطبع ان التركيب عند السيد ميخايلوفسكى سيكون ارقى بعض الشىء منه عند السيد كاريف ، فلن يقتصر السيد ميخايلوفسكى على تكرار فكرة الشماس فى قصة ج . اوسبينسكى «لا يمكن شفاؤه» عن ان «الروح شىء منفصل» ، وانه «كما ان للمادة عقاقير مختلفة تداويها فكذلك للروح» ؛ الا ان السيد ميخايلوفسكى لن يكف عن الحديث عن التركيب : هيجل هو الموضوع ، والماديـــة الاقتصادية هى نقيض الموضوع ، وانتقائيـــة الذاتيين الروس الحاليين هى مركب الموضوع . وكيف يمكن ان يقاوم المرء اغراء

---

* المصدر ذاته ، ص ٥١ و٥٢ .

www.kassioun.org

مثل هذه «الثلاثية» ؟ وعندئذ بدأنا فى استرجاع العلاقة الحقيقية بين نظرية ماركس التاريخية وبين فلسفة هيجل .

وقد «لاحظنا» قبل كل شيء ان الحركة التاريخية عند هيجل لا تفسرها **على الاطلاق افكار الناس او فلسفتهم . فالماديون الفرنسيون فى القرن الثامن عشر** هم الذين فسروا التاريخ بافكار الناس ، «بآراء» الناس . وقد سخر هيجل من مثل هذا التفسير قائلا : ان العقل بالطبع يحكم التاريخ ، لكنه ايضا يحكم حركة الاجرام السماوية ، فهل هى تعى حركتها ؟ وتطور البشرية التاريخى معقول بمعنى انه يتوافق مع القانون ، لكن توافق الحركة التاريخية مع القانون لا يشهد على الاطلاق على ضرورة البحث عن السبب النهائى لها فى افكار الناس وفى آرائهم ؛ بل بالعكس تماما ، فان هذا التوافق مع القانون يبين ان الناس يصنعون تاريخهم دون وعى .

ثم اضفنا : اننا لا نذكر ماذا بدت عليه افكار هيجل التاريخية فى مؤلفات «لويس» ، لكن كل من قرأ كتاب هيجل الشهير «Philosophie der Geschichte» * يتفق معنا فى اننا لا نشوهها . وعلى هذا فحين يكرر انصار المادية «الاقتصادية» ان فلسفة الناس ليست هى التى تحدد وجودهم الاجتماعى ، لا يناقضون هيجل باى حال ، ومن ثم فانهم لا يمثلون نقيض الموضوع بالنسبة له فى **هذا الشأن** . ويعنى ذلك ان التركيب عند السيد ميخايلوفسكى سيكون غير موفق ، حتى ولو لم يقتصر صاحبنا على تكرار فكرة الشماس .

ويرى السيد ميخايلوفسكى ان القول بان الفلسفة ، اى افكار الناس ، لا تفسر تاريخهم ، لم يكن امرا ممكنا الا فى المانيا فى العقد الخامس ، حين لم تكن قد اتضحت بعد الثورة ضد المذهب الهيجلى . ونرى الآن ان مثل هذا الرأى لا يستند فى احسن الحالات الا الى كتاب «لويس» .

لكن المثال التالى ، بالاضافة الى سابقه ، يوضح مدى ضآلة ما كشفه «لويس» للسيد ميخايلوفسكى عن مجرى تطور الفكر

---

* [«فلسفة التاريخ» .]

www.kassioun.org

الفلسفى فى المانيا . فكاتبنا يقتبس بكل سرور رسالة بيلينسكى الشهيرة التى ينحنى فيها هذا الاخير «لطاقية» هيجل «الفلسفية» (١٠٤) . ومن بين ما يقوله بيلينسكى فى رسالته هذه «ان مصير ذات ، فرد ، شخصية ، اكثر اهمية من مصير العالم كله ومن عافية امبراطور الصين (اى Allgemeinheit * الهيجلية)» . ويثير السيد ميخايلوفسكى عديدا من الملاحظات حول هذه الرسالة ، لكنه لا «يلحظ» ان بيلينسكى قد اقحم Allgemeinheit الهيجلية فى غير مكانها على الاطلاق . يبدو ان السيد ميخايلوفسكى يظن ان Allgemeinheit الهيجلية هى الروح او الفكرة المطلقة ذاتها ، لكن Allgemeinheit لا تشكل عند هيجل حتى السمة الرئيسية المميزة للفكرة المطلقة . ولا تشغل Allgemeinheit فى مؤلفاته مكانا اكبر مما تشغله مثلا Besonderheit أو Eeinzelheit * * . وبالتالى ليس مفهوما لماذا تسمى Allgemeinheit بامبراطور الصين ، ولماذا تستحق ، على خلاف اخواتها ، عناية وانحناء ساخرا . قد يبدو هذا شيئا تافها لا يستحق اهتماما فى الوقت الحاضر ، لكن الامر على خلاف ذلك : فان Allgemeinheit الهيجلية التى اسىء فهمها ، ما زالت تمنع السيد ميخايلوفسكى ، مثلا من فهم تاريخ الفلسفة الالمانية ، وهى تمنعه من ذلك الى حد انه حتى «لويس» لا يستطيع ان ينقذه من المأزق .

لقد ادى تقديس Allgemeinheit بهيجل ، فى نظر السيد ميخايلوفسكى ، الى النفى الكامل **لحقوق الفرد** . فهو يقول : «ليس ثمة مذهب فلسفى يعامل الفرد بمثل هذا الاحتقار المميت و(هذه ؟) القسوة الباردة ، التى يعامله بهما المذهب الهيجلى» (ص ٥٥) . ولا يمكن ان يكون هذا صحيحا الا بالاستناد الى «لويس» . لماذا اعتبر هيجل تاريخ الشرق اول مرحلة فى تطور البشرية **وادناها** ؟ لان **الفرد** لم يتطور فى الشرق ولا يزال غير متطور حتى ذلك الحين . لماذا تحدث هيجل بحماس عن اليونان القديمة التى يشعر الانسان الحديث عند قراءة تاريخها وكأنه وصل اخيرا «الى داره» ؟

---

* [الكلية .]
* * [الخاصية او التفرد .]

www.kassioun.org

لان شخصية الفرد ازدهرت فى اليونان («الفردية الجمليـــة» «schöne Individualität»). لماذا تحدث هيجل بمثل هذا الاعجاب عن سقراط ؟ لماذا كان هو الذى منـــح حتى **السوفسطائيين** – وربما كان اول من فعل ذلك من بين مؤرخى الفلسفـــة – حقهم المشروع ؟ أكان ذلك حقا لانه احتقر الفرد ؟

لقد سمع السيد ميخايلوفسكى صوت ناقوس لكنه لا يعرف مصدره .

لم يكن هيجل يحتقر الفرد ، بل اكثر من ذلك خلق عبـــادة **الابطال** التى ورثها عنه باكملها فيما بعد برونو باور . فالابطال عند هيجل هم اداة الروح الكونى ، وهم بهذا المعنى كانوا **غير احرار** . وثار برونو باور ضد «**الروح**» وحرر بذلك «**الابطـــال**» . فابطال «**الفكر النقدى**» لديه هم الصنـــاع الحقيقيون للتاريخ **فى مواجهة** «**الجماهير**» ، التى تنتهى فى آخر المطـــاف – بالرغم من انها تسيل دموع الغيظ من الابطال ببلادتها وتثاقلها – بالسير فى الطريق الذى شقه وعى الابطال الذاتى . وانتقلت المقابلة بين «**الابطال والجماهير**» («الغوغاء») من برونو باور الى ابنائه الروس غير الشرعيين ، ونحن نستمتع الآن بتأملها فى مقالات السيـــد ميخايلوفسكى . ولا يتذكر السيـــد ميخايلوفسكى قرابتـــه الفلسفية – وليست هذه فضيلة منه .

وهكذا وجدنا انفسنـــا فجأة امام عناصر «لتركيب» جديد . **فالموضوع** هو العبادة الهيجليـــة للابطال الذين يخدمون الروح الكونى ، **ونقيض الموضوع** هو عبادة باور لابطال «الفكر النقدى» الذين لا يسترشدون الا «بوعيهم الذاتى» ، ثم **مركب الموضوع** وهو نظرية ماركس التى توفق بين النقيضين ، وذلك بتصفيـــة الروح الكونى ، وتفسير نشأة وعى الابطال الذاتى بفعل تطور البيئة .

ويجب ان يذكر خصومنا المتحيزون «للتركيب» ان نظريـــة ماركس لم تكن اول رد فعل ، رد فعل **مباشرا** ضد هيجل ، وان رد الفعل الاول فى المانيا – وقد كان سطحيا بسبب احاديـــة الجانب – هو افكار فورباخ ، وبالاخص **افكار برونو باور** الذى كان يجب ان يعترف ذاتيونا منذ عهد بعيد بقرابتهم له .

www.kassioun.org

وثمة عدد آخر غير قليل من الافكار غير الصائبة اطلقهـــا السيد ميخايلوفسكى حول هيجل وحول ماركس فى مقاله ضد السيد ب . ستروفه . ولا يسمح المجال بتعدادها هنا . ولذا سنقتصر على ان نقدم لقرائنا القضية الشيقة التالية .

بالنظر الى السيد ميخايلوفسكى ، وبالنظر الى جهله المطبق بهيجل ، وبالنظر الى عدم فهمـــه الكامل لماركس ، وبالنظر الى تطلعه الدؤوب الى مناقشة هيجل وماركس والعلاقة المتبادلـــة بينهما ، فالقضية هى : كم عدد الاخطاء الاخرى التى سيرتكبهـا السيد ميخايلوفسكى بفضل تطلعه هذا ؟

ولكن من المشكوك فيه ان احدا يستطيـــع ان يحل هذه القضية : فهى معادلة ذات مجهولات عديدة . وليس ثمـــة غير طريقة واحدة لاحلال مقادير معلومة فيها محل **المقادير المجهولة** ، الا وهى ان نقرأ مقالات السيد ميخايلوفسكى باهتمام **ونلحظ اخطاءه** . ان هذه مهمة غير سارة وغير سهلة اذ سيكون هناك عدد هائل من الاخطاء لو لم يتخلص السيد ميخايلوفسكى من عادتـــه السيئة ، عادة مناقشة الفلسفة دون ان يستشير مقدما اولئك الذين يعرفون عنها اكثر مما يعرف .

ولن نتعرض هنا للنقد الذى وجهـــه السيد ميخايلوفسكى للسيد ب . ستروفه . ففيما يتعلق بهذا النقد ينتمى السيـــد ميخايلوفسكى الآن الى مؤلف «ملاحظات نقدية حول مسألة تطور روسيا الاقتصادى» ، ولا نريد ان نعتدى على حقوق الغير . الا اننا نأمل ان يغفر لنا السيد ستروفه اذا سمحنا لانفسنا بان نقدم «ملاحظتين» صغيرتين .

يشعر السيد ميخايلوفسكى بالاهانة لان السيد ب . ستروفه «قد هاجمه» بعلامة استفهام ، وهو يشعر بالاهانة الى حد انه لا يقتصر على الاشارة الى اخطاء لغويـــة عند السيد ستروفه ، بل يتهمه بانه «غير روسى» ، ويذكر قصة المانيين قال احدهما انه قد «اصاد» غرابا ، فصحح له الآخر حديثه قائلا ان قواعد اللغة الروسية تتطلب «استصاد» . على اى حال لمـــاذا رفع السيد ستروفه يده وبها علامة استفهام ضد السيد ميخايلوفسكى ؟ كان ذلك بسبب كلماته : «بدأ النظام الاقتصادى الحديث فى اوروبا

www.kassioun.org

يتكون فى وقت لم يكن فيه العلم الذى يدير مجال هذه الظواهر قد ظهر الى الوجود بعد» ، الخ . . وكانت مسألة علامة الاستفهام حول كلمة «يدير» . ويقول السيد ميخايلوفسكى «قد لا تبدو هذه الكلمة غير ملائمة فى الالمانية (**فى الالمانية** ، يا للسخرية اللاذعة !) ولكنى اؤكد لك ، ايها السيد ستروفه ، انها فى الروسية لا تثير سؤال احد ولا تتطلب علامة استفهام» . وكاتب هذه السطور يحمل اسما روسيا خالصا ، ولديه من الروح الروسية مثلما لدى السيد ميخايلوفسكى : ولن يجرؤ اكثر النقاد سخرية على ان يسميه المانيا ، ورغم هذا فان كلمة «يدير» تثير التساؤل لديه . وانه ليتساءل : اذا كان فى وسع المرء ان يقول ان علما ما **يدير** مجالا معينا من الظواهر ، ألا يستطيع المرء بعد ذلك ان يرقى الفنون التكنيكية الى مستوى **رؤساء الوحدات الخاصة** ؟ أفلا يستطيع المرء مثلا ان يقول ان فن اختبار المعادن يامر السبائك ؟ وهذا فى رأينا امر غريب ، فمن شأن هذا التعبير ان يضفى على الفنون **مظهرا عسكريا للغاية** ، تماما كما تضفى كلمة **يدير** على العلم مظهر **البيروقراطى** . ومن ثم فان السيد ميخايلوفسكى مخطئ . تلقى السيد ب . ستروفه علامة الاستفهام فى صمت ، ومن غير المعروف ماذا كان تصويبه ، لو كان ، لتعبير السيد ميخايلوفسكى غير الموفق . ولنفترض انه قد «اصاد» غرابا ، لكن **الحقيقة الواقعة هى** ، ويا للاسف ، ان السيد ميخايلوفسكى قد «استصاد» عدة غربان ، مع انه ليس «غير روسى» على الاطلاق !

اثار السيد ميخايلوفسكى فى مقاله ضجة مضحكة حول كلمات السيد ستروفه التالية : «كلا ، دعونا نعترف بفقرنا الحضارى ولنتعلم من الرأسمالية» . ويريد السيد ميخايلوفسكى ان يعرض الامور على نحو وكأن هذه الكلمات كانت تعنى : «**فلنسلم المنتج ضحية للمستغل**» . وقد يكون من السهل على السيد ستروفه ان يدلل على عبث جهود السيد ميخايلوفسكى ، الذى يراه على الارجح كل من قرأ «الملاحظات النقدية» باهتمام . لكن السيد ستروفه قد استخدم مع ذلك تعبيرا غير موفق جدا ، مما اغرى العديد من البسطاء وسر بعض البهلوانات . ونحن نقول للسيد ستروفه :

www.kassioun.org

تعلم من هذا درسا ، وتذكر السادة البهلوانات بان بيلينسكى فى آخر ايامه ، وبعـــد ان كان قد ودع «Allgemeinheit» * **من** زمان ، قد عبر فى احدى رسائله عن فكرة هى ان المستقبـــل الحضارى لروسيا لا تكفله **سوى البورجوازية** . وقد كان هذا التعبير تهديدا غير لبق عند بيلينسكـــى . ولكن ماذا اثـــاره لاستخدام هذا التعبير ؟ اثاره **الانبهـــار النبيل بالغرب** (١٠٥) . ونحن مقتنعون بان نفس هذا الانبهار هو الذى ادى الى غرابـــة تعبير السيد ستروفه . وليس مسموحا باثارة الضجة حول غرابة التعبير الا لاولئك الذين ليس لديهم ما يرد به مثلا على حجج هذا الكاتب الاقتصادية .

وقد تألب السيد كريفينكو ايضا على السيد ب . ستروفه . فلديه مبرر خاص للشعور بالاهانة . فلقد ترجم مقطعا من مقال بالالمانية للسيد ب . ستروفه ترجمة خاطئة ، ففضحـــه هذا الاخير . ويبحث السيد كريفينكو عن تبرير لنفسه ، ويحاول ان يوضح ان الترجمة تكاد تكون صحيحـــة ؛ لكن هذا التبرير عذر اعرج ، ويبقى مذنبا لتشويهه عبارات خصمه . لكنك لا تستطيع ان تطلب الكثير من السيد كريفينكو بسبب شبهه غير المشكوك فيه لطائر قيل عنه :

العنقاء ، هذا الطائر السماوى
صوته فى الغناء ذو نبرة عالية
وحين يسبح بحمد الله
ينسى نفسه

وحين يبكت السيد كريفينكو «التلاميذ» ينسى نفسه . فلماذا لا تدعه وشأنه ، ايها السيد ستروفه ؟

---

* [« الكلية »]

www.kassioun.org

ملحق رقم ٢

بضع كلمات لخصومنا (١٠٦)

فى الوقت الاخير تثار فى مطبوعاتنا من جديد مسألة اى طريق سيتخذه التطور الاقتصادى فى روسيـــا ؟ وهى مسألة تناقش باستفاضة وحماس ، بحيث ان اناسا معروفين بسلامـــة عقولهم يضايقهم ما يمكن ان يبدو بشكـــل حرارة زائدة بين الطرفين المتنازعين ، وهم يقولون : لماذا تنفعلون ، لمـــاذا توجهون التحديات الابية واللوم المرير لخصومكم ، لماذا تسخرون منهم ؟ أليس من الافضل ان ندرس بهدوء مسألة ذات اهمية هائلة حقا لبلادنا تستدعى ، بحكم اهميتها ذاتها ، مناقشة هادئة ؟

وذوو الادراك السليم ، كما هى الحال دائما ، محقـــون ومخطئون فى نفس الوقت . حقا ، ما الداعى لمثل هذه الحميـــة والانفعال من جانب كتاب ينتمون الى معسكرين مختلفين ، يسعى كل منهما ، باقصى ما يصل اليه فهمه وقوته وقدرته ومهما كان ما يقوله خصومه ، الى الذود عن اهم مصالح الشعب واكثرهـــا حيوية ؟ ومن الجلى انه ما ان توضع المسألة هذا الموضع حتى يكون الجواب مباشرا وقاطعا بالاستناد الى موعظتين او ثلاث يمكن ان توجد على غلاف اى كراس مثل : التسامح فضيلة ، احترام آراء الآخرين حتى لو كانت تختلف جذريا عن آرائك وما الى ذلك . وكل هذا جميل ، وقد «قيل للعالم» منذ وقت طويل مضى . ولكن لا يقل صدقا عن ذلك ان البشر كانوا ينفعلون ولا يزالون وسوف ينفعلون حينما دار الحديث او يدور او سوف يدور عن مصالحهم الحيوية . تلك هى طبيعة الانســـان – نستطيع ان نجيب هذه

www.kassioun.org

الاجابة لو لم نكن نعرف مدى اساءة استعمال هذا التعبير . والامر لا يتوقف عند هذا الحد . ذلك ان المسألة الرئيسية هى انه ليس ثمة مبرر لان نأسف نحن البشر على ان هذه هى «طبيعتنا» . فما من خطوة واسعة فى التاريخ قد تحققت من غير مشاركة الانفعال ، الذى هو قوة عظمى للتقدم ، فهو يضاعف القوة المعنوية ويشحذ حدة الكفاءات العقلية للشخصيات الاجتماعية . وليس فى الامكان مناقشة اى مسألة اجتماعية من غير انفعال ما لم تكن تافهة فى ذاتها ، او لم تصبح بعد مسألة **عاجلة** بالنسبة للبلد المعين والزمن المعين ، ومن ثم فهى لا تهم الا حفنة من المفكرين فى ابراجهم العاجية . اما حين تصبح مسألة اجتماعية كبرى مسألة عاجلة ، فانها ستثير حتما انفعالات قوية ، مهما دعا دعاة الاعتدال الى الهدوء .

ومسألة التطور الاقتصادى لبلادنا هى بالتحديد تلك المسألة الاجتماعية الكبرى التى لا يمكننا مناقشتها باعتدال ، لسبب بسيط هو انها قد اصبحت **مسألة عاجلة** . وليس معنى هذا بالطبع ان الاقتصاديات لم تكتسب اهميتها الحاسمة فى تطورنا الاجتماعى الا اليوم . فلقد كانت لها هذه الاهمية دائما وفى كل مكان . لكن هذه الاهمية فى بلادنا ، كما فى غيرها ، لم تكن دائما مدركة بوعى من جانب المهتمين بالمسائل الاجتماعية ، ومن ثم فقد ركزوا عواطفهم على مسائل لا ترتبط بالاقتصاديات الا ارتباطا بعيدا . ولنذكر مثلا العقد الخامس فى بلادنا . لكن الامر لم يعد كذلك اليوم . فقد ادرك الاهمية الاساسية الكبرى للاقتصاديات فى بلادنا حتى اولئك الذين يثورون بحماس ضد نظرية ماركس التاريخية «**الضيقة**» . واليوم يدرك كل المفكرين ان مستقبل بلادنا سيتشكل بالطريقة التى ستتم الاجابة بها على مسألة تطورنا **الاقتصادى** . وهذا هو السبب فى انه يركز حتى المفكرون ، الذين ليسوا «ضيقين» البتة ، كل حماسهم حول هذه المسألة . غير انه اذا لم يكن فى امكاننا الآن ان نناقش هذه المسألة **باعتدال** ، فاننا نستطيع ، بل يجب علينا الا **نتعدى الحدود** ، سواء فى تحديد افكارنا او فى اساليب جدالنا . وذلك مطلب لا يمكن ان يثار ضده اعتراض . ويعرف الغربيون جيدا ان الحمية الجدية تستبعد

www.kassioun.org

تعدى الحدود ، ولكن ما زال البعض فى بلادنا يعتبرهما احيانا صنوين لا يفترقان . وقد حان الوقت لان نتعلم نحن ايضا آداب الحديث .

وواضح اننا تعلمناها بالفعل الى حد كبير فيما يتعلق بالتهذيب الادبى ، الى حد ان رجلنا «التقدمى» السيد ميخايلوفسكى يلوم الالمان (ماركس وانجلس ودوهرنج) زاعما انه يجد فى مجادلاتهم «اقوالا عقيمة تماما او اقوالا تشوه الامور وتنفر المرء بفظاظتها» . ويذكر السيد ميخايلوفسكى ملاحظة بيرنى عن ان الالمان «كانوا دائما افظاظا فى الجدال» . ثم يضيف : «واخشى ان تكون هذه الفظاظة الالمانية التقليدية قد نفذت مع غيرها من التأثيرات الالمانية الى بلادنا بل زادتها بربريتنا عمقا ، بحيث يتحول الجدال الى شتم بوتوك-بوجاتير الذى وصفه أ . تولستوى على لسان اميرته :

انت ايها الطفيلى ، الغشاش ، العبد الجاهل !
فليصب الطاعون احشاءك ولتتعفن !
انت ايها العجل ، الخنزير ، الحلوف ، انت ايها الاسود ،
يا ابن الشيطان ، يا ايها القذر !
لولا ان خجلى العذرى
يمنعنى من ان استخدم كلمات اقوى ،
لما كانت هذه اللعنات فقط ، ايها الوغد الوقح ،
هى التى اصبها على راسك !» *

وليست هذه هى المرة الاولى التى يشير فيها السيد ميخايلوفسكى الى اميرة تولستوى البذيئة . فلقد نصح الكتاب الروس مرارا بالا يتشبهوا بها فى مجادلاتهم . ونحن لا ننكر انها نصيحة رائعة ، بيد انه من المؤسف ان صاحبنا نفسه لم يتبعها دائما . فنحن نعلم مثلا انه قد سمى احد خصومه **بقة** ، وسمى آخر **بهلوانا ادبيا** . وهو زين جداله مع السيد دى لا سيردا بالعبارة التالية : «ومن بين كل اللغات الاوروبية لا تعنى كلمة

---

* «روسكويه بوجاتستفو» ، الكتاب الاول ، عام ١٨٩٥ ، مقال «الادب والحياة» .

www.kassioun.org

la cerda معنى محددا الا فى الاسبانية ومعناها الخنزير» . اما لماذا كان على الكاتب ان يقول ذلك فمن الصعب فهمه .

وقد علق السيد دى لا سيردا على ذلك قائلا : «لطيف ، أليس كذلك ؟» . نعم ، لطيف جدا وبروح اميرة تولستوى تماما . لكن الاميرة كانت اكثر صراحة ، وحين كانت تريد ان تشتم كانت تصرخ قائلة : عجل ، خنزير ، حلوف ، الخ . ولم تكن تعتدى على اللغات الاجنبية لكى تقول كلمة بذيئة لخصمها .

فاذا قارنا السيد ميخايلوفسكى باميرة تولستوى لوجدناه يحتقر كلمات مثل «اسود» و«ابن الشيطان» وما اليها ويركز ، اذا امكن القول ، على تسميات من الحيوانات سميكة الجلد . فنجده يستخدم كلمات مثل : «حلوف» و«خنزير» ، بل خنازير من مختلف الانواع : هاملتى ، اخضر ، الخ . . وهذا قوى جدا وان يكن رتيبا . وبشكل عام لو تحولنا من عبارات اميرة تولستوى البذيئة الى عبارات صاحبنا عالم الاجتماع الذاتى لرأينا ان **المفاتن الحية تزهر فى صورة اخرى** ، لكنها لا تقل قوة وتعبيرا عن السحر الجدالى للاميرة المتوثبة . يقول السيد ميخايلوفسكى : « Est modus in rebus * او كما يقول الروس : يجب ان تعرف اين تقف» . ولا شىء اكثر صدقا من ذلك وانا لنأسف من قلوبنا على ان صاحبنا عالم الاجتماع المحترم كثيرا ما ينساه . وانه ليستطيع ان يصيح عن نفسه بشكل مسرحى :

. . . Video meliora, proboque,
Deteriora sequor!**

ونحن نأمل ان يصبح السيد ميخايلوفسكى مهذبا مع مرور الايام ، وان تتغلب فيه النوايا الطيبة فى النهاية على «بربريتنا» ، وان يكف عن الصراخ فى خصومه «حلوف» و«خنزير» . فالسيد ميخايلوفسكى نفسه يعتقد بحق ان la raison finit toujours par avoir raison * * * .

---

* [هناك حد لكل شىء]
** [. . . انى ارى الافضل واوافق عليه ، لكنى اتبع الاسوأ !]
*** [يكون العقل دائما على حق فى التحليل النهائى .]

www.kassioun.org

ولم يعد جمهور قرائنا يوافق على الجدال الحاد ، لكنـــه فى رفضه له يخلط بين حدة النقاش وبين الفظاظة ، فى حين انهما إبعد من ان يكونا شيئا واحدا . وقد اوضـــح بوشكين الفرق الشاسع بين الحدة والفظاظة :

الشتائم فى بعض الاوقات بذاءة بالطبع .
فلا يجوز ان تكتب : هذا العجوز
هو الماعز ذو النظارة ، هو الكاذب الحقير
هو الشرير والخبيث ـ فهذا شخص معين .
لكنك تستطيع ان تكتب وتنشر مثلا ما يلى :
ان «هذا الشاعر من اتباع الدين القديم
(فى مقالاته) ثرثار لا معنى لكلامه ،
فاتر ابدا ، ممل ابدا
سمج بل غبى» .
فهنا تتحدث لا عن شخص بل عن مؤلف (١٠٧) .

فاذا اردت ان تتحـــدث .كاميرة تولستوى او السيـــد ميخايلوفسكى وتسمى خصمك «حلوفا» او «بقـــة» فانك «**تصف شخصا**» ، لكن اذا اردت انْ تثبت ان عالم اجتماع او فيلسوف تاريخ او اقتصاديا من اتباع الدين القديم «فاتر ابدا ، ممل ابدا ، سمج بل» . . . غبى فى مقالاته و«كتبه» او «ابحاثه» ، وانك «هنا تتحدث لا عن شخص بل عن مؤلف» فسيكون هذا حـــدة وليس فظاظة . وقد يكون حكمك خاطئـــا ، ويفعل خصومك خيرا اذا كشفوا هذا الخطأ . ولكن سيكون من حقهم ان يتهموك بالخطـــأ وليس بالحدة فى النقاش ، فبدون مثل هذه الحـــدة لن يتطور الادب . ولو حاول الادب الاستغناء عنها لاصبح فورا ، كما قال بيلينسكى ، **مكررا مداهنا لكلمات مبتذلة رثة** ، وهو امر لا يريده له الا اعداؤه .

اما الذى اثار ملاحظة السيد ميخايلوفسكى حول الفظاظـــة الالمانية التقليدية وبربريتنا فهو «الكتاب الشيق» الذى الفـــه السيد ن . بيلتوف «فى تطور النظرة الواحدية الى التاريخ» . وقد اتهم كثيرون بيلتوف بالحدة الزائدة عن اللزوم فى النقاش . فمثلا كتب احد محررى «روسكايا ميسل» بصدد هذا الكتـــاب يقول :

www.kassioun.org

«دون ان نتبنى نظرية المادية الاقتصادية ، الاحادية الجانب فى نظرنا ، فاننا على استعداد ، لصالح العلم ولصالح حياتنا الاجتماعية ، لان نرحب بممثلى هذه النظرية ، اذا لم يستخدم بعض منهم (السيد ستروفه والسيد بيلتوف) حدة اكثر من اللازم فى مجادلاتهم ، واذا لم يسخروا من كتاب مؤلفاتهم جديرة بالاحترام» (١٠٨) .

وقد نشرت هذا نفس «روسكايا ميسل» التى كانت منذ وقت طويل مضى تصف انصار المادية «الاقتصادية» بانهم «بليدو الفهم»، واعلنت ان كتاب السيد ستروفه ثمرة اطلاع لم يهضم ، وعجز كامل عن التفكير المنطقى . ولا تحب «روسكايا ميسل» الحدة الزائدة ، ولذا فقد وصفت انصار المادية الاقتصادية مستخدمة عبارات هادئة كما يرى القارئ . اما الآن فانها مستعدة ، لصالح العلم ولصالح حياتنا الاجتماعية ، لان ترحب بممثلى هذه النظرية . ولكن لماذا ؟ هل يمكن ان يؤدى بليدو الفهم الكثير لحياتنا الاجتماعية ؟ هل يمكن ان يكسب العلم كثيرا من الاطلاع غير المهضوم ، والعجز الكامل عن التفكير المنطقى ؟ يبدو لنا ان الخوف من الحدة الزائدة يقود «روسكايا ميسل» بعيدا جدا ، ويجبرها على ان تقول اشياء قد تدفع القراء الى الظن انها ذاتها عاجزة عن هضم شىء ، وعن التفكير المنطقى .

ولم يلجأ السيد ستروفه ابدا الى اى شكل من اشكال الحدة (ولا نتكلم هنا عن الحدة الزائدة) ، واذا كان السيد بيلتوف قد فعل ذلك فهو من النوع الذى كان بوشكين سيقول عنه انه يتناول المؤلفين وحدهم ولهذا فهو جائز تماما . ويرى محرر «روسكايا ميسل» ان المؤلفات التى يسخر من كتابهم بيلتوف جديرة بالاحترام . ولو كان السيد بيلتوف يشاطره هذا الرأى لكان من غير اللائق بالطبع ان يسخر منها . لكن ماذا يكون الحال اذا كان مقتنعا بالعكس ؟ ماذا يكون الحال اذا بدت له «مؤلفات» هؤلاء السادة مملة وسمجة وفارغة تماما بل ضارة فى يومنا هذا ، حين صارت الحياة الاجتماعية شديدة التعقيد ، واصبحت تتطلب جهدا عقليا جديدا من جانب اولئك الذين لا ينظرون الى العالم «حاشرين اصابعهم فى انوفهم» على حد تعبير جوجول . وقد يبدو هؤلاء الكتاب

www.kassioun.org

لمحرر «روسكايا ميسل» مصابيح مضيئة ، ومنارات للخلاص لكن ماذا اذا كان السيد بيلتوف يعتبر انهم يخمدون الفكـــر ويخدرونه ؟ سيقول المحرر ان السيـــد بيلتوف مخطئ . وهذا حقه ، لكن على المحرر ان يثبت رأيه ، والا يقنع بمجرد ادانـــة «الحدة الزائدة» . ما هو رأى المحرر فى جريتش وبولجارين ؟ اننا على ثقة انه لو عبر عن رأيه فان جانبا معينا من صحافتنا سيعتبره شديد الحدة . فهل يعنى هذا انه ليس من حق السيد محـــرر «روسكايا ميسل» ان يقول رأيه بصراحـــة فى النشاط الادبى لجريتش وبولجارين ؟ ونحن بالطبع لا نعتبر اولئك الذين يتناقش معهم السيدان ب . ستروفه ون . بيلتوف من نفس فئة جريتش وبولجارين . ولكننا نسأل محرر «روسكايا ميسل» : لماذا يسمح التهذيب الادبى للمرء بان يتحدث بحدة عن جريتش وبولجارين لكنه يمنعه من ان يفعل ذلك مـــع السيدين ميخايلوفسكـــى وكارييف ؟ واضح ان السيد المحرر يعتقد انه ليس هناك حيوان اقوى من القط ، وان القط يستحق بالتالى – على عكس الحيوانات الاخرى – ان يعامل باحترام خاص . لكن من حق المرء على اى حال ان يشك فى ذلك . فنحن مثلا لا نعتقد ان القط الذاتى حيوان شديد القوة ، بل نعتبره حيوانا قد انقرض الى حد كبير ، ولذا فانه لا يستحق اى احترام خاص . ونحن على استعداد لان نناقش المحرر اذا لم يكن يتفق معنا ، لكننا نسأله قبل ان ندخل فى هذا النقاش ان يستوضح الفارق القائم بلا شك بين **حدة الحكم وبين فظاظة التعبير الادبى** . وقد عبر السيدان ستروفه وبيلتوف عن احكام تبدو للكثيرين حادة . ولكن هل لجأ احدهما ابدا ، دفاعا عن رأيه ، الى مثل هذه الشتائم الفظـــة التى لجأ اليها مرارا فى مناوشاتـــه الادبيـــة السيـــد ميخايلوفسكـــى ، هـــذا الـ Miles Glorious * لادبنا «التقدمى» ؟ ان واحدا منهما لم يفعل ذلك ، وعلى محرر «روسكايا ميسل» ان يوفيهما حقهما لو انـــه تأمل فى الفارق الذى اشرنا اليه بين حدة الحكم وبين فظاظـــة التعبير .

---

* [المحارب المجيد]

www.kassioun.org

وبالمناسبة عن محرر «روسكايا ميسل» . انه يقول : «يوزع السيد بيلتوف دون تكلف على الاقل اتهاماته لهذا الكاتب او ذاك بانه يتحدث عن ماركس دون ان يقرأه ، وبانه يدين الفلسفة الهيجلية دون ان يتعرف عليها شخصيا ، الخ . . وبالطبع لا بأس عليه الا يرتكب فى نفس الوقت اخطاء من هذا القبيل ، وبالاخص حول اكثر المسائل اساسية . بيد ان السيد بيلتوف يتفوه بافظع هراء عن هيجل بالتحديد . فنحن نقرأ فى ص ٨٦ من الكتاب المذكور : «اذا كان علم الطبيعة الحديث يؤكد فى كل خطوة الفكرة التى عبر عنها هيجل بمثل هذه العبقرية ، فكرة ان الكم يتحول الى كيف فهل يمكن القول بان هذا العلم لا علاقة له بالهيجلية ؟» لكن المصيبة ، ايها السيد بيلتوف ، هى ان هيجل لم يؤكد ذلك ، بل كان يثبت العكس : فعنده يتحول الكيف الى كم» . — ولو اننا قلنا ما نعتقده عن فكرة السيد المحرر عن فلسفة هيجل ، فلربما بدا له حكمنا منطويا على «حدة زائدة» . لكن اللوم لا يقع علينا . ففى وسعنا ان نؤكد للسيد المحرر ان كل من قرأ مقاله ممن لديهم معرفة ولو قليلة بتاريخ الفلسفة قد اصدر حكما حادا جدا .

ولا يمكن ان يطالب المرء بالطبع بان يتلقى صحفى تعليما فلسفيا مناسبا ، لكنه يستطيع ان يطالبه بالا يأخذ حريته فى الحكم حول مسائل لا يعرف عنها شيئا ، والا فسيقول عنه من يعرف الموضوع اشياء «حادة» جدا .

جاء فى الجزء الاول من «الانسيكلوبيديا» لهيجل ، وبالضبط فى تذييل لبند ١٠٨ عن المقياس : «ما زال الكيف والكم متمايزين غير متطابقين . ولذلك فان هذين التعريفين مستقلان الى حد ما عن احدهما الآخر ، بحيث ان الكم من ناحية يمكن ان يتغير دون ان يتغير كيف الشىء ، ولكن من ناحية اخرى ، فان لزيادته او نقصه الذى قد لا يتأثر به الشىء فى البداية ، حدا يتغير الكيف بعده . وهكذا مثلا فان التغيرات فى درجة حرارة الماء لا تؤثر فى البداية على حالة السيولة ، ولكن اذا استمرت زيادة او نقص درجة الحرارة فنصل الى نقطة تمر بها حالة التماسك بتغير كيفى ، ويتحول الماء الى بخار او الى ثلج . فيبدو فى البداية انه ليس

www.kassioun.org

للتغير الكمى تأثير ايا كان على الطبيعة الاساسية للشيء ، لكن ثمة شيئا آخر خلفه . وهذا التغير الذى يبدو بسيطا للكم وغير ملحوظ للشيء يحدث تغييرا فى كيفه» * .

«المصيبة ، ايهـــا السيد بيلتوف ، هى ان هيجل لم يؤكد ذلك ، بل كان يثبت العكس» . أما زلت ، يا سيدى المحرر ، تظن ان المصيبة تكمن هنا بالضبط ؟ ** ربما تكون قد غيرت الآن رأيك حول هذا الموضوع ؟ فاذا كنت قد فعلت ، فما هى المصيبة حقا ؟ نستطيع ان نخبرك لولا اننا نخشى ان تتهمنـــا بالحدة الزائدة .

ونكرر قولنا ان المرء لا يمكن ان يطالب بـــان يعرف كل صحفى تاريخ الفلسفـــة ، ومن ثم فان مصيبة محرر «روسكايا ميسل» ليست كبيرة كما يبدو لدى الوهلة الاولى . لكن «**المصيبة هى**» ان هذه **المصيبة** ليست آخر مصائبه . فثمة مصيبة ثانية اهم واسوأ من الاولى : هى انه لم يحمل نفسه مئونة قراءة الكتـــاب الذى يعرضه .

ففى ص ٧٥–٧٦ مـــن هذا الكتاب [ص ٨١ من الطبعـــة الحالية] قدم السيد بيلتوف اقتباسا طويلا الى حد ما عن كتاب المنطق الكبير لهيجل («***Wissenschaft der Logik»). وهذه هـى بداية الاقتباس : «فالتغيرات فى الوجود لا تقتصر على ان كمية ما تتحول الى كميـــة اخرى ، وانما تنسحب كذلك على ان الكيف يتحول الى كم والعكس بالعكس ، الخ . .» (ص ٧٥) .

ولو كان السيد المحرر قد قرأ هذا الاقتباس على الاقل ، لما كان قد وقع فى هذه المصيبة ، لانه ما كان «ليؤكد» حينئذ ان «هيجل لم يؤكد ذلك ، بل كان يثبت العكس» .

---

* نقتبس عن ترجمة السيد ف . تشيجوف الروسية (ص ١٩١–١٩٢) .

** يواصل السيد المحرر التمسك برأيه فى الكتاب الثالث مـــن «روسكايا ميسل» وينصح من لا يوافقونه بان يرجعوا «على الاقل» الى الترجمة الروسية كتاب **اوبرويج وهينتز** «تاريخ الفلسفة الحديثة» . ولكن لماذا لا يرجع السيد المحرر «على الاقل» الى هيجل نفسه .

*** [«علم المنطق» .]

www.kassioun.org

ونحن نعرف كيف تكتب استعراضات الكتب فى روسيا – وفى غيرها للاسف . فالمحرر يتصفح الكتاب بسرعة ولا يقرأ فيه الا كل صفحة عاشرة او عشرين مثلا ، ويعلم على الفقرات التى تبدو له ذات شأن . ثم يدون هذه الفقرات ويرفق بها بعض تعبيرات المعارضة او الاتفاق : فهو «متحير» او «يأسف كثيرا» او «يرحب من كل قلبه» – وانتهى الامر ، فالعرض جاهز . ويمكن للمرء ان يتصور اى هراء ينشر نتيجة لذلك ، خصوصا (وهذا ما يحدث كثيرا) اذا لم يكن للمحرر ادنى معرفة بالموضوع الذى يناقشه الكتاب المعنى !

ولن يخطر بذهننا ان نوصى السادة المحررين بان يتخلصوا من هذه العادة السيئـــــة **كلية** : فالقبر وحده هو الذى يشفى الاحدب . الا ان عليهم على الاقل ان يأخذوا عملهم بجدية اكثر قليلا حين يتعلق الامر بمصالح بلادنا الحيوية ، كما هو الحال بالنسبة للنقاش حول تطور روسيا الاقتصادى مثلا . فهل هم سيستمرون فى تضليل جمهور القراء بدون ترو حول هذا الموضوع ايضا باستعراضاتهم الطائشة ؟ على اى حال يجب ان يعرف المرء اين يقف ، كما قال السيد ميخايلوفسكى بحق .

ويستاء السيد ميخايلوفسكى بالمثـــل من اساليب السيد بيلتوف . فهو يقول : «السيد بيلتوف رجل موهوب ، ولا يخلو من ظرافة ، لكنها كثيرا ما تتحول لديه الى مجون سيئ» . لماذا مجون ؟ ومن يسوءه فى الواقع مجون السيد بيلتوف الموهوم ؟

حين سخرت «سوفريمنيك» فى العقد السابـــع من بوجودين مثلا ، فربما بدا له ان هذه المجلة ترتكب مجونا سيئا ، ولم يبد الامر كذلك لبوجودين وحده بل لكل الذين تعودوا احترام هذا المؤرخ الموسكوفى . ألم يكن هناك فى تلك الايام ما يكفى من الهجمات ضد «فرسان الصفير» ؟ ألم يكن هنـــاك ما يكفى ممن ساءهم «لهو المصفرين الصبيانى» ؟ (١٠٩) حسنا فى رأينا ان الظرافة الرائعة «للمصفرين» لم تتحول ابدا الى مجون سيئ . واذا كان اولئك الذين سخروا منهم قد تصوروا العكس فان هذا يرجع الى الضعف الانســـانى الذى جعـــل آمـــوس فيودوروفيتش

www.kassioun.org

ليابكين-تيابكين (١١٠) يعتبر الرسالة التى تصفه بانه «اقرب الى ان يكون جلفا» رسالة «**طويلة اكثر مما ينبغى**» .

– هكذا اذن ! تريدون ان تقولوا ان لدى السيد بيلتوف ظرافة دوبروليوبوف ورفاقه من محررى «الصفارة» ! هذا جميل !– هكذا يصيح اولئك الذين يجدون اساليب السيـــد بيلتوف فى النقاش «غير لطيفة» .

ولكن انتظروا لحظة ، ايها السادة ! نحن لا نقـــارن السيد بيلتوف «بالمصفرين» فى العقد السابع ؛ فكل ما نقوله هو ان السيد ميخايلوفسكى هو الذى يحدد ما اذا كانت ظرافة السيد بيلتوف قد تحولت الى مجون سيئ واين تم ذلك . فمنذا يستطيع ان يكون قاضيا فى قضيته ؟

لكن السيد ميخايلوفسكى لا يتهم السيد بيلتوف «بالمجون السيئ» فحسب ، بل هو يوجه له اتهاما خطيرا . وكى نيسر الامر على القارئ سنسمح للسيد ميخايلوفسكى بان يصـــوغ هذا الاتهام بعباراته :

«فى احدى مقالاتى فى «روسكايـــا ميســـل» ذكرت معرفتى بالمرحوم ن . زيبر ، وقلت عرضا ان هذا العالم المحترم وهو يناقش مستقبل الرأسمالية فى روسيـــا «قد استخدم كل الحجج الممكنة ، لكنـــه عند ادنى خطر كان يختبئ فى ظل التطور الجدلى الثلاثى الذى لا يلغى والذى لا شك فيه» . وبعد ما اورد السيد بيلتوف كلماتى هذه قال : «لقد تناقشنا اكثر من مرة مـــع المرحوم ، ولم نسمع منه مرة واحدة اشارات الى التطور الجدلى ؛ ولقد قال بنفسه اكثر من مرة انه كان يجهل تماما دلالة هيجل فى تطور الاقتصاديات الحديثة . وبالطبع يمكن ان يلقى اى لوم على الموتى ، ومن هنا فان شهادة السيد ميخايلوفسكى لا تدحض» ! . . وانى لاضع الامور بشكل آخر : لا يمكن ان يلقى اللوم دائما على الموتى ، وشهادة السيد بيلتوف تقبل التفنيد تماما . . .

فى عام ١٨٧٩ ظهر مقال لزيبر فى مجلة «سلوفو» بعنوان : «تطبيق الجدل على العلم» . وكان هذا المقال (الذى لم يكملـــه زيبر) محاكاة بل يكاد يكـــون ترجمـــة لكتـــاب انجلس

www.kassioun.org

*«Herrn Dühring's Umwälzung der Wissenschaft» . ومن الصعب كثيرا – لا على زيبر فحسب بل حتى على بوتوك-بوجاتير فى وصف الاميرة الجدالى الذى سبق ذكره – ان يظل بعد ترجمة هذا الكتاب «يجهل تماما دلالة هيجل فى تطور الاقتصاديات الحديثة» . واعتقد ان هذا لا بد ان يكون واضحا للسيد بيلتوف ذاته . وعلى اى حال فساقتبس بضعة سطور من مقدمة زيبر الموجزة : «يستحق كتاب انجلس انتباها خاصا بسبب اتساق وجدية المفهومات الفلسفية والاجتماعية الاقتصادية التى يعرضها ، وكذلك لانه يقدم ، حين يشرح التطبيق العملى لمنهج التناقضات الجدلية ، عديدا من التوضيحات والامثلة الواقعية التى تساعد كثيرا فى الاطلاع المعمق على منهج البحث عن الحقيقة ، ذلك المنهج الذى يمتدحه البعض بشدة ، فى حين يهاجمه البعض بقوة . ويمكننا ان نقول ان هذه هى المرة الاولى فى حياة ما يسمى بالجدل التى يعرض فيها امام اعين القراء فى مثل هذا الضوء الواقعى» .

ومن هنا فقد كان زيبر يعرف دلالة هيجل فى تطور الاقتصاديات الحديثة ؛ وكان مهتما جدا «بمنهج التناقضات الجدلية» . تلك هى الحقيقة مسجلة بالوثائق ، وهى تجيب تماما عن السؤال المحرج عمن يكذب كذب الاثنين» * * .

الحقيقة شىء رائع ، خاصة حين تكون مسجلة بالوثائق ! ولصالح الحقيقة ايضا سنواصل الاقتباس الذى اورده السيد ميخايلوفسكى عن مقال زيبر «تطبيق الجدل على العلم» .

بعد العبارات التى ينتهى عندها اقتباس السيد ميخايلوفسكى مباشرة يثير زيبر الملاحظة التالية : «بيد اننا نمتنع من جانبنا عن اصدار حكم على صلاحية هذا المنهج فى تطبيقه على مختلف فروع المعرفة ، وكذلك على ما اذا كان يمثل او لا يمثل – الى حد له دلالته – مجرد نوع او حتى تكرار لمنهج نظرية الارتقاء او التطور الشامل . وبهذا المعنى الاخير بالتحديد ينظر اليه الكاتب ،

---

* [السيد اوجين دوهرنج يقلب العلم» .]

** «روسكويه بوجاتستفو» ، عام ١٨٩٥ ، يناير ، الجزء الثانى ، ص ١٤٠–١٤١ .

www.kassioun.org

او هو على الاقل يحاول ان يبرهن عليه مستندا الى الحقائق التى توصلت اليها نظرية الارتقاء – ويجب ان نعترف ان ثمة تشابها كبيرا يظهر هنا فى مجال معين» .

وهكذا نرى ان الاقتصادى الروسى المرحوم – وحتى بعد ان ترجم كتاب انجلس «Herrn Eugen Dühring's Umwälzung der Wissenschaft»* قد ظل يجهل دلالة هيجل فى تطور الاقتصاديات الحديثة ، بل يجهل عموما ما اذا كان يمكن تطبيق الجدل بشكل ملائم على مختلف فروع المعرفة . وهو على اى حال لم يكن راغبا فى ان يصدر حكما فى هذه المسألة . ومن هنا نسأل : أيمكن لزيبر هذا نفسه ، وهو الذى لم يجرؤ على ان يصدر حكما على صلاحية الجدل عموما ، أيمكن له فى مناقشاته مع السيد ميخايلوفسكى ان «يختبئ عند ادنى خطر فى ظل التطور الجدلى الذى لا يلغى والذى لا شك فيه» ؟ لماذا لم يغير زيبر رأيه غير الحاسم عادة حول الجدل الا فى تلك الحالات وحدها ؟ هل كان يواجه «خطرا» كبيرا جدا هو ان يسحقه خصمه الرهيب ؟ لا نعتقد ذلك ! لقد كان زيبر برصيده الغزير من المعرفة آخر من يمثل له مثل هذا الخصم عدوا «خطيرا» .

أجل ، ان الحقيقة المسجلة بالوثائق شىء رائع ! والسيد ميخايلوفسكى على حق تماما حين يقول انها تجيب عن السؤال المحرج عمن يكذب كذب الاثنين !

ولكن اذا كان «الروح الروسى» المتجسد فى شخص فرد معين يلجأ دون شك الى تشويه الحقيقة ، فانه لا يقنع بتشويهها تشويه الاثنين مرة واحدة فقط ، فهو يشوهها بالنسبة للمرحوم زيبر وحده **مرتين** : مرة حين يزعم ان زيبر كان يختبئ فى ظل الثلاثية ، ومرة اخرى – حين يورد ، فى ادعاء مذهل ، المقدمة ذاتها التى تثبت بكل وضوح ان السيد بيلتوف على حق .

آه ، ايها السيد ميخايلوفسكى ، ايها السيد ميخايلوفسكى !

«من الصعب ان يظل يجهل دلالة هيجل فى تطور الاقتصاديات الحديثة ، بعد ان ترجم كتاب انجلس «Dühring's Umwälzung»

---

* [«السيد اوجين دوهرنج يقلب العلم» .]

www.kassioun.org

– هكذا يصيح السيد ميخايلوفسكى . فهل هذا امر صعب حقا ؟ فى رأينا انه ليس امرا صعبا على الاطلاق . من الصعب حقا على زيبر ، بعد ان ترجم الكتاب المذكور ، ان يظل يجهل **رأى انجلس** (وبالطبع ماركس) **حول دلالة هيجل فى تطور العلم المذكور** . ولم يكن زيبر يجهل هذا الرأى كما هو بين بذاته وكما يظهر من مقدمته . لكن زيبر قد لا يقنع **برأى الآخرين** . وكعالم جاد لا يعتمد على رأى الاخرين بل تعود ان يدرس الموضوع بالاستناد الى المراجع الاصيلة ، فانه لم يعتبر ان من حقه ، رغم معرفته رأى انجلس عن هيجل ، ان يقول : «انا اعرف هيجل ودوره فى تاريخ تطور المفهومات العلمية» . وقد لا يكون تواضع العالم هذا مفهوما للسيد ميخايلوفسكى ؛ فهو نفسه يخبرنا انه «لا يدعى» انه يعرف فلسفة هيجل ، وبالرغم من هذا فقد وجد من الادعاء ما يجعله يناقشها بحرية . لكن quod licet bovi, non licet Jovi * . فلما كان السيد ميخايلوفسكى طيلة حياته صحفيا رشيقا فانه يتصف بالادعاء الطبيعى لابناء هذه الفئة . لكنه نسى الفارق بينه وبين رجال العلم . ولهذا تجرأ على ان يتفوه بعبارات توضح تماما ان «الروح» المعروف «يكذب كذب الاثنين» حتما (١١١) .

آه ، ايها السيد ميخايلوفسكى ، ايها السيد ميخايلوفسكى !

ولكن هل يشوه هذا «الروح» المحترم الحقيقة تشويه الاثنين فقط ؟ ربما يذكر القارئ حادثة «محو» السيد ميخايلوفسكى «للحظة الازهار» . ولمحو هذا «الازهار» «دلالة واسعة» : فانه يوضح انه قد شوه الحقيقة لانجلس ايضا . فلماذا لم يقل السيد ميخايلوفسكى كلمة واحدة عن تلك الحادثة المفيدة ؟

آه ، ايها السيد ميخايلوفسكى ، ايها السيد ميخايلوفسكى !

وهل تعلمون ؟ ربما لم يكن «الروح الروسى» يشوه الحقيقة ، ربما كان المسكين يقول الحقيقة الخالصة . ولا ريب فى صدقه اذا افترضنا فقط ان زيبر كان يسخر من الكاتب الشاب ، وكان يحاول ان يخيفه «**بالثلاثية**» . والحق ان هذا الامر يبدو كالحقيقة :

---

* [ما يصلح للثور لا يصلح ليوسف .]

www.kassioun.org

فالسيد ميخايلوفسكى يؤكد لنا ان زيبر كان يعرف المنهج الجدلى ، ومن ثم فلا بد انه قد عرف جيدا ان الثلاثية المشهورة لم تلعب ابدا دور الحجة عند هيجل . وبالعكس ، فربمـــا كان السيـــد ميخايلوفسكى الذى لا يعرف هيجل قد عبر فى حديثه مع زيبر عن الفكرة التى عبر عنها فيما بعد مرارا والقائلة ان كل تدليل هيجل والهيجليين يتألف من الاستشهاد بالثلاثية . ولا بد ان ذلك بدا مسليا لزيبر ، فبدأ يستخدم الثلاثية ليغيظ الشاب المنفعل قليل المعلومات . وبالطبع لو ان زيبر قد تنبأ الى اى وضع بـــائس سيصل محدثه فى النهاية نتيجة نكتته لامتنع بالتأكيد عنها ، لكنه لم يكن يستطيع التنبؤ بذلك ، ومن ثم سمح لنفسه بان يسخر على حساب السيد ميخايلوفسكى . ولن يثور الشك فى صدق السيد ميخايلوفسكى اذا كان افتراضنا هذا صحيحا . فلينقب السيـــد ميخايلوفسكى فى ذاكرته : فربما تذكر ظرفا يوضح ان افتراضنا ليس بلا اساس تماما . اما نحن من جانبنا فسنبتهج من قلوبنا اذا سمعنا بمثل هذا الظرف الذى ينقذ شرف «الروح الـــروسى» . وبالطبع سيبتهج السيد بيلتوف ايضا .

والسيد ميخايلوفسكى شخص مسل جدا ! فقد تضايق كثيرا من السيد بيلتوف الذى سمح لنفسه بان يقول انه فى «الكلمات الجديدة» لصاحبنا عالم الاجتماع الذاتى «العقل الروسى والروح الروسى يكرر مادة قديمة ويكذب كذب الاثنين» . ويعتقد السيد ميخايلوفسكى انه ، وان لم يكن السيد بيلتوف مسئولا عـــن جوهر الاقتباس ، الا انه من الممكن اعتباره مسئولا عن اختياره . لكن فظاظة عاداتنا فى النقاش تجبر صاحبنا عالم الاجتماع الموقر على الاعتراف بان توجيه مثل هذا اللوم الى السيد بيلتوف يكون من اللطافة الزائدة . ولكن من اين استعار السيد بيلتوف هذا «الاقتباس» ؟ استعاره من بوشكين . فقد كان من رأى اوجيـــن اونيجين ان العقل الروسى والروح الروسى يكرر مادة قديمة ويكذب كذب الاثنين فى كل صحافتنا الروسية . فهل يمكن ان يعد بوشكين مسئولا عن رأى بطله اللاذع ؟ حتى اليوم ، كما نعرف ، لـــم يظن احد – وان يكن محتملا ان يوجد من يظن – ان اونيجين كان يعبر عن رأى الشاعـــر العظيم نفسه . اما الآن فان السيـــد

www.kassioun.org

ميخايلوفسكى يريد ان يجعل السيد بيلتوف مسئولا لانه لم يجد فى كتاباته – اى كتابات السيد ميخايلوفسكى – سوى تكرار لمـــادة قديمة و«كذب كذب الاثنين» . لماذا يحدث هذا ؟ لماذا لا يجوز تطبيق هذا «الاقتباس» على «مؤلفات» صاحبنا عالم الاجتماع ؟ ربما لان هذه المؤلفات فى رأى عالم الاجتماع هذا تستحق معاملة اكثر احتراما ، لكن هذا ، على حد تعبير السيد ميخايلوفسكـــى نفسه ، «امر يحتمل الجدال» .

ويقول السيد ميخايلوفسكى : «الحقيقة ان السيد بيلتوف فى هذه الفقرة لم يضبطنى متلبسا باى اكاذيب ، وانما هو يثرثـر حتى يبدو اكثر حرارة ، ويستخدم الاقتباس كورقة تيـن» (ص ١٤٠) . لماذا «يثرثر» ولا يعبر عن اعتقاده الراسخ ؟ ما معنى الجملة القائلة : ان السيد ميخايلوفسكى فى مقالاته يكرر مـادة قديمة ويكذب كذب الاثنين ؟ انها تعنى ان السيد ميخايلوفسكى انما يعبر عن آراء قديمة دحضت فى الغرب منذ وقت بعيد ، وانه اذ يفعل ذلك **يضيف الى اخطـــاء الغربيين اخطاءه هـــو المحلية المنبت** . فهل من الضرورى جدا ان تستخدم «ورقة التين» حيـن تعبر عن مثل هذا الرأى فى نشاط السيد ميخايلوفسكى الادبى ؟ ويعتقد السيد ميخايلوفسكى ان مثل هذا الرأى لا يمكن ان يكون سوى «ثرثرة» وليس ثمرة تقييم جاد متأمل . لكن هذا ، على حد تعبير السيد ميخايلوفسكى ، امر يحتمل الجدال .

ويعلن كاتب هذه السطور بهدوء تام وبمحض اختياره ، ودون ان يشعر بالحاجة الى اى ورقة تين ، انه يعتقـد ان **التقدير غير الكبير «لمؤلفات» السيد ميخايلوفسكى هو بداية كل «حكمة»** .

ولكن اذا لم يكن السيد بيلتوف ، فى حديثه عـــن «الروح الروسى» قد ضبط السيد ميخايلوفسكى متلبسا باى كذبة ، فلماذا ينتقى صاحبنا «عالم الاجتماع» هذا «الاقتباس» بالذات ليبدأ جداله غير الموفق حول زيبر ؟ ربما لكى يكون «اكثر حرارة» . والواقع انه ليس ثمة شىء حار فى اساليب كهذه ، لكن هناك اناسا تبدو لهم شديدة الحرارة . توجد فى احـدى قصص ج . اوسبينسكى زوجة موظف تتشاجر مع فراش . لقد نطق الفراش كلمة **دنى** . – فتصيح زوجة الموظف : «ماذا ، انا دنيئة ؟ هل انا كـــذلك ؟

www.kassioun.org

ساريك ! ان لى ابنا يخدم فى بولندا» الخ . ، الـخ . . وينقض السيد ميخايلوفسكى كزوجة الموظف على كلمة واحدة ويصيح فى «حرارة» : «انا اكذب كذب الاثنين ، هل انا كذلك ؟ أتجرؤ على ان تشك فى صدقى ؟ حسنا ، ساضبطك تكذب كذب الكثيرين ! يكفى ان تنظر الى ما قلته عن زيبر !» . وننظر الى ما قاله السيد بيلتوف عن زيبر فنجد انه قد قال الحقيقة الصادقة . Die Moral von der Geschichte * هو ان الحرارة الزائدة لا يمكن ان تصل الى خير لا بزوجات الموظفين ولا بالسيد ميخايلوفسكى .

«اخذ السيد بيلتوف على عاتقه اثبات ان الانتصار النهائى للواحدية المادية قد احرزته النظرية المسماة بنظرية المادية الاقتصادية فى التاريخ . وهو يضع هذه النظرية فى اوثق ارتباط «بالمادية الفلسفية العامة» . ولهذا الهدف قام السيد بيلتوف برحلة الى تاريخ الفلسفة . ويمكننا ان نرى تفكك وعدم كمال هذه الرحلة حتى من عناوين الفصول المخصصة لها : «المادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر» ، «المؤرخون الفرنسيون فى عهد عودة الملكية» ، «الطوبويون» ، «الفلسفة المثالية الالمانية» ، «المادية الحديثة»» (ص ١٤٦) . ومن جديد يحتد السيد ميخايلوفسكى دون ضرورة ، ومن جديد لا يصل به احتداده الى خير . فلو ان السيد بيلتوف كان يكتب عرضا موجزا **لتاريخ الفلسفة** ، فان مثل هذه الرحلة التى إنتقل فيها من المادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر الى المؤرخين الفرنسيين فى عهد عودة الملكية ، ومن هؤلاء المؤرخين الى الطوبويين ، ومن الطوبويين الى المثاليين الالمان ، الخ . تكون فى الحقيقة مفككة وغير مفهومة . لكن القضية كلها هى ان السيد بيلتوف لم يكن يكتب تاريخا للفلسفة . فقد قال فى الصفحة الاولى لكتابه انه ينتوى تقديم تصوير موجز للتعاليم التى تسمى خطأ بالمادية **الاقتصادية** . ولقد وجد بعض الاجنة الضئيلة لهذه التعاليم لدى الماديين الفرنسيين ، واوضح ان هذه الاجنة قد تطورت بشكل محسوس على ايدى المتخصصين الفرنسيين فى التاريخ فى عهد

---

* [مغزى الحكاية]

www.kassioun.org

عودة الملكية ؛ ثم تحول الى اناس ليسوا متخصصين فى التاريخ الا انهم فكروا كثيرا فى اهم مشاكل تطور الانسانية التاريخى ، وهم الطوبويون والفلاسفة الالمان . وهو لم يعدد جميع ماديى القرن الثامن عشر ، ولا مؤرخى عهد عودة الملكية ، ولا الطوبويين ، ولا المثاليين الجدليين ، لكنه ذكر اهمهم ، اولئك الذين ساهموا اكثر من غيرهم فى المسألة التى تهمه . واوضح ان كل اولئك الموهوبين ذوى المعرفة الواسعة قد وجدوا انفسهم يتخبطون فى تناقضات المخرج المنطقى الوحيد منها هو نظرية ماركس عن التاريخ . وباختصار il prenait son bien où il le trouvait * . فاى اعتراض يمكن ان يثور على هذا الاسلوب ؟ ولماذا لا يروق للسيد ميخايلوفسكى ؟

ولو ان السيد ميخايلوفسكى لم يكتف **بقراءة** كتابى انجلس «Ludwig Feuerbach» و «Dühring's Umwälzung» ** **بل – وهذا هو الرئيسى – قد فهمهما** ، لادرك بنفسه اى اهمية كانت لافكار الماديين الفرنسيين فى القرن الماضى والمؤرخين الفرنسيين فى عهد عودة الملكية والطوبويين والمثاليين الجدليين على تطور افكار ماركس وانجلس . وقد ابرز السيد بيلتوف هذه الاهمية بتقديم عرض موجز لما هو اكثر اساسية فى هذا المجال فى افكار كل هؤلاء . ويهز السيد ميخايلوفسكى كتفيه باحتقار بصدد هذا العرض اذ ان خطة السيد بيلتوف لا تروق له . ونحن نجيب بان كل خطة تكون جيدة اذا ساعدت المؤلف على تحقيق غايته . اما ان غاية السيد بيلتوف قد تحققت فلا ينكر هذا ، كما نعرف ، حتى خصومه .

ويواصل السيد ميخايلوفسكى حديثه :

«يتحدث السيد بيلتوف عن المؤرخين الفرنسيين و«الطوبويين» الفرنسيين ويقيم اولئك وهؤلاء بمدى ادراكهم او عدم ادراكهم للاقتصاديات كاساس للصرح الاجتماعى . ولكن من الغريب حقا انه لم يشر ادنى اشارة الى لويس بلان رغم ان مقدمة فى «Histoire de dix ans» (١١٢) تكفى بذاتها لتضعه فى مكان

---

* [اخذ ما يفيده حيثما وجده .]

** [«لودفيج فورباخ» و«دوهرنج يقلب»]

www.kassioun.org

الصدارة فى صفوف المعلمين الاول لما يسمى المادية الاقتصادية . ويوجد فى هذه المقدمة بالطبع الكثير مما لا يستطيع السيد بيلتوف ان يوافق عليه ، ولكنها تتضمن كذلك الصراع بين الطبقات ووصفها بالعلامات الاقتصادية ، والاقتصاديات كدافع خبىء للسياسة ، وغير ذلك مما دخل **فيما بعد** فى **المذهب** الذى يدافع عنه السيد بيلتوف بمثل هذا الحماس . وانا اذكر هذا التجاهل لانه اولا غريب فى ذاته ، ولانه يشير الى اهداف جانبية معينة لا تمت بصلة الى عدم التحيز» (ص ١٥٠) .

لقد تحدث السيد بيلتوف عن **اسلاف** ماركس ، اما لويس بلان فقد كان بالاحرى **معاصره** . صحيح ان «Histoire de dix ans» قد ظهر فى وقت لم تكن فيه افكار ماركس التاريخية قد نضجت نهائيا . لكن هذا الكتاب لم يكن ليستطيع ان يؤثر على مصيرها تأثيرا حاسما لان وجهة نظر لويس بلان حول الدوافع الداخلية للتطور الاجتماعى لم تحتو على اى شىء جديد بالمقارنة بافكار اوجستين تييرى او جيزو . صحيح تماما انها «تتضمن كذلك الصراع بين الطبقات ووصفها بالعلامات الاقتصادية» ، الخ . . لكننا نجد هذا كله بالفعل فى كتابات تييرى وجيزو ومينيه كما اوضح السيد بيلتوف بشكل قاطع . ان جيزو الذى كان ينظر الى الامور من زاوية صراع الطبقات قد تعاطف مع صراع البورجوازية ضد الارستقراطية ، لكنه كان معاديا جدا لصراع الطبقة العاملة ضد البورجوازية ، ذلك الصراع الذى كان يبدأ للتو فى عصره . وقد **تعاطف** لويس بلان مع هذا الصراع * . (وهو اختلف فى ذلك عن جيزو . لكن هذا الاختلاف لم يكن هاما على الاطلاق ، اذ لم يضف شيئا جديدا على **افكار** لويس بلان عن «الاقتصاديات كدافع خبىء للسياسة») * * .

---

* ولكن بطريقته الخاصة التى لعب لويس بلان بسببها دورا حقيرا فى عام ١٨٤٨ . وثمة هوة عميقة بين الصراع الطبقى كما فهمه «**فيما بعد**» ماركس وبين الصراع الطبقى كما تصوره لويس بلان . وكل من لم يلحظ هذه الهوة يشبه تماما الحكيم الذى لم يلحظ الفيل فى حديقة الحيوان .

* * [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥ .]

www.kassioun.org

كان لويس بلان قد يقول ، كجيزو ، ان الدساتير السياسية تجد جذورها فى الوجود الاجتماعى للشعب ، وان الوجود الاجتماعى يتحدد فى التحليل الاخير بعلاقات الملكية . لكن من اين تنبعث علاقات الملكية هذه – كان هذا امرا لا يعرفه لويس بلان كما لا يعرفه جيزو . وهذا هو السبب فى ان لويس بلان رغم «اقتصادياته» قد اضطر ، كجيزو ، الى العودة الى **المثالية** . وكل امرئ يعرف ، حتى ولو لم يلتحق بمدرسة ثانوية ، انه كان مثاليا فى افكاره فى الفلسفة والتاريخ * .

ولقد كانت المشكلة العاجلة امام العلم الاجتماعى فى الوقت الذى ظهر فيه «Histoire de dix ans» المشكلة التى حلها ماركس «**فيما بعد**» ، هى مشكلة **من اين تنبعث علاقات الملكية** . ولم يكن لدى لويس بلان ما يقوله فى هذه المسألة . ومن الطبيعى ان نفترض ان هذا هو السبب فى ان السيد بيلتوف لم يقل شيئا عن لويس بلان . لكن السيد ميخايلوفسكى يفضل ان يفترى حول اهداف ما جانبية . ! Chacun a son goût * * .

ورحلة السيد بيلتوف فى تاريخ الفلسفة هى ، فى رأى السيد ميخايلوفسكى ، «اضعف حتى مما قد توحى به عناوين الفصول (التى عددناها من قبل)» . لماذا ؟ لان السيد بيلتوف يقول : «وصف هيجل بالميتافيزيقية وجهة نظر اولئك المفكرين ، بغض النظر عما اذا كانوا مثاليين او ماديين ، الذين يعجزون عن فهم عملية تطور الظواهر فيعرضونها ، شاؤوا ام ابوا ، امام انفسهم وامام الآخرين كاشياء متحجرة غير مترابطة ، لا تستطيع ان تتحول من الواحدة الى الاخرى . وعارض وجهة النظر هذه **بالجدل** الذى يدرس الظواهر فى تطورها بالتحديد ، وبالتالى فى علاقاتها المتبادلة» . ويلاحظ السيد ميخايلوفسكى فى هذا الصدد بخبث : «يعتبر السيد بيلتوف نفسه خبيرا بفلسفة هيجل . وانى لاحب ان اتعلم منه ، كما احب ان اتعلم من اى مطلع ، وفى البداية

---

* لما كان لويس بلان مثاليا من ادنى درجة (اى غير جدلى) فقد كانت لديه بالطبع «**صيغته عن التقدم**» وهى على الاقل لا تزيد سوءا ، رغم «**تفاهتها النظرية**» ، عن «الصيغة عن التقدم» للسيد ميخايلوفسكى .

* * [كل حسب ذوقه .]

www.kassioun.org

اسأل السيد بيلتوف ان اشير الى المكان الذى اخذ عنه من مؤلفات هيجل التعريف الهيجلى المفترض «لوجهة النظر الميتافيزيقية» . وانى لاجرؤ على القول انه لن يستطيع ان يشير اليه . فلقد كانت الميتافيزيقا لدى هيجل هى مذهب عن الجوهر المطلق للاشياء الكامن خلف حدود التجربة والملاحظة ، وعن الاساس الخفى للظواهر . . . لم يستعر السيد بيلتوف تعريفه الهيجلى المفترض عن هيجل بل عن انجلس (فى نفس المؤلف الجدالى ضد دوهرنج) الذى فصل الميتافيزيقا عن الجدل على هواه بعلامة الثبات او السيولة» (١٤٧) .

ولا نعرف ماذا سيقول السيد بيلتوف ردا على هذا ، ولكن «**فى البداية**» نستبيح لانفسنا ، دون انتظار تفسيره ، ان نجيب على الذاتى الموقر .

نفتح الجزء الاول من «**انسيكلوبيديا**» هيجل ، وهناك فى تذييله على الفقرة ٣١ (ص ٥٧ من ترجمة السيد ف . تشيجوف الروسية) نقرأ : «ولم يكن تفكير هذه الميتافيزيقا حرا وصادقا بالمعنى الموضوعى ، اذ لم يكن يترك للموضوع حرية التطور من ذاته ، وايجاد تعريفاته بذاته ، بل يأخذه كشىء جاهز . . . وهذه الميتافيزيقا دوجماتية لانه كان عليها ان تقر بان . . . احد التأكيدين المتناقضين ، وفقا لطبيعة التعريفات النهائية ، صحيح بالضرورة والآخر زائف بالضرورة» (فقرة ٣٢ ، ص ٥٨ من نفس الترجمة) .

يقول هيجل هنا عن الميتافيزيقا القديمة قبل كانط ، تلك الميتافيزيقا التى يلاحظ انها «قد اقتلعت من جذورها واختفت تماما من عدد من العلوم» («ist so zu sagen ; mit Stumpf und Stiel ausgerottet worden, aus der Reihe der Wissenschaften versch-wunden !») وعارض هيجل هذه الميتافيزيقا **بفلسفته الجدلية** التى تدرس كل الظواهر فى تطورها وفى علاقاتها المتبادلة ، وليس كاشياء جاهزة تفصلها هوة عن بعضها . فهو

---

* «Wissenschaft der Logik», Vorrede, S. 1. [«علم المنطق» ، المقدمة ، ص ١ .]

www.kassioun.org

يقول : «فالكل هو الحقيقة ، لكن الكل لا يكشف نفسه بمجمل كماله الا خلال تطـــوره» . («Das Wahre ist das Ganze. Das Ganze aber ist nur das durch seine Entwicklung sich vollenden Wesen»)* ويزعم السيـــد ميخايلوفسكى ان هيجـــل وحـــد الميتافيزيقا ايضا مـــع الجدل ، لكن الذى سمع منه السيـــد ميخايلوفسكى هذا الكلام لم يشرحه له جيدا . فعند هيجل يضاف الى **العنصر الجدلى عنصر تأملى** وتصبح فلسفته بسببه **فلسفـــة مثالية . وكمثالى سلك** هيجل **سلوك كل المثاليين** : فقد علـــق اهمية فلسفية خاصة على «نتائج» (مفاهيم) كتلك التى قدرتهـــا كثيرا «الميتافيزيقا» القديمة ايضا . لكن هذه المفاهيم (المطلق بمختلف جوانب تطوره) ظهرت لديه بفضل «العنصر الجـــدلى» بالتحديد **كنتائج** وليس كمعلومات اصيلة . لقد دمج الميتافيزيقا بالمنطق ، ولهذا السبب سيثير استغرابه جدا ان يسمع شخصا يصفه – وهو المفكر التأملى – بانه ميتافيزيقى ohne Weiteres** . ولا بـــد انه كان سيقـــول ان الـــذين يسمونه كذلـــك «lässen sich mit Thieren vergleichen, welche alle Töne einer Musik mit durchgehört haben, an deren Sinn aber das Eine, die Harmonie dieser Töne, nicht gekommen ist»*** (هذا هـــو التعبير الذى استخدمه بنفسه ليصف المثقفين المتحذلقين) .

ونكرر قولنا ان هذا المفكر التـــأملى الذى احتقر **ميتافيزيقا التبصر** (تعبيره ايضا) كان **مثاليا** ، ومن ثم كانت لديه **ميتافيزيقا العقل** الخاصة به . لكن هل نسى السيد بيلتوف ذلك او لم يذكره فى كتابه ؟ لم ينس بل ذكر . لقـــد اقتبس عن **كتاب ماركس** وانجلس «Die heilige Familie» **** فقرات طويلة تنتقد نتائج هيجل «التأملية» انتقادا لاذعا . ونعتقد ان هذه الفقرات قد ابرزت

---

* «Die Phänomenologie des Geistes», Vorrede, S. XXIII. [« علـــم ظواهريات العقل » ، المقدمة ، ص XXIII .]

** [بدون كلمات زائدة .]

*** [« يمكن ان يقارنوا بالحيوانات التى سمعت كل اصوات قطعة موسيقية ما لكنها لم تدرك الكل ، لم تدرك تناغم هذه الاصوات »]

**** [« العائلة المقدسة »]

www.kassioun.org

بوضوح عدم صلاحية دمج الجدل بما يسميه السيد ميخايلوفسكى **ميتافيزيقا** هيجل . ومن هنا فاذا كان السيد بيلتوف قـــد نسى شيئا فهو انه كان يجب ان يشرح لرجالنا «المتقدمين» المتسمين «باللامبالاة» المذهلة فى مجال تاريخ الفلسفة الى اى مدى كانوا يميزون فى عهد هيجل **الميتافيزيقا** عن **الفلسفة التأملية** * . ومن كل هذا ينتج ان السيد ميخايلوفسكى عبثا «يجرؤ على ان يؤكد» ما لا يمكن تأكيده .

يقول السيد بيلتوف ان هيجل قد وصف بالميتافيزيقية حتى وجهة نظر اولئك الماديين الذين عجزوا عن ان يدرسوا الظواهر فى علاقاتها المتبادلة . فهل هذا صحيح ام لا ؟ حسنا ، حمل نفسك مئونة قراءة هذه الصفحة من الفقرة ٢٧ من الجزء الاول مـــن «آنسيكلوبيديا» هيجل : «ونجد اكمل واحدث تطبيق لوجهة النظر هذه فى الفلسفة فى الميتافيزيقا القديمة كما عرضوها قبل كانط . الا ان ايام هذه الميتافيزيقا مضت فيما يتعلق بتاريخ الفلسفة فقط ؛ اما هى ذاتها فتستمر فى الوجود دائما ممثلة النظـــرة المتبصرة للاشياء» . فما هى النظرة المتبصرة للاشياء ؟ انها النظرة الميتافيزيقية القديمة الى الاشياء كمقابل للنظرة الجدلية . ولقد كانت كل الفلسفة المادية فى القرن الثامن عشر فلسفة «**متبصرة**» **من حيث الجوهر** : اى انها لم تكن قادرة على دراسة الظواهر الا من زاوية التعريفات النهائية . ويستطيع كل من تحمل مئونة قراءة الفقرات الخاصة بالموضوع فى الجـزء الثالث من «Vorlesungen über die Geschichte der Philosophie» ** ان يقتنع بان هيجل كان يعرف جيدا هذا الجانب الضعيف فى المادية الفرنسيـــة وفى الفلسفـــة الفرنسية فى القرن الثامن عشر عموما . ومن هنـــا لم يكن يستطيع الا ان ينظر الى وجهة نظر الماديين الفرنسيين

---

* وبالمناسبة ، اذا اراد السيد ميخايلوفسكى ان يعرف ولو جزئيا الدلالة التاريخية «لميتافيزيقا» هيجل ، فاننا نوصيه بان يقرأ كتابا شعبيا جدا كان معروفا جدا فى حينها هو «Die Posaune des jüngsten Gerichts über Hegel, den Atheisten und Antichristen». [«بوق الآزفة على هيجل ، الملحد والعدو للمسيح» .] وهو كتاب جيد (١١٣) .

** [«محاضرات عن تاريخ الفلسفة» .]

www.kassioun.org

ايضا باعتبارها وجهة النظر الميتافيزيقية القديمة * . حسنا ، فهل السيد بيلتوف على حق ام لا ؟ نعتقد انه على حق تماما . وبالرغم من هذا فان السيد ميخايلوفسكى «يجرؤ على ان يؤكد» . . . بيد انه لا السيد بيلتوف ولا كاتب هذه السطور يستطيعان ان يفعلا شيئا فى هذا الامر . فمصيبة السيد ميخايلوفسكى هى انه ، بعد ان دخل جدالا مع «التلاميذ الروس» لماركس قد «جرؤ» على ان يناقش اشياء لا يعرف عنها شيئا على الاطلاق .

ايها الرجل ذو الخبرة الواسعة ، ان جرأتك هى التى تهلكك !

وكل من يعرف الفلسفة لا يجد صعوبة فى ملاحظة ان السيد بيلتوف وهو يعرض افكار هيجل وشيلنج الفلسفية **كان يستخدم دائما تقريبا عبارات هذين المفكرين** : فوصفه للتفكير الجدلى مثلا يكاد يكون ترجمة حرفية **للهامش** والتذييل الاول للفقرة ٨١ من الجزء الاول من «الانسيكلوبيديا» ، ثم هو يقتبس بعد ذلك كلمة كلمة تقريبا فقرات معينة من مقدمة «Philosophie des Rechts» ** ومن «Philosophie der Geschichte» *** . **لكن هذا المؤلف الذى كان يقتبس بدقة عن اناس من امثال هلفيسيوس وانفانتين واوسكار بيشل ومن اليهم ، لم يكد يشير بالتحديد الى اى من مؤلفات شيلنج وهيجل والى اى فقرات من مؤلفاتهما ، يرجع اليها فى عرضه . لماذا تخلى فى هذه الحالة عن القاعدة العامة التى التزمها ؟ يبدو لنا ان السيد بيلتوف قد لجأ هنا الى حيلة حربية . ونعتقد انه كان يفكر كما يلى : ان ذاتيينا اعلنوا ان الفلسفة المثالية الالمانية ميتافيزيقية**

---

* [هامش فى طبعة عام ١٩٠٥] وبالمناسبة يقول عن المادية : «Dennoch muss man in dem Materialismus das begeisterungsvolle Streben anerkennen, über den zweierlei Welten als gleich substantiell und wahr annehmenden Dualismus hinauszugehen, diese Zerreissung des ursprünglich Einen aufzuheben» («Enzyklopädie», Dritter Theil, S. 54). [«وهم ذلك يجب ان نعترف للمادية بالرغبة الملهمة فى ان تخرج من حدود الثنائية التى تقبل العالمين كشئين متساويين فى الجوهرية والصدق ، وان تزيل هذا التمزق للوحدة الاصلية» .(«الانسيكلوبيديا» ، الجزء الثالث ، ص ٥٤) .]

** [«فلسفة الحقوق»]

*** [«فلسفة التاريخ» .]

www.kassioun.org

واقتنعوا بهذا ؛ وهم لم يدرسوا هذه الفلسفة كما فعل مثلا مؤلف «تعليقات على ميل» . فحين اشير الى افكار بارزة معينة للمثاليين الالمان سيتصور السادة الذاتيون ، حينما لا يرون اشارة الى مراجع من مؤلفات هؤلاء المفكرين ، اننى قد اخترعت هذه الافكار بنفسى او استعرتها عن انجلس ، وسيصيحون : «هذا امر يحتمل الجدال !» و«اجرؤ على ان اؤكد» ، الخ . . وهنا اظهر جهلهم فى ضوء النهار ، هنا تبدأ الفكاهة ! واذا كان السيد بيلتوف قد لجأ حقا فى نقاشه الى هذه الحيلة الحربية الصغيرة فيجب ان نعترف بانه قد نجح نجاحا كبيرا ، فلقد تحقق الكثير من الفكاهة حقا !

ولكن لنمض فى حديثنا . «فكل مذهب فلسفى يعلن – مع السيد بيلتوف – ان «حقوق العقل لانهائية وغير محدودة كقدراته» ويعلن بالتالى انه قد كشف الجوهر المطلق للاشياء – سواء كان هذا مادة او روحا – هو مذهب ميتافيزيقى . . . وكونه قد وصل او لم يصل الى فكرة ان الجوهر الذى يفترضه للاشياء يتطور ، وكونه يصف هذا التطور بالجدلية او بغيرها امر مهم جدا بالطبع فى تحديد مكانه فى تاريخ الفلسفة ، لكنه لا يغير من طابعه الميتافيزيقى» («روسكويه بوجاتستفو» ، يناير عام ١٨٩٥ ، ص ١٤٨) . وفى حدود ما تكشف عنه هذه الكلمات فان السيد ميخايلوفسكى ، الذى يتجنب التفكير الميتافيزيقى ، لا يظن ان حقوق العقل غير محدودة . ونأمل ان يجلب له هذا ثناء الامير ميشيرسكى . كما يبدو ايضا ان السيد ميخايلوفسكى لا يظن ان **قدرات** العقل غير محدودة ولانهائية . وقد يبدو هذا غريبا لدى رجل كثيرا ما اكد لقرائه ان la raison finit toujours par avoir raison * : فحين تكون قدرات العقل (بل وحقوقه !) محدودة ، لا يبدو هذا التأكيد ملائما . ولكن السيد ميخايلوفسكى سيقول مع ذلك انه يؤمن بانتصار العقل النهائى فى حدود الامور العملية فحسب ، اما حين تكون المسألة مسألة معرفة الجوهر المطلق للاشياء («سواء كان هذا مادة او روحا») فانه يشك فى قدراته . رائع ! لكن ما هو هذا الجوهر المطلق للاشياء ؟

---

* [يكون العقل دائما على حق فى التحليل النهائى]

www.kassioun.org

انه ما سماه كانط الشيء فى ذاته (Ding an sich) ، أليس كذلك ؟ اذا كان كذلك فاننا نعلن بحسم اننا نعرف ما هـــو «الشيء فى ذاته» ، واننا ندين لهيجل بهذه المعرفة . (النجدة ! — يصيح اصحابنا «الفلاسفة المتزنون» لكننـــا نرجوهـــم الا ينفعلوا) .

«الشيء فى ذاته . . . هو الشيء الذى تجردوا فيه عن كل ما يجعله فى متناول الادراك ، عن كل العناصر الحساسة ، وكذلك عن كل الافكار المحددة . وواضح انه لا يبقى بعد هذا الا تجريد خالص ووجود محض موضوع فقط خارج حدود الادراك ويمثل نفى كـل شعور وكل فكرة معينة . ولكن من السهل ان نحكم فى هـــذه الحالة حكما بسيطا ان هذا الـ caput mortuum * هو نفســه نتاج الفكر الذى يشكل هذا التجريد الخالص او «الانا» الفارغة التى تجعل ذاتيتها الفارغة هدفا . ان التعريف السلبى لهـــذه الذاتية المجردة والذى يجعلها هدفا له موجود بين مقولات كانط ومعروف جيدا بوصفه ذاتية فارغة . ومن هنا فان من الغريب ان نسمع كثيرا انه من غير المعروف ان هناك ليس ما هو اسهل من معرفته» * * .

فنحن نكرر اننا نعرف تماما ما هو الجوهر المطلق للاشياء ، او الشيء فى ذاته . انه تجريد خالص . ويريد السيد ميخايلوفسكى ان يستخدم هذا التجريد الخالص ليفزع اولئـــك الذين يرددون مع هيجل قائلين فى اعتزاز : «von der Grösse und Macht seines Geistes kann der Mensch nicht gross genug denken !»*** تلك اغنية قديمة ، ايها السيـــد ميخايلوفسكى ! Sie sind zu spät gekommen !****

---

* [المفهوم العديم المغزى والمضمون]

** **هيجل** ، الانسيكلوبيديا ، الجزء الاول ، ص ٧٩ــ٨٠ ، فقرة ٤٤ .

*** [«لا يمكن للمرء ان يبالـــغ فى عظمـــة وقوة روحـــه» . Geschichte der Philosophie, I, 6» [«تاريخ الفلسفة» ، الجزء الاول ، ص ٦ .]

**** [لقد جئت متاخرا .]

www.kassioun.org

ونحن متأكدون ان هذه السطور ستبدو سفسطة محضة للسيد ميخايلوفسكى . وسيقول : «لكن معذرة ، ماذا تعنون فى هذه الحالة بالتفسير المادى للطبيعة والتاريخ .؟» – وهذا ما نعنيه .

حين قال شيلنج ان المغنطيسية هى غرس الذاتى فى الموضوعى ، كان هذا تفسيرا **مثاليا** للطبيعة ؛ ولكن حين تفسر المغنطيسية من وجهة نظر الفيزيقا الحديثة فان ظواهرها تفسر تفسيرا **ماديا** . وحين فسر هيجل او حتى انصار النزعة السلافية (١١٤) لدينا ظواهر تاريخية معينة بخصائص روح قومية فانهم كانوا ينظرون الى هذه الظواهر من وجهة نظر **مثالية** ، اما حين فسر ماركس ، مثلا ، احداث ١٨٤٨–١٨٥٠ فى فرنسا بالصراع الطبقى فى المجتمع الفرنسى ، فقد كان يقدم تفسيرا **ماديا** لهذه الاحداث . هل هذا واضح ؟ نعتقد انه كذلك ! واضح الى حد انك فى حاجة الى جرعة كبيرة من العناد حتى لا تفهمه .

«لكن ثمة امرا خاطئا هنا – هكذا يتصور السيد ميخايلوفسكى وافكاره تندفع هنا وهناك (c'est bien le moment !*) . – يقول لانجه . . .» لكننا نسمح لانفسنا بان نقاطع السيد ميخايلوفسكى : فنحن نعرف ما يقول لانجه جيدا ، لكننا نستطيع ان نؤكد للسيد ميخايلوفسكى ان مرجعه مخطئ تماما . فقد نسى لانجه فى كتابه «**تاريخ المادية**» ان يورد مثلا الملاحظة المميزة التالية لواحد من ابرز الماديين الفرنسيين : Nous ne connaissons que l'écorce des phénomènes (نحن لا نعرف سوى قشرة الظواهر) . وقد عبر ماديون فرنسيون آخرون لا يقلون عنه بروزا عن افكارهم بنفس هذا المعنى مرارا عديدة . وهكذا ترى ، ايها السيد ميخايلوفسكى ، ان الماديين الفرنسيين لم يكونوا يعرفون بعد ان الشىء فى ذاته ليس سوى caput mortuum لتجريد ما ، وانهم قد تمسكوا بوجهة النظر التى يسميها كثيرون الآن **وجهة نظر الفلسفة النقدية** .

---

* [تلك هى اللحظة الملائمة]

www.kassioun.org

وغنى عن البيان ان نل هذا سيبدو للسيد ميخايلوفسكى جديدا وغير مصدق اطلاقا . لكنا لن نخبره فى الوقت الحالى الى اى مادين فرنسيين واى مؤلف من مؤلفاتهم نشير . «**فليجرؤ على ان يؤكد**» اولا ، ثم ستكون لدينا كلمة معه .

واذا اراد السيد ميخايلوفسكى ان يعرف كيف نفهم العلاقة بين احساساتنا وبين الاشياء الخارجية فسنحيله الى مقال السيد سيتشينوف : «**الفكر الشيئى والواقع**» فى المجموع «**عون للجياع**» . ونحن نعتقد ان السيد بيلتوف وكل تلاميذ ماركس الآخرين من الروس وغير الروس يتفقون كلية مع عالمنا الفسيولوجى الشهير. واليكم ما يقوله السيد سيتشينوف : «مهما كانت الاشياء الخارجية فى ذاتها ، مستقلة عن ادراكنا – حتى لو سلمنا بان انطباعاتنا عنها ليست سوى علامات مشروطة – فان ما ندركه من تماثل وتمايز فى جميع الاحوال بين هذه العلامات يتطابق مع التماثل والتمايز فى الواقع . وبعبارة اخرى ، فان التماثل والتمايز اللذين يجدهما المرء بين الاشياء التى يتحسسها هما التماثل والتمايز الفعليان» * .

وحين سيدحض السيد ميخايلوفسكى السيد سيتشينوف حينئذ سنتفق معه على الاعتراف بمحدودية **قدرات** العقل الانسانى ، بل ومحدودية **حقوقه** ايضا * * .

قال السيد بيلتوف انه فى النصف الثانى من القرن الحالى انتصرت الواحدية المادية فى العلم الذى امتزجت الفلسفة به كلية فى ذلك الحين . ويقول السيد ميخايلوفسكى : «اخشى انه مخطئ» . وكتبير لخشيته يستند الى لانجه الذى يرى ان «die gründliche Naturforschung durch ihre eignen Consequenzen

---

* المجموع ، ص ٢٠٧ .

* * [هامش فى طبعة عام ١٩٠٥] هنا فرصة طيبة جدا امام خصومنا ليتهمونا بالتناقض مع انفسنا : فنحن نعلن من ناحية ان «الشىء فى ذاته» الكانطى هو تجريد خالص ، ونحن من ناحية اخرى نشير بتقدير الى السيد سيتشينوف الذى يتحدث عن الاشياء كما توجد فى ذاتها ، مستقلة عن ادراكنا . وبالطبع لن يرى اولئك الذين يفهمون اى تناقض هنا ، ولكن أبين خصومنا كثير ممن يفهمون ؟

www.kassioun.org

über den Materialismus hinausführt» * واذا كان السيد بيلتوف مخطئا فان الواحدية المادية **لا تكون** قد انتصرت فى العلم . وهكذا فان العلماء حتى اليوم يفسرون الطبيعة عن طريق غرس الذاتى فى الموضوعى وغير ذلك من حيل الفلسفة الطبيعيـــة المثالية ؟ نخشى ان يكون «مخطئا» من يفترض ذلك ، ونخشاه اكثر لان رجلا ذا شهرة كبيرة فى العلم ، هو **عالم الطبيعـــة** الانجليزى هكسلى يدلل كما يلى :

«فى ايامنا هذه لا يشك واحد ممن يقفون على آخر ما توصل اليه العلم المعاصر والعارفين بالحقائق فى انـــه يجب البحث عن اسس السيكولوجية فى فسيولوجية الجهاز العصبى . فما نسميه نشاط الروح هو مجموع وظائف المخ ، ومواد ادراكنا هى نتاج نشاط المخ» * * . ولاحظ ان الذى قال هذا رجل انتمى الى مـــن يسمون فى انجلترا **لاأدريين** . وهو يعتقد ان الفكرة التى عبر عنها عن نشاط الروح تتمشى كلية مع المثالية الخالصة . لكننا نحن الذين نعرف تفسيرات ظواهر الطبيعة التى تستطيع المثاليـــة المتسقة ان تقدمها ، والذين نفهم اسباب خجل الانجليزى الموقر ، نردد مع السيد بيلتوف : **فى النصف الثانى من القرن التاســـع عشر انتصرت الواحدية المادية فى العلم .**

ربما يعرف السيد ميخايلوفسكى ابحـــــاث سيتشينـــــوف السيكولوجية ؟ وفى وقت ما عارض كافيلين بحرارة وجهة نظر هذا العالم . ونخشى ان يكون هذا الليبرالى المرحوم مخطئـــا جدا . ولكن ربما كان السيد ميخايلوفسكى متفقا مع كافيلين ؟ او ربما كان فى حاجة الى مزيد من التفسيرات حول هذه النقطة ؟ حسنا ، اننا نحتجزها حتى يبدأ «يؤكد» من جديد .

يقول السيد بيلتوف ان وجهة نظر «الطبيعة الانسانية» التى سادت فى علم الاجتماع قبل ماركس قد ادت الى «سوء استخدام

---

* [«ان دراسة الطبيعة دراسة عميقة تخرج باستنتاجاتها من اطار المادية» .]

** *Th. Huxley.* Hume. Sa vie, sa philosophie, p. 108.
[ت . **هكسلى** ، هيوم ــ حياته وفلسفته ، ص ١٠٨ .]

www.kassioun.org

المماثلات البيولوجية الذى لا نزال نشعر به ، حتى يومنا هذا ، قويا فى كتابات علم الاجتماع الغربى ، وعلى الخصوص فى كتابات علم الاجتماع الروسى المزعومة» . وهذا يدفع السيد ميخايلوفسكى الى اتهام مؤلف كتاب الواحدية التاريخية بالظلم الصارخ ، والى ان يشك من جديد فى سلامة اساليبه الجدالية .

«وانى استنجد بالقارئ ، حتى ولو كان متحيزا ضدى ولكنه يعرف بعض الشىء مؤلفاتى ، واذا لم يكن يعرفها جميعا فعلى الاقل مقالا واحدا مثل «منهج المماثلات فى علم الاجتمـــاع» او «ما هو التقدم ؟» فليس صحيحـــا ان الادب الروسى يسىء بشكل خاص استخدام المماثلات البيولوجية : فهذا الموضوع اكثر اتساعا فى اوروبا بفضل خدمات سبنسر اذا ما تركنا المماثلات المضحكـــة لبلونتشلى واخوته . واذا لم يكن الامر فى بلادنا قد تعدى تمرينات المماثلات التى قام بها المرحوم سترونين («التاريخ والمنهج» ، «السياسة كعلم») والسيـــد ليلينفيلد («العلـــم الاجتماعى فى المستقبل») وبضع مقالات صحفية ، فانى اعتقد ان «قطرة عسلى توجد هنا أيضا» . فلم يبذل احد من الجهد قدر ما بذلته فى محاربة المماثلات البيولوجية . وقد عانيت من ذلك الكثير فى وقت ما على ايدى «صبية سبنسر» . وآمل ان تمر العاصفة الحالية فى الوقت المناسب . . .» (ص ١٤٥–١٤٦) . ويحمل هذا الخطاب مظهر الاخلاص ، بحيث ان القارئ المتحيز ضد السيد ميخايلوفسكى قد يقول لنفسه : «يبدو وكأن السيد بيلتوف قـــد مضى بعيدا فى حماسه الجدالى» . لكن الامر ليس كذلك ، والسيد ميخايلوفسكى ذاته يعرف انه ليس كذلك ؛ فاذا كان يستنجد بالقارىء فى اسى فلذات السبب الذى جعل ترانيون عند بلوتس يقول لنفســـه ؛

Pergam turbare porro : ita haec res postulat*.

فماذا قال السيد بيلتوف حقا ؟ لقد قال : «اذا كان يجب البحث عن سبب كل التقدم التاريخى الاجتماعى فى طبيعة الانسان ، واذا كان المجتمع ، كما قال سان-سيمون بحق ، يتكون من افراد، فان طبيعة الفرد ينبغى ان تزودنا بمفتـــاح لتفسير التاريخ .

---

* [«ساستمر عاصيا لان القضية تتطلب ذلك» .]

www.kassioun.org

وطبيعة الفرد يدرسها علم الفسيولوجيا اذا اخذناه بالمعنى الواسع للكلمة ، اى العلم الذى يشمل كذلك الظواهر **النفسية** . ولهذا السبب فقد كان علم الفسيولوجيا فى نظر سان-سيمون وتلاميذه اساس علم الاجتماع الذى اسموه الفيزياء الاجتماعية . ونحن نجد فى كتاب : «Opinions philosophiques, littéraires et industrielles»* الذى نشر عندما كان سان-سيمون على قيد الحياة وبمساهمته الفعالة مقالا شيقا للغاية ، لكنه غير مكمل للاسف ، بقلم **دكتور فى الطب** مجهول عنوانه : «De la physiologie appliquée à l'amélioration des institutions sociales» (الفسيولوجيا وتطبيقها على تحسين المؤسسات الاجتماعية) . ويعتبر الكاتب ان **علم المجتمع** جزء من اجزاء «**علم الفسيولوجيا العام**» يكرس نفسه – بعد ان تثريه ملاحظات وتجارب علم الفسيولوجيا الخاص للافراد – لاعتبارات من «المرتبة العليا» . فالافراد بالنسبة له ليسوا سوى «اعضاء للجسم الاجتماعى» ، الذى يقوم بدراسة وظائفهم «تماما كما يقوم علم الفسيولوجيا الخاص بدراسة وظائف الافراد» . فعلم الفسيولوجيا العام يدرس (والكاتب يستخدم كلمة : يعبر عن) قوانين الوجود الاجتماعى التى يجب ان تتسق معها القوانين المكتوبة . وفيما بعد استند علماء الاجتماع البورجوازيون ، ومنهم سبنسر ، الى مذهب الكائن الاجتماعى ليستخلصوا منه اكثر النتائج محافظة . لكن الدكتور فى الطب الذى نقتبس عنه هو **مصلح** قبل كل شىء . فهو يدرس الجسم الاجتماعى من اجل **اعادة بناء المجتمع** ، لان علم **الفسيولوجيا الاجتماعى وعلم الصحة** المرتبط به ارتباطا وثيقا يزودان باسس ايجابية يمكن ان يبنى عليها ذلك التنظيم الاجتماعى الذى يمليه الوضع الحالى للعالم المتمدن» .

يتضح من هذه الكلمات ان المماثلات البيولوجية ، فى راى السيد بيلتوف ، يمكن ان يساء استعمالها لا بمعنى نزعة المحافظة البورجوازية عند سبنسر فحسب ، بل كذلك **بمعنى الخطط الطوبوية للاصلاح الاجتماعى** . وتشبيه المجتمع بالكائن يلعب هنا

---

* [«نظرات فلسفية وادبية واقتصادية»]

www.kassioun.org

دورا **ثانويا** ان لم يكن دورا من الدرجة العاشرة : فالشيء المهم ليس هو تشبيه المجتمع بالكائن ، بل الرغبـــة فى تعليل «**علم الاجتماع**» بهذه او تلك من استنتاجات **البيولوجيا** . وقد عارض السيد ميخايلوفسكى بحرارة تشبيه المجتمع بالكائن ؛ وترجـــع اليه «قطرة عسله» بلا شك فى الصراع ضد هذا التشبيه . ولكن ليس لهذا اهمية اساسية . فالمسألة الهامة الاساسية هى هل اعتبر السيد ميخايلوفسكى او لم يعتبر انه من الممكن تعليل علم الاجتماع بهذه او تلك من استنتاجات البيولوجيا ؟ وليس شك فى هذه المسألة ، اذ يستطيع كل امرئ ان يقتنع بذلك من قراءة مقال «**نظرية داروين وعلم الاجتماع**» . ففـــى هذا المقال يقول السيد ميخايلوفسكى فى احد اجزائها : «تحت العنوان العام «نظرية داروين وعلم الاجتماع» سنتحدث عن مسائل مختلفة تتناولهـــا وتحلها وتعيد حلها نظرية داروين او هذا او ذاك من انصارهـــا الذين يتضخم عددهم يوما بعد يوم . بيد ان مهمتنا الاساسيـــة ستكون هى تحديد العلاقة المتبادلة ، من وجهة نظر نظريـــة داروين ، بين التقسيم الفسيولوجى للعمل ، اى تقسيم العمل بين اعضاء كل لا يتجزأ ، وبين التقسيم الاقتصادى للعمل ، اى تقسيم العمل بين كل لا يتجزأ من الانواع او الاجناس او الشعـــوب او المجتمعات . وتنتهى هذه المهمة من وجهة نظرنا الى الكشف عن القوانين الاساسية للتعاون ، اى اســـاس علم الاجتماع» * . والبحث عن القوانين الاساسيـــة للتعاون ، **اى اســـاس علم الاجتماع ، فى البيولوجيـــا** هى تبن لوجهـــة نظر السيمونيين الفرنسيين فى العشرينات ، وبعبارة اخرى «تكرار للمادة القديمة وكذب كذب الاثنين» .

وقد يصيح السيد ميخايلوفسكى هنا : لكن نظرية داروين لم تكن موجودة فى العشرينات ! الا ان القارئ يفهم ان المسألة هنا ليست نظرية داروين ، بل هى السعى الطوبوى — المشترك بين السيد ميخايلوفسكى وانصـــار سان-سيمون — **الى تطبيق الفسيولوجيا على تحسين المؤسسات الاجتماعية** . ويتفق السيد

---

* مؤلفات ميخايلوفسكى ، المجلد الخامس ، ص ٢ .

www.kassioun.org

ميخايلوفسكى تماما فى المقال الذى إشرنا اليه مع هيكل (("وهيكل على حق تماما")) حين يقول ان على رجال الدولة وعلماء الاقتصاد والمؤرخين فى المستقبل ان يوجهوا اهتمامهم اساسا لعلم الحيوان المقارن ، اى لمورفولوجيا الحيوان المقارنة وفسيولوجيته ،. اذا ارادوا ان يكونوا مفهوما صحيحـــا لموضوعهم الخاص . قل ما شئت ، لكن اذا كان هيكل "على حق تمامـــا" ، اى اذا كان على علماء الاجتماع (وحتى المؤرخين !) ان يوجهوا اهتمامهم «**اساسا**» الى مورفولوجيا وفسيولوجيا الحيوان فانت مقضى عليك بان تسيء استعمال المماثلات البيولوجيـــة **فى هذا الاتجاه او ذاك** . أفليس واضحا ان وجهة نظر السيد ميخايلوفسكى الى علم الاجتماع هى نفس وجهة نظر انصار سان-سيمون القديمة ؟

هذا كل ما قاله السيد بيلتوف . وعبثـــا يحـــاول السيد ميخايلوفسكى ان يتنصل من المسئولية عن الافكار الاجتماعيـــة لبوخارتسيف-نوجين . فهو لم يبتعد كثيرا فى ابحاثه الاجتماعية عن افكار صديقه واستاذه المرحوم . ولم يدرك السيد ميخايلوفسكى جوهر اكتشاف ماركس ، ومن ثم فقد ظل طوبويا لا صلاح له . وهذا وضع محزن جدا ، لكن كاتبنا لن يستطيع الافلات منه الا بجهد آخر للفكر ؛ اما الاستنجاد البكاء بالقارئ ، حتى بالقارئ المتحيز تماما ، فلن يساعد «عالم الاجتماع» المسكين على الاطلاق.

قال السيد بيلتوف بضع كلمات دفاعـــا عن السيـــد ب . ستروفه . ودفع هذا السيدين ميخايلوفسكى ون . — ون الى ان «يؤكدا» ان السيد بيلتوف قد وضع السيد ستروفه تحت «**حمايته**» . وقد قلنا الكثير دفاعا عن السيد بيلتوف . فماذا سيقول عنا السيدان ميخايلوفسكى ون . — ون ؟ ربما سيعتبران السيد بيلتوف تابعا لنـــا . واذ نعتذر مقدما للسيد بيلتوف لتنبؤنا برده على السادة الذاتيين فاننا نســـأل هؤلاء : أيعنى الاتفاق مع مؤلف وضعه تحت حمايتك ؟ ان السيد ميخايلوفسكى يتفق مع السيد ن . — ون حول بعض المسائل الجارية فى حياة روسيا . أفيجب ان نفهم من ذلك ان السيد ميخايلوفسكى قـــد وضع السيد ن . — ون تحت حمايته ؟ او ربمـــا كان السيد ن . — ون هو الذى يحمى السيـــد ميخايلوفسكى ؟ ماذا كان

www.kassioun.org

المرحوم دوبروليوبوف ليقول لو سمع هذه اللغة الغريبة فى ادبنا «الطليعى» اليوم ؟

ويبدو للسيد ميخايلوفسكى ان السيد بيلتوف قد شـــوه مذهبه عن الابطال والجمهور . ومن جديد نعتقد ان السيد بيلتوف على حق تماما ، وان السيد ميخايلوفسكى فى نقاشه معه يلعب دور ترانيون . ولكن قبل ان ندعم رأينـــا هذا نعتقد ان من الضرورى ان نقول بضع كلمات عن ملاحظة السيد ن . — ون «**ماذا تعنى الضرورة الاقتصادية حقا ؟**» التى نشرت فى عدد مارس من «روسكويه بوجاتستفو» .

وجه السيد ن . — ون فى هذه الملاحظة بطاريتى مدافع ضد السيد بيلتوف . وسندرسهما واحدة بعد الاخرى .

وقوة البطارية الاولى هى التالية . لقد قال السيد بيلتوف : «لكى نجيب على سؤال هل ستتبع روسيا طريق التطور الرأسمالى ام لا ، يجب اولا ان نتحول الى دراسة الوضع الراهن للبـــلاد ، والى تحليل حياتها الداخلية القائمة . ويؤكد تلاميذ ماركس الروس على اساس هذا التحليل : ليس ثمة معلومات تسمح للمرء بان يأمل فى ان تغادر روسيا سريعا طريق التطور الرأسمالى» . ويكرر السيد ن . — ون بدهاء : «**ليس هنـــاك مثل هذا التحليل**» . أصحيح هذا ، ايها السيد ن . — ون ؟ اولا لنتفـــق حـــول الاصطلاحات . ماذا تعنى بكلمة **تحليل** ؟ هل يقدم التحليل معلومات جديدة لتكوين حكم فى موضوع ما ، ام هو يعمـــل على اســـاس المعلومات القائمة التى تم الحصول عليها بطرق اخرى ؟ ورغم خطر تعرضنا للاتهام «بالميتافيزيقية» فاننا نتمسك بالتعريف القديم القائل ان التحليل لا يقدم معلومات جديـــدة لتكوين حكـــم على موضوع ، بل يعمل على اساس المعلومات الجاهزة . ومن هذا التعريف يتضح ان تلاميذ ماركس الروس فى تحليلهم لحياة روسيا الداخلية كان يمكنهم الا يقدموا اى ملاحظات مستقلة عن هذه الحياة ، بل يقنعوا بالمواد التى تحويهـــا مثلا بحوث الشعبيين . فاذا استخلصوا من هذه المواد نتيجة جديدة فان هذا يعنى انهم قد اخضعوا هذه المعلومات لتحليل جديد . ومن هنـــا يطرح السؤال : اى معلومات عن تطور الرأسماليـــة نجدها فى بحوث

www.kassioun.org

الشعبيين ، وهل استخلص تلاميذ ماركس الروسن حقا نتيجة جديدة من هذه المعلومات ؟ وكى نجيب على هذا السؤال سناخذ مثلا كتاب السيد ديمينتيف «**المصنع ، ماذا يعطى السكان وماذا يأخذ منهم**» . ونقرأ فى هذا الكتاب (ص ٢٤١ وما بعدها) : «مرت صناعتنا قبل ان تتخذ شكل الانتاج المصنعى الرأسمالى الذى نجدها فيه الآن بكل مراحل التطور التى حدثت فى الغرب . . . وكانت القنانة واحدا من اقوى اسباب تخلفنا عن الغرب . فبسببها مرت صناعتنا بفترة اطول بكثير من الانتاج اليدوى والمنزلى . وفى عام ١٨٦١ فقط اكتسب رأس المال امكانية تنظيم شكل الانتاج الذى انتقل اليه فى الغرب منذ ما يقرب من قرن ونصف . ومنذ هذا العام فقط بدأ انحدار اسرع فى الانتاج اليدوى والمنزلى وتحوله الى انتاج مصنعى . . . لكن كل شىء قد تغير فى السنوات الثلاثين (منذ الغاء القنانة) . فقد كان على صناعتنا ان تتخذ حتما – وقد اتخذت بالفعل – منذ ان سارت فى نفس طريق التطور الاقتصادى الذى حدث فى اوروبا الغربية الشكل الذى اتخذته الصناعة فى الغرب . ولا شك ان ملكية الجماهير الشعبية للارض – وهو الامر الذى يحب الكثيرون الاشارة اليه كبرهان على استحالة ان تظهر فى بلادنا طبقة خاصة من العمال الاحرار من كل شىء – طبقة تقترن حتما بشكل الصناعة الحديث – لا شك ان ذلك كان ولا يزال عامل اعاقة قويا ، ولكن ليست له باى حال تلك القوة المنسوبة اليه عادة . فعدم كفاية انصبة الارض – وهو امر كثير الحدوث – والانهيار الكامل للزراعة من ناحية ، واهتمام الحكومة الشديد بتطوير الصناعات التحويلية كعنصر ضرورى فى المحافظة على التوازن الاقتصادى للدولة من ناحية اخرى ، تلك هى الظروف التى ادت باكبر قدر ولا تزال تؤدى الى الحط من اهمية حيازة الارض . وقد راينا نتيجة هذه الحالة : نشوء طبقة خاصة من عمال المصانع ، طبقة ما زالت تحمل اسم «الفلاحين» ولكنها لا تشترك فى شىء عمليا مع الفلاحين الزراع ، ولم تحافظ على ارتباطها بالارض الا بدرجة غير ذات دلالة ، ولا يغادر نصفها – فى الجيل الثالث المصنع ابدا ، وليست له ملكية ايا كانت فى الريف سوى حق قانونى فى الارض يكاد يكون غير قابل للتحقيق».

www.kassioun.org

وتوضح **المعلومات الموضوعية** التى يقدمها السيد ديمينتيف ببلاغة شديدة ان الرأسمالية بكل عواقبها تتطور بسرعـــة فى روسيا . ويضيف السيد ديمينتيف الى هذه المعلومات استدلالات يتبين منها انه من الممكن ايقاف استمرار تقدم الانتاج الرأسمالى، وان كل ما هو ضرورى لذلك هـــو ان نتذكر المثـــل القائل : gouverner — c'est prévoir * (ص ٢٤٦) . ويخضع تلاميذ ماركس الروس هذه النتيجة التى توصل اليها السيد ديمينتيف لتحليلهم هم ، ويجدون انه **لا يمكن ايقاف شيء فى هذه الحالة** ، وان السيد ديمينتيف مخطئ مثل **كل** الشعبيين الذين قدموا فى ابحاثهم طائفة كبيرة من المعلومات الموضوعية التى تشبه تماما تلك التى قدمها السيد ديمينتيف * * . ويسأل السيد ن . — ون اين يوجد مثل هذا التحليل ؟ ويبدو انه يريد ان يقول متى واين ظهر مثل هذا التحليل فى المطبوعات الروسية ؟ ونستطيع ان نقدم له اجابتين على الاقل عن هذا السؤال .

فاولا ، هناك فى كتاب السيد ستروفـــه ، الذى يجده غير مقبول ، مناقشة قيمة **للحدود التى يمكن فيها ان تتدخل الدولة فى حياة روسيا الاقتصادية فى هذه الفترة** . وهذه المناقشة هى ، جزئيا ، التحليل الذى يطالب به السيد ن . — ون ، وعلى هذا

---

* [التحكم يعنى التنبؤ .]

* * يقول السيد ن .—ون : «بين البضع مئات من الابحاث الاحصائية وغيرها فى السنوات العشرين الماضية لم نر اى اعمال تتفق نتائجها على اى وجه مع النتائج الاقتصاديـــة لامثال السادة بيلتوف وستروفـــه وسكفورتسوف» . وكاتبو الابحاث التى تشير اليها ، ايها السيد ن .—ون ينتهون عادة الى نوعين من النتائج : احدهما يتفق مع الحقيقة الموضوعية ، ومؤداه ان الرأسمالية تتطور ، وان «الاسس» القديمة تنهار ؛ والآخر «**ذاتى**» يقول ان تطور الرأسمالية يمكن ان يوقف اذا ، الخ ... **لكنهم لا يقدمون ابدا اى معلومات لتأكيد هذه النتيجة الاخيرة ، بحيث تظل غير مدعمة اطلاقا** ، بالرغم من وفرة المواد الاحصائية التى تحويها الابحاث . وتعانى «ابحاث» السيد ن .—ون مثل هذا الضعف ، مما يمكن ان يسمى **بهزال النتيجة «الذاتية»** . فالحق ، اى «تحليل» يؤكد فكرة السيد ن .—ون عن ان فى وسع مجتمعنا ان ينظم الانتاج الآن بالضبط ؟ **ليس ثمة مثل هذا التحليل** .

www.kassioun.org

التحليل لا يعترض السيد ن . — ون وليس فى وسعه ان يعترض عليه بشىء ذى قيمة .

وثانيا ، هل يذكر السيد ن . — ون المناقشة التى دارت فى الاربعينات بين انصار النزعة السلافية وبين انصار الغرب (١١٥)؟ فى هذه المناقشة ايضا لعب «تحليل حياة روسيا الداخلية» دورا هاما جدا . لكن هذا التحليل لم يكد ينعكس فى المطبوعات الا على المسائل الادبية الخالصة وحدها . وكانت لذلك اسباب تاريخية لا بد بالتأكيد ان يضعها السيد ن . — ون فى اعتباره اذا لم يرد ان يشتهر بانه متحذلق مضحك . فهل يستطيع السيد ن . — ون ان يقول ان هذه الاسباب ليست لها اليوم اية علاقة بتحليل «التلاميذ الروس» ؟

فحتى الآن لم ينشر «التلاميذ» اى ابحاث مستقلة عن حياة روسيا الاقتصادية . وسبب ذلك هو ان الاتجاه الذى ينتمون اليه حديث جدا فى روسيا . فالاتجاه **الشعبي** هو الذى ساد حتى اليوم فى الادب الروسى ، وبسبب ذلك فان الباحثين الذين يقدمون معلومات موضوعية تشهد بتقوض «الاسس» القديمة قد اغرقوها فى مياه آمالهم «**الذاتية**» . لكن وفرة المعلومات التى قدمها الشعبيون هى بالذات التى دفعت الى ظهور نظرة جديدة للحياة الروسية . ولا شك ان هذه النظرة ستصبح اساس ملاحظات جديدة ، مستقلة . وحتى فى الوقت الحالى نستطيع ان نلفت انتباه السيد ن . — ون مثلا الى اعمال السيد خاريزومينوف التى تناقض بشدة تعاليم الشعبيين كما ادرك ذلك جيدا السيد ف . ف . الذى كثيرا ما حاول عبثا ان يدحض الباحث الموقر . وليس مؤلف «الاقتصاد الفلاحى فى جنوب روسيا» ماركسيا ، لكن من المشكوك فيه ان السيد ن . — ون سيقول ان افكار السيد بوستنيكوف عن الحالة القائمة لمشاعة القرية وعن حيازة الفلاحين للارض عموما فى نوفوروسيا (١١٦) تتفق مع افكار الشعبيين المعتادة .

اما السيد بورودين ، مؤلف بحث رائع عن قوات القوزاق فى الاورال ، فهو يؤيد بالفعل بشكل كامل وجهة النظر التى ندافع عنها ، والتى كان من سوء حظها الا يتقبلها السيد ن . — ون .

www.kassioun.org

ولم يعط كتابنا الشعبيون انتباها لهذا البحث ، لا لانه خال من القيمة الداخلية ، بل لسبب وحيـــد هو انهم مصطبغون بروح «الذاتية» الخاصة . وسيكون هناك المزيد من هذه الابحاث ، ايها السيد ن . — ون ، كلما مر الوقت : فعصر البحث الماركسى قد بدأ فى روسيا * .

ويعتبر السيد ن . — ون كذلك نفسه ماركسيـــا . وهو مخطئ . فهو ليس اكثر من ابن **غير شرعى** للمفكر العظيـــم . ونظرته الى العالم ثمرة تزاوج غير شرعى بين نظريـــة ماركس وبين السيـــد ف . ف . واخـــذ السيـــد ن . — ون عن «Mütterchen» * * الاصطلاحات وبضع نظريات اقتصادية يفهمها بشكل مجرد للغايـــة وبالتالى بشكل غير صحيح . وورث عن «Väterchen» * * * موقفا طوبويا من الاصلاح الاجتماعى ، وعلى اساسه وجه بطارية مدافعه الثانية ضد السيد بيلتوف .

يقول السيد بيلتوف ان العلاقات الاجتماعية ، بحكم منطـــق تطورها ذاته ، تحمل الانسان على ادراك اسباب عبوديته للضرورة الاقتصادية ، «وبعد ان يدرك المنتج ، «الانسان الاجتماعى» ، ان سبب عبوديته هو فوضى الانتاج فانه ينظم هذا الانتاج ، ومن هنا يخضعه لارادته . وعندئذ تنتهى مملكة الضرورة ، وتسود الحرية التى تثبت هى نفسها انها ضرورة» . وكل هذا صحيح فى رأى السيد ن . — ون . لكنه يضيف الى كلمـــات السيد بيلتوف الصائبة الملاحظة التالية : «وبالتالى فان المهمة تنحصر فى انه على المجتمع ، بدلا من ان يراقب فى سلبية فعل القانون المعين الذى يعوق تطور قواه المنتجـــة ، ان يجد ، بمساعدة الظروف

---

* لا نتحدث هنا عن كتاب السيد ب . ستروفه لان السيد ن . — ون يجده غير مقبول . لكن عبثا يحاول السيد ن . — ون ان يدمغ هذا الكتاب بالتفاهة . فالسيد ب . ستروفه قادر فى مناقشته مع السيد ن . — ون على ان يدافع عن نفسه . اما عن «تحليل» السيد ن . — ون نفسه ، فحين سيأخذ احد على عاتقه «**تحليله**» من وجهة نظر ماركس فلن يبقى منه اكثر من كلمات مبتذلة عامة . ونامل الا يتاخر هذا التحليل فى الظهور .

* * [«الام»]

* * * [«الاب»]

www.kassioun.org

المادية الاقتصادية المتوفرة ، وسيلة لاخضـــــاع هذا القانون لسيطرته بحيث يفعل فعله فى ظرٍوف لا تعوق تطور قوى العمل المنتجة (قوى العمل !) للمجتمع مأخوذا ككل ، بل تساعد على هذا التطور» (١١٧) .

لقد استخلص السيـــد ن . — ون ، دون ان يلاحظ ، من كلمات السيد بيلتوف «الصائبة تماما» نتيجة مشوشة للغاية .

فالسيد بيلتوف يتحدث عن الانسان الاجتماعى ، عن مجموع المنتجين الذين تقع عليهم حقا مهمة قهر الضرورة الاقتصادية . لكن السيد ن . — ون يحل محل كلمة **المنتجين** كلمة «**المجتمع**» الذى «لا يستطيع ككل منتج ان ينظر بلامبالاة ، «بموضوعية» الى تطور تلك العلاقات الاجتماعية الاقتصادية التى تحكم على غالبية اعضائه بالبؤس المطرد» .

«المجتمع ككل منتج» . . . ان «تحليل» ماركس الذى يزعم السيد ن . — ون انه من انصاره لم يقف عند فكرة المجتمع **ككل** منتج ، انه **قسم** المجتمع **المعاصر** — وفقـــا لطبيعته الحقة — الى **طبقات** منفصلة ، لكل منها مصلحتها الاقتصادية الخاصة ومهمتها الخاصة . فلماذا لا يصنـــع «تحليل» السيد ن . — ون بالمثل ؟ لماذا يتحدث السيد ن . — ون عن مهمة المجتمع ككل بدلا من ان يتحدث عن مهمة المنتجين الروس ؟ عادة ، وليس دونما سبب ، يوضع هذا المجتمع ، مأخوذا ككل ، مقابـــل الشعب ، وحينئذ يتضح انه ، رغم «كليته» ، ليس سوْى جزء صغير ، ليس سوى اقلية ضئيلة من سكان روسيا . وحين يؤكد لنا السيد ن . — ون ان هذه الاقلية الضئيلة تنظم الانتاج لا نملك الا ان نهز اكتافنـــا ونقول : لم يأخذ السيد ن . — ون فكرته هذه عن ماركس ، لقد ورثها عن «Väterchen» * ، عن السيد ف . ف .

يفترض تنظيم الانتاج ، وفقا لماركس ، موقفا واعيا به من جانب المنتجين الذين يجب ان يكون تحريرهم الاقتصادى امرا خاصا بهم . اما عند السيد ن . — ون فان تنظيم الانتاج يفترض موقفا واعيا به من جانب المجتمع . فاذا كان هذا ماركسية فان ماركس فى الواقع لم يكن ماركسيا ابدا .

* [«الاب»]

www.kassioun.org

ولكن لنفترض ان المجتمع يتصرف حقا كمنظم للانتاج . فاى علاقة تربطه اذن بالمنتجين ؟ انه **ينظمهم** . فالمجتمع هو **البطل** ، والمنتجون هم **الجمهور** .

ونحن نسأل السيد ميخايلوفسكى الذى «يؤكد» ان السيد بيلتوف قد شوه مذهبه عن الابطال والجمهور : هل يظن ، مثل السيد ن . — ون ، ان المجتمع يستطيع ان ينظم الانتاج ؟ اذا كان يقبل ذلك فانه فى الواقع يؤمن بفكرة ان المجتمع ، ان «**فئة المثقفين**» هى **البطل** ، هى صانعة تطورنا التاريخى المقبل ، بينما ان ملايين المنتجين هم **الجمهور** الذى سيصوغ منه البطل كل ما يعتبره ضروريا وفقا لمثله العليا . والآن فليقل القارئ غير المتحيز : هل كان السيد بيلتوف على حق حين قال ان الفكرة «الذاتية» تنظر الى الشعب باعتباره غوغاء .

يعلن السيد ميخايلوفسكى انه ايضا — واولئك الذين يفكرون مثله — لا يعارضون تطور الوعى بالذات لدى المنتجين ، ويقول : «الا انه يبدو لى اننا لم نكن فى حاجة ، من اجل مثل هذا البرنامج البسيط الواضح ، ان نرتفع فوق سحب الفلسفة الهيجلية وان نهبط الى قاع خليط من الذاتى والموضوعى» . ولكن واقع الامر ، ايها السيد ميخايلوفسكى ، هو ان الوعى بالذات لدى المنتجين ، فى اعين اناس من نوعك فى التفكير ، لا يمكن ان يكون له نفس المعنى الذى له فى اعين خصومك . فمن وجهة نظرك يمكن ان ينظم «المجتمع» الانتاج ، ومن وجهة نظر خصومك لا يمكن ان ينظمه الا المنتجون انفسهم . من وجهة نظرك «المجتمع» يتصرف والمنتج يساعد ، ومن وجهة نظر خصومك لا يساعد المنتجون بل هم الذين يتصرفون . ومن البدهى ان المساعدين يحتاجون الى درجة من الوعى اقل من المتصرفين ، فلقد قيل بحق منذ عهد بعيد : «ثمة مجد للقمر ، وآخر للشمس ، وآخر للنجوم : فالنجم يختلف عن نجم آخر فى المجد» . **وموقفك من المنتجين هو نفس موقف الطوبويين الفرنسيين والالمان فى الثلاثينات والاربعينات** . اما خصومك فيدينون **اى موقف وكل موقف طوبوى من المنتجين** . ولو انك ، ايها السيد ميخايلوفسكى ، كنت مطلعا اطلاعا افضل على تاريخ الكتابات الاقتصادية لعرفت انه لكى نتخلص من الموقف الطوبوى

www.kassioun.org

من المنتجين ، كان من الضرورى ان نرتفع الى سحب الفلسفة الهيجلية بالذات ، وان نهبط بعد ذلك الى قاع نثر الاقتصاد السياسى .

ولا يحب السيد ميخايلوفسكى كلمة «المنتج» : الا ترى انها تفوح برائحة حظيرة الخيل (١١٨) . حسنا ، كل ما نستطيع قوله هو اننا نقدم له افضل ما عندنا . ففى حدود معرفتنا كان اول من استخدم كلمة «**المنتج**» هو سان سيمون وانصاره . ومنذ ظهور مجلة «Le Producteur» (المنتج) ، اى منذ عام ١٨٢٥ استخدمت هذه الكلمة فى اوروبا الغربية مرات لا تحصى ولم تذكر احدا بالحظيرة . ثم بدأ **النبيل التائب** الروسى يتحدث عن المنتجين ، وقفزت الحظيرة الى ذهنه فورا . الام نعزو هذه الظاهرة الغريبة ؟ انها ترجع بالطبع الى ذكريات وتقاليد النبيل الروسى .

يورد السيد ن . — ون فى خبث عميق كلمات السيد بيلتوف التالية : «ربما يكون لدى احدهم (تلاميذ ماركس الروس) معارف اقتصادية اكبر او اقل اتساعا من الآخر ، لكن المهم هنا ليس كمية المعلومات لدى الافراد بل وجهة النظر ذاتها» . ويسأل السيد ن . — ون : «اين ذهبت كل مطالب التمسك بارض الواقع ، ضرورة الدراسة المفصلة لمجرى التطور الاقتصادى («مطالب ضرورة الدراسة المفصلة» — هذه العبارة تبدو غير واضحة ، ايها السيد ن . — ون) ؟ ويتضح الآن ان هذا كله شىء ثانوى ، فالمهم «ليس كمية المعارف بل وجهة النظر» .

وكما نرى يريد السيد ن . — ون ان يقول شيئا مضحكا بين الحين والحين . لكننا ننصحه حين يريد ان يضحك الناس الا ينسى الادراك السليم ، والا فلن يكون الضاحكون فى جانبه .

لم يفهم السيد ن . — ون السيد بيلتوف . فلنحاول ان نخلصه من هذا المأزق . لقد وجدنا فى نفس عدد «روسكويه بوجاتستفو» الذى نشرت فيه ملاحظة السيد ن . — ون وفى مقال بقلم السيد ب . موكييفسكى بعنوان : «**من هو الرجل المثقف ؟**» (ص ٣٣ ، ملحوظة) سطورا قد تكون مفيدة جدا للسيد ن . — ون : «قال عالم عربى ذات مرة لتلاميذه : لو قال لكم احد ان قوانين الرياضيات خاطئة ، ثم قام لكى يثبت ذلك بتحويل عصا

www.kassioun.org

الى ثعبان ، فلا تعتبروا مثل هذا البرهان مقنعا . هذا مثـــل نموذجي . فالرجل المثقف سيرفض مثل هذا البرهان حتى ولو لم يكن (على عكس العالم) يعرف قوانين الرياضيات ، وسيقول : ان تحويل العصا الى ثعبان معجزة خارقة ، ولكن لا ينتج عنهـــا ان قوانين الرياضيات خاطئة . ومن ناحية اخرى فلا شك ان الجميع غير المثقفين سيلقون بكل ايمانهم ومعتقداتهم تحت اقدام صانع المعجزة» .

وقد تكون لدى احد تلاميذ ذلك العربى الذكى معارف رياضية اكبر او اقل اتساعا من الآخر ، لكن واحدا منهم لم يكن ليقع تحت اقدام صانع المعجزة . لماذا ؟ لان كلا منهم قد مر بمدرسة جيدة ، لان المهم هنا ليس كمية المعارف بل **وجهة النظر التى** لا تقبـــل تحويل العصا الى ثعبان كدحض لحقائق الرياضيـــات . هل هذا واضح لك ، ايها السيد ن . — ون ؟ نأمل ان يكون واضحا : لانه حقيقة بسيطة جدا ، حقيقة اولية تماما . حسنا ، اذا كان هذا واضحا فترى الآن بنفسك ان ما يقوله السيد بيلتوف عن وجهة النظر ، الخ . لا يقضى على ما يقوله ايضا عن مطلب التمســك بارض الواقع .

لكنا نخشى الا يكون الامر واضحا لك بعد كل هذا ، فلنعطك مثلا آخر . ان معارفك الاقتصادية غير واسعة ، لكنك تعرف اكثر من السيد ف . ف . الا ان هذا لا يمنعك من ان تتمسك بنفس وجهة النظر . **فانتما طوبويان** . وحين يأخذ احد على عاتقه وصف افكاركما المشتركة فسينحى جانبا الفرق الكمى فى معارفكمـــا ويقول : المهم هو وجهة نظر هذين الرجلين اللذين استعاراها من طوبويى العصور الغابرة .

ولا بد ان يكون قد اتضح لك الآن ، ايها السيد ن . — ون ، ان التوفيق قد جانبك حين المحت الى ان السيد بيلتوف لجأ الى المنهج الذاتى ، وانك اخطأت خطأ فاحشا .

وعلى اى حال فلنقل نفس الشىء بالفاظ اخرى . مهما اختلف تلاميذ ماركس الروس فى مدى معارفهم فان احدا منهم — اذا ظل مخلصا مع نفسه — لن يصدقك او يصدق السيد ف . ف . حين تزعمان ان «المجتمع» ، ايا كان ، ينظم الانتاج عندنا . فوجهـــة

www.kassioun.org

نظرهم ستمنعهم من ان **يلقوا بمعتقداتهم** تحت اقـــدام صانعى المعجزات الاجتماعيين * .

ويكفى هذا ، لكن ما دمنا قد تناولنا المنهج الذاتى فلنلاحظ باى احتقار يعامله السيد ن . — ون . فيبدو مما يقوله انه لم تكن فى هذا المنهج ذرة من العلم ، وانما ارتدى نوعا من العباءة «تضفى عليه مجرد مظهر «علمى»» . حسنـــا جدا ، ايهـــا السيد ن . — ون ! لكـــن ماذا سيقـــول عنك «حاميك» السيـــد ميخايلوفسكى ؟

وبشكل عام يعامل السيد ن . — ون «حماته» الذاتيين دون احترام . فمقاله **«دفاع عن سلطة النقود كعلامة على العصر»** يحوى الشعار التـــالى : «L'ignorance est moins éloignée de la vérité que le préjugé» La vérité. * * * — انها دون شـــك السيـــد ن . — ون ذاته . فهو يقول ما يشبه ذلك : «لو ان اى انسان قد اتبع المنهج الذاتى الحق فى البحث دون انحراف ، فسيكون المرء على ثقة تماما من انه سيصل الى نتائج قريبة — ان لم تكن متطابقة لما وصلنـــا اليه» («روسكويه بوجاتستفو» ، مارس ، ص ٥٤) . اما préjugé * * * * — فهو بالطبع السيد ستروفه الذى توجه vérité ضده رأس رمح «تحليلها» . فمن هو ignorance * * * * * الذى هو اقرب الى الحقيقـــة (اى الى السيد ن . — ون) من préjugé ، اى السيد ستروفه ؟ واضح ان ignorance هو حلفـاء السيد ن . — ون الذاتيون الحاليون . حسنا جدا ، ايها السيد ن . — ون ! لقد اصبت محـــز حلفائك . لكن مرة اخرى : ماذا سيقول السيد ميخايلوفسكى عنك ؟ لا بد انه بالتاكيد سيذكر مغزى الحكاية الشهيرة :

---

* **[هامش لطبعة عام ١٩٠٥]** — ولاذكر مرة اخرى عبارة فورباخ سالفة الذكر عن ان وجهة النظر هى التى تميز الانسان عن القرد .

* * [«الجهل اقل بعدا عن الحقيقة من الوهم» .]

* * * [الحقيقة]

* * * * [الوهم]

* * * * * [الجهل]

www.kassioun.org

وان كنا نقدر كثيرا المساعدة وقت الحاجة ،
فليس كل امرىء قادرا على تقديمها . . . (١١٩)

ولكن كفا نقاشا ! نعتقد اننا لم نترك واحدا من اعتراضات خصومنا دون اجابة . واذا كان قد فاتنا بالصدفة ان نرى واحدا منها فسيكون لدينا بالتأكيد كل فرصة لنعود الى النقاش . وهكذا نستطيع ان نضع القلم . ولكن قبل ان نتركه نحب ان نقول كلمة او كلمتين اخريين لخصومنا .

انكم ، يا سادة ، «تجهدون انفسكم» دائما لازالة الرأسمالية ، لكن انظروا ما يحدث عن ذلك : ان الرأسمالية تسير قدما ولا تلاحظ «جهدكم» ، اما انتم فتراوحون فى مكانكم مع «مثلكم العليا» ونواياكم الرائعة . وهل فى ذلك فائدة ؟ لا انتم تستفيدون ولا غيركم يستفيد ! وما السبب ؟ السبب هو انكم طوبويـــون ، تداعبكم خطط **طوبوية** عن الاصلاحات الاجتماعية ، وتعجزون عن ان تروا تلك المهام المباشرة الملحـــة التى تقع تحت انوفكم ، واسمحوا لنا بهذا التعبير . فتفكروا فى ذلك جيدا ، وعندئذ ربما قلتم بانفسكم اننا على حق . وعلى اى حال فلنترك الحديث عن هذا الموضـــوع لفرصـــة اخـــرى . وحتـــى ذلك الحيـــن

• * Dominus vobiscum

---

* [يرعاكم الله .]

www.kassioun.org

ملاحظات

١ ــ هيأ اقتراب ثورة عام ١٩٠٥ امكانية اصدار الطبعة الثانية من الكتاب فى روسيا (كانت الطبعة الاولى قد صدرت عام ١٨٩٥) . وفى تلك الاثناء (عام ١٩٠٤) توفى ميخايلوفسكى الذى وجـــه بليخانوف مجادلته ضده فى المقام الاول . وقد صدرت الطبعة الثانية فى عام ١٩٠٥ وكذلك الطبعة الثالثة فى عام ١٩٠٦ بدون اية تغييرات جوهرية . ــ ص ٥ .

٢ ــ **التصوف** ــ مذهب دينى سلوكى يدعو الى الموقف الغيبى التاملى من العالم والى السلبية والخضوع التام «للارادة الالهية» . ــ ص ٥ .

٣ ــ نشرت مقالة «بضع كلمات لخصومنا» بالاسم المستعار اوتيس . ــ ص ٦ .

٤ ــ «**روسكويه بوجاتستفو**» ــ مجلة شهرية صدرت فى بطرسبورج من ١٨٧٦ الى ١٩١٨ . واعتبارا من التسعينات صارت لسان حال الشعبيين الليبراليين بزعامة ميخايلوفسكى . وكانت تكتب ضد الاشتراكيين-الديمقراطيين الروس . ــ ص ٦ .

٥ ــ « Correspondance littéraire, philosophique et critique » («المراسلات الادبية والفلسفية والانتقادية») ــ مجلة مخطوطة اصدرها فى باريس بـ١٥ــ١٦ نسخة الاديب والدبلوماسى فريدريك جريم الذى كان من الانسيكلوبيديين المعروفين . وكانت المجلة

www.kassioun.org

توزع على مشاهير الناس واصحاب السلطة آنذاك . واستمرت المجلة من ١٧٥٣ حتى ١٧٩٢ . ونوقشت على صفحاتها المسائل العلمية والادبية وغيرها . وتم طبع «المراسلات الادبية» فى عام ١٨١٢ .ـ ص ١٣ .

٦ ـ «**شيخ فرنى**» ـ كناية عن فولتير الذى عاش اكثر من عشرين عاما فى ضيعة فرنى بضواحى جنيف .ـ ص ١٣ .

٧ ـ تشمل فترة عودة الملكية فى فرنسا السنوات ١٨١٤ـ١٨٣٠ ، منذ اعتلاء لويس الثامـــن عشر العرش حتى ثورة يوليو عام ١٨٣٠ .ـ ص ١٨ .

٨ ـ المقصود هو الثورة الفرنسية البرجوازيـــة ١٧٨٩ـ١٧٩٤ .ـ ص ٢٠ .

٩ ـ **ويج** ـ حزب سياسى انجليزى تاسس فى الفترة ١٦٧٩ـ١٦٨٢ واعتمد على الاوساط المالية العليا والاريستقراطية الاقطاعيـــة المتبرجزة ، وتحول فى اواسط القرن التاســـع عشر الى حزب ليبرالى .ـ ص ٢٤ .

١٠ ـ «**Le Producteur**» («المنتج») ـ مجلة اشياع سان سيمون التى صدرت فى باريس فى ١٨٢٥ـ١٨٢٦ . اسسها سان سيمون قبيل وفاته ، وحررها تلاميذه واشياعه بازار وانفانتين ورودريجيس وغيرهم .ـ ص ٢٥ .

١١ ـ مؤلف «تعليقات على ميل» هو تشيرنيشيفسكى الذى كرس عددا من الصفحات لانتقاد المالتسية .ـ ص ٣٨ .

١٢ ـ كان مصطلح «الابطال والرعاع» قد استعمله لاول مرة ميخايلوفسكى فى مقالة كتبها بنفس العنوان عام ١٨٨٢ . «فالبطل» هو الصانع الرئيسى للتاريخ ، وذلك لان طروف حياة المجتمع الحديث تدمر الجماهير وتحكم عليها بالفاقة وتحرمها من ارادتها وتحولها الى «رعاع» بلا هوية . و«البطل» وحده قادر بقدوته على استنهاض

www.kassioun.org

«الرعاع» لتحقيق المآثرة او لاقتراف الجريمة . وعدت نظرية «الابطال» و«الرعاع» مبررا لتكتيك الارهاب ألفردى . ـ ص ٣٨ .

١٣ ـ جوته «فاوست» ، الجزء الاول . ـ ص ٤٥ .

١٤ ـ **«سوفريمينيك»** («المعاصر») ـ مجلة ادبية واجتماعية وسياسية روسية صدرت في بطرسبورج فى الفترة ١٨٣٦ـ١٨٦٥ . وقد اسسها بوشكين . واعتبارا من عام ١٨٤٧ صار نكراسوف رئيسا لتحريرها . وعمل فيها بيلينسكى ودوبروليوبوف وتشيرنيشيفسكى . وفى الستينات غدت المجلة فى الواقع لسان حال الديمقراطية الثورية الروسية . ـ ص ٤٩ .

١٥ ـ المقصود تشيرنيشيفسكى . ـ ص ٥٠ .

١٦ ـ **الشعبية** ـ هى «التيار البرجوازى الصغير» فى الحركة الثورية الروسية . ظهرت حركة الشعبيين فى ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر . وقد انكر الشعبيون سنة تطور العلاقات الرأسمالية فى روسيا ، واعتبروا الفلاحين القوة الثورية الاساسية . وبغية استنهاض الفلاحين للنضال ضد الحكم المطلق توجه الشعبيون الى الريف ، «الى الشعب» ، وذلك هو اصل تسميتهم .

مرت حركة الشعبيين بعدة مراحل من الديمقراطية الثورية الى الليبرالية . ـ ص ٥٢ .

١٧ ـ كلمات «مؤرخ موسكو» مقتبسة من رواية سالتيكوف-شيدرين «الحياة الرغيدة الآن» . غير ان بليخانوف استبدل الاسمين ، فهما لدى سالتيكوف-شيدرين كالآتى : مستيسلاف وروستيسلاف . ـ ص ٥٤ .

١٨ ـ تعتبر صيغة ميخايلوفسكى ان الثنائية هى القول بوجود حقيقتين : «الحقيقة الفعلية» (الواقع) و«الحقيقة العادلة» (ما ينبغى ان يكون) . ـ ص ٥٥ .

١٩ ـ **المذهبيون** ـ هم جماعة من الشخصيات السياسية البرجوازية

www.kassioun.org

الفرنسية من فترة عودة الملكية (١٨١٥-١٨٣٠) . ولما كان المذهبيون من انصار النظام الملكى الدستورى فقد كانوا خصوما للحركة الديمقراطية والثورية .-ص ٥٧ .

٢٠ - **كوستانجوجلو** - شخصية من شخوص الجزء الثانى من رواية جوجول «النفوس الميتة» .-ص ٥٧ .

٢١ - النص مقتبس من ملحمة الشاعر الروسى نكراسوف «لمن تحلو الحياة فى روسيا» ، الجزء الثانى ، الفصل الرابع .-ص ٦٠ .

٢٢ - كان **بنك الفلاحين العقارى** الذى علق الشعبيون الليبراليون آمالهم عليه قد اسسته الحكومة القيصرية عام ١٨٨٢ لمساعدة الفلاحين ، كما زعمت ، فى شراء الارض . ولكن هذا البنك فى الواقع رفع اسعار اراضى الاقطاعيين وغدا اداة لفرض وتعزيز عناصر الكولاك فى الريف .-ص ٦١ .

٢٣ - فى كلمتى الابتهاج والشرثرة اشارة الى قصيدة نكراسوف «فارس لساعة» .-ص ٦١ .

٢٤ - الاسم الشائع للجماهير الشعبية الثائرة ابان الثورة الفرنسية البرجوازية فى اواخر القرن الثامن عشر .-ص ٦١ .

٢٥ - المقصود ماركس وانجلس .

نيقولاى - ون (دانييلسون) شعبى روسى كان اول من ترجم مؤلف ماركس «رأس المال» الى اللغة الروسية ، ولذا اشتهر على انه ماركسى . كان المجلد الاول من «رأس المال» (الذى ترجمه بالاشتراك مع جيرمان لوباتين) قد صدر فى عام ١٨٧٢ ، وصدر المجلد الثانى فى عام ١٨٨٥ ، كما صدر المجلد الثالث فى عام ١٨٩٦ . وبمناسبة هذه الترجمة دارت مراسلات نشيطة بين نيقولاى - ون وماركس وانجلس . بيد ان دانييلسون ظل ملتزما بمواقف الحركة الشعبية .-ص ٦٣ .

www.kassioun.org

٢٦ ـ ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلـــــد ١٩ ، ص ٢١٠ .
(«الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية») .ـ ص ٦٣ .

٢٧ ـ **«Le Globe»** («الكرة الارضية») ـ جريدة يومية كانت تصدر فى باريس ١٨٢٤ـ١٨٣٢ . واعتبارا من عام ١٩٣١ صارت لسان حال اشياع سان سيمون .ـ ص ٦٥ .

٢٨ ـ **«روسكايا ميسل»**. («الفكر الروسى») مجلة شهرية ذات اتجاه ليبرالى يمثل الحركة الشعبية . صدرت فى موسكو من ١٨٨٠ حتى ١٩١٨ .ـ ص ٧١ .

٢٩ ـ **الارشين** هو مقياس روسى قديم للطول يعادل ٧١,١٢ سم . **البود** هو معيار للوزن يعادل ١٦ كغم .ـ ص ٧٣ .

٣٠ ـ راجع «فاوست» لجوته .ـ ص ٧٧ .

٣١ ـ حرب ١٨١٢ الوطنية التحريـــة للشعب الروسى ضد العدوان الفرنسى فى عهد نابليون .
انتهت **موقعة ماراثون** بين الاثينيين والفرس (٤٩٠ قبـــل الميلاد) بانتصار اثينا . ومهدت هذه الموقعة لانتصار الاغريق فى الحرب اليونانية الفارسية الثانية وساعدت على ازدهار الديمقراطية الاثينية .ـ ص ٨٨ .

٣٢ ـ كتب بيلينسكى الى بوتكين فى ١ مارس ١٨٤١ عن فلسفة هيجل (وحوّل جورج فريدريك ـ اسم هيجل ـ ساخرا الى الاسم الروسى ايجور فيودوروفيتش) : «اشكركم جزيـــل الشكر يا ايجور فيودوروفيتش ، واطاطئ راسى امام طاقيتكم الفلسفية ، ولكنه مع كل الاحترام الذى يستحقه تحجركم المادى يشرفنى ان اخبركم بانه لو قيض لى ان ارتقى الدرجة العليا من سلم التطور فسوف اطلب منكم ، هناك ايضا ، ان تقدموا لى كشفا بجميع ضحايـــا ظروف الحياة والتاريخ ، بجميع ضحايا الصدف والوسواس ومحاكم التفتيش وفيليب الثانى وكثير غيرهـــا ، والا فسوف القى بنفسى من تلك الدرجة العليا» .ـ ص ٩٤ .

www.kassioun.org

٣٣ ـ رباعية من اوبريت اوفينباخ «هيلينـــا الحسناء» (كلمات ميلياك وجاليفى) .ـ ص ٩٧ .

٣٤ ـ هذه العبارة مقتبســـة من روايـــة جريبويدوف «الفطنـــة تجر المصائب» .ـ ص ٩٩ .

٣٥ ـ المقصود قول انجلس عن روسو فى الفصل الثالث عشر من «ضد دوهرنج» .ـ ص ٩٩ .

٣٦ ـ صدرت الطبعة الروسية الاولى من كتاب انجلس «ضد دوهرنج» عام ١٩٠٤ .ـ ص ١٠٥ .

٣٧ ـ **اشتراكية الكراسى** ، اتجاه من الاتجاهات فى الايديولوجيـــــة البرجوازية فى سبعينات ـ تسعينات القرن التاسع عشر ، كـــان ممثلوه ـ وفى المقام الاول منهم اساتذة الجامعات الالمانية ـ يعلمون من الكراسى (بالالمانية Katheder) الجامعية الاصلاحية البرجوازية على انها الاشتراكية .ـ ص ١١٥ .

٣٨ ـ يقصد بليخانوف هنا ماركس . والنص ادناه مقتبس من كتاب ماركس وانجلس «العائلة المقدسة» .ـ ص ١١٦ .

٣٩ ـ اننا نقر رغم اننا لا بد ان نعترف ـ صيغة من صيغ الليبرالية الروسية سخر منها سالتيكوف-شيدرين فى مؤلفاته .
وكان ميخايلوفسكى قد عمل فى مجلة «اوتيتشيستفينيـــه زابيسكى» التى اصدرها سالتيكوف-شيدرين فى الفترة من ١٨٦٨ الى ١٨٨٤ .ـ ص ١١٩ .

٤٠ ـ عبارة مقتبسة من حكاية كريلوف «الغراب والثعلب» .ـ ص ١٢١ .

٤١ ـ مؤلف «الرسائل التاريخية» هو لافروف ، الايديولوجـــى البارز للحركة الشعبية واحد واضعى نظرية «الابطال» و«الرعاع» . وقد صدرت «الرسائل التاريخية» فى بطرسبورج عام ١٨٧٠ باسم مستعار هو ميرتوف .ـ ص ١٢٥ .

www.kassioun.org

٤٢ ـ يطلق نعت «**السوزدالى**» على العمل غير المتقن . واصل الكلمة من ناحية سوزدال الروسية التى كانت تصنع فيها قبل الثورة ايقونات رخيصة . ـ ص ١٢٨ .

٤٣ ـ ماركس . مقدمة «مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى» (راجع ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ١٣ ، ص ٦) . ـ ص ١٣٠ .

٤٤ ـ ماركس . رأس المال ، المجلد الاول ، عام ١٩٦٩ ، ص ١٨٨ . ـ ص ١٣٠ .

٤٥ ـ راجع ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٦ ، ص ٤٤١ . ـ ص ١٣٢ .

٤٦ ـ راجع ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٦ ، ص ٤٤١ . ـ ص ١٣٢ .

٤٧ ـ «**فيستنيك يفروبى**» («بشير اوروبا») مجلة شهرية ذات اتجاه برجوازى ليبرالى ، صدرت فى بطرسبورج فى الفترة ١٨٦٦ـ ١٩١٨ . ونشرت هذه المجلة مقالات ضد الماركسيين الثوريين . ـ ص ١٤١ .

٤٨ ـ راجع ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ١٣ ، ص ٦ـ٧ . (مقدمة «مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى») . ـ ص ١٦١ .

٤٩ ـ ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ١٣ ، ص ٦ . ـ ص ١٦١ .

٥٠ ـ راجع ماركس . رأس المال ، المجلد الاول ، عام ١٩٥٥ ، ص ١٨٤ . ـ ص ١٦٣ .

٥١ ـ راجع ماركس . «مقدمة «مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى» (ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ١٣ ، ص ٧) . ـ ص ١٦٥ .

٥٢ ـ المصدر ذاته . ـ ص ١٦٦ .

www.kassioun.org

٥٣ ـ ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٤ ، ص ٤٣٣ (« بيـــان الحزب الشيوعى ») .ـ ص ١٧١ .

٥٤ ـ **الجمعية الوطنية** هى الجمعية الوطنية الثالثة ابان الثورة الفرنسية البرجوازية فى اواخر القرن الثامن عشر . وقد استمرت من عام ١٧٩٢ حتى عام ١٧٩٥ . واعلنت الجمعية عن قيام الجمهورية الفرنسية وقامت بتصفية نهائية للاقطاعية وقطعت بلا رحمة دابر كل اعداء الثورة والعناصر التوفيقية .ـ ص ١٧١ .

٥٥ ـ «**الكلمة والفعل**» اصطلاح اطلـــق على المباحث السياسيـــة فى الامبراطورية الروسية فى القرن الثامن عشر . وكانت عبارة «اعلان الكلمة والفعل» تعنى الوشاية بالخيانات العظمى .ـ ص ١٧٢ .

٥٦ ـ مقتبس من مقالة كارييف «المادية الاقتصادية فى التاريخ» . مجلة «فيستنيك يفروبى» ، يوليو ١٨٩٤ .ـ ص ١٧٥ .

٥٧ ـ راجع ماركس . «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت» (ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد الثامن ، ص ١٤٥) .ـ ص ١٨٣ .

٥٨ ـ المصدر ذاته ، ص ١٤٨ .ـ ص ١٨٣ .

٥٩ ـ «Glorious revolution» («الثورة المجيدة») هى الانقلاب الحكومى فى بريطانيا عام ١٦٨٨ ؛ «great rebellion» («الثورة العظمى») هى الثورة الفرنسية البرجوازية فى اواخر القرن الثامن عشر .ـ ص ١٩١ .

٦٠ ـ «**الاشتراكيون الحقيقيون**» هم ممثلو الاتجاه الرجعى بين مثقفى البرجوازية الصغيرة فى المانيا فى اربعينات القرن التاسع عشر . لقد استبدلوا افكار الاشتراكية بالتبشير العاطفى بالحب الشامل والاخوة .ـ ص ١٩١ .

www.kassioun.org

٦١ ـ **النزعة التجارية** نظام للآراء الاقتصادية والسياسة الاقتصادية لعدد من الدول الاوروبية فى القرون الخامس عشر ـ الثامن عشر . كان انصار النزعة التجارية يماثلون ثروة الامة بالنقود معتبرين ان الثروة الاجتماعية كامنة كليا فى النقود بشكل المعادن الكريمة . وكانت الدول المتمسكة بالآراء التجارية تسعى الى تنظيم التجارة الخارجية بشكل يؤمن تفوق التصدير على الاستيراد . ـ ص ١٩٥ .

٦٢ ـ مؤلف «المسيحية الجديدة» هو سان-سيمون . ـ ص ١٩٦ .

٦٣ ـ **الانسيكلوبيديون** جماعة من المنورين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر من فلاسفة وعلماء طبيعيين وكتاب اجتماعيين توحدوا من اجل اصدار «Encyclopédie ou Dictionnaire raisonne des sciences, des arts et des metiers» (١٧٥١ـ١٧٨٠) . واشترك فى اصدار «الانسيكلوبيديا» اشتراكا نشيطا ديدرو ودالامبر وهولباخ وهلفيسيوس وفولتير . ـ ص ١٩٦ .

٦٤ ـ **عودة الملكية فى انجلترا** . المقصود هو عودة اسرة ستيوارت المالكة فى ١٦٦٠ـ١٦٨٨ . ـ ص ١٩٧ .

٦٥ ـ مقتبس من «مدخل» او «نقد فلسفة الحقوق عند هيجل» بقلم كارل ماركس . ـ ص ٢٠٠ .

٦٦ ـ المقصود تشيرنيشيفسكى . ـ ص ٢٠٣ .

٦٧ ـ مؤلف «تعليقات على ميل» هو تشيرنيشيفسكى . ـ ص ٢٠٥ .

٦٨ ـ مقتبس من ملحمة نكراسوف «العام الجديد» . ـ ص ٢٠٦ .

٦٩ ـ مؤلف «الرسائل التاريخية» هو لافروف . ـ ص ٢٠٦ .

٧٠ ـ من قصيدة نكراسوف «فارس لساعة» . ـ ص ٢٠٩ .

www.kassioun.org

٧١ ـ مقتبس من الموضوعة الاولى لماركس بصدد فورباخ (راجع ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣ ، ص ١) .ـ ص ٢١٠ .

٧٢ ـ تشاتسكى وفاموسوف وسكالوزوب من شخوص ملهاة جريبويدوف «الفطنة تجر المصائب» .ـ ص ٢١١ .

٧٣ ـ كان بليخانوف ينوى فى الطبعة الجديدة ان يوضح هذه النقطة التى تعمد فى كتابتها بشكل غامض تحاشيا للرقيب . وظلت موجودة فى الارشيف اضافات الى هذه النقطة لم يكن قد استعملها ، ومنها الملاحظة التالية : «سكالوزوب هو الرقيب . يجب توضيح بقصة بيلتوف نفسه و«المجموعة» و«الكلمة الجديدة» و«البداية»» . هذه العناوين هى المطبوعات الماركسية التى تعرضت للاضطهاد من جانب الرقابة . وكان الماركسيون محرومين كليا تقريبا من المنابر العلنية ، فى حين كان الشعبيون الليبراليون يستفيدون منها بحرية .ـ ص ٢١٢ .

٧٤ ـ المقصود هو رسالة ماركس الشهيرة الى هيئة تحرير «اوتيتشيستفينييه زابيسكى» والتى كتبت فى اواخر عام ١٨٧٧ بصدد مقالة ميخايلوفسكى «كارل ماركس امام محكمة السيد ى . جوكوفسكى» (راجع المجلة نفسها ، العدد ١٠ ، عام ١٨٧٧) . لم يبعث ماركس رسالته هذه الى المجلة ، وقد عثر عليها انجلس بين اوراق ماركس بعد وفاته . ونشرت فى «فيستنيك نارودنوى فولى» («بشير حرية الشعب») العدد ٥ ، عام ١٨٨٦ ، كما نشرت فى «يوريديتشيسكى فيستنيك» العلنية ، العدد ١٠ ، عام ١٨٨٨ . وجرت العادة خطأ على تسمية هذه الرسالة «برسالة الى ميخايلوفسكى ، مع ان ماركس يتحدث فيها عن ميخايلوفسكي بضمير الغائب .

يعترض ماركس فى هذه الرسالة على تشويه آرائه وعلى رغبة البعض فى تحويل «... بحثه التاريخى فى ظهور الراسمالية فى اوروبا الغربية الى نظرية تاريخية فلسفية حول الطريق الشامل الذى قدر حتما على جميع الشعوب ان تسير فيه مهما كانت الملابسات التاريخية ...» . وتشبث الشعبيون بهذا المقطع من

www.kassioun.org

الرسالة معتبرين اياه تاكيدا لآمالهم فى الطريق الخاص لتطور روسيا . ويستشهد بليخانوف بهذه الرسالة فى ص ٢٥٣–٢٥٦ من هذا الكتاب .– ص ٢١٤ .

٧٥ – «Neue Rheinische Zeitung» (الجريدة الرينانية الجديدة») صدرت فى كولونيا من ١ يونيو ١٨٤٨ حتى ١٩ مايو ١٨٤٩ ، وكان ماركس رئيسا لهيئة تحريرها .– ص ٢١٤ .

٧٦ – ماركس وانجلس . المؤلفـــات ، المجلـــد ٢١ ، ص ٣١٧ . («لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفـــة الكلاسيكية الالمانية») .– ص ٢١٩ .

٧٧ – هذه الكلمات مقتبسة من اغنية روسية للجنود فى زمن حرب القرم (١٨٥٣–١٨٥٦) . والاغنيـــة تسخر من الجنرالات الروس العاجزين . ورياد واحد من هؤلاء الجنرالات . كلمات الاغنية من وضع ليف تولستوى .– ص ٢٢١ .

٧٨ – المقصود كتاب بلوس «تاريخ الثورة الالمانية فى ١٨٤٨» .– ص ٢٢٣ .

٧٩ – فى قصة جليب اوسبينسكى «بودكـــا» يقول العجوز الذى يزود اوركسترا صغيرة جوالة بالاوتار الموسيقية ان اوتاره غالية الثمن وليست تافهة ، لانه لا يستطيع ان يفعل بشكل آخر : «اذا كنت اتنفس بهذه الاوتار فيجب على ان ابذل جهدى لتكون على ما يرام» .– ص ٢٢٥ .

٨٠ – هذه الكلمات مقتبسة من مسودة احد فصول ملحمـــة بوشكين «اوجين اونيجين» .– ص ٢٢٧ .

٨١ – صدر كتاب مورجان «المجتمـــع القديم» فى عام ١٨٧٧ .– ص ٢٢٧ .

٨٢ – يتحدث انجلس عن ذلك فى مقدمـــة فى لكتابه «لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» ، وهى المقدمة المؤرخة فى

www.kassioun.org

٢١ فبراير ١٨٨٨ (راجع ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ٣٧١) .—ص ٢٢٧ .

٨٣ ـ **كوازيمودو** شخصية فى رواية هوجو «احدب نوتردام» .— ص ٢٢٩ .

٨٤ ـ **مولتشالين** شخصية من ملهاة جريبويدوف «الفطنة تجر المصائب» . وغدا هذا الاسم رمزا للتزلف والتملق .—ص ٢٣٤ .

٨٥ ـ يستشهد بليخانوف بالموضوعة الثامنة لماركس عن فورباخ (راجع ماركس وانجلس . المؤلفات ، المجلد ٣ ، ص ٣) .— ص ٢٣٥ .

٨٦ ـ يقصد بليخانوف هنا مقالات ماركس وانجلس ضد هينزن والتى نشرت عام ١٨٤٧ فى جريدة «Deutsche-Brüsseler-Zeitung» . ونشرت هذه الجريدة مقالة لانجلس بعنوان : «الشيوعيون وكارل هينزن» ومقالة لماركس بعنوان : «الانتقاد الاخلاقى والاخلاق الانتقادية» .

وردت كلمات انجلس فى النص التالى : «يتصور السيد هينزن ، بالطبع ، ان بالامكان اعتباطا تغيير وتكييف علاقات الملكية وحق الميراث وهلمجرا . ويمكن للسيد هينزن الذى هو اجهل من فى العصر الحالى ان لا يعرف طبعا ان علاقات الملكية فى كل عصر هى النتيجة الضرورية لاسلوب الانتاج والتبادل الملازم لذلك العصر» .—ص ٢٤٥ .

٨٧ ـ «**التلاميذ**» هم اتباع ماركس وانجلس . وقد استخدم هذا المصطلح فى روسيا فى المطبوعات العلنية فى تسعينات القرن التاسع عشر ، وذلك لان الرقابة منعت استخدام كلمة «الماركسى» فى الصحافة .—ص ٢٤٧ .

٨٨ ـ **كولوبايف ورازوفايف** من الكواسر الرأسماليين فى فترة «التراكم البدائى» فى روسيا ، وقد صورهما سالتيكوف-شيدرين فى قصته الساخرة «ملجا مونريبو» .—ص ٢٤٧ .

www.kassioun.org

٨٩ ـ راجع ماركس . «بؤس الفلسفة» .ـ ص ٢٥٤ .

٩٠ ـ طور تشيرنيشيفسكى رايه بخصوص الحقيقة الملموسة فى كتابه «بحوث فى فترة جوجول فى الادب الروسى» .ـ ص ٢٥٥ .

٩١ ـ يتحدث ماركس عن ذلك فى الرسالة التى ذكرناها اعلاه والمعنونة الى هيئة تحرير مجلة «اوتيتشيستفينييه زابيسكى» .ـ ص ٢٥٥ .

٩٢ ـ عام ١٨٦١ هو عام الغاء حق القنانة فى روسيا .ـ ص ٢٥٦ .

٩٣ ـ تحوير للمثل الروسى المعروف «البلبل لا يتغذى على الاساطير» .ـ ص ٢٥٨ .

٩٤ ـ راجع الملاحظة رقم ٤٢ .ـ ص ٢٦٣ .

٩٥ ـ فى قصة ج . اوسبينسكى «لا شىء» يدفع الفلاح ضريبة الرأس «مقابل لاشىء» ، اى مقابل ارض لم يفلحها ، ويؤكد بان الدفع «مقابل لاشىء» اكثر منفعة له من ان يفلح الارض المخصصة له ، وذلك لان هذه الفلاحة تعود عليه بنفع اقل من الجهود التى يبذلها فيها .ـ ص ٢٦٣ .

٩٦ ـ من قصيدة للشاعر الروسى الديمقراطى نكراسوف «تاملات عند المدخل الرئيسى» .ـ ص ٢٦٤ .

٩٧ ـ **آنّا بافلوفنا شيرر** شخصية من رواية ليف تولستوى «الحرب والسلام» .ـ ص ٢٦٤ .

٩٨ ـ «**موسكوفسكييه فيدوموستى**» جريدة روسية مغالية فى رجعيتها ، صدرت من ١٨٥٦ حتى ١٩١٧ .ـ ص ٢٦٥ .

٩٩ ـ اى ذوى الاتجاه الاشتراكى .ـ ص ٢٦٥ .

١٠٠ ـ الاتحاد الجمركى للدول الالمانية التى رسمت حدودا جمركيـــة

www.kassioun.org

مشتركة . وقد تاسس فى عام ١٨٣٤ بسبب الحاجة الى تكوين سوق المانية مشتركة .ـ ص ٢٦٥ .

١٠١ ـ صدر مؤلف انجلس «حالـــة الطبقة العاملـــة فى انجلترا» عام ١٨٤٥ فى ليبزيج .ـ ص ٢٦٧ .

١٠٢ ـ راجع ماركس وانجلس . «العائلة المقدسة» .ـ ص ٢٧٦ .

١٠٣ ـ فى استعراض «الادب والحياة» (عن السيد ستروفه و«ملاحظاته النقدية حول مسالـــة تطور روسيا الاقتصادى») ـ «روسكويـه بوجاتستفو» ، ١٨٩٤ ، العدد ١٠ .ـ ص ٢٨٠ .

١٠٤ ـ مقتطف من رسالة بيلينسكى الى بوتكين فى ١ مارس ١٨٤١ . راجع الملاحظة رقم ٣٢ .ـ ص ٢٨٤ .

١٠٥ ـ راجع الملاحظة رقم ١١٥ .ـ ص ٢٨٨ .

١٠٦ ـ هذا الملحق هو رد على مقالة ميخايلوفسكى «الادب والحياة (حول كتاب ن . بيلتوف «فى تطور النظرة الواحدية الى التاريخ»)» . وقد نشرت المقالة المذكورة فى العدد الاول من «روسكويـــه بوجاتستفو» لعام ١٨٩٥ .

وقد نشرت مقالة «بضع كلمات لخصومنا» لاول مرة بالاسم المستعار اوتيس عام ١٨٩٥ فى المجموعة الماركسيـــة «مواد لتحليل تطورنا الاقتصادى» . وقد احرقت الرقابة هذه المجموعة . وبقيت محفوظة مائة نسخة من هذه المجموعة ، وصارت من نوادر المكتبات . ولذا لم تصبح هذه المقالة فى متناول الجمهور الواسع الا بعد عشر سنوات ، عندما ادرجت بشكل ملحق ضمن الطبعة الثانية من كتاب «فى تطور النظرة الواحدية الى التاريخ» .ـ ص ٢٨٩ .

١٠٧ ـ هذه الابيات مقتبسة من هجائية بوشكين المعنونة «ظلمته المجلات بقسوة» والتى يتناول فيها الناقد الادبى والمؤرخ كاتشينوفسكى .ـ ص ٢٩٣ .

www.kassioun.org

١٠٨ ـ محرر «روسكايا ميسل» الذى يشير اليه بليخانوف هو الليبرالى جولتسيف . وقد نشرت مقالته الصغيرة التى يستشهد بها بليخانوف هنا فى العدد الاول من «روسكايا ميسل» لعام ١٨٩٥ ، ص‌ص ٨ـ٩ . ـ ص ٢٩٤ .

١٠٩ ـ المقصود هو ركن السخرية «الصفارة» فى مجلة «سوفريمينيك» التى حررها تشيرنيشيفسكى (١٨٥٩ـ١٨٦٣) . وكان من ابرز العاملين فى ركن «الصفارة» دوبروليوبوف الذى كتب باسم مستعار هو كونراد ليلينشفاجير . ـ ص ٢٩٨ .

١١٠ ـ **ليابكين-تيابكين** شخصية من تمثيلية جوجول «المفتش العام» . ـ ص ٢٩٩ .

١١١ ـ راجع الملاحظة رقم ٨٠ . ـ ص ٣٠٢ .

١١٢ ـ **«Histoire de dix ans»** («تاريخ عشر سنوات») هو كتاب من خمسة مجلدات الفه لويس بلان فى ١٨٤١ـ١٨٤٤ . ويسلط المؤلف فيه نقدا شديدا على سياسة حكومة الاورليان فى فرنسا ، حيث يستعرض العلاقات الاقتصادية والاجتماعية فى السنوات العشر ١٨٣٠ـ١٨٤٠ . ـ ص ٣٠٦ .

١١٣ ـ صدر هذا الكتاب عام ١٨٤١ بدون ذكر اسم المؤلف الذى هو بزونو باور . ـ ص ٣١١ .

١١٤ ـ راجع الملاحظة رقم ١١٥ . ـ ص ٣١٥ .

١١٥ ـ المقصود هو النقاش بشان سبل التطور التاريخى فى روسيا ، ذلك النقاش الذى جرى بين ممثلى تيارين فى الفكر الاجتماعى الروسى فى اربعينات وخمسينات القرن التاسع عشر . فقد طرح «انصار النزعة السلافية» نظرية الطريق الاصيل الخاص لتطور روسيا ، خلافا لاوروبا الغربية . وكانوا يرون «الاصالة» فى وجود النظام المشاعى فى روسيا ، وكذلك الديانة الارثوذكسية . اما «انصار

www.kassioun.org

الغرب» فكانوا يؤكدون بان روسيا ستسلك طريق تطور بلدان اوروبا الغربية . ولذا سموا كذلك .ـ ص ٣٢٥ .

١١٦ ـ **نوفوروسيا** (روسيا الجديدة) هو الاسم الرسمى لاراضى جنوب اوكرانيا على طول ساحل البحر الاسود وبحر آزوف اعتبارا من النصف الثانى للقرن الثامن عشر حتى عام ١٩١٧ . ـ ص ٣٢٥ .

١١٧ ـ جميع المقتطفات التى يستشهد بها بليخانوف هنا ماخوذة عن مقالة نيقولاى ـ ون «ما الذى تعنيه «الضرورة الاقتصادية» ؟» ، وهى المقالة المنشورة فى العدد الثالث من «روسكويه بوجاتستفو» لعام ١٨٩٥ .ـ ص ٣٢٧ .

١١٨ ـ نجد هنا تلاعبا بلاغيا بالالفاظ . ففى اللغة الروسية توجد كلمة ذات معنيين : المنتج وفحل الخيل .ـ ص ٣٢٩ .

١١٩ ـ من حكاية الشاعر كريلوف «الناسك والدب» .ـ ص ٣٣٢ .

www.kassioun.org

دليل الاسماء

ابسن ، هنريك (١٨٢٨–١٩٠٦) – كاتب مسرحى نرويجى ، من اعلام الادب الوطنى النرويجى . – ص ٢٢٥ .

اديسون ، توماس آلفا (١٨٤٧–١٩٣١) – مخترع امريكى شهير . – ص ١٣٨ .

ارخيتاس من تارينتو (القرن الرابع قبل الميلاد) – فيلسوف وعالم وسياسى يونانى . – ص ١٣٨ .

ارسطو (٣٨٤–٣٢٢ قبل الميلاد) – فيلسوف يونانى كبير . – ص ٨٦ ، ١٨٠ ، ٢٢٨ .

ارشميدس (حوالى ٢٨٧–٢١٢ قبل الميلاد) – عالم رياضى وميكانيكى يونانى شهير . – ص ١٣٨ ، ١٤٠ .

ارنو ، فرانسوا (١٧٢١–١٧٨٤) – اديب وكاتب اجتماعى فرنسى ، عضو فى الاكاديمية الفرنسية . – ص ٣٢ .

اسخيلوس (٥٢٥–٤٥٦ قبل الميلاد) – شاعر تراجيدى يونانى ، «ابو التراجيديا» . – ص ١٨٥ .

اغسطس (٦٣ قبل الميلاد – ١٤ ميلادية) – امبراطور روما (٢٧ قبل الميلاد – ١٤ ميلادية) . – ص ١٩٠ .

www.kassioun.org

افلاطون (٤٢٧ـ٣٤٧ قبل الميلاد) ـ فيلسوف يونانـــــى ، مثالى موضوعى .ـ ص ٩٨ ، ١٣٩ ، ١٧٩ .

اكسينوفون (حوالى ٤٣٠ ـ حوالى ٣٥٥ قبـــل الميـــلاد) ـ مؤرخ يونانى .ـ ص ١٨٠ ، ٢٠٦ ، ٢٢٨ .

اناماشتيرنج ، كارل تيودور (١٨٤٣ـ١٩٠٨) ـ اقتصادى ومؤرخ المانى .ـ ص ١٦٩ .

انجلس ، فريدريك (١٨٢٠ـ١٨٩٥) ـ احد مؤسسى الشيوعية العلمية ، زعيم ومعلم البروليتاريا العالمية ، صديـــــق ونصير كارل ماركس .ـ ص ٩١ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ـ١٠٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ـ١٤٥ ، ١٦٨ ، ٢٠٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ـ٢٢٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ـ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٣ .

انفانتين ، بارثيليمى بروسبير (١٧٩٦ـ١٨٦٤) ـ اشتراكى طوبوى فرنسى من اشياع سان-سيمون .ـ ص ٤٣ ، ٤٦ـ٤٩ ، ٣١٢ .

اوبرويج ، فريدريك (١٨٢٦ـ١٨٧١) ـ مؤرخ المانى للفلسفة .ـ ص ٢٩٧ .

اوبيتز ، تيودور ـ كاتب اجتماعى المانى من الهيجليين الشباب .ـ ص ٢٠٩ .

اوسبينسكى ، جليب ايفانوفيتش (١٨٤٣ـ١٩٠٢) ـ كاتب روسى معروف .ـ ص ١٢٩ ، ٢٢٥ ، ٢٦٣ ، ٢٨٢ ، ٣٠٤ .

اوفنباخ ، جاك (١٨١٩ـ١٨٨٠) ـ ملحن فرنسى من اساطين الاوبريت الكلاسيكى الفرنسى .ـ ص ١٠٥ .

اوين ، روبرت (١٧٧١ـ١٨٥٨) ـ اشتراكى طوبوى انجليـــــزى كبير .ـ ص ٣٦ ، ٣٧ .

www.kassioun.org

ايزياسلاف مستيسلافيتش (١٠٩٧-١١٥٤) - امير كييف الكبير (١١٤٦-١١٥٤) . - ص ٥٤ ، ٥٥ .

ايودوكس من كنيد (حوالى ٤٠٨ - حوالى ٣٥٥ قبل الميلاد) - فلكى ورياضى يونانى . - ص ١٣٨ .

بارت ، باول (١٨٥٨-١٩٢٢) - عالم اجتماعى وفيلسوف مثالى المانى . - ص ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٥ .

بازار ، سانت امان (١٧٩١-١٨٣٢) - اشتراكى طوبوى فرنسى ، من تلاميذ سان-سيمون . - ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ .

باستيا ، فريدريك (١٨٠١-١٨٥٠) - مادى فرنسى مبتذل . - ص ١٨٠ .

باور ، ادجار (١٨٢٠-١٨٨٦) - كاتب اجتماعى المانى من الهيجليين الشباب . - ص ١٢٢-١٢٦ .

باور ، برونو (١٨٠٩-١٨٨٢) - فيلسوف مثالى المانى ، من زعماء الهيجليين الشباب . - ص ١٢٢ ، ١٢٥-١٢٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢٢٧ ، ٢٨٥ .

براندس ، جورج (١٨٤٢-١٩٢٧) - مؤرخ ادبى دانمركى ، من ممثلى علم الجمال الوضعى . - ص ٢٠٠ .

بركلى ، جورج (١٦٨٥-١٧٥٣) - اسقف انجليزى ، فيلسوف ، مثالى ذاتى . - ص ٨ .

بروجافين ، فكتور ستيبانوفيتش (١٨٥٨-١٨٩٦) - اقتصادى روسى مختص بالاحصاء ، من الشعبيين الليبراليين . - ص ٦٣ ، ٦٤ .

برودون ، بيير جوزيف (١٨٠٩-١٨٦٥) - كاتب اجتماعى واقتصادى

www.kassioun.org

وعالم اجتماع فرنسى ، من مفكرى البرجوازيـــــة الصغيرة ومن مؤسسى الفوضوية .ـ ص ٤١ ، ٢٥٤ .

برونيتيير ، فرديناند (١٨٤٩ـ١٩٠٦) ـ ناقد وباحث ادبى فرنسى حاول تطبيق منهج العلوم الطبيعية على تاريخ الادب .ـ ص ١٨٩ ، ١٩٤ـ ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ .

بلان ، لويس (١٨١١ـ١٨٨٢) ـ اشتراكى اصلاحى فرنسى ومؤرخ وشخصية برجوازية صغيرة لثورة ١٨٤٨ .ـ ص ٣٠٦ـ٣٠٨ .

بلايفاير .ـ ص ٧٩ .

بلزاك ، اونوريه دى (١٧٩٩ـ١٨٥٠) ـ الكاتب الواقعـــى الفرنسى الكبير .ـ ص ٢٢٥ .

بلوتارك (حوالى ٤٦ ـ حوالى١٢٧) ـ كاتب اخلاقى يونانى ، واضع سير حياة ابرز الشخصيات اليونانية والرومانية .ـ ص ٦ ، ١٣٨ـ١٤٠ ، ١٨٩ .

بلوتس ، تيتوس ماكتسيوس (حوالى ٢٥٤ـ١٨٤ قبل الميلاد) ـ كاتب مسرحى رومانى .ـ ص ٣١٨ .

بلوس ، ولهلم (١٨٤٩ـ١٩٢٧) ـ اشتراكى ديمقراطى المانـــى ، انتهازى ، مؤرخ وكاتب اجتماعى برجوازى صغير ـ ص ٢٢٣ .

بلونتشلى ، يوهان كاسبار (١٨٠٨ـ١٨٨١) ـ حقوقى سويسرى ، اخصائى فى القانون العام والقانون الدولى .ـ ص ٣١٨ .

بوجودين ، ميخائيل بتروفيتش (١٨٠٠ـ١٨٧٥) ـ مؤرخ وكاتب اجتماعى روسى رجعى ، من ايديولوجيى نظام النبلاء الملكى .ـ ص ٢٩٨ .

بوختا ، جورج فريدريك (١٧٩٨ـ١٨٤٦) ـ حقوقى المانى ، ممثل مدرسة القانون التاريخية الرجعية .ـ ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٥ .

www.kassioun.org

بوخنر ، جورج (١٨١٣–١٨٣٧) – كاتب مسرحى واجتماعى المانى ، وشخصية سياسية . – ص ٦٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٣٤ .

بوخنر ، لودفيج (١٨٢٤–١٨٩٩) – عالم فسيولوجى المانى ، من ممثلى المادية المبتذلة . – ص ٧ ، ١٦٥ .

البوربون – الاسرة المالكة فى فرنسا (١٥٨٩–١٧٩٢) ، ١٨١٤–١٨١٥ ، ١٨١٥–١٨٣٠) . – ص ٦٢ .

بورودين ، نيقولاى اندرييفيتش (ولد فى عام ١٨٦١) – اخصائى روسى فى دراسة الاسماك والاحصاء . شخصية اجتماعية . – ص ٣٢٥ .

بوست ، البير هيرمان (١٨٣٩–١٨٩٥) – اثنولوجى المانى وباحث فى الحقوق . – ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

بوستنيكوف ، فلاديمير يفيموفيتش (١٨٤٤–١٩٠٨) – اقتصادى احصائى روسى درس الاقتصاد الفلاحى والمشاعة فى جنوب روسيا . – ص ٣٢٥ .

بوشكين ، الكسندر سيرجييفيتش (١٧٩٩–١٨٣٧) – الشاعر الروسى العظيم . – ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٣ .

بولجارين ، فادى فينيديكتوفيتش (١٧٨٩–١٨٥٩) – كاتب وصحفى روسى رجعى مارس الافتراءات والاخباريات على المجلات التقدمية والادباء التقدميين فى عصره . غدا اسمه رمزا سلبيا للخيانة والتزلف للسلطات . – ص ٢٩٥ .

بوليبيوس (حوالى ٢٠٧–١٢٠ قبل الميلاد) – مؤرخ يونانى . – ص ٢٢٩ .

بوليفوى ، نيقولاى الكسييفيتش (١٧٩٦–١٨٤٦) – صحفى وكاتب

www.kassioun.org

ومؤرخ روسى من اوائل المفكرين البرجوازيين فى روسيا فى عشرينات وثلاثينات القرن التاسع عشر .ـ ص ٢٤٣ .

بوهل ، لودفيج (١٨١٤ ـ بداية ثمانينات القرن التاسع عشر) ـ كاتب اجتماعى المانى من الهيجليين الشباب .ـ ص ٢٦٩ـ٢٧٥ ، ٢٧٧ .

بيرنى ، كارل لودفيج (١٧٨٦ـ١٨٣٧) ـ كاتب اجتماعى وناقد المانى ، واحد من الممثلين البارزين للمعارضة البرجوازية الصغيرة الراديكالية .ـ ص ٢٩١ .

بيشل ، اوسكار (١٨٢٦ـ١٨٧٥) ـ جغرافى واثنوغرافى وكاتب اجتماعى المانى .ـ ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧٤ ، ٢٢٢ ، ٣١٢ .

بيكون ، فرانسيس (١٥٦١ـ١٦٢٦) ـ فيلسوف مادى انجليزى وعالم طبيعى ومؤرخ شهير .ـ ص ١٠٤ .

بيكيو ، جوزيبى (١٧٨٥ـ١٨٣٥) ـ حقوقى واقتصادى ايطالى .ـ ص ١٧٩ .

بيلتوف ن .ـ الاسم المستعار لبليخانوف .ـ ص ٦ ، ٢٩٣ـ٣٠١ ، ٣٠٣ـ٣١٣ ، ٣١٦ـ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ـ٣٣٠ .

بيلينسكى ، فيساريون جريجوريفيتش (١٨١١ـ١٨٤٨) ـ ديمقراطى ثورى روسى وناقد ادبى وكاتب اجتماعى وفيلسوف مادى .ـ ص ٩٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ .

تسيخلينسكى ، فرانز (١٨١٦ـ١٩٠٠) ـ من الهيجليين الشباب ، عمل فى منشورات برونو باور باسم شيليجا .ـ ص ٢٠٧ ، ٢٢٧ .

تشادايف ، بيوتر ياكوفليفيتش (١٧٩٤ـ١٨٥٦) ـ منور روسى وفيلسوف مثالى .ـ ص ٢٦٤ .

تشيجوف ف .ـ ص ٢٩٧ ، ٣٠٩ .

www.kassioun.org

تشيرنيشيفسكـــــــى ، نيقولاى جافريلوفيتش (١٨٢٨ـ١٨٨٩) ـ ديمقراطى ثورى روسى شهير وفيلسوف مادى وكاتب وناقد ادبى . ـ ص ٣٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٢٠٣ـ٢٠٥ ، ٢٥٥ ، ٣١٣ .

تولستـــوى ، الكسى كونستانتينوفيتش (١٨١٧ـ١٨٧٥) ـ شاعـــر روسى . ـ ص ٢٩١ـ٢٩٣ .

تولستوى ، ليف نيقولايفيتش (١٨٢٨ـ١٩١٠) ـ كاتـــــب روسى شهير . ـ ص ٢٦٤ .

تين ، هيبوليت (١٨٢٨ـ١٨٩٣) ـ باحث ادبى وفنى وفيلسوف ومؤرخ فرنسى . ـ ص ١٨٥ ، ١٨٧ .

تييرى ، اوجستين (١٧٩٥ـ١٨٥٦) ـ مؤرخ وكاتب اجتماعى فرنسى بارز . ـ ص ٢٣ـ٢٥ ، ٢٨ـ٣٠ ، ٣٩ ، ٣٠٧ .

ثوسيوديدس (حوالى ٤٦٠ ـ حوالى ٤٠٠ قبـــــل الميلاد) ـ مؤرخ يونانى . ـ ص ٢٢٨ .

جالفانى ، لويجى (١٧٣٧ـ١٧٩٨) ـ عالم فسيولوجى ايطالى واخصائى فى التشريح . ـ ص ١٢٠ .

جرون ، كارل (١٨١٧ـ١٨٨٧) ـ كاتب اجتماعى المانى للبرجوازية الصغيرة ، من نظريى «الاشتراكية الحقيقية» . ـ ص ٢٦٨ .

جريتش ، نيقولاى ايفانوفيتش (١٧٨٧ـ١٨٦٧) ـ كاتب وصحفـــى روسى رجعى . ـ ص ٢٩٥ .

جريم ، فريدريك ميلهيور (١٧٢٣ـ١٨٠٧) ـ كاتب ودبلوماسى من المساهمين فى حلقة الانسيكلوبيديين ، والمشرف على اصدار «الانسيكلوبيديا الادبية» . ـ ص ١٣ ، ٣٢ .

www.kassioun.org

جوته ، يوهان ولفجانج (١٧٤٩ـ١٨٣٢) ـ كاتب ومفكر المانى كبير .ـ ص ٧٦ ، ٧٧ ، ١٩٣ ، ٢١٠ ، ٢٣٥ .

جوجول ، نيقولاى فاسيليفيتش (١٨٠٩ـ١٨٥٢) ـ كاتب روسى شهير .ـ ص ٥٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٩٤ .

جودوين ، وليم (١٧٥٦ـ١٨٣٦) ـ اديب وكاتب اجتماعى انجليزى للبرجوازية الصغيرة ، مؤرخ ادب واحد مؤسسى الفوضوية .ـ ص ٣٨ .

جورس ، هنرى (الاسم المستعار **داميتا ، كلودـمارىـهنرى**) (١٨١٢ـ ١٨٦٤) ـ كاتب اجتماعى فرنسى ، استاذ الاقتصاد السياسى ، من اشياع فوريه .ـ ص ٣٧ .

جوكوفسكى ، يولى جالاكتيونوفيتش (١٨٢٢ـ١٩٠٧) ـ اقتصادى روسى مبتذل وكاتب اجتماعى عارض الاقتصاد السياسى الماركسى .ـ ص ٤٩ ، ٥٠ ، ١٠٤ ، ٢٣٧ـ٢٤٣ ، ٢٥٣ ، ٢٧٥ .

جومبلوفيتش ، لودفيج (١٨٣٨ـ١٩٠٩) ـ عالم اجتماع نمساوى رجعى وحقوقى ، عنصرى .ـ ص ١٨٠ .

جويو ، جان مارى (١٨٥٤ـ١٨٨٨) ـ فيلسوف وضعى وعالم اجتماع فرنسى .ـ ص ٢٠٢ .

جيبرت ، الاب من نوفيجنت (١٠٥٣ ـ حوالى ١١٢٤) ـ لاهوتى ومؤرخ فرنسى .ـ ص ١٧٦ .

جيجر ، لودفيج (١٨٤٨ـ١٩١٩) ـ مؤرخ المانى درس جوته ونشر كتبه .ـ ص ١٣٦ .

جيرفينوس ، جورج جوتفريد (١٨٠٥ـ١٨٧١) ـ سياسى برجوازى المانى ومؤرخ ادب .ـ ص ٢٠٧

www.kassioun.org

جيرو-طولون ، الكسيس (ولد فى ١٨٣٩) ـ مؤرخ للمجتمع القديم واستاذ فى جنيف . ـ ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٢٢٢ .

جيزو ، فرانسوا بيير جيوم (١٧٨٧ـ١٨٧٤) ـ مؤرخ برجوازى فرنسى ورجل دولة . ـ ص ٢١ـ٢٣ ، ٢٥ـ٢٨ ، ٣١ ، ٣٩ ، ١٦٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

جيمس الثانى (١٦٣٣ـ١٧٠١) ـ ملك انجلترا (١٦٨٥ـ١٦٨٨) . ـ ص ٢٤ .

خاريزومينوف ، سيرجى انذرييفيتش (١٨٥٤ـ١٩١٧) ـ اقتصادى روسى مختص بالاحصاء . ـ ص ٣٢٥ .

داروين ، تشارلز روبرت (١٨٠٩ـ١٨٨٢) ـ عالم بيولوجى مادى انجليزى ، مؤسس النظرية العلمية لتطور العضويات . ـ ص ٩٢ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٦٣ ، ١٨٤ ، ٢١٢ ، ٢١٥ـ٢١٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٣٢٠ .

دالامبر ، جان نيرون (١٧١٧ـ١٧٨٣) ـ رياضى وفيلسوف مادى فرنسى . ـ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

دالمان ، فريدريك خريستوف (١٧٨٥ـ١٨٦٠) ـ مؤرخ المانى وسياسى ذو اتجاه برجوازى ليبرالى . ـ ص ٢٠٧ .

دانييلسون ، نيقولاى فرانتسيفيتش ـ انظر نيقولاى ـ ون .

دوبروليوبوف ، نيقولاى الكساندروفيتش (١٨٣٦ـ١٨٦١) ـ ناقد ادبى وكاتب اجتماعى روسى ، فيلسوف مادى ، ديمقراطى ثورى . ـ ص ٢٩٩ ، ٣٢٢ .

دوماس ، الكسندر (الاب) (١٨٠٣ـ١٨٧٠) ـ كاتب فرنسى ، مؤلف عدد من الروايات التاريخية والتمثيليات . ـ ص ١٩٥ .

www.kassioun.org

دوهرنج ، اوجين (١٨٣٣-١٩٢١) - فيلسوف المانى انتقائى ، واقتصادى مبتذل ، اشتراكى برجوازى صغير. - ص ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ .

ديدرو ، دينى (١٧١٣-١٧٨٤) - فيلسوف مادى فرنسى ، من ايديولوجيى البرجوازية الفرنسية الثورية فى القرن الثامن عشر . - ص ١٠٥ ، ٢٠١ .

ديكارت ، رينيه (١٥٩٦-١٦٥٠) - فيلسوف وعالم رياضى وطبيعى فرنسى . - ص ٩ ، ٨٦ ، ١٠٥ .

ديمينتيف ، يفستافى ميخايلوفيتش (١٨٥٠-١٩١٨) - طبيب روسى وشخصية اجتماعية تقدمية . - ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

راتزل ، فريدريك (١٨٤٤-١٩٠٤) - جغرافى واثنوغرافى المانى . - ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

راسين ، جان (١٦٣٩-١٦٩٩) - كاتب مسرحى فرنسى ، من اكبر ممثلى المدرسة الكلاسيكية فى القرن السابع عشر . - ص ١٩٠ ، ١٩٥ .

راينال ، جيوم توما فرانسوا (١٧١٣-١٧٩٦) - مؤرخ فرنسى قريب من الانسيكلوبيديين . - ص ١٠٢ .

ركلو ، جان جاك اليزى (١٨٣٠-١٩٠٥) - جغرافى وعالم اجتماع فرنسى ، من نظريى الفوضوية . - ص ١٦٨ ، ٢٨١ .

روتشيلد - سلالة اصحاب المليارات والبنوك . - ص ٧٨ .

رودبيرتس-ياجيتسوف ، كارل يوهان (١٨٠٥-١٨٧٥) - اقتصادى المانى مبتذل ، ايديولوجى اليونكر البروسيين الرجعيين . - ص ٦٤ ، ١٥٧ .

www.kassioun.org

روسو ، جان جاك (١٧١٢-١٧٧٨) - منور وفيلسوف فرنسى بارز ، ايديولوجى البرجوازية الصغيرة . - ص ١٦ ، ٩٩-١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٧١ .

ريكاردو ، دافيد (١٧٧٢-١٨٢٣) - اقتصادى انجليزى ، من اكبر ممثلى الاقتصاد السياسى البرجوازى الكلاسيكى . - ص ٤٦-٤٩ ، ٥١ ، ١٨٠ .

رينك ، هنرى (١٨١٩-١٨٩٤) - اثنوغرافى ورحالة دانمركى ، درس جرينلاند . - ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٠ .

زيبر ، نيقولاى ايفانوفيتش (١٨٤٤-١٨٨٨) - اقتصادى روسى ، من اوائل مروجى تعاليم ماركس الاقتصادية فى روسيا . - ص ٤٩ ، ٨٣ ، ١٥٣ ، ٢٣٧-٢٣٩ ، ٢٩٩-٣٠٥ .

سافينى ، فريدريك كارل (١٧٧٩-١٨٦١) - حقوقى المانى ، من مؤسسى المدرسة الرجعية المسماة بمدرسة الحقوق التاريخية . - ص ١٤٧-١٥٠ .

سالتيكوف-شيدرين ، ميخائيل يفجرافوفيتش (اسمه المستعار ن . شيدرين) (١٨٢٦-١٨٨٩) - كاتب روسى ساخر . - ص ٥٤ ، ٨٤ ، ١١٩ ، ١٧٣ .

سان سيمون ، هنرى كلود (١٧٦٠-١٨٢٥) - اشتراكى طوبوى فرنسى شهير . - ص ٢٥ ، ٣٦-٤٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ١٩٥ ، ٢٥٤ ، ٣١٨-٣٢١ ، ٣٢٩ .

سماى ، جان باتيست (١٧٦٧-١٨٣٢) - اقتصادى فرنسى ، ممثل الاقتصاد السياسى المبتذل . - ص ٤٦ ، ٥٥ ، ١٠٧ ، ٢٠٦ .

سبارتاكوس (القرن الاول قبل الميلاد) - زعيم انتفاضة العبيد الكبرى فى روما (٧٤-٧١ قبل الميلاد) . - ص ١٤٠ .

www.kassioun.org

سباسوفيتش ، فلاديمير دانيلوفيتش (١٨٢٩-١٩٠٦) - حقوقي روسي ، ليبرالي . - ص ٨٣ ، ٩٣ .

سبنسر ، هربرت (١٨٢٠-١٩٠٣) - فيلسوف وعالم اجتماع انجليزي ، من مؤسسي الوضعية . - ص ٦٩ ، ٩٢ ، ١٤٥ ، ٣١٨ ، ٣١٩ .

سبينوزا ، باروخ (بينيديكت) (١٦٣٢-١٦٧٧) - فيلسوف مادي هولندي شهير . - ص ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٦٧ .

ستروفه ، بيوتر بيرنجاردوفيتش (١٨٧٠-١٩٤٤) - اقتصادي روسي برجوازي ، فيلسوف وكاتب اجتماعي ، كان في التسعينات من «الماركسيين العلنيين» ، وفيما بعد صار من اعداء الثورة وهاجر الى الخارج . - ص ٢٥٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥-٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ .

سترونين ، الكسندر ايفانوفيتش (١٨٢٧-١٨٨٩) - اديب وكاتب اجتماعي روسي . - ص ٣١٨ .

سقراط (٤٦٩-٣٩٩ قبل الميلاد) - فيلسوف يوناني مثالي . - ص ٢٨٥ .

سكفورتسوف ، الكسندر ايفانوفيتش (١٨٤٨-١٩١٤) - مهندس زراعي واقتصادي روسي . - ص ٣٢٤ .

سميث ، آدم (١٧٢٣-١٧٩٠) - اقتصادي انجليزي من اكبر ممثلي الاقتصاد السياسي البرجوازي الكلاسيكي . - ص ٤٨ ، ١٨٠ .

سوارد ، جان باتيست انطوان (١٧٣٣-١٨١٧) - ناقد وصحفي فرنسي . - ص ١١ ، ١٢ ، ٣٣ .

سوفوكليس (حوالي ٤٩٧-٤٠٦ قبل الميلاد) - كاتب مسرحي يوناني . - ص ١٨٥ .

www.kassioun.org

سيتشينوف ، ايفان ميخايلوفيتش (١٨٢٩ـ١٩٠٥) ـ عالم طبيعي روسي كبير ، واضع الفسيولوجيا المادية . ـ ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

سيردا ، دي لا . ـ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .

سيسموندي ، جان شارل ليونار سيموند دي (١٧٧٣ـ١٨٤٢) ـ اقتصادي سويسري وناقد للرأسمالية يمثل البرجوازية الصغيرة . ـ ص ١٨ـ٢٠ .

شاتوبريان ، فوانسوا رينيه (١٧٦٨ـ١٨٤٨)) ـ كاتب فرنسي ، سياسي ودبلوماسي رجعي . ـ ص ٢٠١ .

شتاينين ، كارل فون دير (١٨٥٥ـ١٩٢٩) ـ رحالة واثنوغرافي بارز . ـ ص ٦ .

شكسبير ، وليم (١٥٦٤ـ١٦١٦) ـ كاتب انجليزي شهير . ـ ص ٧٨ .

شلوسر ، فريدريك كريستوف (١٧٧٦ـ١٨٦١) ـ مؤرخ ألماني ، ليبرالي . ـ ص ٢٠٧ .

شيدرين ـ راجع سالتيكوف ـ شيدرين .

شيلنج ، فريدريك ولهلم (١٧٧٥ـ١٨٥٤) ـ مثالي موضوعي ، ممثل الفلسفة الالمانية الكلاسيكية . ـ ص ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٣١٢ ، ٣١٥ .

شيليجا ـ راجع تسيخلينسكي فرانز .

فان تيجهيم ، فيليب ـ ادوارد ـ ليون (١٨٣٩ـ١٩١٤) ـ عالم نباتي فرنسي . ـ ص ٩٨ ، ٩٩ .

فاندربيلت ـ سلالة كبار الماليين والصناعيين الامريكان . ـ ص ٧٨ .

www.kassioun.org

فان دير هوفن ، يوهان (١٨٠١ـ١٨٦٨) ـ عالم طبيعى هولندى . ـ ص ٧١ .

فرانكلين ، بنيامين (١٧٠٦ـ١٧٩٠) ـ سياسى امريكى معروف وكاتب وعالم وفيلسوف ، ساهم فى وضع نص «بلاغ الاستقلال» للولايات المتحدة الامريكية عام ١٧٧٦ . ـ ص ١٣٠ .

فريزر ، الكسندر كامبيل (١٨١٩ـ١٩١٤) ـ مؤرخ فلسفة امريكى . ـ ص ١١٩ ، ١٢٠ .

ف . ف . ـ راجع فورونتسوف ف . ب .

فلنت ، روبرت (١٨٣٨ـ١٩١٠) ـ عالم اجتماع انجليزى . ـ ص ٤١ .

فورباخ ، لودفيج (١٨٠٤ـ١٨٧٢) ـ فيلسوف مادى المانى ، ملحد . ـ ص ١٢٢ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٨٥ ، ٣٠٦ ، ٣٣١ .

فورونتسوف ، فاسيلى بافلوفيتش (ف . ف .) (١٨٤٧ـ١٩١٨) ـ اقتصادى وكاتب اجتماعى روسى ، من ايديولوجيى حركة الشعبيين الليبرالية فى ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر . ـ ص ١٣ ، ١٤ ، ٥١ـ٥٣ ، ٨٩ ، ١٥٢ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ٢١٠ ، ٢٥٠ ، ٣٢٥ـ٣٢٧ ، ٣٣٠ .

فوريه ، شارل (١٧٧٢ـ١٨٣٧) ـ اشتراكى طوبوى فرنسى شهير . ـ ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٤ .

فوستيل دى كولانج ، نيوما دينى (١٨٣٠ـ١٨٨٩) ـ مؤرخ فرنسى ، ممثل الاتجاه التطورى فى علم التاريخ . ـ ص ٢٢٢ .

فوكس ، تشارلز جيمس (١٧٤٩ـ١٨٠٦) ـ سياسى انجليزى ، ليبرالى . ـ ص ٢٤ .

www.kassioun.org

فولتا ، السندرو (١٧٤٥–١٨٢٧) – عالم فيزياوى وفسيولوجى ايطالى ، من اوائل العلماء الذين اكتشفوا ودرسوا التيار الكهربائى . – ص ١٢٠ .

فولتير ، فرانسوا مارى (لقبه الحقيقى **آرويه**) (١٦٩٤–١٧٧٨) – فيلسوف فرنسى كبير وكاتب ساخر وممثل بارز لحركة التنوير البرجوازية فى القرن الثامن عشر . – ص ١٣ ، ٢٠ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٣٢ .

فولجراف ، كارل . – ص ٢٧٣–٢٧٥ ، ٢٧٧ .

فيخته ، يوهان جوتليب (١٧٦٢–١٨١٤) – فيلسوف المانى ، مثالى ذاتى . – ص ٨٤ ، ٨٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ .

فيرخوف ، رودولف (١٨٢١–١٩٠٢) – طبيب وعالم طبيعى المانى . – ص ٢١٩ .

فيكو ، جامباتيستا (١٦٦٨–١٧٤٤) – فيلسوف وعالم اجتماع ايطالى حاول استنباط السنن الموضوعية للتطور الاجتماعى . – ص ١٩ ، ٢١ ، ١٧٩ .

فيليبوف ، ميخائيل ميخايلوفيتش (١٨٥٨–١٩٠٣) – عالم وفيلسوف واديب روسى انضم فى فترة ما الى «الماركسيين العلنيين» ، رئيس هيئة تحرير مجلة «ناوتشنويه اوبوزرينيه» («الاستعراض العلمى») . – ص ١١٩ ، ١٢٠ .

قيصر ، كايوس يوليوس (١٠٠–٤٤ قبل الميلاد) – امبراطور روما ، قائد عسكرى ورجل دولة . – ص ٢٣١ .

كابيه ، ايتيين (١٧٨٨–١٨٥٦) – شيوعى طوبوى فرنسى ، مؤلف «رحلة الى ايكاريا» . – ص ٣٦ .

www.kassioun.org

كاتو الاكبر ، ماركوس بوركيوس (٢٣٤-١٤٩ قبل الميلاد) - شخصية سياسية وكاتب فى روما القديمة . - ص ١٥٧ .

كارونين س . (الاسم المستعار للكاتب الروسى **بتروبافلوفسكى ، نيقولاى يلبيديفوروفيتش**) (١٨٥٣-١٨٩٢) - من كتاب حركة الشعبيين . - ص ٨٤ .

كاريف ، نيقولاى ايفانوفيتش (١٨٥٠-١٩٣١) - مؤرخ وكاتب اجتماعى روسى ليبرالى . - ص ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٣-١٧٧ ، ٢١٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٦٤ ، ٢٨٢ ، ٢٩٥ .

كافيلين ، قسطنطين دميتريفيتش (١٨١٨-١٨٨٥) - مؤرخ وحقوقى روسى ، ليبرالى ، معارض للحركة الثورية الديمقراطية . - ص ٣١٧ .

كانط ، عمانوئيل (١٧٢٤-١٨٠٤) - فيلسوف المانى ، مؤسس المثالية الالمانية الكلاسيكية . - ص ٩ ، ١٤ ، ٨٦ ، ١٠٦ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٤ .

كاوتسكى ، كارل (١٨٥٤-١٩٣٨) - من زعماء الاشتراكية-الديمقراطية الالمانية والاممية الثانية . قبل تسعينات القرن التاسع عشر كان ماركسيا متذبذبا ، ثم صار زعيما ايديولوجيا لحركة الوسط . - ص ٢٢٣ .

كريفينكو ، سيرجى نيقولايفيتش (١٨٤٧-١٩٠٦) - كاتب اجتماعى روسى ، ممثل حركة الشعبيين الليبرالية . - ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ - ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧-٢٧٩ ، ٢٨٨ .

كوبرنيكوس ، نيقولاى (١٤٧٣-١٥٤٣) - فلكى بولونى ، مكتشف دوران الارض حول الشمس . - ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢٠٦ .

كودرين ن . (الاسم المستعار للكاتب الاجتماعى الروسى **روسانوف** ،

www.kassioun.org

نيقولاى سيرجييفيتش) (١٨٥٩ـ١٩٣٩) ـ من الشعبيين ، ثم من الاشتراكيين الثوريين . ـ ص ٦ .

كورونيير ، ادوارد جول (١٨٣٧ـ١٩٠٤) ـ معمارى وكاتب فرنسى ، واضع عدد من المؤلفات فى تاريخ العمارة . ـ ص ٢٠٢ .

كوزان ، فكتور (١٧٩٢ـ١٨٦٧) ـ فيلسوف مثالى فرنسى ، انتقائى . ـ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

كوفاليفسكى ، مكسيم مكسيموفيتش (١٨٥١ـ١٩١٦) ـ عالم وحقوقى ومؤرخ وعالم اجتماع روسى . ـ ص ١٥٢ـ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٥ .

كونت ، اوجست (١٧٩٨ـ١٨٥٧) ـ فيلسوف فرنسى وعالم اجتماع ، مؤسس الوضعية . ـ ص ٤٠ ، ٦٩ ، ٧٠ .

كوندورسيه ، جان انطوان (١٧٤٣ـ١٧٩٤) ـ عالم اجتماع فرنسى بارز ، واحد المنورين من ممثلى البرجوازية المعتدلة . ـ ص ٣١ ، ٣٣ ، ٣٧ .

كونسيديرانت ، فكتور (١٨٠٨ـ١٨٩٣) ـ عالم اجتماع فرنسى ، من تلاميذ واتباع فورييه . ـ ص ٣٦ ، ٣٧ .

كينو ، فيليب (١٦٣٥ـ١٦٨٨) ـ شاعر وكاتب مسرحى فرنسى . ـ ص ١٩٥ .

لابلاس ، بيير سيمون (١٧٤٩ـ١٨٢٧) ـ فلكى ورياضى وفيزياوى فرنسى شهير . ـ ص ٢٨٢ .

لاسال ، فرديناند (١٨٢٥ـ١٨٦٤) ـ كاتب اجتماعى المانى من البرجوازية الصغيرة ، محام ؛ اسس الاتحاد العمالى الالمانى العام (١٨٦٣) ؛ ارسى اسس الاتجاه الانتهازى فى الحركة العمالية الالمانية . ـ ص ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٤٦ .

www.kassioun.org

لامارك ، جان باتيست (١٧٤٤ـ١٨٢٩) ـ عالم طبيعى فرنسى بارز ، من اتباع نظرية التطور ، سليف داروين .ـ ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٣٣ .

لاموث لافاير ، فرانسوا (١٥٨٨ـ١٦٧٢) ـ فيلسوف فرنسى شكوكى ، عارض القواعد اللاهوتية و«الحقائق المطلقة» السكولاستية .ـ ص ١٧ .

لانجه ، فريدريك البرت (١٨٢٨ـ١٨٧٥) ـ فيلسوف المانى من الكانطيين الجدد ممثلى البرجوازية الصغيرة .ـ ص ٣٥ ، ٣١٥ ، ٣١٦ .

لوك ، جون (١٦٣٢ـ١٧٠٤) ـ فيلسوف انجليزى بارز .ـ ص ٩ ، ١٢ ، ٣١ ، ٧٦ ، ١٠٤ ، ١٧١ ، ١٩١ ، ١٩٢ .

لوكريتيوس ، تيتوس كاروس (٩٩ـ٥٥ قبل الميلاد) ـ شاعر رومانى بارز وفيلسوف مادى .ـ ص ١١٢ .

لويس بونابرت ـ راجع نابليون الثالث .

لويس التاسع «القديس» (١٢١٥ـ١٢٧٠) ـ ملك فرنسا (١٢٢٦ـ ١٢٧٠) .ـ ص ٢٤ .

لويس ، جورج هنرى (١٨١٧ـ١٨٧٨) ـ فيلسوف وضعى وعالم فسيولوجى انجليزى .ـ ص ٩٣ ، ٢١٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

لويس الرابع عشر (١٦٣٨ـ١٧١٥) ـ ملك فرنسا (١٦٤٣ـ ١٧١٥) .ـ ص ١٨٦ .

لويس فيليب (١٧٧٣ـ١٨٥٠) ـ ملك فرنسا (١٨٣٠ـ١٨٤٨) .ـ ص ٥٧ ، ٢٠٠ .

ليبرت ، يوليوس (١٨٣٩ـ١٩٠٩) ـ مؤرخ واثنوغرافى نمساوى .ـ ص ١٤٥ .

www.kassioun.org

ليبنيتز ، جوتفريد ولهلم (١٦٤٦-١٧١٦) - رياضى وفيلسوف مثالى المانى بارز . - ص ١٠٩ ، ١١٠ .

ليترى ، اميل (١٨٠١-١٨٨١) - فيلسوف وضعى وسياسى فرنسى . - ص ٤١ .

ليرمينيه ، جان لويس ايجين (١٨٠٣-١٨٥٧) - حقوقى فرنسى ، كاتب اجتماعى ليبرالى ، اصبح محافظا منذ اواخر الثلاثينات . - ص ١٥٣ .

ليست ، فريدريك (١٧٨٩-١٨٤٦) - اقتصادى المانى مبتذل ، من المدافعين عن سياسة الحماية . - ص ٢٦٥ ، ٢٦٧ .

ليفيوس ، تيتوس (٥٩ قبل الميلاد - ١٧ ميلادية) - مؤرخ رومانى . - ص ٢٢٨ .

ليلينفيلد ، بافل فيودوروفيتش (١٨٢٩-١٩٠٣) - عالم اجتماع روسى . - ص ٣١٨ .

لينورمان ، فرانسوا (١٨٣٧-١٨٨٣) - عالم آثار ومؤرخ ورحالة فرنسى . - ص ١٦٨ .

ليبل ، تشارلز (١٧٩٧-١٨٧٥) - جيولوجى انجليزى كبير ، واضع الجيولوجيا التطورية . - ص ٧٩ .

مارتسيليوس ، مارك كلافديوس (حوالى ٢٧٠-٢٠٨ قبل الميلاد) - قائد عسكرى رومانى . - ص ١٣٩ .

مارتسيوس ، كارل فريدريك فيليب (١٧٩٨-١٨٦٨) - عالم طبيعى ورحالة المانى . - ص ١٣٤ ، ١٥٥ .

ماركس ، كارل (١٨١٨-١٨٨٣) - واضع الشيوعية العلمية ، المفكر العبقرى وزعيم ومعلم البروليتاريا . - ص ٥٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٢٥-١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ، ١٦٠-١٦٥ ، ١٦٨-

www.kassioun.org

١٧٥ ، ١٧٧ـ١٧٩ ، ١٨٢ـ١٨٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ـ٢٣١ ، ٢٣٣ـ ٢٣٦ ، ٢٣٨ـ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ـ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ـ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٥ـ٣١٧ ، ٣٢١ـ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

ماك-لينان ، جون فيرغوسون (١٨٢٧ـ١٨٨١) ـ حقوقى اسكتلندى درس تاريخ المجتمع البدائى . ـ ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

مالتس ، توماس روبرت (١٧٦٦ـ١٨٣٤) ـ اقتصادى انجليزى رجعى دعا لنظرية السكان المنافية للعلم . ـ ص ٣٨ ، ٤٧ـ٤٩ .

مورجان ، لويس هنرى (١٨١٨ـ١٨٨١) ـ اثنوغرافى امريكى درس المجتمع البدائى ، وهو مادى عفوى . ـ ص ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٦٨ ، ٢٢٧ـ ٢٢٩ .

موكييفسكى . ـ ص ٣٢٩ .

موليشوت ، يعقوب (١٨٢٢ـ١٨٩٣) ـ عالم فسيولوجى وفيلسوف المانى ، مؤسس المادية المبتذلة . ـ ص ٧ .

موليير ، جان باتيست (١٦٢٢ـ١٦٧٣) ـ كاتب مسرحى فرنسى شهير . ـ ص ١٣٧ .

مونتسكيو ، شارل لويس (١٦٨٩ـ١٧٥٥) ـ عالم اجتماع واقتصادى فرنسى ، ممثل حركة التنوير البرجوازية فى القرن الثامن عشر . ـ ص ١٦ ، ٣٨ ، ٢٣٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ .

ميتشنيكوف ، ليف ايليتش (١٨٣٨ـ١٨٨٨) ـ جغرافى وعالم اجتماع وكاتب اجتماعى روسى . ـ ص ١٦٨ ، ٢٨١ .

ميخايلوفسكى ، نيقولاى كونستانتينوفيتش (١٨٤٢ـ١٩٠٤) ـ عالم اجتماع وكاتب اجتماعى روسى ، من ايديولوجيى حركة الشعبيين الليبرالية

www.kassioun.org

ومن خصوم الماركسية .ـ ص ٥ ، ٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٧٠ـ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ـ٩٩ ، ١٠١ـ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٩ـ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ـ٢٣٠ ، ٢٣٩ـ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ـ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ـ٢٨٧ ، ٢٩١ـ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ـ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ـ٣١٨ ، ٣٢٠ـ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ .

ميشيرسكى ، فلاديمير بتروفيتش (١٨٣٩ـ١٩١٤) ـ كاتب اجتماعى روسى رجعى ، امير ، من الموالين للنظام الملكى .ـ ٢٠٥ ، ٣١٣ .

ميل ، جون ستيوارت (١٨٠٦ـ١٨٧٣) ـ اقتصادى انجليزى من ابرز ممثلى الوضعية فى الفلسفة .ـ ص ٣٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٤٣ ، ٣١٣ .

مينيه ، فرانسوا اوجست مارى (١٧٩٦ـ١٨٨٤) ـ مؤرخ فرنسى .ـ ص ٢٣ـ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٣٠٧ .

نابليون الثالث (لويس بونابرت) (١٨٠٨ـ١٨٧٣)ـ امبراطور فرنسا (١٨٥٢ـ١٨٧٠) .ـ ص ١٨٤ ، ٢١٤ .

نوجين ، نيقولاى دميتريفيتش (١٨٤١ـ١٨٦٦) ـ عالم بيولوجى روسى من اشياع داروين ، وباحث اجتماعى ساهم فى الحركة الثورية فى روسيا فى ستينات القرن التاسع عشر ، كاتب اجتماعى .ـ ٧١ ، ٧٢ ، ٣٢١ .

نيقولاى ـ ون (الاسم المستعار للكاتب الاقتصادي الروسى **دانييلسون نيقـولاى فرانتسيفيتش** (١٨٤٤ـ١٩١٨) ـ من ايديولوجيى حركة الشعبيين الليبرالية فى ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر . ترجم المجلدات الاول والثانى والثالث لمؤلف ماركس «رأس المال» (ترجم المجلد الاول بالاشتراك مع ج . لوباتين) .ـ ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٢٧٢ـ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ـ٣٣١ .

www.kassioun.org

نيوتن ، اسحق (١٦٤٢-١٧٢٧) - فيزياوى وفلكى ورياضى انجليزى شهير ، واضع الميكانيكا الكلاسيكية . - ص ٩٢ .

هارفى ، وليم (١٥٧٨-١٦٥٧) - جراح انجليزى شهير واخصائى فى التشريح اكتشف الدورة الدموية . - ص ٨٠ .

هراقليطس من اثيس (٥٣٠-٤٧٠ قبل الميلاد) - فيلسوف يونانى شهير من مؤسسى الجدلية . - ص ١١٩ .

هكسلى ، توماس (١٨٢٥-١٨٩٥) - عالم طبيعى داروينى انجليزى . - ص ٣١٧ .

هلفيسيوس ، كلود ادريان (١٧١٥-١٧٧١) - فيلسوف فرنسى شهير ، ممثل المادية الميكانيكية . - ص ٨ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١٣٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢١٠ ، ٢٣٤ ، ٣١٢ .

هليوجابالوس (٢٠٤-٢٢٢) - امبراطور رومانى . - ص ١٥ .

هوبار ، نيقولاى جوستاف (١٨٢٨-١٨٨٨) - اقتصادى ومؤرخ فرنسى . - ص ٤١ .

هوبز ، توماس (١٥٨٨-١٦٧٩) - فيلسوف انجليزى بارز ، ممثل المادية الميكانيكية . - ص ١٧١ .

هوجو ، فكتور (١٨٠٢-١٨٨٥) - كاتب فرنسى شهير . - ص ١٩٥ .

هولباخ ، بول هنرى (١٧٢٣-١٧٨٩) - فيلسوف مادى فرنسى ، من ايديولوجيى البرجوازية الثورية الفرنسية فى القرن الثامن عشر . - ص ٨ ، ٩ ، ١٣ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٦٧ ، ١٩٢ ، ٢١٠ ، ٢٣٤ ، ٢٨١ .

هيجل ، جورج ولهلم فريدريك (١٧٧٠-١٨٣١) - من اكبر ممثلى

www.kassioun.org

الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، مثالى موضوعى ، عالج باكمل شكل الجدلية المثالية . ـ ص ١٤ ، ٢٠ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٣ـ٩٦ ، ٩٨ـ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ـ ١٢٣ ، ١٢٥ـ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٥٢ ، ١٦١ـ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ـ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ـ ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ـ٣٠٣ ، ٣٠٨ـ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ .

هيس ، موزيس (١٨١٢ـ١٨٧٥) ـ كاتب اجتماعى المانى من البرجوازية الصغيرة ، واحد من الممثلين الرئيسيين « للاشتراكية الحقيقية » . ـ ص ٦٦ ، ٢٦٨ .

هيكل ، ارنست (١٨٣٤ـ١٩١٩) ـ عالم طبيعى المانى ، من انصار المادية التاريخية الطبيعية ، عمل على نشر تعاليم داروين . ـ ص ٩٣ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٣٢١ .

هينتز ، ماكس (١٨٣٥ـ١٩٠٩) ـ مؤرخ فلسفة المانى ، راجع وحقق كتاب اوبرويج « بحوث فى تاريخ الفلسفة » . ـ ص ٢٩٧ .

هينزن ، كارل (١٨٠٩ـ١٨٨٠) ـ كاتب اجتماعى المانى راديكالى ، من ممثلى ديمقراطية البرجوازية الصغيرة . ـ ص ٢٤٥ـ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ .

هيوم ، دافيد (١٧١١ـ١٧٧٦) ـ فيلسوف انجليزى ، مثالى ذاتى ، لادرى . ـ ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٣١٧ .

ولسن ، دانييل (١٨١٦ـ١٨٩٢) ـ مؤرخ وعالم آثار برجوازى انجليزى . ـ ص ١٣١ .

وليم الاول الفاتح (١٠٢٧ـ١٠٨٧) ـ دوق نورماندیا ، وملك بريطانيا (١٠٦٦ـ١٠٨٧) . ـ ص ٢٩ .

www.kassioun.org

ويزينجرون ، باول (ولد فى ١٨٦٨) ـ عالم اجتماع برجوازى المانى ، من اوائل التحريفيين . ـ ص ١٤١ ، ١٤٣ .

ياروسلاف فلاديميروفيتش ـ امير جاليسيا (١١٥٣ـ١١٨٧) . ـ ص ٥٤ ، ٥٥ .

يوجاكوف ، سيرجى نيقولايفيتش (١٨٤٩ـ١٩١٠) ـ كاتب اجتماعى واقتصادى روسى ، من الشعبيين الليبراليين . ـ ص ٢٦٤ .

يوريبيدس (حوالى ٤٨٠ـ٤٠٦ قبل الميلاد) ـ شاعر وكاتب مسرحى يونانى . ـ ص ١٨٥ .

www.kassioun.org

محتويات

كلمة الدار ٣
مقدمة الطبعتين الثانية والثالثة ٥
الفصل الاول . المادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر ٦
الفصل الثانى . المؤرخون الفرنسيون فى فترة عودة الملكية . . ١٨
الفصل الثالث . الاشتراكيون الطوبويون ٣٥
الفصل الرابع . الفلسفة المثالية الالمانية ٧٤
الفصل الخامس . المادية الحديثة ١٢٢
خاتمـــة ٢٤٥
ملحق رقم ١ .
السيد ميخايلوفسكى مرة اخرى ، «الثلاثية» مرة اخرى . . . ٢٨٠
ملحق رقم ٢ .
بضع كلمات لخصومنا ٢٨٩
ملاحظـــات ٣٣٣
دليل الاسماء ٣٤٩

www.kassioun.org

www.kassioun.org

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعتـــه ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو – الاتحاد السوفييتى

www.kassioun.org

Г. В. Плеханов

К ВОПРОСУ О РАЗВИТИИ
МОНИСТИЧЕСКОГО ВЗГЛЯДА НА ИСТОРИЮ

На арабском языке